

دار القاموسي
للنشر والتوزيع - بغداد

ذكري صادق القاموسي

إعداد
محمد رضا القاموسي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هوية الكتاب

اسم الكتاب : ذكرى صادق القاموسي
اعداد: محمد رضا القاموسي
الناشر: دار القاموسي / للنشر والتوزيع - بغداد
الطبعة : الاولى
السنة: ١٤٣١
المطبعة : الكلمة الطيبة / النجف الاشرف

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق

بغداد ١٩٢١ لسنة ٢٠١٠





القاموسي

ينشد قصيدته في أربعينية أستاذه الشيخ المظفر

(جامعة النجف الدينية - ٢٧/٣/١٩٦٤)

ملاحظة:

روعيت الاعتبارات الفنية في ترتيب مواد هذه (الذكرى).

(دراسات ومقالات ورسائل)

بين يدي الذكرى:

صادق القاموسي من المولد حتى الرحيل (*)

محمد رضا القاموسي

(١)

كان لا بد لي من الاستجابة لطلب الأسرة والنزول عند رغبتها في جمع شعر أبي رشاد، صادق القاموسي) من مظانه المختلفة وترتيبه والتعليق عليه والتقديم له . فالرجل إضافة إلى وشائج النسب الصميمية التي تربطني به، كان لي في حياتي - كما هو لغيري من أبناء الأسرة - بمثابة الأب والمرشد والأخ، وقد قدر لي أن أنعم بدفع رعايته الكريمة وأنفياً ظلها الوارفة وأسترشد بصائب آرائه في كثير مما يعن لي من قضايا الفكر والحياة .

وفي السنوات الأخيرة من عمره - حين أخذت هموم الحياة تثقل كاهله، والشعور بغربة الذات يتململ في دواخله، وهو اجس القلق المشروع تستبد به، وحيوط المرض الخبيث تمتد لتجهز عليه - كنت أهتبل الفرصة لأجلس إليه مسانلاً ومحاوراً ومستوضحاً ومستزيداً، حتى عدت أحفظ بالكثير مما اختزنته ذاكرته من أحداث وقضايا تتعلق بمجمل سيرته . ومجمل النشاط الثقافي في النجف، وبحركة الإصلاح التي تبناها (منتدى النشر). وأقف على بعض آرائه الحرة في شؤون الفكر والحياة، وأشهد أي لم أجد أمتع ولا أروع ولا أصدق منه، وهو يكشف عن تجربة خاض غمارها، أو يصحح عن رأي استقر إليه - ولو بعد حين -، أو يناقش قضية تناولها هذا الكتاب أو ذلك...

ومن جهة أخرى ان صادقاً القاموسي واحد من شعراء مدرسة النجف العريقة التي حفلت بالعديد من الرموز من صانعي تاريخنا الأدبي والعلمي.. وقد استهوتني - منذ حين - دراسة ملامحها، وتتبع آثار أعلامها هنا وهناك، وكان من ثمار هذا (الهُوى) دراسات وبحوث قدمتها في مناسبات مختلفة، وليس أحب إلي من تقديم أمثال (صادق) من المبدعين، والتعريف بهم، ولا سيما أن الكثير منهم اعترلوا - في سني حياتهم الأخيرة - الساحة، وعاشوا بجناب

(*) آثرنا - ونحن بين يدي هذه الذكرى، وللوقوف على سيرة صاحبها - إعادة نشر مقدمة ديوانه المطبوع عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م في بغداد، مع حذف واستدراك فرضتهما طبيعة النشر.

عن الأضواء. فلم يلتفت إليهم الباحثون والنقاد إلا قليلاً.

وإذا كانت محاضرة الصديق الأديب الناقد السيد حامد المزمع عن (صادق القاموسي الشاعر الحالم) وقبلها (الغاية العذراء) قد استوفنا الكشف عن بعض الجوانب الفنية في شعره، فإن التعريف بسيرة الشاعر الذاتية والوقوف عند بعض ملامحها المضيق، أمرٌ تفرضه طبيعة العمل. على أنه لا يخلو من عسر بالنسبة لي، فأنا منشغلٌ لهذه الشخصية المتعددة الجوانب انشداداً ربما كان لأثارها العاطفة دور في ترسيخ جذوره وإحكامها في نفسي، وفي ذلك ما لا يخفى!!

وأشير إلى: أن شخصية صادق القاموسي أوسع بكثير من شعره، وقد لا يعكس شعره - على صدق مضامينه ووضوح رؤاه - إلا جانباً ضئيلاً منها، ولعل فيما كتبه أصدقائه ومعاصروه عنه، في حياته وبعد رحيله - مما سيقف عليه القارئ الكريم في هذا المطبوع - ما يكشف عن أصلاتها وصدقها.

(٢)

وأبو رشاد هو صادق بن الحاج عبد الأمير^(١) القاموسي بن الحاج صادق بن الحاج حسين المعروف بـ(قاووقة)^(٢) بن الحاج درويش علي بن الحاج جواد بن عبد الخالق بن محمد شريف البغدادي، من أسرة تنتمي إلى عشيرة المياح من قبيلة ربيعة وموقع رئاستها في

(١) الحاج عبد الأمير: ولد في بغداد عام ١٨٨٢م - ١٣٠٠هـ وتوفي في النجف عام ١٩٦٢م - ١٣٨٢هـ وقد نعتته جمعية منتدى النشر ببيان جاء فيه: (كان لعلي المحسن الكبير المرحوم الحاج عبد الأمير القاموسي رنة أسف وأسى عميقين وبخاصة بين أعضاء ومنتسبي هذه المؤسسة، لما كان للفقيد من الأيادي البيضاء عليها، حيث واكب فكرتها منذ بدايتها وتبناها وتمكين أنجاله الصفوة من احتضانها أعضاء وأساتذة وطلاباً ومؤازرين، وقد جرى له تشييع يتناسب ومقامه الكبير وكانت الفاتحة المقامة على روحه في جامع الهندي بما احتشدت به من العلماء الأعلام ووجهاء البلد وكثرة الضيوف تعبيراً صادقاً عن مكانته الجليلة في النفوس...)/مجلة النجف العدد الثاني السنة الخامسة/ ١٩٦٢م، وقد أنجب خمسة أولاد هم:

١- الحاج عبد الهادي (ت ١٩٩٩م)، ٢- الحاج عبد الحسين (ت ١٩٩١م)، ٣- الحاج صادق (ت ١٩٨٨م)، ٤- الحاج صاحب (ت ١٩٩٢م)، ٥- الحاج محمد.

أما والدة الشاعر فهي الحاجة زهراء بنت الحاج أمين الشماع البغدادي.

(٢) أو قاووقة والقاووق: لباس للرأس كان يتخذة التجار، وهي قلنسوة غير ذات وبر وهي اسطوانية الشكل تلف في أسفلها قطعة من الموصلين - الموسلين - وحشية من القطن، ظ تكملة المعاجم العربية ١٦٠/٨. بغداد ١٩٩٧م، ويقال أن الحاج حسين المذكور هو أول من اتخذ القاووق لباساً لرأسه في محلته فعرف به، وأشير إلى أن أبناء عمومة الشاعر صادق لا زالوا يعرفون بهذا اللقب ببغداد.

الكوء، وفى بعءاء كائء مواء مساكنها فى الءانب الشرقى، فى مءلة صباىء الال الملاءقة للسوىءان والءهائءة^(٣).

ولء فى النءف الأشرف عام ١٩٢٢م - ١٣٤١هـ، وكان والده قء هاءر إليها من بعءاء فى أواسط العءء الثاني من القرن العشرىن إبان الحرب العالمىة الأولى، امئئالا لرءبة ءاله الءئءه الورع الشىء باقر القاموسى البعءاءى^(٤)، للئءارة والماءورة ولوئىق صلئءه سهء، وملازمئءه إباء، ونزولءه - باءى الأمر - فى بئئءه، اكئسب لقبه فعرف فى وسطه بالقاموسى، وعرفئ ذرىئءه - فىما بعء - بءلك.

نشأ (صاڤق) على أبىءه الذى كان ىمئئهن (البزازءة)، وأءء بعاونءه (فى ءائوءءه الذى لم ىءل ساعة من وءوء عالم أو فقىه أو أءىب أو شاعر من مءئلف أسر النءف العلمىة)^(٥) وترعوع (وهو ىرى صنوءاف من ذوى العلم ئرئاء مجلس أبىءه)^(٦) الذى كان ىعقء فى ءاره، فى مءئلف

(٣) من كلمة الأستاذ شاكرا ءابىر - صاءب موسوعة الكراءة الشرقىة - فى ءفل اسئءءكار الشاعرا ١٩٩٢/١٢/٢م.

(٤) الشىء باقر بن الءاء مءمء (ء ١٣٥٢هـ) عالم فقىه. عرف فى وسطه بالورع والنقى. وكانئ له ءلقءه ءرس ىءضرها الءواص من أهل الفضىلة، (ظ ئرءئءه فى أعبان الشىعة (ط ءارئعار بىروء) ١٣٦/١٣، معارف الرءال ٢٠٠/٢، نعباء البشر ١٨٩/١، موسوعة أعلام العراق ٢٢/٣، معءم رءال الفكر والأءب فى النءف ٢، ٩٦٨/٣، مشاهىر المءفونىن فى الصءن العلوى الشرفى ٢٥٥، موسوعة النءف الأشرف ٩٣/١٤، المفلل فى ئارىء النءف الأشرف ٢٤١/٩. وأشبر إلى أن للسىء هاشم الءسىنى كئاب (الفىض القءسى فى ئرءة علمىن من آل القاموسى) عرء فى سىرة الشىء باقر وولءه الآبىء الءكر، إلا أن ءهءه المشكور لا ىءلوا من أءطاء وهفواء وبءاصة فىما أورءه من نصوص شعرىة قىلئ فى رئاء الشىء باقر، وقء ءلف الشىء باقر ولء. وأءء هو الءءة الورع الشىء صاڤق (١٣٢٨-١٤٢٣)، ئرءم له الأمىنى فى معءسه ط ١ ص ٣٤٢ و ط ٢ ٩٦٨/٣ والفئلاوى فى مسئءرك شعراء العرى ٢٣٧/١ والءبورى فى معءم الشعراء ٤٢١/٢، وىءكر المرءوم صاءب الءكرى فى مءاله (عربىة اسئراحام أءرى) المشور فى ءرىءة العراق فى عءءءها الصاءر بئارىء ١٩٨٦/١٢/٣، ان لقب القاموسى ىرءع إلى أن أءء أءءاء الشىء باقر كان ىءفظ (القاموس الءىط) عن ظهر قلب. وائقق مرءة أن ئوزع فى كلمة ما فى مجلس من مجلس بعءاء الأءبىة الكئورة بومءاك والئى كانئ ءءور ءول أءاءىء اللغة والشعر وءبر ءلك، وءىن ءصر هءا الءء الءلس قال فائلبهم (لئءء ءاء القاموسى وسىكون قولءه المفلل) فكان أن لقب بالقاموسى. ومن الطرىف أن المرءوم رأبا رشاءء كئب مءاله الأنف الءكر بعء أن اءئلظ الأمر على أكثر من واءء من الصءفىن الءىن عئسوا بالكئاب والمكئبىاء فكئسوا أن اللقب لءق (أبا رشاءء) لءفظه القاموس الءىط عن ظهر قلب !!.

(٥) شعراء العرى: ٢٣٢/٩.

(٦) م. ن.

المناسبات الدينية والاجتماعية وكان من بين هؤلاء (صفوة) من الأعلام المرموقين في وسطهم، كانت تربطهم أسمى علاقات المودة والإخلاص، ويأتي في طليعتهم الشيخ عبد الحسين الحلبي والسيد موسى الجصاني والسيد عبد الرسول الخرسان والسيد إبراهيم شير والسيد سعيد الحكيم، فتأثر (صداق) بهم وتطلع إلى مجالسهم، وبدأت رحلته مع الدرس - بعد أن تعلم القراءة والكتابة على يد بعض المعلمين - وأخذ يجالس الوقت ويتصيد الفرص فيذهب إلى الجامع الهندي (من أكبر مراكز الدرس الخوزي في النجف حينئذ) وقد تعهده أولئك النفر الصالح بالرعاية والتشجيع، وسعى بعضهم في إقناع الوالد الذي كان يريد لولده أن يكون كاسباً أو تاجراً، ليضمن له مستقبلاً مرفهاً بعض الشيء، فنزل عند رغبتهم بشرط أن يقوى (صداق) على الجمع بين الدرس والكسب وهكذا كان (فلم يرح (صداق) حانوته ولم يتخلف عن واجبه كيزاز نشط في السوق.. وسيرته هذه علمت البلداء من أبناء الروحانيين الذين لم يشتغلوا بغير التشاغل بالدراسة أهم بلداء حقاً^(٧)).

وعلى الطريقة المألوفة في مدرسة النجف اجتاز (صداق) مرحلتي المقدمات والسطوح وقرأ دروسهما على أفاضل مشهود لهم بالعلم كان من بينهم السيد محمد حسين بن السيد سعيد الحكيم والشيخ نور الدين الجزائري والسيد عبد الرزاق المقوم والسيد محمد علي الحكيم والشيخ محمد رضا المظفر الذي لازمه وأخذ عنه أكثر معلوماته وتأثر به، وملك عليه مشاعره واستمر يواصل الدرس (وتوسع في علمي الأصول والفقه توسعاً أوصله لأن يحتل مكانة بين أجدانه الشباب من أبناء العلم)^(٨) حتى انتهى به المطاف للالتحاق بمرحلة البحث خارج فحصر حلقات الأعلام السيد مرزا حسن البجنوردي والشيخ حسين الحلبي والسيد حسن الخمامي كما حضر لمدة يسيرة بحث السيد الخوئي في الأصول^(٩).

(٣)

عام ١٩٣٨م - ١٣٥٧هـ فتحت جمعية منتدى النشر في النجف كليتها الدينية التي عرفت فيما بعد بـ (كلية الفقه). فانتسب إليها عدد من الشباب النابه ممن آمنوا بضرورة

(٧) م. ن. ٢٣٣

(٨) م. ن.

(٩) حدثني - رحمه الله - انه انقطع عن الحضور لدى السيد الخوئي بعد أن استوضح - ذات يوم - من استادته الشيخ محمد رضا المظفر رأي السيد - ره - في مسألة أصولية عرض إليها خلال البحث، فاستعد المظفر صدور ذلك عنه. وعزا ذلك إلى قصور أدوات (التلميذ) في فهم المطلب، فانقطع عن الدرس. بعدها طُبعت بعض تقارير السيد الخوئي، فوجد أبو رشاد المسألة مدونة - كما فهمها - فندد على انقطاعه..

تنظيم الدراسة الحوزية وجعل أساليبها أقرب إلى روح العصر ومتطلباته. وكان (صادق القاموسي) أحد هؤلاء الشباب الذين عدوا منهم (الشيخ محمد آل الشيخ راضي والسيد محمد تقى الحكيم والشيخ جعفر آل صادق العاملي والشيخ محمد سعيد مانع والشيخ عبد العزيز الحلقي وآخرين)^(١١). فدخلها كطالب ذكي في الصف الثاني، ولم يمض أسبوع واحد حتى نقلته إلى الصف الثالث وواصل الدراسة فيها حتى حاز النجاح الأخير وتخرج منها كنموذج ممتاز من ثمراتها^(١٢) وكان من أساتذته في الكلية: الشيخ محمد حسين المظفر، والشيخ علي ثامر، والشيخ محمد رضا المظفر، والسيد محمد علي الحكيم، والشيخ محمد تقى الإيرواني..

وقد ارتأت إدارة منتدى النشر حينئذ أن تفيد من قدرات بعض خريجي مدرستها ممن توفروا على قدر من الكفاية في أداء رسالتها، والإيمان بالعمل ضمن برنامجها الإصلاحي. وكان (صادق) في طليعة هؤلاء فقد اختير بعد تخرجه لتدريس مادة المنطق. فكان - كما يقول أحد طلابه في تلكم الفترة - من بين أكثر المدرسين حظوة وأبرزهم تأثيراً لدى طلابه. ليس فقط من ناحية قدرته على الانسجام والالتزام أو استعداداه لفتح باب الخاورى والنقاش معهم وإنما من ناحية قدرته أيضاً على تطويع المادة وترويضها وإيصافها بسهولة إلى الأذهان^(١٣) ولم تكن مهمته (قاصرة على التدريس والعمل الأكاديمي الصرف فحسب وإنما كانت مهمته تتسع للعمل الإرشادي أيضاً حيث اختير مرشداً عاماً للجان الطلابية التي شكلت إبان الدورة الأولى للكلية وذلك في كل ما يخص نشاطها الثقافي والاجتماعي المتسلسل بإصدار النشرات والمجلات الطلابية وإقامة الحفلات والندوات الخاصة^(١٤) وحينما أصدرت لجنة تأخي الطلاب في الكلية مجلة البذرة (وهي من المجلات التربوية والأدبية رفيعة^(١٥) كان (صادق) المرشد لها والمشرّف على إصدارها^(١٦)، وقد بذل في هذا المجال جهداً متميزاً فكان يقوم بكتابة افتتاحياتها بتوقيع (مرشد اللجنة)، ويعد لها بعضاً من بحوثه ومقالاته وقصائده لتنتشر باسمه الصريح تارة وبأسماء مستعارة أخرى، ويلبس الناحث - وهو

(١٠) ومضان الشباب: ٣٦.

(١١) شعراء الغري: ٢٣٣/٩.

(١٢) القاموسي من خلال نشاطه في منتدى النشر/ دراسة كتبها الأستاذ الدكتور محمود المظفر. نشر في مجلة الموسم العدد السادس عشر (١٩٩٣م - ١٤١٤هـ).

(١٣) م. ن.

(١٤) فلسطين في الشعر النجفي المعاصر / محمد حسين الصغير ص ٥٠.

(١٥) شعراء الغري ٢٣٣/٩.

ينفحص أعداد هذه المجلة التي استمرت بالصدور لعامين^(١٦) - نزعة القاموسي الإصلاحية واسلوبه في معالجة القضايا الاجتماعية بكل وضوح^(١٧).

وقد (ظل نخبه من طلابه بالرغم من مضي فترة على تخرجهم وابتعادهم عن الأجواء الدراسية واللجان الطلابية وما يصدر عنها من نشرات أو مجلات، على صلة وثيقة ومتنامية بمرشدهم الأستاذ القاموسي.. وكانهم بذلك أرادوا أن يبرهنوا على أن المهمة الإرشادية للأستاذ القاموسي لا يمكن أن تفصلها أو تعزلها سنوات ما بعد الدراسة طالما ظلوا متطلعين بنفس الروح إلى مواصلة المعرفة وتحقيق الهدف، وطالما ظل (القاموسي) كما هو، يوسعهم بفكره المتوقد وذمته الوقاد، لذلك لم يفتنهم وقد تحلقوا حول القاموسي وتوثقوا به أن يعمدوا إلى إنشاء بعض التجمعات أو اللجان الخاصة في إطار جمعية منتدى النشر والشكل الذي يحقق شيئاً من أهدافها وأهدافهم الثقافية والاجتماعية)^(١٨).

(٤)

عام ١٩٤٥م - ١٣٦٥هـ - انتخب القاموسي عضواً إدارياً في (منتدى النشر) ليعمل مع أساتذته وبعض زملائه في إدارة هذا المشروع الثقافي وأداء رسالته الإصلاحية، وبالرغم من أنه لم يتخط العقد الثاني من عمره إلا قليلاً فقد اعتبر حينذاك (أحد الأعصاب الحساسة في كيان المنتدى.. ظل يشارك سقاته ويتعهد ناهليه فكراً وجسماً ونشياً)^(١٩) وقد كان من الأعضاء القلائل الذين ظلوا موضع ثقة الهيئة العامة فتجدد انتخابهم سنوياً، حتى قدر لهذا المشروع أن يلغى في أوائل العقد التاسع من القرن العشرين وقد استطاع القاموسي من خلال عمله هذا (أن يولي اهتمامه ويوسع جهده في مجال تنظيم وتقويم حسابات الجمعية بوجه خاص وذلك عندما أنيط به مهمة الإشراف على هذه الحسابات حيث بادر فور انتخابه لهذا المنصب إلى القيام بجرد حسابات الجمعية وأوراقها الخاصة بسدءاً من تاريخ تأسيس الجمعية وعبر سنواتها الطويلة اللاحقة ثم قام بترحيلها بعمل دؤوب إلى دفاتر حسابية موثقة ومتسقة مع أحدث الطرق والنظم الحسابية المرعية آنذاك في مسك الدفاتر)^(٢٠).

(١٦) صدرت بين عامي ١٩٤٨م - ١٩٥٠م.

(١٧) ينظر على سبيل المثال مقالاته: المستعمر الأول، النهضة العلمية وكيف يجب أن تكون، من مشاكل جبلنا، ما يريد العلماء من الحكومة، المنظار الأسود، يا أصحاب السماحة، أيها الشباب، أموال الفقراء، طرايبش، وغيرها.

(١٨) المظفر: مصدر سابق.

(١٩) ومضان الشباب: ٤٥.

(٢٠) المظفر: مصدر سابق.

وحين أُلغيت هذه الجمعية عام ١٩٥٤م - ١٣٧٤هـ بموجب مرسوم الجمعيات عاودت ثلثة من أعضائها فكرة إنشائها مجدداً وكان (صادق) واحداً منهم، وقد جدد انتخابه في أول اجتماع لها عضواً إدارياً عاماً^(٢١).

وحين أسس المجمع الثقافي الديني التابع لمنتدى النشر عام ١٩٤٣م - ١٣٦٣هـ كان (صادق) أحد أعضائه المؤسسين^(٢٢) والإداريين، وقد شارك في كثير من نشاطاته المتمثلة بإقامة المواسم الثقافية والاحتفالات الدينية ونشر الكتب وتحقيقها، وأشار إلى أن المجمع لم يكن وليد هذا التاريخ فقد كان يعقد اجتماعاته دورياً في بيوت بعض أعضائه وكانت هيئته المؤسسة الأولى تضم السيد محمد تقي الحكيم والسيد عبد الحسين الحجار والسيد محمد رضا السيد جعفر الحكيم والشيخ مسلم الجابري إضافة إلى صادق القاموسي^(٢٣).

ويلمس القارئ الكريم وهو يتابع شعر القاموسي أثر (المنتدى) فيه واضحاً، فقد كان لا يترك مناسبة تتعلق به إلا ونوه بفكرته وأشاد برسالته^(٢٤).

وأشير إلى أن الراحل الكبير الشيخ محمد رضا المظفر (رائد المنتدى ومرشده الأكبر) كان يعقد على (صادق) وزميله (السيد محمد تقي الحكيم) خاصة، الآمال الكبيرة في إدامة هذا المشروع وتطويره، لما يعهده فيهما من إخلاص لفكرته، وفناء في ذاتها^(٢٥).

(٥)

عام ١٩٣٨م - ١٣٥٧هـ^(٢٦) بدأ القاموسي يقرض الشعر - غير أنه لم يبينه إلا لنفر من أصدقائه^(٢٧)، وكان للحب الذي صهر قلبه زمناً وهيمة وراء ستار من الاتزان والتعقل.

(٢١) نظام جمعية منتدى النشر/ النجف - ١٩٥٥م، وقد وقع طلب التأسيس كل من الشيخ محمد حسين المظفر والشيخ عبد المهدي مطر والشيخ محمد رضا المظفر والسيد هادي فياض والسيد محمد تقي الحكيم والشيخ جواد قسام والشيخ أحمد الوائلي والشيخ مسلم الجابري إضافة إلى القاموسي صادق.

(٢٢) نظام منتدى النشر ط النجف - ١٣٧٠هـ ومن الأعضاء الأساسيين في المجمع: محمد حسين المظفر، عبد المهدي مطر، عبد الحسين الحجار، محمد الشريعة، محمد تقي الحكيم، محمد جمال الهاشمي، محمد سعيد مانع، وآخرون.

(٢٣) شعراء الغري: ٣١١/١١.

(٢٤) انظر الديوان مثلاً ص ١٠٨، ١٦٩، ٢٠٣، ٢٣٧، ٢٨٢، ٣٠٢، ٣٩١.

(٢٥) من حديث خاص للسيد محمد الجصابي مع كاتب هذه السطور. والجصابي واحد ممن عملوا في صفوف الجمعية طالباً في مدرستها وعضواً إدارياً ومؤازراً.

(٢٦) وليس عام ١٣٥٩هـ كما ذكر الخاقاني ٢٣٣/٩.

(٢٧) شعراء الغري ٢٣٣/٩.

أثر كبير في صقل حسه وإثارة نبوغه ومضاعفة ذكائه^(٢٨).

عام ١٩٤٣م - ١٣٦٣هـ أنشدت أول قصيدة له - وباسم مجهول - في حفل أقيم في داره بمناسبة زفاف السيد محمد صالح الخرسان - أحد طلاب المنتدى حينذاك -، ويقول أحد شهود الحفل أن مستمعها عرفوا أنها للقاموسي لأن فيها من رقبته وعدوبته^(٢٩)، ولم تكن القصيدة بنت يومها، فقد كتبها الشاعر قبل ذلك التاريخ - في بغداد - إثر تجربة حب - وأرسلها إلى صديقه الحميم السيد محمد تقى الحكيم الذي جاراها بقصيدة أولها:

يا نظرة أرسلتها بين السوالف والحدود
خلعت عليّ مطارف الحب المعبق من جديد^(٣٠)

وإذ تقراء القصيدة في الحفل ينبري السيد محمد رضا السيد جعفر الحكيم لجارها، فيقول في أول قصيدته:

الزم فؤادك إن مررت على طريق أبي نواس
أخشى عليه بأن يفرو إذا رأى ظبي الكناس^(٣١)

عام ١٩٤٨م - ١٣٦٧هـ نشرت مجلة البذرة أول قصيدة له بعنوان (وعدتني) وكانت بتوقيع مستعار. وتبعها ثانية وثالثة و... وبتواقيع مستعارة أيضاً.
عام ١٩٥١م - ١٣٧٠هـ واجه (صادق) الجمهور بنفسه - أول مرة - شاعراً، فألقى قصيدته في رثاء الفقيه الكبير الشيخ محمد رضا آل ياسين، في حفل أربعينه، فكان لها صدى كبير، .. وكان للحفل الذي استمر عدة ليال بما حفل من شعر ونثر وما أنير - خلاهما - من رؤى وأفكار، من أروع مواسم الأدب النجفي^(٣٢).

وتنشر مجلة البيان القصيدة باسمه الصريح في عددها الخاص بالمناسبة^(٣٣) ويستمر العطاء وفيه من الجيد والمتع الشيء الكثير.. وإذ تجد الخافل في صادق شاعراً متمكناً.. تتطلع إلى مشاركته في هذه المناسبة أو تلك؛ وتتخطى شهرته حدود المدينة، فيدعى إلى أكثر من مؤتمر

(٢٨) شعراء الغري ٢٣٣/٩.

(٢٩) صادق القاموسي الشاعر الإنسان - مقال بقلم محمد جواد القبان - جريدة الثورة ١٩٨٨/٩/٧م.

(٣٠) مجموعتي الخاصة.

(٣١) مجموعتي الخاصة.

(٣٢) نشر مجموع ما قيل في هذا الاحتفال في مقدمة كتاب الشيخ آل ياسين (حواشي العروة الوثقى) - بيروت - ١٩٩٣م.

(٣٣) مجلة البيان العدد ٨٤-٨٥ السنة الرابعة - ١٩٥١م.

للأدباء العرب^(٣٤) فيعتذر مرة ويشارك أخرى.

عام ١٩٧٢م - ١٣٩٢هـ - يشارك في مهرجان المرشد الشعري الثاني المنعقد في البصرة بقصيدته (رسالة إلى حفيد).. بعدها يؤثر الصمت وينقطع عن قول الشعر إلا لماماً.

(٦)

ذكرت بعض المصادر ان للقاموسي كتباً مخطوطة هي:

١- مشاكل الشباب، ٢- محاضرات إبليس، ٣- المقداد بن عمرو.

ويبدو ان هذه الكتب قد فقدت، أو أن مؤلفها قد عزف عن اتمامها أو نشرها. ومن خلال مراجعاتي وقفت على فصل واحد من (مشاكل الشباب) منشوراً في مجلة البذرة (السنة الأولى/ العدد الخاص بالجيل الجديد) ويتوقع مرشد اللجنة. وعلى نص من (محاضرات إبليس) نشر في جريدة المهاتف بتوقيع مستعار، أما ما تبقى من هذين الكتابين أو الكتاب الثالث، فقد أشارت بعض الدوريات إلى ان (صديق القاموسي) القى بعضاً منها في قاعة (الجمع الثقافي الديني التابع لمنتدى النشر).

ولعل تلكم المحاضرات والفصول فقدت مع ما فقد من تراث أدبي ضخم اضطم على بحوث ومقالات وقصائد لأعضاء المنتدى وسواهم، كان الخطيب المغفور له الشيخ مسلم الجابري يؤثر الاحتفاظ به في خزائنه - كما حدثني القاموسي نفسه وآخرون -، وقد قسدر لي ان أقف على العشرات من هذه النصوص في مخلفات (الجابري) التي انتقلت إلى ولده فضيلة الشهيد السعيد الشيخ محمد علي، ولم تجد محاولاتي المتكررة معه نفعاً في إعارتي إياها أو استنساخها اللهم إلا ما تفضل به عليّ من شعر يعود للشيخ محمد رضا المظفر كنت معنياً في حينه بجمعه فقد أعارنيه وفق شروط محددة.

وكما علمت ان جميع هذه الأوراق قد فقدت أو تلفت بعد استشهاد الشيخ محمد علي واعتقال زوجته العلوية الجليلة واستشهادها هي الأخرى في سجون النظام البائد. ولم يستطع نجلهما - وكان بعد لم يبلغ الحلم - ان يحمل معه - وهو يفر من العراق بعد انتفاضة ١٩٩١م - إلا مجموعة من الصور النادرة أطلعني على بعضها لدى تفضله بزيارتي في قم بتاريخ ٢٥ رمضان ١٤٢٩.

وأشير - هنا - إلى ان للقاموسي مقالات ودراسات عرض فيها بعض ما كان يعنى له من أفكار ورؤى، وقد نشر بعضها في مجلات وصحف المهاتف، والبذرة، والدليل، والنحف.

(٣٤) دعي إلى مؤتمر الأدباء الرابع المنعقد في الكويت ١٩٥٩م بدعوة خاصة، وإلى مؤتمر الأدباء السابع المنعقد ببغداد ومهرجان الشعر التاسع عام ١٩٦٩م.

والعراق، وكان بعضها بآوقىع مسآعار أو بأسماء بعض طلاب المنآى - كما أشار إلى ذلك الءكنور المظفر - وعلى الرغم من قرصه الشعر مبكراً - كما ألمآت - إلا ان الوسط الأءبى فى النءف لم يعرفه إلا كآاباء، بقول الأستاذ عبء السبى الشرىفى: (ءرس المعارف الاسلامىة وآذوق بآاسة الشاعر - وإن يكن كرفىقه [السبء مءمء آقى] الءكم لا ىنظم - مواطن الجمال والروعة فى الأءب العربى القءىم، فآآسى آكواباً مآرعة منه، وآنفآ بعء ذلك إلى الأءب المعاصر ناهاً منه ما عذب وساع، فنشأ كآاباً طرىف الفكرة، آصل الأسلوب، رىان الءءىء كروءه، فى آىاله سمو ورفعة)^(٣٥).

(٧)

عام ١٩٥٩م - ١٣٧٩هـ انآقل (صااوق) إلى بعءاء - موطن آبائه -، وآشآعل باءى الأمر بىع الأقمشة فى سوق المرابىة الشهىر، وإء لم بءء فى عمله ما يشآعه على الاسآمرار. بقءم على شراء المكآبة العصرىة الشهىرة من صاآبها الكآبى المعروف (مءموء آلمى) وكان ذلك عام ١٩٦٤م.. (وبءواقع من نفسه النبىلة وآءبه الجم أبقى مءموء آلمى فى مكانه ومكانآه فى المكآبة ولم يشعر آءء من مرآبىها أنه آبىر فىها.. ولم ىترك مءموءاً يشعر بأنه غربى عن المكآبة أو طارىء عليها إلى أن انآقل مءموء إلى رآاب الله)^(٣٦) وفى آلال عمله هذا (لم يعرف الجشع الذى آآصف به غير قلىل من الكآبىىن آىن آن آنون أسعار الكآب) وكان (ىنآظم وىنآلم للقرآاء الذىن آءركآبهم آرفة الأءب وهم ىرغبون باقآشاء كآاب ما فىآول بىنهم وبنىه سعره المرآفع، فكان ىعمل سماآاً منوباً لكل أصءقائه ومعارفه من قىمة الكآب.. وىآسامآ آهء الإمكان آآى مع من لا يعرفه من الرىبانن)^(٣٧). وقء ظلسآ هءه المكآبة (زأوىة ىلآمع فى أفآها الصغىر الرآىب نجوم وكواكب للشعر والأءب والفضل)^(٣٨) وكان ىعقء (فىها مجلس آءبى ىرآاءه شعراء كآىرون من أصءقاء القااوسى)^(٣٩). (كما قءمآ هءه المكآبة آءمامآ آلىلة لطلبىة الءراساآ العلىا فى الجامعة وللباحآىن الذىن كانوا كآىراً ما ىسآعبرون منها ما ىنفعهم بأطروآواقم الجامعة)^(٤٠).

ولم يقآع القااوسى آواصله مع عالم الآفاة والأءب، فكان له آضوره المآمىز فى مجلس

(٣٥) ومضان الشاب/ ٤٥.

(٣٦) العىان: مصدر ساقى.

(٣٧) العىان: مصدر ساقى.

(٣٨) ء. عبء الأمىر الورء: آرىة الجمهورية ١٣/٤/١٩٩٦م.

(٣٩) المكان فى آضارىس الءآكرة: حمىء سعىء ١٠٢.

(٤٠) مءمء آواء الطرىبى فى كآابه شىآ الوراقىن فى النءف ٥٨.

صادق القاموسي من المولد حتى الرحيل
محمد رضا القاموسي

بغداد الثقافية التي تعقد في بيوتات بعض الأعلام والمتقنين (أمثال مجالس الشيخ الشيبلي وتوفيق الفكيكي والحاج حسين الشعرباف والسيد مكي السيد جاسم وجعفر الخليلي ود. حسين أمين ود. عبد المجيد القصاب ومحمد جواد العبان وعبد الرحمن التكريتي وندوة عكاظ) وكان فيها كما يقول الأستاذ الرشودي (أشبه بكتاب منتقل لا من ورق ومداد بل من لحم ودم)^(٤١). كما بقي على صلة بنشاط مدينة النجف الثقافي، وأدبائها اللامعين. ومجالسها الأدبية.

وحين فكر عدد من مثقفي البلد وأساتذة الفكر فيه، بتأسيس جامعة الكوفة عام ١٩٦٦م إيماناً منهم (بحق العلم والفضيلة وانطلاقاً نحو هدف سام نبيل، وإدراكاً حاجة البلد إلى جامعة أهلية تتظافر فيها جهود المخلصين من أبنائه)^(٤٢) كان (صادق) واحداً من أعضاء جمعيتها المؤسسين^(٤٣)، وقد عمل باخلاص لإخراج الفكرة إلى حيز التحقيق. وشارك في عدد من لجانها ونشاطاتها الثقافية. وبعد أن بدأت الجهود تقطف ثمارها، عمدت السلطة الحاكمة عام ١٩٦٩ إلى إلغاء الجمعية ومصادرة أموالها، لدوافع طائفية وسياسية وبدرائع شتى كان من بينها عدم حاجة البلد إلى التوسع في فتح الجامعات، والاكتفاء بما أسس منها وقد عرّض القاموسي بالقرار في قصيدته التي كتبها لمؤتمر اتحاد الأدباء العرب ومنع من إلغائها فقال:

وقائلين بأن الفكر سمسرة يصرف الأمر فيه العرض والطلب
وان في العلم فيضاً فوق حاجتنا وما لنسا في زلال فانض إرب
وما دروا ان أم الجهل - ان وضعت لها حدوداً - أتاها الجهل وهو أب^(٤٤)

(٨)

يرد اسم (صادق القاموسي) في عدد من المصادر التي عنت بتاريخ الحركات الإسلامية

(٤١) كلمة عبد الحميد الرشودي في رثاء القاموسي.

(٤٢) جامعة الكوفة - فكرتها، أهدافها ومنهجها - ط بغداد ١٩٦٨م - ص ٣. وانظر الصفحات ٢٣، ٥٠، ٦٩.

(٤٣) وهم: السيد محمد الحيدري، د. محمد مكية، د. حسن الخليلي، د. محمد علي البصام، د. محمد علي آل ياسين، د. باقر عبد الغني، السيد صادق كمونة، د. محمد يعقوب السعيد، د. فيصل الوائلي، د. محمود المظفر، د. عبد المجيد الحكيم، عباس كاشف العطاء، صبيح الشيبلي، حسين علي عبد الهادي، د. حسن الهداوي، صادق القاموسي، حسين الشاكري، د. علي المياح، السيد محمد الحصاين، د. علي الورد، د. جميل الملايكة، د. كاظم بشر، د. هادي السالك، عباس عبد المظفر.

في النجف، واحداً من أبرز العناصر الفاعلة فيها، وأشار بعضهم إلى انه واحداً من ثلاثة أسسوا عام ١٩٥٢م تجمعا أطلقوا عليه (الحزب الجعفري) لم يقو على البقاء بسبب ما واجه من ردود فعل رست أكثر من علامة استفهام عليه وعلى مجمل نشاطه في محيط النجف؛ فأنحل عقده بعد مرور سنة واحدة من تأسيسه^(٤٥).

وذكر آخرون^(٤٦) ان (القاموسي) كان واحداً من مؤسسي (حزب الدعوة الإسلامية) في بداياته عام ١٩٥٧م، ونوهوا بدوره كونه أحد اثنين كانا الأكثر وعياً وثقافة من بين الآخرين^(٤٧). وأشاروا إلى انه انسحب من الحزب بعد ان حضر اجتماعين أو ثلاثة للقيادة في بداية تشكيلها. وكان انسحابه ودياً ولم تكن له آثار جانبية^(٤٨).

وإذا كان الباحث لا يملك إزاء هذه المعلومة أو تلك إلا الاطمئنان إلى سلامتها، فهو يستطيع القول. ان اطلاق مصطلح (الحزب) - بالمعنى الذي تتبادر إليه الذهنية المعاصرة - على هاتين الحركتين جاء على سبيل التجوز، ذلك ان اهتمامات الجماعة الأولى (انصبت على إقامة المجالس الحسينية الهادفة، إضافة إلى التحرك على أبناء الأمة لتغييرهم نحو الاسلام وهدايتهم له)^(٤٩).

وكانت الحركة الثانية التي اتسعت مدياتها فيما بعد لتأخذ مكانتها في الساحة السياسية؛ أقرب إلى تجمع يعنى بالجانب الاصلاحى المتمثل في:-

١- طرح الاسلام كعلاج للحياة الاجتماعية في مقابل التيارات الفكرية والثقافية الأخرى التي كانت تطرح معالجات غير إسلامية..

٢- مواجهة التيارات الأخرى بنفس الأسلوب الجذاب - في ذلك الوقت - الذي كانت تستخدمه لاستقطاب أبناء الأمة.

٣- إيجاد وسيلة للوصول إلى قطاعات في الأمة كان يصعب الوصول إليها من خلال العلماء والمبلغين في ذلك الوقت.. حيث كان يوجد حاجز نفسي واجتماعي وثقافي بين هذه

(٤٥) أنظر: فائق عبد الكريم: عبد الصاحب دجيل سيرة قائد وتاريخ مرحلة ص ١٤١.

(٤٦) منهم صلاح الخرسان في كتابه، حزب الدعوة الإسلامية، حقائق ووثائق، ص ٤٨، ٥٤، ٦٤.

(٤٧) م. ن. ص ٥٤ نقلاً عن مذكرات المغفور له السيد مهدي الحكيم.

(٤٨) م. ن. ص ١٢٠، ويذهب الصديق الباحث السيد محمد الحسيني - ولو على نحو التردد - إلى أن انسحاب القاموسي وغيره ربما كان سبباً في انكشاف الحزب والعرف عليه مسن قبل التيارات الإسلامية (كذا) (ظ كتابه: محمد باقر الصدر حياة حافلة.. فكر خلاق ص ٩٧)، وفي ذلك نظر.

(٤٩) ظ، فائق عبد الكريم/ مصدر سابق.

الأوساط والحوزة العلمية^(٥٠)

وفي ضوءه، فإن الحركتين كانتا تمدفان إلى عملية تغيير اجتماعي وبأسلوب حديث تتطلبه طبيعة الأحداث حينذاك.

وأحسب ان (طابع السرية) الذي اكتنف العمل في بداياته أمر فرضه الواقع الذي نشأ فيه وانطلق من أرضيته، فالجتمع النحفي - والحوزي منه بخاصة - كان على نحو ما - ولعوامل لا مجال لذكرها - مكفناً على ذاته، وأسير منطلقات لا تقوى على هضم أي عمل يحتاج رؤية إصلاحية تهدف إلى تغيير الواقع المعاش. ولعل فيما كتبه المصلح المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر في مذكراته عن مراحل عمله^(٥١) - أواسط العقد الثالث من القرن العشرين - في حركة إصلاح الدرس الحوزي وأساليب التبليغ الديني، وما اكتشفه من سرية وكتمان، ما يكشف عن معاناة دعاة الإصلاح والتغيير في ذلك الحيط.

وأكبر الظن ان انسحاب (القاموسي) تم بعد ان اخذت (الدعوة) منحى قد لا ينسجم وطبيعة القاموسي وظروفه الخاصة، أو لا يتفق مع بعض الرؤى التي كان يتبناها في أسلوب العمل. وأشار إلى انه (رحمه الله) ظل حريصاً - كما يعرف المطلعون - على علانته ببعض رموز (الدعوة) الأوائل، وكان يكنّ لهم كل حب وتقدير، إيماناً منه باخلاصهم وصدق نواياهم، وكانوا بدورهم يبادلونه الحب والتقدير ثقة منهم بشخصيته وتوجهاته^(٥٢).

أمر آخر أود الإشارة إليه هنا، هو ان (أحدهم) نوّه في حديث له بدور (القاموسي) في مقاومة التيار الشيوعي إبان حكم عبد الكريم قاسم، مشيراً إلى انه اضطلع بمهمة نقل فتوى المرجعية الدينية العليا بتحريم الانتماء للحزب الشيوعي، وإيصالها إلى صفوف الجيش العراقي عن طريق اللواء عبد الغني الراوي^(٥٣). وفي ذلك أكثر من نظر - كما اعتقد - فليس ثمة علاقة تربط القاموسي بالراوي، ولم يشر (المتحدث) إلى مصدر معلوماته، وكونه شاهداً على الحدث فيه نظر أيضاً، فلم يكن - في حدود معرفتي به - مؤهلاً للشهادة من حيث العمر والمكانة. ولا أزيد. وأشار - أيضاً - إلى ان الباحث صلاح الخرسان في كتابه الموسوم (الامام السيد محمد باقر الصدر في ذاكرة العراق): يذكر - وبدون الإشارة إلى

(٥٠) الخرسان/ مصدر سابق ص ٤٩.

(٥١) نُشر ما تبقى منها بأربع حلقات في مجلة آفاق نحفية، وقد أعدها وعلق عليها كاتب هذه السطور.

(٥٢) تذكر بعض المصادر ان الشهيد الخالد عبد الصاحب دخيل كان يؤكد اعترازه باستاذين من سنين أساتذته الكثر هما الشيخ محمد رضا المظفر ومحمد صادق القاموسي وانه تأثر بهما في حياته. (ظ فائق

عبد الكريم: مصدر سابق ص ٤٦).

(٥٣) انظر. خطيب الأمة السيد جواد شير لولده السيد محمد أمين ص ٤١.

مصدر - ان الشهيد الصدر الأول كان له - في حقبة صراعه مع الحكومة - في القنوات المسلحة مجموعات من الضباط وضباط الصف ترتبط بمرجعياته مباشرة عن طريق أشخاص معينين منهم الحاج محمد صادق القاموسي. (ظ ص ٥١٢، ٥١٣) وقد قدر لي ان أنقسي الباحث الكريم في أيار ٢٠٠٩ في العزيزية أثناء انعقاد المؤتمر الخاص بذكرى استشهاد الامام الصدر (ره)، وان أستوضح منه مصدر هذه المعلومة. فقال انها من مسموعاته.. وفي ذلك نظر، ولا يبعد ان يكون الأمر قد التبس على الناقل وأن الشخص المقصود هو الخطيب الشهيد السعيد السيد عبد الرزاق الحسيني المعروف بالقاموسي فقد أشارت المصادر إلى دوره في حركة الصدر ونوهت بمواقفه الجريئة (ظ مثلاً محمد باقر الصدر/ السيرة والمسيرة للشيخ أحمد عبد الله أبو زيد العاملي ٤/ ٢١٥، ٢١٧، ووجع الصدر/ ١٨٣)، والجدير بالذكر ان الشهيد السيد الحسيني لقب بالقاموسي لكونه نشأ برعاية خال والدته سماحة الشيخ صادق الشيخ باقر القاموسي المار الذكر، وتقبلاً لظلال أبوته الخانية، وتشرب الطاف خلقه المتميز.

ونظير هذا الخلط ما نقله الأستاذ فالح عبد الجبار (العمامة والافندي/١٥٥) عن أحد كوادر الدعوة المتأخرين (السيد سامي العسكري) ان محمد صادق القاموسي هو عبد الرزاق القاموسي!! فتأمل.

(٩)

في شخصية (صادق القاموسي.. الانسان). أكثر من ملمح مشرق يومئ إلى المعيسة، ويكشف عن أصالة، وقلما نجد نظيراً له انتزع إعجاب عارفيه - على اختلاف مشاربهم وتباين مسالكهم -.

وقد وقف بعض مترجميه على تلکم الملامح، ونوهوا بها خاصة له.. فقد كان (المع ما يتمتع به - زيادة على معارفه وآدابه - قدرته العجيبة على الانسجام مع كل فريق متجانس أو غير متجانس.. ولعل لاترانه ووفور مداركه وما يحتّمه عليه عمله كصاحب متجر دخلاً في اتحاده مع الطبقات التي يسأم علماء النفس من إحصاء سلوكها لتعددتها)^(٥٤) وهو في الوقت الذي يتقبل منات الرجعيين ويأنس بحديثهم ويتكلف هضم خواطرمه البالية كانسان منهم، يمتزج بمجموعة من أهل الرأي السديد والفكر الحية والمواهب السامية).^(٥٥)

وقدرته على الحوار والمناظرة، ملمح لفت نظر أكثر من باحث، فالدكتور محمود المظفر يقول (كان من الصعب على من يتورط معه في مناقشة موضوع أدبي أو فكري - شائك أو

(٥٤) ومضان الشباب/ مصدر سابق.

(٥٥) شعراء العري: ٢٣٣/٩.

غير شائك - أن يتغلب عليه، ويجعله يوضح إلى وجهة نظره في الموضوع، حتى لو بدت وجهة النظر هذه كأنها سليمة أو معززة بالبيانات والأدلة، وتلك ميزة يل موهبة قل أن نلاحظها ونلمسها في غيره من الأدباء والمفكرين ممن أتيح لنا معايشتهم والاتصال بهم عن كثب.. ويرى ان (منهجيته في التدريس والقائمة على التحليل وفتح الحوار والمناقشة مع الطالب لتوسيع آفاقه وترويض ذهنه، لا تختلف عن طريقته وأسلوبه في كل ما يعرض له أو يطرحه من مسائل أو موضوعات أدبية واجتماعية.. وقد اكتسبت طريقته تلك والقائمة على الرغبة في الحوار والمناظرة خبرة ودربة واسعة في هذا المجال)^(٥٦).

عرف - رحمه الله - (بحفة الظل ورقة الطبع وسرعة البديهة وحرارة النكتة وحسن المحضر وطيب المعشر)^(٥٧). وكان (يستجيب لذوي الحاجات ولا يتخلف عن الشفاعة وان له إغفاءة الوداعة والحياء وإغفاءة المهابة والاباء)^(٥٨) و(كان إنساناً في صدقه وإيثاره ووفائه ورحبه للخير.. ومن هنا كان فقده كارثة، وما ود بلا سبب - كما يقول المتسني - فيكساه الصغير والكبير)^(٥٩). وعلى حد قول الدكتور حسين علي محفوظ (من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الحبة والمودة والظرف واللطف والرفقة والدعة والطلاقة والبشر والسكينة والهدوء فليُنظر إلى صادق القاموسي)^(٦٠).

وصادق القاموسي مرهف الحس، وعلى جانب من وفرة العاطفة: (يشبع نظراته بكل صور الجمال التي تعرض له.. الطبيعة الساحرة.. الربيع الضاحك.. الزهرة التي يقلبها بيديه.. الشلال الذي يتدفق بعنف، وأهم من هذه كلها المرأة الحسنة التي تنفجر باللهب، كل ذلك كان يوقفه ليتأمل ويغرق في تأملاته إزاء كل نظرة)^(٦١) وهو شاعر تعامل مع الحب بصيغة أو أخرى، فليست مصادفة ان نجد ان أكثر من نصف مجموعته الشعري يستأثر به الغزل ومتعلقاته)^(٦٢) ولم يرَ (القاموسي) ضيراً في الكشف عن تجارب حبه وهو يشير إليها في مقدمات بعض قصائده، وقد أشار باحث - كما تقدم - إلى أثر الحب في صقل حسد

(٥٦) محمود المظفر/ مصدر سابق.

(٥٧) محمد جواد الغبان/ مصدر سابق.

(٥٨) طارق الخالصي في كلمة بعنوان (فتى الآداب).

(٥٩) محمد الجصاني في كلمة بعنوان (في ذكرى القاموسي).

(٦٠) من كلمة له في ذكرى القاموسي.

(٦١) الدكتور صالح الظالمي في (أبو رشاد والوجه الآخر) كلمة في ذكرى القاموسي.

(٦٢) هاشم الطالقاني، الحب والتجربة الواقعية، بحث في شعر صادق القاموسي، جريدة الاتحاد العدد

١٨٧ في ١٩٩٠/٨/٢٠.

وإثارة نبوغه..

كان مولعاً بالسفر إلى خارج القطر يستهويه التجوال والتمتع بكل ما هو جديد. وقد زار الكثير من العواصم العربية والاسلامية والأوربية، وخص لبنان - مهبط السحر والجمال - بعشرات الزيارات يصحبه فيها بعض أصدقائه ممن يأنسون به، ويأنس بهم.. وهو في كل ذلك (لم تمس يده ما هو رجس من عمل الشيطان.. يدخل في كل زوايا المجتمع ويخرج منها، وما يزال على ما كان عليه من عقيدة ثابتة، وإيمان راسخ)^(١٠). وهو في بيته وعلائقه الأسرية أنموذج نبيل - بكل ما للنبل من دلالات - يمحض الكبير والقربين احترامه - وإن كانا دونه فضلاً وثقافة - ويغدق على الصغير لطفه وعطفه، ومن هنا كان يلجأ إليه كل ذي حاجة منهم.. يستشار نصيحاً.. ويسرّ مؤتمناً.. وأشهد اني لم أجد أركى وأطهر منه وهو يشد من عضدي في ظروف قاسية كادت ان تطوح بي، وتعصف بكياني، فكان الملاذ.

(١٠)

عام ١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ يفجع (صادق) برحيل عقيلته الفاضلة، وكان وقع الحادث عليه أكبر من صبره وتحمله.. وينطوي على نفسه بعض الشيء، ولم يطل عليه الأمل، فقد نسج (الداء الحبيث) خيوطه في عروقه؛ ولم يفد معه نطس الأطباء فاختره الله إلى جواره مساء ١٩٨٨/٧/٢م، وشيع مأسوفاً عليه من بغداد إلى النجف، وبعد إقامة الصلاة عليه من قبل صديقه الحميم الحجة السيد محمد تقي الحكيم وأداء مراسيم الزيارة، ثوى في مرقده الأخير في صحن الصحابي الجليل كميل بن زياد، وإذا تستشعر منتديات الأدب ومجالسه كبير الخسارة بفقدته ينبري أعلامها وشعراؤها وأدباؤها ليقولوا فيه كل جميل، وليذرفوا دموع الوفاء وهم يستذكرونه شاعراً ومحدثاً وإنساناً.

وقد اتجهت النية في حينه إلى إقامة حفل أربيعني بعد أن تألفت لجنة قوامها السادة: الدكتور عبد المجيد القصاب، الأستاذ محمد حسين الشيبلي، الأستاذ ناجي جواد، الأستاذ خالص عزمي، الأستاذ محمد الجصافي، الأستاذ عبد الغفار الحويبي، الأستاذ أحمد المظفر، وبعد أن وفرت له كلما يستلزمه من مواد وإعداد، فوجئ الجميع بالغائه لعدم حصول موافقة السلطة الأمنية على إقامته.

(١١)

كتب عن صادق القاموسي الكثير من الأدباء والباحثين، ونوهوا بشخصيته شاعراً له

(٦٣) الظالمى مصدر سابق.

- صوته ورجلاً له دوره، وفي هذا الكتاب يقف القارئ الكريم على الشيء الوافر من تلكم الكتابات، وثمة مصادر أخرى كان لا بد لنا من الإشارة إليها - هنا - نذكر منها:
- ١- الأصفى: محمد مهدي
مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها / ط النجف ١٩٦٤م.
 - ٢- الأمين: حسن
مستدرك أعيان الشيعة/ ج٦، وج ٩ ط دار المعارف بيروت ١٩٩٩م.
 - ٣- الأميني: محمد هادي
معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام/ ط النجف ١٩٦٤م
وج ٣ ط بيروت ١٩٩٢م.
 - ٤- البستاني: د. محمود
حول حقيقة الحركة الأدبية في النجف/ مجلة المثقف العربي - بغداد العدد
العاشر - السنة الثانية ت٢ / ١٩٧٠.
 - ٥- البغدادي: شاكر جابر
تاريخ الكراة الشرقية - قسم الأعلام - / مخطوط.
 - ٦- الجبوري: كامل سلمان
- معجم الشعراء ج٢/ بيروت/ ٢٠٠٣م.
- معجم الأدياء ج٢/ بيروت/ ٢٠٠٣م.
 - ٧- الجعفري: رياض صالح
حسين الشعرىف - سيرة وذكريات/ بغداد ١٩٩٩م.
 - ٨- جواد: ناجي
بغداد - سيرة ومدنية - بيروت ٢٠٠٠م.
 - ٩- الحكيم: د. حسن عيسى
- بين النجف وبغداد/ بغداد ٢٠٠٥م.
- الفصل في تاريخ النجف الأشرف ج ١١ ط قم ١٤٣٠هـ.
 - ١٠- الحكيم: السيد محمد تقى
مشكلة الأدب النجفي/ محاضرة/ مجلة النجف - العدد الرابع وما بعده/ السنة
الأولى ١٩٥٧م.
 - ١١- الحكيم: علاء محمد تقى
السيد محمد تقى الحكيم ومنهجه التاريخي، رسالة ماجستير/ النجف - ٢٠٠٩.

- ١٢- الحكيم: هاشم سعيد
شعراء العرب من أصواتهم/ القسم المخطوط.
- ١٣- حيدر: جميل
تاريخ الرابطة الأدبية/ أرجوزة مطولة/ مخطوطة .
- ١٤- الخاقاني: عبد الله
موسوعة النجف الأشرف (باشراف الحاج جعفر الدجيلي): شعراء النجف، ج ٢١
ط بيروت ٢٠٠١م.
- ١٥- الخاقاني: علي
شعراء الغري ج ٩ ط النجف ١٩٥٦م.
- ١٦- الخرسان: صلاح
- حزب الدعوة الاسلامية، حقائق ووثائق/ ط دمشق ١٩٩٩م.
- الامام السيد محمد باقر الصدر في ذاكرة العراق ط بغداد ٢٠٠٤م.
- ١٧- الخليلي: جعفر
هكذا عرفتهم/ ج ٢ بيروت ١٩٦٨م.
- ١٨- الخيون: رشيد
لاهوت السياسة/ بيروت ٢٠٠٩.
- ١٩- داخل: خالد خلف
من اعلام الأدب في العراق/ جريدة السّأخي العراقية، العدد ٥٨٠٤ في
٢٠١٠/٢/٢٢.
- ٢٠- الرقيعي: عبد الحسين
النجف الأشرف ذكريات ورؤى/ ط لندن ٢٠٠٩م.
- ٢١- الزبيدي: د. حسن لطيف
موسوعة الأحزاب العراقية/ ط بيروت ٢٠٠٧م.
- ٢٢- سعيد: حميد
المكان في تضاريس الذاكرة/ بغداد ١٩٩٤م.
- ٢٣- السعيد: راضي مهدي
السياب وريادة الشعر الثوري في العراق/ بغداد ١٩٩٦م.
- ٢٤- الشاكري: حسين
- ذكرياتي ١-٥. ط قم.

- علي في الكتاب والسنة والأدب ج ٥ ط قم ١٤١٨هـ.
- ٢٥- الشامي: حسين بركة
ألفية ابن بركة - بغداد ٢٠٠٦م.
- ٢٦- شبر: حسن
حزب الدعوة الاسلامية ج ١ ط قم ١٤٢٧هـ.
- ٢٧- الشبيبي: الشيخ محمد رضا
جريدة البلاد - بغداد العدد ٦٣٤٨ في ٣/٣/١٩٦٢م (مقابلة معه).
- ٢٨- شرف الدين: السيد عبد الحسين
موسوعة الامام شرف الدين/ ملحقات بغية الراغبين/ ج ٨ بيروت ٢٠٠٦م.
- ٢٩- الشريفي: عبد النبي
ومضان الشباب/ النجف ١٩٤٨م
- ٣٠- صادق: عبد الرضا
في أدب العراق الحديث/ بيروت ٢٠٠٩.
- ٣١- الصغير: د. محمد حسين
- فلسطين في الشعر النجفي المعاصر/ بيروت ١٩٦٨م.
- أساطين المرجعية العليا/ بيروت ١٤٢٤هـ.
- مقدمة في الشعر النجفي/ الذكوات ج ١ النجف ١٩٩٧م.
- ٣٢- الطريحي: محمد جواد
شيخ الوراقين في النجف الأشرف/ قم ١٤١٩هـ.
- ٣٣- الطريحي: محمد سعيد
مجلة الموسم/ العدد السادس عشر ١٩٩٣م/ ملف خاص عن صادق القاموسي.
- ٣٤- الطفيلي: عبود
في لوحة الشرف/ النجف - ٢٠٠٥.
- ٣٥- الظالمي: د. صالح
من هنا وهناك/ النجف ٢٠٠٦م.
- ٣٦- عباس: رحيم عبد الحسين
أثر المجددين في الحياة السياسية والثقافية في النجف (١٩٤٥-١٩٦٣) رسالة
ماجستير/ الجامعة المستنصرية بغداد ٢٠٠٦م.

- ٣٧- عبد الجبار: فالج
العمامة والأفندي - سوسولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني/ بيروت
٢٠١٠.
- ٣٨- عبد الخضر: سعد عبد الواحد
جمعية منتدى النشر ودورها الفكري والسياسي/ رسالة ماجستير/ جامعة القادسية
٢٠٠٩م.
- ٣٩- عبد الكريم: فائق
عبد الصاحب دخيل، سيرة قائد وتاريخ مرحلة/ بيروت ٢٠٠١م.
- ٤٠- العلوجي: عبد الحميد
- المريد مواسم ومعطيات/ بغداد ١٩٨٦م.
- المواسم الأدبية عند العرب/ بغداد ١٩٦٥م.
- ٤١- عواد: كور كيس
معجم المؤلفين العراقيين ج ٣/ بغداد ١٩٧٠م.
- ٤٢- غزوان: د. عناد
لغة الشعر عند القاموسي/ محاضرة أقيمت عام ١٩٩٣م في ملتقى القاموسي
الأدي- لم تطبع (مفقودة).
- ٤٣- الفتلاوي: كاظم عبود
المنتخب من أعلام الفكر والأدب - بيروت ١٩٩٩م.
- ٤٤- الفضلي: صلاح مهدي
السيد الشهيد محمد باقر الصدر وأثره في تاريخ العراق المعاصر (رسالة ماجستير)
ط بغداد د. ت.
- ٤٥- القاموسي: محمد رضا
في الأدب النجفي قضايا ورجال/ ط بغداد ٢٠٠٤م.
- ٤٦- الكرياسي: موسى ابراهيم
شعراء رثوا زوجاتهم/ مخطوط.
- ٤٧- الكنين: غازي عبد الحميد
شعراء العراق المعاصرون ج ٣/ مخطوط.
- ٤٨- المختصر: محمد حسين
- الأديب النجفي - مجلة النجف العدد الرابع السنة الأولى ١٩٥٧م.

- في المجالس الأدبية - مخطوط.
- ٤٩- محلائي: حيدر
الفرطوسي، حياته وأدبه/ إيران ١٤٢٠هـ.
- ٥٠- المطبعي: حميد
موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين ج ٣ بغداد ١٩٩٨م.
- ٥١- مفتن: مهدي عبد الأمير
شخصية الامام الحسين في الشعر العراقي/ رسالة ماجستير/ الجامعة الاسلامية
بغداد ٢٠٠٦م.
- ٥٢- المرفجي: د. عددي حاتم
الاحزاب والسياسية في مدينة النجف الأشرف ١٩٥٤-١٩٦٣ رسالة
جامعية/ نشرت فصولها في مجلة آفاق تحفية الأعداد ١٣، ١٤، ١٥، ١٦/ النجف
٢٠٠٩.
- ٥٣- الموسوي: د. عبد الصاحب
حركة الشعر في النجف الأشرف وأطواره بيروت ١٩٨٨م.
- ٥٤- المؤمن: حامد جابر
الغابة العذراء (بحوث في الأدب النجفي) ط بيروت د.ت.
- ٥٥- الناهي: غالب
دراسات أدبية ج ١ النجف ١٩٥٤م.
- ٥٦- النجم: عبد الرضا
السماوة تاريخ ورجال ج ١ ط بغداد ٢٠٠٠م.
- ٥٧- النقشبندي: زين احمد
مباحث في تاريخ أوائل المطبوعات/ بغداد ٢٠٠١م.
- ٥٨- هدو: د. حميد مجيد
الشاعر الحالم صادق القاموسي/ مجلة التراث النجفي/ العدد ٢٤/ النجف
٢٠٠٩م.
- ٥٩- الورد: د. عبد الأمير
دفاعا عن المكتبة العصرية/ جريدة الجمهورية العدد ٩٢٣٢ في ١٣/٤/١٩٩٦.

٦٠- يعقوب: د. أميل

معجم الشعراء منذ بدء عصر النهضة ج ٣ ط دار صادر بيروت ٢٠٠٤م.

٦١- اليعقوبي: موسى

المؤتمرات الأدبية ونصيب النجف منها/ مجلة الإيمان/ العددان التاسع والعاشر/
السنة الأولى ١٩٦٤م/ النجف.

(١٢)

أخيراً

إذا كان لا بد من كلمة تقال عن هذا المجموع فهو الإشارة إلى أن القائمين على نشره - مع اعتزازهم بكل ما جادت به أقلام الباحثين، وفاضت به عواطف الأدباء - يحتفظون برأيهم الخاص بهذا النص أو ذلك، وانطلاقاً من إيمانهم بحرية الرأي، فقد آثروا نشره جلياً ما وصلهم من نتائج، شاكرين للسادة الأفاضل جهودهم وسائلين المولى أن يتعمد الفقيه بواسع رحمته، وأن يغفر الراحلين من الكتاب بفيض لطفه، ويمتدح الباقيين بالصحة والعافية أنه أكرم مسؤول.

٢٠١٠

حصل على جانب من الألمعية، فلا يمر كتاب
جديد، ولا صحيفة أو مجلة إلا وقد وقف عليها
وقرأها... وهو أديب مرهف الحس، سريع النكتة،
ذكي القلب، يحس بالألم كما يأنس بالنغم، ويقدم
الجمال كما يلتذ بالخيال.

علي الخاقاني

شعراء الغري ٢٣٤/٩

كلمة في أخ راحل (*)

الدكتور (المرحوم) حسين علي محفوظ

إذا جمع أسلافه العلم والعمل، والكسب والأدب، والرزانة والديانة. فقد وفق (صادق القاموسي) - رحمة الله عليه - بين خفة الظرافة ودقة الفطنة، ولطف المجالسة، ومتعة المؤانسة، ورقة الطبع.

كان أماً يطمئن به الصديق، ويسكن إليه الرفيق، ويستأنس به المصاحب. يطربه كل إخوانه، ويثني عليه جميع أجدانه، ويقرظه كافة أجدانه وأجدانه، وقد كان هو يطري إخوانه، ويثني على أجدانه، ويقرظ أجدانه وأجدانه.

والنجف - وهي منبت العلماء والفضلاء والأدباء والشعراء والألباء والأذكباء والنبلاء - أمه التي ولدتها. حنا عليه أديمها ومسّ جلده ترابها، وكفلته وربته وأنشأته منازلها ومجالسها ومدارسها وليداً وراضعاً وطيماً ودارجاً وناشئاً ويافعاً ومراهقاً وشارخاً وشاباً. وكل شيء عنده، وخيار ما عنده من إشراق نورها. وقد كانت - وما زالت - النور الساطع، والورد المورود، والخبجة النهجة في العلم والأدب، والخلق والدين.

هي منهل العرب والعربية طاب سقيه، ومورد الأدب والأريحية إعدوذذ سجله. كان - رحمة الله عليه - أديباً تفرض عليه الرقة والظرافة قول الشعر أحياناً وهو - وإن كان مقلداً - لطيف النسيج، رقيق التعبير. ولا أعجب - وهو من ربعة - وقد كان فيها عمرو بن كلثوم، ولبيد، والمنقب، والممزق، والقمامي، والأحطل، والفند، والعباس بن الأحنف، وعمر بن حطان ... وهذا وهاذاك... إن يقول الشعر، وربعة قبيلة الشعراء.

كان - رحمه الله - يقول إن من أهله (الشيخ أحمد بن درويش علي البغدادي) المتوفى سنة ١٣٢٩هـ، صاحب كتاب (كنز الأديب) والكتاب من عيون الكتب، والمؤلف من أعيان الرجال^(١).

جمع الشيخ أحمد الأدب والطب والتاريخ، وحفظ من أدب العراق ما ضاع لولا كتابه. ومن خصائص الأدوية وخواصها، ومن فوائد العقاقير ومنافعها ما فقد لولا تدوينه. وتعتبر

(*) كتبت للحفل الأربيعي.

(١) كذا في الأصل. ولا علاقة للشيخ أحمد المذكور بالأسرة. (الناشر).

مجلدات كتاب (كنز الأديب) السبعة التي ألفها في ثلاثين سنة من كنوز التراث، وذخائر العراق.

هذا ولا بد وأنا أذكر القاموسي أن أشير إلى الشيخ باقر القاموسي المتوفى سنة ١٣٥٢هـ من رجال النجف والعراق في الطهارة والسلوك والتهديب. وهو من تلامذة الملا الهمداني (١٣١١هـ) في الأخلاق. ومن خواصه العشرة المقرّين البررة الكاملين. والحكيم الملا الهمداني هذا كان من أساتذة الأخلاق الكبار في عصره، وعليه تتلمذ السيد جمال الدين الأفغاني أيام دراسته قديماً في النجف الأشرف.

رحم الله (القاموسي) فقد كانت (المكتبة العصرية) التي انتقلت إليه من الكتبي القديم المعروف المرحوم (محمود حلمي) نادياً يفتح جناحيه على أصدقاء الكتب ومحبي التراث. وكفى بلقب جده (القاموسي) ما يؤكد صلته باللغة والأدب، ويحدّد نسبته إلى الكتاب. وإذا كان لقاء الأخوان مغنماً جسيماً كما قال علي عليه السلام، وإذا سمع شعيب العقرقوفي الصادق عليه السلام يقول لأصحابه: تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا.. وإذا كان هذا اللقاء أحد ثلاثة هي راحة المؤمن.. فقد قال فضيل بن يسار قال لي أبو جعفر [الباقر] عليه السلام: أتتجالسون؟ قلت: نعم. قال: واهاً لتلك المجالس. أي؛ ما أطيئها. والعرب إذا تعجبت من طيب الشيء قالت: واهاً له...

أجل واهاً لتلك المجالس، و

أوه بديل من قولتي واهاً لمن نأت والبديل ذكراها

كما قال أبو الطيب.

صادق القاموسي الصديق الودود (*)

الدكتور (المرحوم) حسين علي محفوظ

أما أنا فقد رزقت من المعارف الخيار، والخلطاء الظرفاء، والأصحاب الأطياب، والأصدقاء الأصادق ما يروق ويونق، ويونس ويسرّ، ويفرح ويبهج.

أمتلة نبيلة جميلة، بارعة رائعة. لا تجتمع في خيال، ولا تلتقي في طيف. ولا تتلاقى في ظن، ولا تتفق في رؤيا، ولا تطرق في منام، فضلاً عن حقيقة في يقظة. أو يقظة في حقيقة.

فضل من الله ونعمة، ونعمة من الله وفضل. ألف بين القلوب فأصبحنا بنعمته إخواناً. نعمة إن نعدّها لا نحصّها، ولو حمدناه بعدد أنفاس الخلائق، وعدد الرمل، وعدد الحصى، وعدد التراب. وعدد ما ينزل من القطر والمطر والغيث. وعدد ما يخرج من الشجر، وعدد ما يسقط من الورق..

أصدقاء أصادق. هم الروح والريحان، والطمأنينة والراحة، والرحمة والرقّة. والبرّ والصلة، والأمانة والأمان.

جمعوا المواسة والمؤانسة، والمخالطة والمخاورة، والمخالطة والمخالطة، والصحة والمرافقة، والحياء والحلم، والصدّاقة والصدق.

ومن أجله.. قلتُ وما زلت أقول، وسوف أظلّ أقول: اني أغفر للزمان خطايا، وأغضّ عن سيئاته إذا حفظ لي الصديق والكتاب.. إذا حفظ لي الكتاب والصديق.. إذا حفظ الكتاب الصديق.. إذا حفظ الصديق الصديق.. إذا حفظ الصديق.. إذا حفظ الكتاب.

يروى عن سفيان الثوري انه كان يقول: من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك، فليتنظر إلى الخليل بن أحمد.

وأنا أقول: من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الحية والمودة، والظرف والالطف، والرقّة والدعة، والطلاقة والبشر، والسكينة والهدوء، فليتنظر إلى المرحوم الفقيّد. وهي خصال أهل هذا البيت الميسّم، وأوصافهم الكريمة؛ تميّز آل القاموسي البررة الكرام. لا يفارقهم التيسّم والالطف، ولا يجانبهم الابتسام والظرف. وهي - أيضاً - صفات كل

(*) أقيمت في الجلسة التي قامتها (ندوة الشعرباف) استذكّاراً لماثر القاموسي. بتاريخ ١٢/٣/١٩٩٢م.

الأصحاب الأحياء، الأخوة الأصدقاء، ولاسيما العترة والصفوة وصفوة الصفوة (همهم الله).

كنت وما زلت كلما ذكرت فلاناً وفلاناً وفلاناً من إخوان الصفاء، وهذا وذاك وذلك من خلجان الوفاء - وفيهم من الأخوة المحبين من يزين المجلس في هذا المساء - قلت: لو ذاب هذا كان عذباً فرائناً سائغاً شرابه، أو شراباً طهوراً ما فيه غول لذة للشاربين، أو عسلاً مصفى فيه شفاء للناس. ولقد كان المرحوم كذلك، ومن أولئك.

وقلت: صيغ هذا من حبّ ولطف وطرف، وحلق ذاك من غسل ولبن وشراب وماء طهور أنزل من السماء.

أوصاف وثمانل تحفّ من ودّعنا من الماضين، وتزين من يحيط بنا من الباقين، هي حلية هؤلاء وهي حلّة أفراد تلك الأسرة المعرّقة وأحبّانهم وأودّانهم.

والحق ان الصفوة روضة من رياض الجنة، ومائدة أنزلت علينا من السماء، وثمرات مختلف ألوانها مختلف أكلها، ونور درّي مدرار.

رحم الله الصديق الفقيد، وأطال الله بقاء الأصدقاء الأحياء.

ذكرياتي مع المرحوم صادق القاموسي

الدكتور السيد محمد بحر العلوم

كنت ألتقي بشخصين قل أن يفترقا في ارتياد بعض المجالس والدواوين النجفية، أحدهما ذو عمة سوداء، والثاني يعتمر "الكشيده" البغدادية، وعرفت أنهما صديقان حيمان لهما في قلوب عارفهم تقدير، لما لهما من الفضل والأدب، وهما: المرحوم السيد محمد تقي السيد سعيد الحكيم، والمرحوم الحاج صادق الحاج عبد الأمير القاموسي، وكانت المناسبات الأدبية والاجتماعية والدينية تجمعنا في أكثر الأوقات. ولكن لقاءنا كانت لا تتعدى حدود التعارف الأولي. وبمرور الأيام، أخذت الصلة بيننا تتوثق لرغبي في ذلك، فلمست فيهما أخلاقاً فاضلة، وأدباً يُعْتَد به، ونفسية محببة للأخرين، وهما يسبقاني بالعمر مدة قد لا تزيد كثيراً، فميلاد السيد الحكيم كان في عام ١٩٢١م وميلاد الأخ القاموسي في ١٩٢٢م وميلادي في ١٩٢٧م.

وفي نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن الماضي الميلادي توثقت صلاتي بالمرحوم القاموسي حين تداعى بعض الشباب الملتزم إلى عمل جاد نحو توعية الشباب في مقابل الأفكار الوافدة على البلاد، لطرح الفكر الاسلامي، ورسالته القويمة، وتشكلت لجنة لتحقيق هذا الهدف، وأطلق عليها اسم "لجنة التبليغ والارشاد"، باشرت عملها مجلساً في الصحن الحيدري في النجف الأشرف بعد صلاة المغرب والعشاء مساء الخميس والجمعة من كل أسبوع تبدأ بكلمة لشخصية من أعلام الحوزة، ثم كلمة تفقيية لأحد أعضاء اللجنة، ثم تحتم بذكرى الامام الحسين عليه السلام، وكنت أنا والمرحوم القاموسي من أعضاء هذه اللجنة، واستمرت في عملها فترة من الزمن.

وفي خلال الخمسينات من ذلك القرن حصلت أحداث سياسية داخلية وخارجية شاركت هذه اللجنة بما أثبت وجودها الفاعل على مسرح النجف السياسي، مما أدى إلى توجه الأنظار إليها.

وفي خلال هذه المدة تبلور في أذهان أعضاء هذه اللجنة أن ينتقل هذا المشروع إلى حزب منظم نظراً لاقترناء ظروف موضوعية الملت بالعراق، وأفكار وافدة من خارج الوطن تبليغ أفكار الشباب المسلم. وكنت والقاموسي ضمن أعضاء هذه اللجنة التي لا يتجاوز عددها العشرة اشخاص.

وحيث بلغ اسماع اللجنة وصول الامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر - الذي انتقل من مسقط رأسه الكاظمية الى النجف ليواكب حركته ونشاطه العلمي فيها - قرر اعضاؤها ارسال وفد منهم لمفاتيح السيد الصدر بمشروعهم، وتم اختيار الأستاذ القاموسي أن يكون أحد أفراد الوفد لمقابلة السيد الصدر ليتبنى فكرة الحزب، ويحقق هدفهم لتأسيس حزب يحمل أفكار مدرسة أهل البيت عليهم السلام. ولا طائلة في الاستفادة من أدبيات حزبي "التحرير، والايخوان المسلمين" الذي كان أحد أصدقاء اللجنة يوفر لها هذه الأدبيات، وبعد نقاش ودراسة مكثفة للظروف المعاشة وضرورة تكوين الحزب، اقنع السيد الصدر - رضوان الله عليه - بتوليه مسؤولية تأسيس الحزب، وكتابة دستوره ونظامه، وتم تشكيله عام ١٩٥٧م وأسماه "حزب الدعوة الاسلامية". وكنت مشاركاً في هذا الحزب، وملتزماً بالعمل مع الأخوة فيه حتى عام ١٩٦٠ حيث انتهت علاقتي به كمنتظم.

وتشاء الظروف أن ينهي القاموسي - أيضاً - علاقته بالحزب وقد يكون بنفس الفترة، أو بعدها أو قبلها بقليل. ولم أبحث معه أسباب انسحابه، كما لم يعرف أسباب إنهاء علاقتي بالحزب، ولكل منا مبرراته وتوجهاته، ولكننا بقينا أوفياء للتحرك الاسلامي في العراق بعمومه، وللتحرك الوطني العراقي خصوصاً.

وفي نهاية الأربعينات، وبداية الخمسينات من القرن الماضي الميلادي، وحيث كنت ضمن هذا التوجه الاسلامي، كانت صلتي حميمة بنخبة من الشباب بعيداً عن الأفكار الحزبية، حيث لمنا انطلاقة جديدة تتمحور في ميدان المعرفة والأدب والشعر، وضمت أشخاصاً لم يتجاوز عددهم الأصابع^(١) كان أكبرنا سنناً صديقنا الحميم المرحوم الدكتور العلامة السيد مصطفى جمال الدين - وهذه النخبة متقاربة في العمر والذوق والهدف والشغف بالأدب والشعر. وان كان هذا التوجه لا يرقى على دراستنا الحوزوية في الجامعة العلمية النجفية، ولكن شغفنا به توسع في ألوان الشعر، وآثاره المتنوعة.

ودفعنا هذا الشغف إلى قراءة ما يقع تحت أيدينا من كتب متنوعة نزيد فيها قابلياتنا الفكرية، وان كان للشعر في أذواقنا توجه خاص بمختلف ألوانه قديمه وحديثه، وكنا نميل للقصيدة النجفية أسلوباً ومضموناً، وحتى قصيدة "التفعيلية" نتيجة انفتاحنا على التيارات

(١) هذه الشلة ضمت السيد مصطفى جمال الدين، السيد حسين بحر العلوم، السيد محمد حسين فضل الله، الشيخ صالح الطائي، الشيخ جميل حيدر، الشيخ محمد المحجري، والشيخ ضياء الخاقاني، وأنا كاتب هذه السطور، وأخيراً انفصل السيد فضل الله عنها بعد انتقاله إلى بيروت.

الشعرية الحديثة، وخاصة بعد هبوب موجة قصيدة النثر التي لا ترتبط بالقافية والتفعيلات، فالموجة كانت - ولا زالت - يصفها الكثيرون بأنها تقويض للشعر العمودي الموروث. ولا أشك في صحة هذا الرأي - خاصة - ما نراه في السنين الأخيرة من القرن الماضي الميلادي، من اتساع هذا النوع الذي يسمى "بقصيدة النثر".

وكان الأستاذ الشاعر صادق القاموسي يشاركنا في أكثر جلساتنا، وينسجم معنا أكثر فأكثر على مرور الأيام، ولكنه لم يجعله اقترابه منا أن يصبح أحد أعضاء هذه الأسرة - التي أطلق عليها أحد أعضائها وهو المرحوم جميل حيدر أسم "أسرة الأدب اليقظ" - فهو صديقها، وقد حيا أعضائها بقصيدة رائعة يقول:

أعدي ما استطعت من العتاد	لها إن صح عزمك في الجهاد
وشدي أزرها بسديد رأي	وعالي هممة وأخي رشاد
وحيي بالصراحة كل قلب	يمد إليك كفا من وداد
وسوي بالتضامن والتآخي	طريقك فالمسير على قتاد
*	*

أمدبها بمعرفة وعلم	وقويها بعزم واعتداد
أربها الفكر يفصح عن نبوغ	وبادي الرأي يصحر عن سداد
دعيها تغترف من كل نبع	وتملأ زقتها من كل زاد
وترسل لحنها في كل عود	وتبعث شدوها في كل نادي
خذي من كل باذلة جناها	وان يك بذلها أثر الكساد
*	*

أبنت الشعاعين بما يلاقي	لداتك من عقوق وارتداد
وأم الثائرين لما يعابي	رسولك من قيود واضطهاد
أعيدك أن يكون - ولا مساس -	بجيبك نافخ لك في رماد
فكم من قائد للنصر جيشاً	تدجج للقتال وللطراد
ولما عم ساح الحرب نقع	مثار كان في صف الأعداي ^(١)

(٢) ديوان صادق القاموسي - جمع وتعليق محمد رضا القاموسي: ١٧٥-١٧٦ طبع بغداد ٢٠٠٤ منشورات المكتبة العصرية، وقال جامع الديوان إنما نظمت عام ١٩٥٢م، والقيت في حفل مختصر ضم مؤسسي الأسرة ومؤازريها.

جمعت هذه الشريحة الأدبية مظلة شيخنا الجليل المرحوم آية الله الشيخ محمد أمين زين الدين، وأخيه المرحوم حجة الاسلام والمسلمين الشيخ علي زين الدين - أستاذاً في درسي الفقه والأصول - وقد أحسنا لي خاصة كل الاحسان من حيث الفكر والمعرفة والأدب. وهذه المجموعة الرائدة سبقتني في الانتماء للشيخين الجليلين، وانضمّهما المرحوم آية الله الشيخ سلمان الخاقاني فأصبحوا لنا جميعاً معيناً صافياً، ومنهلاً عذباً للتوجه المعرفي، وتفيننا ظلالهم طيلة الخمسينات والستينات من القرن الماضي الميلادي، وكانوا لنا معهداً نستشره في بناء شخصياتنا في المعرفة والعلم والآداب، ومورداً صالحاً للأخلاق الحسنة، وكل ما يزيد سعة إمكاناتنا الفكرية.

كان المرحوم القاموسي خلال هذه الفترة يكاد يكون كأحدنا - وان لم يكن من ضمن الأسرة التي عشناها مع الشيخين الجليلين آل زين الدين والشيخ الخاقاني - وعلى مرّ الزمان كانت تتوثق العلاقة بيننا، رغم أن المرحوم القاموسي كان عضواً بارزاً في جمعية منتدى النشر، وعاملاً في الاشادة بمشاريعه البناءة، وكان أغلب أعضاء أسرة الأدب اليقظ أعضاء في جمعية الرابطة الأدبية، وكل منا يعتر باختياره لإحدى الجمعيتين العاملتين في إبراز الجانب الثقافي لمدينة العلم والفضل، والأدب والشعر في رحاب مدينة إمام البلاغة والفصاحة، النجف الأشرف، ولم يفرق هذا الاختيار بيننا مع أن التنافس المبطن بين أعضاء هاتين المؤسستين كان يبرز في بعض الأحيان، وخاصة في المناسبات الأدبية والشعرية.

تمتع الأخ القاموسي بقابلية جيدة انعكست على صلته بنا، فاذا أردنا تدقيق هذه الصلة القاموسية بكل منا على انفراد نرى أنه يُشعر كل واحد منا انه صديقه الأكثر من الآخرين، وهي صفة مهمة تمتع بها أخونا القاموسي، معتمداً سلوكه، وسعة صدره، وأخلاقه الفاضلة. هذه الصفة المحببة تركت فينا شعوراً جيداً بالمحبة والأخوة له، وهي خصيصة رائعة قل أن نجد لها لدى كثير من الناس ممن عرفناهم وعاشرناهم، رغم الأحداث المرهقة، والمشاكل العصبية التي ألمت بنا، ووجدناه أقرب إلى نفوسنا من كثير من الاخوان الذين تعرفنا عليهم وتعمقت صداقتنا بهم. وكلما مرّ الزمن علينا توطدت العلاقة بين القاموسي و"أسرة الأدب اليقظ" - ورغم أن الزمن القاسي فرقنا كلاً إلى ديرة بسبب ظروف سياسية واجتماعية لعيش في مأمن من كوارث البعث الصدامي. وملاحقاته لنا.

إن علاقتي بالأخ المرحوم القاموسي توثقت للغاية قبل هجري من النجف خارجها مضطراً واشتركنا في عدة مشاريع تخدم النجف لو كتب لها أن تتم لكانت تأثيراً لها المهمة انعكست على مجتمعتنا الفكري، من أهمها:

أولاً - محاولة اتحاد الجمعيات النجفية العلمية والأدبية..

النجف خلال القرن الماضي الميلادي ضمت جمعيات علمية وأدبية واجتماعية، من أبرزها: جمعية الرابطة العلمية والأدبية، والتي تأسست عام (١٣٥١هـ) وجمعية منتسدي النشر التي تأسست عام (١٣٥٤هـ) وجمعية التحرير الثقافي التي تأسست عام (١٣٦٠هـ) وغيرها من الجمعيات العديدة التي حفلت بها مدينة النجف، ولكن للجمعيتين: الرابطة والمنتدي، أولوية الوجود في المجتمع النجفي لثقل رئاستها وأعضائها، وليس معنى هذا أن باقي الجمعيات العلمية والأدبية في النجف لا وزن لها، غير أن هاتين الجمعيتين لهما وجود اجتماعي خاص.

وإدار حديث بيني والأخ القاموسي، وشاركنا فيه المرحوم السيد مصطفى جمال الدين يختص بتوحيد هذه الجمعيات الثلاث: الرابطة والمنتدي، والتحرير، على أن تأخذ كل واحدة منها مسؤوليتها خاصة في ميدان الثقافة ضمن مدينة النجف، وسوف يعطى هذا المشروع مركزاً اجتماعياً مهماً يتناسب ومكانة هذه المدينة، التي يقصدها المئات يومياً من الشخصيات العربية والاسلامية، وعلى اختلاف مستوياتهم الفكرية، فسوف يرون واجهات متعددة تلي رغبات الزائرين والوافدين الذين يفدون للتعرف على مظاهرها الثقافية، وتقدم لونا من عطاء هذه المدينة بما يتناسب ومقتضى الحال.

وحيث نضجت الفكرة لدينا قررنا العمل عليها، وتجسيدها على أرض الواقع. وكان عليّ بدايةً أن أفاتح المرحوم والذي السيد علي بحر العلوم بذلك لما له من تأثير جيد على عمداء هذه الجمعيات، وشخصياتها ذات الأثر الفاعل فيها، وفعلاً أقنعت المرحوم والذي بذلك، وطلبت منه أن يتبنى الفكرة لمصلحة البلد ذي العمر المديد، والذي يصل إلى ألف عام.

وبدائية دعونا الشخصيتين المهمتين في هذا الشأن، وهما: المرحوم الشيخ المظفر محمد رضا، والمرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي بصفتيهما عميدي المؤسساتين: الرابطة، والمنتدي. وبحضور شخصيتين كبيرتين، هما المرحوم آية الله العظمى الشيخ حسين الخلي، والمرحوم حجة الاسلام والمسلمين الشيخ محمد حسين المظفر الأخ الذي يكبر الشيخ المظفر، والمرحوم الأستاذ محمد علي البلاغي من الأعضاء المؤسسين لجمعية الرابطة وبعد الاستماع لوجهة نظرنا في هذا التوحيد، وكان المتحدث المرحوم السيد مصطفى جمال الدين وبعد نقاش طويل مع الحضور لاحظ الحاضرون صحة وسلامة توجهنا، وليس فيه ما يتصور من استيلاء بعضنا

على بعض، أو "الاندكاك" تحت مظلة المنتدى توسعاً لمشاريع شيخنا الحجة الشيخ محمد رضا المظفر في ترتيب الوضع العلمي والثقافي في النجف والذي كان يراوده هذا الأمر، وسبب له مشاكل كثيرة، ومن أهمها:

١ - كلية المنتدى التي كان يرمي من خلالها الشيخ المظفر مزج مناهج الحوزة النجفية بدراسات أكاديمية تلبية لحاجة ماسة تقتضيها حاجة طلاب الحوزة العلمية النجفية، بغية أن ينسجم مع ظروف الزمن المنطور، وتحقيق رسالة طالب العلم، الذي يمكن أن ينتقل يوماً إلى خارج العراق، بعد إنهاء دراسته الحوزوية، وفعلاً كان رأي شيخنا مصيباً حيث رأينا العشرات من حريجي "كلية الفقه" اضطرتهم ظروفهم للهجرة في عهد نظام صدام إلى خارج العراق فراراً أو تخلصاً من خطر مداهم، وانتشروا في بلدان العالم طلباً للحماية من نيران نظام الدكتاتورية والفاشية التي حاولت - بطائفية رعناء - تشتيت طلاب الحوزة النجفية لما لها من تأثير في العالم الاسلامي.

٢ - العمل على فتح "معهد الخطابة" في النجف لتوجيه المنبر الاسلامي والحسيني خاصة توجيهها سليماً خالياً من الشوائب والمبالغات في الأحاديث التي تعرض على أسماع المستمعين في المجالس وبالخصوص في مناسبات إحياء ذكرى الامام الحسين عليه السلام، ووفيات الأئمة عليهم السلام، وفيها الضرر أكثر من النفع، والمبالغات التي تخرج الانسان على حساب العقيدة، وما كاد هذا المشروع الحيوي ينطلق حتى ثارت زوبعة عارمة على الشيخ المظفر وأعضاء المنتدى على أساس ان هذا العمل مقدمة لانحراف الناس عن الواقع الحسيني العقائدي خاصة، مما اضطرت القائمون على المشروع التخلي عن الفكرة.

إن موافقة الشيخ المظفر على اندماج الجمعيات النجفية لعله كان بسبب أنه يأمل تحقيق أفكاره الاصلاحية في عملية تطوير المناهج الدراسية الحوزوية وبخاصة ان كل جمعية من هذه الجمعيات تدعمها شخصيات لهم شأنهم في النجف الأشرف والحوزة العلمية.

غير أن المرحوم الشيخ عبد الغني الحضري رئيس جمعية التحرير الثقافي ومن حضر معه للاجتماع أصروا على رفض الفكرة بشدة على أساس أنها عملية غير مقبولة، وليس من صالح النجف الديني والعلمي انصهارها في مؤسسة واحدة تدعمها بعض الشخصيات العلمية - اشارة إلى منتدى النشر - وقد أثاروا المشاكل حولها مما سبب إلغاء المشروع كله. وللحق أقول كان للأخ القاموسي البذرة الأولى في التخطيط لهذا المشروع، وأعتقد انه لو تم في حينه لكان أثره كبيراً في أجواء الجامعة العلمية الدينية.

ثانياً - تأسيس كلية الفقه وانتسابنا إليها..

المرحوم الشيخ المظفر من أولويات آماله الكبرى تحقيق أفكاره الاصلاحية والتي تخص إدخال برامج أكاديمية على مناهج الحوزة العلمية النجفية على اعتبار أن طالب العلم المتخرج من جامعة النجف العلمية الدينية مهمته الأساس أن يكون متسلحاً بعلوم حديثة تفتضيها طبيعة التطور الزمني، خصوصاً أن الطالب الحوزوي اليوم معرض للاحتكاك بحريجي الأكاديميات العالمية فلا بد أن يكون على الأقل عارفاً بعلوم اليوم وان كان على سبيل المعرفة، ولتحقيق ذلك عمل على فتح معاهد غير رسمية في مختلف الأدوار، وانتسبنا لها للاستفادة ولكن تلك المعاهد لم تحقق هدف الشيخ المظفر حتى عام ١٩٥٨ حين حكمت الصدفة أن يسافر الامام السيد محسن الحكيم للاستشفاء إلى بغداد ويزور الزعيم عبد الكريم قاسم - قائد ثورة ١٤ تموز - سماحة الامام في المستشفى، ويلتقي بعدد من الشخصيات الدينية في مجلس الامام الحكيم كان من بينهم المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر، فاستفسر الزعيم عبد الكريم من السيد الحكيم في نهاية زيارته، هل هناك أمر لكم، يتعلق بالنجف؟ فانبرى الشيخ المظفر طالباً منه السماح بتأسيس كلية الفقه نظراً لحاجة الحوزة العلمية النجفية إلى تطوير معرفي يجمع بين علوم الشريعة وفق مناهج الحوزة وبين العلوم الأكاديمية، وأمر الزعيم قاسم باجازه جمعية منتدى النشر في النجف بتأسيس كلية الفقه، وتم تنفيذ الأمر، وتأسست كلية الفقه بعد موافقة جامعة بغداد على إنجازها، ولا بد أن تبدأ السنة الأولى الدراسية حالياً ففي التأخير آفات - كما يقولون -.

بدأت مشكلتنا، إذ لا بد من الانتماء للكلية من قبل بعض الشخصيات المعروفة في النجف لترفع القيل والقال الذي سيحدث في أوساط الحوزة حين تبدأ الدراسة.

كنت والأخ المرحوم السيد مصطفى جمال الدين حينذاك أعضاء في إدارة منتدى النشر^(٣)، وعقدت جلسة الادارة بعد اجازة الكلية بحضور كامل أعضائها، فالتفت الشيخ المظفر إلينا، وقال: أطلب منكم بمجموعكم الانخراط في الصف حين نعلن الافتتاح عن بدء الدراسة، لأنكم من المعروفين بالفضل والأدب والوجود الاجتماعي، وإذا باشرت في الانتماء

(٣) للتاريخ اشير إلى ان سماحة السيد العم آل بحر العلوم - متعنا الله ببقائه - واستاذنا الدكتور جمال الدين - رحمه الله - لم يكونا حينذاك من أعضاء الهيئة الادارية لمنتدى النشر، بل كانا عضوين في الهيئة العامة، وقد انتخب السيد بحر العلوم عضواً ادارياً عام ١٩٦٢ - أي بعد تخرجه في الكلية -، وانتخب السيد جمال الدين عام ١٩٦٤. (الناشر).

بأنفسكم فسوف يتشجع الآخرون على الالتحاق بكم، ولا عذر لمن يتخلف.
طافت علينا موجة من الدهشة والذهول، كيف نخرط في صف تدريسي وبعضنا له مكانته العلمية والأدبية والاجتماعية في أوساط النجف العلمية والأدبية.
من الذين انتابهم الحيرة أنا والسيد جمال الدين، فجمال الدين إمام جماعة في مدينته محافظة الناصرية، وفاضل يحضر بحوث الخارج في الحوزة النجفية، وشاعر معروف في الأوساط الأدبية، وله مكانة اجتماعية وسياسية معروفة. وقد لا يستسيغ العرف الاجتماعي لأمثاله الانخراط في صف كلية تمنح البكالوريوس.
وكذلك أنا طالب حوزوي لي مكاني في الحوزة النجفية، ولي وجود اجتماعي، وشأن أدبي في النجف، وكنت حينها سكرتير جمعية الرابطة العلمية الأدبية المنافسة لجمعية منتدي النشر.

فوق هذا وذاك كيف أقنع والدي - رحمه الله - الذي حرص، وأصر كل الأصرار على أن أكون أنا وأخوي الشهيد السيد علاء الدين، والسيد عز الدين طلاباً في الحوزة العلمية. ومنع أولاده من دخول المدارس الرسمية حين ألح عليه الكثيرون من أصدقائه بأن يسمح لواحد من أولاده على الأقل لدخول المدارس الرسمية فأبي ذلك.

وبالإضافة إلى جذور الجفاء القديم بينه وبين الشيخ المظفر يوم عمل الشيخ انقلاباً عليه وعلى اخوانه في إدارة المنتدي بداية تأسيسه، والذين كانوا هم مؤسسوا الجمعية، حين اختلفوا في توجيهها، فطموح الشيخ المظفر - رحمه الله - أن يتخذ من هذه المؤسسة سلماً لتحقيق أفكاره الإصلاحية في الحوزة العلمية النجفية، ولهذا قاد مع بعض اخوانه الذين يؤمنون بعملية التغيير للسيطرة على المنتدي من خلال الانتخابات الإدارية، وفعلاً تم له ذلك. مما اضطر المرحوم والدي وجماعته الانسحاب من إدارة المنتدي بعد فوز فريق المرحوم المظفر، فقد كان هدفهم من تأسيس المنتدي ينحصر في تحقيق وإصدار ما أمكن من التراث الفكري الشيعي لعالم القراء.

وهنا جاء دور المرحوم صادق القاموسي الذي التقانا في إحدى الامسيات - جرياً على العادة - وكان الحضور أنا والسيد جمال الدين، والرحوم الشيخ صالح الظالمي، والرحوم السيد حسين بحر العلوم، ودار الحديث حول الانتماء لكلية الفقه، وان عدم انتماء بعض من لهم وجود في أوساط النجف سوف يفشل المشروع؛ ويجب علينا - ونحن من أنصار المظفر - أن ننجح المشروع مهما كلف الأمر.

واستطعت أن أقنع المرحوم الوالد بعد أن قابلني بالجفاء والامتناع، باني خيبت آماله في أن أكون طالب حوزة النجف، لكن أكدت له باني سأبقى محافظاً على هويتي طالباً حوزوياً ولن أخالفه في هذا التوجه طوال حياتي.

والحمد لله بقيت حريصاً على الاحتفاظ بهذا التوجه، وأخيراً دخلنا الصف الأول للكلية، إلا المرحوم السيد حسين بحر العلوم الذي فضل البقاء على هويته الحوزوية، ولكنه رغم تأكيدنا له بان واقعنا الحوزوي لن يتغير أصر على موقفه.

وكان الشيخ المظفر على حق حين أصر على أن يتخرط بعض طلاب الحوزة، ومتفقو النجف، ممن لهم وجود في المجتمع النجفي، بالخصوص "الملائي" لينجح المشروع، فكان لنا ولأمثالنا من المحسوين على الحوزة التجفية الأثر الكبير في نجاح المشروع العلمي.

هذا ويجب أن نذكر بأن لجهود صديقنا الحميم المرحوم أبي رشاد القاموسي، وأستاذنا الكبير المرحوم السيد محمد تقي الحكيم الأثر الكبير في دعم فكرة المصلح الكبير الشيخ المظفر بتحقيق هدفه العلمي منذ الأيام الأولى إلى جانب الأعلام ممن بدأوا مع الشيخ المظفر سواء في مسؤوليته برئاسة جمعية منتدى النشر أو كعميد لكلية الفقه.

ثالثاً - من يسد الفراغ بعد وفاة الشيخ المظفر؟

فجعنا كما فجع غيرنا في مساء ١٦ من رمضان ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م حين أعلن الناعي في النجف وفاة المرحوم المصلح الشيخ محمد رضا المظفر على أثر نوبة قلبية لم تمهله حتى وصول الأطباء إليه، وكان لوفاته موجة أسف، ولوعة مصاب لدى جميع الطبقات العارفة أهداف الشيخ الجليل، وأفكاره الواسعة في إصلاح الحوزة العلمية، وجهاده المتواصل في قضايا عقيدته، وإعلاء شأن عراقه. وشغل بالنا مشروعته الثقافي وخاصة المتمثل في كلية الفقه ماذا سيكون من بعده، وهل أن أحداً من أعضاء المنتدى المخضرمين يستطيع أن ينهض بما يسد الفراغ الذي أحدثته وفاة المصلح المظفر، وكذلك بالنسبة إلى رئاسة المنتدى أيضاً، وليس معنى هذا أن لا يوجد أحد من أعضاء المنتدى حينذاك من يسد الفراغ الكبير، ولكن المطلوب الاختيار السليم.

دار الحديث بيننا كما دار بين الكثيرين ممن يحرصون على نجاح مشروع المظفر وان لا يصاب بنكسة، وكان لقاء بيننا عاجل يضم بعض الاخوة من بينهم أستاذنا السيد محمد تقي الحكيم، والسيد مصطفى جمال الدين، والأستاذ محمد صادق القاموسي وآخرين، وتداولنا

في الموضوع، وكان اهتمام الأخ القاموسي واضحاً، وهو محق في قلقه بذلك إذ لا نجد شخصية تسد الفراغ لرئاسة الكلية إلا السيد محمد تقي الحكيم، الشخصية التي تحمل الخصائص التي تؤهله لمثل هذه المهمة الخطيرة، والمرحلة المعاشة في ظل الأوضاع العراقية السياسية القائمة حينذاك.

وأعلن موعد لانتخاب رئيس جمعية المنتدى، ثم عمادة كلية الفقه، وكان علينا أن نباشر حواراتنا مع بعض أعضاء المؤسسة في شأن الانتخابات للمنتدى ورئاسة الكلية، وطلب مني القاموسي أن أكون المخاور مع بعض الأعضاء الذين يرون في أنفسهم الأهلية لهذين المنصبين، وقدرت ظروف الحكيم، والقاموسي في عدم قيامهما بهذه المهمة لعلاقتهم الوطيدة مع بعض الأعضاء الذين يرون لهم الأهلية لهذا الشأن، ونحن قد نختلف معهم بذلك، والتقيت بعضهم، وفتحت الحديث مع أحدهم - رحمه الله - فلاحظت طموحه بالأمر إلى حد لم يتحمل مني الخوض في الموضوع، وقابلي بجمفاء قاسي لأنه اعتبر الموضوع مؤامرة شخصية عليه لإبعاده عن هذا المنصب، وهو الرجل المؤهل لها بعد الشيخ المظفر، وعلى أثره انسحبت من الفكرة معتقداً أن البعض ممن لهم طموح خاص هم على استعداد للعمل بكل ما في وسعهم للوصول إلى هدفهم، وكذلك انسحب الآخرون جميعاً من الموضوع خشية أن يطفو الموضوع على السطح ولا يناسب الكل الدخول في المشاحنات في ظروف حساسة. ولكن لم أقطع الصلة بكوفي أحد أعضاء الإدارة، وعند انتخاب قادم انسحبت من الهيئة الإدارية.

وأخذت مسيرة الكلية طريقها في الحياة، ولكنها لم تتقدم كما كان المؤمل لها، حتى أجهز عليها البعثيون الصداميون، وألقت بكلية الآداب - جامعة بغداد، مقدمة خذفها من الوجود.

وعلينا أن نعترف بأننا فشلنا في مشروعنا الذي كنا نحاول أن نبني فيه مشروع الشيخ المظفر، وندعمه، ولكن الأخوين العلامة محمد تقي الحكيم، والأستاذ محمد صادق القاموسي قررا بعد فشل مشروعنا الاصلاحى أن يعملوا على بقاء الوضع دون ادخال تعديل عليه كي لا يفلت الأمر برمته، وكان فكرهما مسدداً خشية أن تنداعى الأفكار المظفرية بسبب النزاعات حول الاصلاح لرئاسة مشروع الشيخ المظفر، وأيدناهما بذلك.

واليوم وفي ظل عهد ما بعد صدام عادت الكلية في ضمن جامعة الكوفة، ونأمل أن تأخذ موقعها الأصيل، فالحوار مستمر على عودتها لتحمل طابعها الاستقلالي كما كانت في

السابق، على يد بعض خريجيها وشخصيات المنتدى السابقة، وتعود الأمور إلى نصابها، خاصة أن الأخ الأستاذ الدكتور الشيخ محمود المظفر هو فارسها المفضل ونحن معه نرفده بالدعم والاعتماد.

الوجه الشعري للقاموسي..

بعد هذا، لا بد لنا أن نتحدث عن الوجه الأدبي للقاموسي.. فالحديث عن صادق القاموسي ومشاريعه الثقافية، وهي كثيرة ومتشعبة، العامة منها والخاصة، وكنت أود أن أتوسع في كثير من الذكريات التي قضيناها سواء في عهد العمل المشترك في إطار الإصلاح الذي يرفع شعاره أبو رشاد القاموسي، ومحاولاته الجادة خاصة - حينذاك - في إحياء مشاريع أستاذه الشيخ المظفر والإخلاص لها، والذي بذل كل جهده للوصول إلى أهدافه الإصلاحية، مع شريكه الوفي، وصديق العمر آية الله السيد محمد تقى الحكيم - تغمدهما الله برحمته - حتى وصول البعثين للسلطة فكان ما كان.

ولا بد لنا ونحن في المشوار الأخير من الحديث عن الصديق الحميم القاموسي أن نشير ولو بإيجاز إلى وجهه "الشعري" فقد كان يتمتع بمجالات واسعة في ميدان الأدب والشعر، فهو من الأدباء والشعراء في مدينة الفضيلة، والآداب، وله صولات واسعة في مجتمعه الثقافي، وقد شارك في كثير من المواسم الثقافية، والحفلات الأدبية والمهرجانات الشعرية التي تكثر في النجف الأشرف حينذاك.

وأحسن صنعا ابن أخيه عزيزنا الأستاذ محمد رضا القاموسي في جمع وتحقيق شعر عمه أبي رشاد، وأسماه "ديوان صادق القاموسي" وضمنه الكثير من شعره - إن لم يكن كله - ويستطيع القارئ من خلاله أن يتلمس قابليته الأدبية، وشعره الجيد الذي يمثل الشعر النجفي بكل أنواعه وأطباقه، والتي عاشته الأندية النجفية، وما تمتع به من "شفافية" رائعة كانت الوجه الجذاب له في مختلف أعماله الشعرية، وتجلى فيه حسه المرهف، وغزله الرقيق، وإخوانياته التي ملؤها الوفاء، ولغته ونظرته الجادة في مختلف المواضيع التي تناولها: رثاء وعاطفة وحنانا، وإخوانيات تحدث عنها، حتى وإن كان عنيفا في مواضيع تقتضيها حاجة المناسبة، ولكن كانت بدون عرض عضلات.

إن أصدقاء القاموسي يقولون عنه:

إنه "يشبع نظراته بكل صور الجمال التي تعرض له، الطبيعة الساحرة. الربيع الضاحك. الزهرة التي يقلبها بيديه. الشلال الذي يتدفق بعنف، وأهم من هذه كلها المرأة الحسنة التي

تتفجر باللهب، كل ذلك كان يوقفه ليتأمل، ويفرق في تأملاته إزاء كل نظرة^(٤).
 الشاعر المرفه الحس لا يمكنه نسيان "الماضي الحلو" وان أطل على "الشيخوخة" أو
 تعب من متابعة "الصيد الربيعي" وحتى إذا دب إليه "خريف العمر" وما ذنبى وقد صرح
 نفسه بذلك، ومعترفاً بأنه لا يمكنه ترك ذلك التوجه الجميل، وان بدت عليه أجواء الانحسار
 عن معالم الحب والجمال، ولقعهما بشيء من الزهد، أو الروح "التقوائية" في بعض الأحيان،
 إنه يتحدث عنها، ولوعة الأيام الحلوة تبض حيناً في حروفه، وخاصة حين غرست "ليلي"
 ذات الأريج اللبناني القابعة في غابة الصنوبر قرب "كيفون" جبهها في زوايا قلبه، نراه يقول
 لها:

صديقي (ليلي) فما زال قلبي نابغي الهوى كما تعهدينا
 يتملاك صورة من صباح أودع الليل فيه سراً دفيناً
 لست أدري ولت عينيك تدري أي نار هذي التي تكويننا
 ثم يقول

وتناسيت أن لي بين جنبي فؤاداً على هواك أمينا
 بل حفاظاً على ربيعك أن يذبل ورداً وان يجف غصونا
 وحناناً على رحيقك أن يدفع عن رشقه فم الشاربينا
 وانعطافاً على أمانيك أن تطبق عين القضا عليها الجفونا^(٥)
 راع هذا الوفاء لأم رشاد - رحمها الله - ففي تصوري أن ذكرها الطيبة منعه من
 "التورط" بالانفلات الجهنمي كما تورط أخونا قبله أو بعده (الله أعلم).

هذا الحب المعقد بالصدق لحييته اللبنانية، لا شك انه عاش عاملين هامين في قرارة
 نفسه: نفس تريد. ووفاء يمنعه من تظاهرة عنفوان الحب. كان أخونا السيد جمال الدين
 أكثرنا جرأة على تحقيق جذوة حبه حين تجاوز عقدة الخوف والقبيل والقال، وغامر باعطاء
 عنفوان حبه المجال الواسع على أي اعتبار آخر، فانتصر مهما كلف الأمر.
 إن صادق القاموسي رغم انغماسه في تيار الحب الملتهب هو في كثير من الصبوات
 الشعرية ينتهي إلى واقعه "الأسري" ويتابع خطوهم الذي يجمع بين الانسان العامل ليعده عنه

(٤) المرحوم د. صالح الظالمي - مقدمة ديوان صادق القاموسي: ٢٦.

(٥) للاطلاع على القصيدة كاملة تراجع ديوان صادق القاموسي: ٤٤١-٤٤٤ يقول عنها محقق الديوان
 في مقدمة القصيدة أنها "نظمت عام ١٩٦٤م-١٣٨٤هـ إثر تجربة صادقة مر بها الشاعر وهو
 بصطاف في ربوع لبنان.

جفاء الفاقة، وبين الانسان الذي يحاول ويجهد أن لا يتعد عن خطه الذي ينجي ضميره من عدم رضا الأب والأهل الملتزمين، وقيل هذا وذاك "الزوجة". كما يرى بعض من كتبوا عنه، وأنا منهم.

فهو شاعر شبابي وان أصحر فيه الزمن. ومرهف الحس وان تعدى محطته قطار الحب، وناغى صواته بشغف الليالي "المخملية" والسخية للغاية، لترتجف الآمال المورقة أمامه ذكريات عذبة، ويحتضن الصورة التي عاشت معه لتكون "عبقراً" يثيره بلوعة قلب ينبض بالحب لا يغفو، وشفافية تحط على شفاه "همة" ساعة من الزمن، ولا تصطدم بالعوامل المورقة للعاشق اللوهان. والخائف من مغامرات الوجدان.

ولا نستغرب منه هذا العشق، فقد كتب ومارسه بداية عام ١٩٣٧ في قصيدة سجل فيها اعترافه بأول تجربته الشعرية حيث تحدث عن معاناة عاطفية مرّ بها وهو في ميعة الفتوة، وعنوانها "ليتي" قال في بدايتها:

ليتي كنت علمت أي ذنب قد جنيت

غير أنني فيك همت وي أشتد الغرام

وإذا عرفنا أن ولادة الشاعر كانت عام ١٩٢٢م، فمعناه انه مارس تجاربه الشعرية "المخملية" وهو ابن خمسة عشر عاماً، وهو العمر الذي يثير الكوامن الحساسة في مراهقة الصبا، وفيه كل "البلاوي"!!

والغريب إنه يختتم حياته الشعرية بأبيات يرثي بها صديقه المرحوم الأستاذ السيد حسين الصافي عام ١٩٨٧م يقول فيها:

رثيتك إذ طوى دنياك حتف وغالك ظالمًا قدر عتي

ووفتك القلوب أسىً وحزناً • لأنك ما حييت لها وفي

وحين نعاك للعلياء ناع وراح يجيل صرخته الندي^(٦)

والظاهر أنه أحس بقرب انتقاله إلى العالم الثاني فأراد أن يصفى قلبه من كل شوائب الدنيا فليختم حياته الشعرية بالثناء.

وكيفما كان فالقاموسي كأي شاعر كتب الشعر طيلة خمسين عاماً في مختلف ألوانه، وخلال هذه الفترة سجل في ديوانه (١٠٥) قصيدة ومقطوعة، وأغلبها تعبر عن عاطفة تهيج به الذكريات الحبيبة مع شفافية هادئة تتناغم وطبيعته المنفتحة، ولكن آهاته تتصاعد مع

(٦) الديوان: ٤٧٣.

حروف شعره، وتحاول أن تفضحه لبلوغه سنناً لا تتناسب معها صبوات الشباب، ومغامرات الفتوة، وهو سعيد بهذه الآهات، ويصر على ممارستها بكل صراحة، يقول في قصيدته بعنوان "القلب المتمرد":

كم يا فؤاد هوى تذوب وأسى تموت ولا تتوب
أو كلما يدعو الغرام مجاهداً صلباً تجيب
وبكل حي محصب لك في مرابعه حبيب^(٧)

ومن عرف المرحوم صادق القاموسي يستطيع أن يؤكد أن الروح المرححة، والشفافية الرائعة اللتين تمتع بهما جعلته يتعايش مع ظروفه الخاصة بما لا يؤثر على إيمانه بالله، وأدبه، والتزامه الاجتماعي، وإن كانت أيامه مكفهرة في بعضها، ولكن روحه المرححة أضفت على أحداث الزمن القاسي فاحالته ملعباً تطيش به نفثات قلبه الذي لا ينسى الماضي الزاهي حتى في أحلك ظروفه.

رحمك الله يا أبا رشاد فقد خسرك عالم الأدب النجفي والعراقي، كما خسرك أخوانك الذين عرفوا فيك الوفاء والاخلاص والمحبة، ولعل من بقي من هؤلاء الذين اصفوك المودة أصدقها، والاخوة أوفها "أنا"، وأنا في طريقي إليك، وعسى أراك في ذلك العالم بين الحور العين، والولدان الحلوين، وفي رياض الجنان المعدة للخالدين، وإلى اللقاء..

٢٠١٠

(٧) الديوان: ١١٧.

القاموسي من خلال نشاطه في جمعية منتدى النشر (*)

الدكتور محمود الشيخ محمد حسن المظفر

(١)

قبل نيف وخمسين عاماً على وجه التقريب شقّت طريقها أول حركة إصلاحية عملت على تنظيم وتطوير الدراسة الدينية في حوزة النجف، حيث بادرت (جمعية منتدى النشر) بعد عام من تأسيسها (سنة ١٩٣٦م) إلى إنشاء أول مدرسة دينية تتخذ من الدراسة المسلكية القائمة على الانتظام أسلوباً لها، خلافاً للأسلوب التقليدي القائم على (نظام الحلقات)، والذي اعتمده الحوزة العلمية المذكورة.

وبذلك اعتبرت خطوة الجمعية في هذا المضمار خطوة رائدة في مجال تنظيم دراسة العلوم الإسلامية على مستوى المبادئ أو ما يسمى بـ(السطوح) في هذه الحوزة وسواها من الحوزات العلمية المرتبطة بها.

على أن فكرة الإصلاح هذه لم تكن في الأصل تصبو إلى تطوير وتنظيم شكلية الدراسة وحدها، وإنما كانت فوق ذلك تصبو إلى توسيع بعض الجوانب المنهجية في هذه الدراسة.. بحيث تستطيع أن تواكب النهضة الفكرية والتربوية الحديثة في حدود ما تمتاز به من جوانب إيجابية، إذ لا يمكن للدارس في عصرنا هذا أن يكون معزلاً عنها، طالما أريد له أن يشق طريقه ويؤدي رسالته بشكلها الأفضل.

هذه العملية أو الفكرة الإصلاحية القائمة على تنظيم وتطوير الدراسة في الحوزة المتمركزة في حاضرة النجف: ما لبثت - بالرغم من مواجهتها لبعض المعوقات - أن امتدت إلى تأسيس مدارس ذات مستويات أخرى، في نطاق النجف، أو في نطاق غيرها من المدن العراقية، والتي فُضت بها جمعية منتدى النشر دائماً أو سواها من الجمعيات والمؤسسات العلمية التي سارت على درب وفكرة هذه الجمعية.

(٢)

وأبرز ما يدل على نجاح هذه الجمعية في حركتها الإصلاحية المذكورة، هو قدرتها على استقطاب بعض شباب وفتية الحوزة العلمية وأمثالهم من الذين أدركوا أهمية الدراسة

(*) نشرت في مجلة الموسم الغراء العدد ١٦ (١٩٩٣م-١٤١٤هـ). وكان كاتبها الجليل يمارس - حينذاك - عمله في جامعة الملك عبد العزيز بجدة أستاذاً ومحاضراً.

المسلكية القائمة على الانتظام والذين برموا بأسلوب الدراسة التقليدية القائمة على (نظام الحلقات) وبخاصة بالنسبة إلى مستوى المبادئ.. هذا مضافاً إلى قدرتها الفعلية المتمثلة بأعداد وتخريج عدد من هؤلاء بكفاءة وحسن تطلع مع استعداد للسير في خطى هذه الجمعية، الأمر الذي عزز من قدرتها على العمل وحفزها على احتضان من ترى فيهم قابلية التدريس في ذات المدارس التي تخرجوا فيها..

(٣)

وكان من بين من آثرت الجمعية الاعتماد عليهم في هذا المضمار: الطالب النابه محمد صادق القاموسي، الذي عُيّن أول ما عُيّن إثر تخرجه وتفوقه مدرساً مُعيداً في بعض مدارس منتدى النشر الأولى للقيام بتدريس (علم المنطق) كمقرر من المقررات الدراسية المطلوبة. وقد أهلت إمكاناته العلمية المذكورة مع حدقه وثقافته العامة أن يوفق في عملية التدريس بشكل ملحوظ، ولا زلت أتذكر يوم انتظمت طالباً في بعض مدارس منتدى النشر قبل نحو من أربعين عاماً! إن المدرس صادق القاموسي كان من بين أكثر المدرسين حظوة وأبرزهم تأثيراً لدى طلابه، ليس فقط من ناحية قدرته على الانسجام والالتزام أو استعداده لفتح باب المحاوررة والنقاش معهم، وإنما من ناحية قدرته أيضاً على تطويع المادة وترويضها وإيصالها بسهولة إلى الأذهان.

على أن الملحوظ أن الأستاذ القاموسي كان يميل في طريقة تدريسه إلى اعتماد طريقة التحليل وسوق الشاهد والدليل وما سواها من وسائل تعميق المادة، دون الاكتفاء بمجرد العرض وطرح الفكرة بصورتها المبسطة.

ومعروف أن علم المنطق الذي كان قد عهد في تدريسه إلى القاموسي ربما يعتبر من الناحية المنهجية — كما خبرته دراسة وتديساً — من أكثر المقررات الدراسية صعوبة بالنسبة إلى مستوى الطالب المبتدئ، لذلك ليس من السهل على الأستاذ الناجح أن يوصل المعلومة المنطقية إلى ذهن الطالب دون أن يُوسّعها بالتحليل والتدليل، ودون أن يقرون درسه بالشواهد والتمرينات الصفية المختلفة.

على أن مادة علم المنطق، هي من المواد الأساسية، والمرتبطة كل الارتباط بمجال التخصص لطالب العلوم الدينية، فلا غنى ولا معدى عنها لهذا الطالب بوجه خاص.

(٤)

ومنهجية الأستاذ القاموسي المذكورة في التدريس والقائمة على التحليل وفتح باب

الحوار والمناقشة مع الطالب لتوسيع آفاقه وترويض ذهنه، لا تختلف — كما لاحظت — عن طريقته واسلوبه في كل ما يعرض له أو يطرحه من مسائل أو موضوعات أدبية واجتماعية، والتي اعتادت أو كانت مدينة النجف في الأصل تعتاد لمثلها خلال انعقاد مجالسها ونواديها العملية والأدبية المتكاثرة.

وقد أكسبته طريقته تلك والقائمة على الرغبة في الحوار والمناظرة خبرة ودرية واسعة في هذا المجال، وقدرة على إقناع الخصوم، إذ كان من الصعب على من يتورط معه في مناقشة موضوع أدبي أو فكري — شائك أو غير شائك — أن يتغلب عليه ويجعله يرضخ إلى وجهة نظره في الموضوع، حتى لو بدت وجهة النظر هذه كأنها سليمة أو معززة بالبيانات والأدلة. وتلك ميزة بل موهبة قل أن نلحظها ونلمسها في غيره من الأدباء والمفكرين ممن أتيح لنا معايشتهم والاتصال بهم عن كتب.

وغني عن البيان، ان هذه الميزة أو الموهبة تعطي صاحبها في كثير من الأحيان مكنة على التفوق والسيطرة، فيما يمكن ان يواجهه من مواقف صعبة وبخاصة في مجالات السياسة والفكر والعقيدة.

(٥)

ولم تكن مهمة الأستاذ القاموسي مهمة قاصرة على التدريس والعمل الأكاديمي الصرف فحسب، وإنما كانت مهمته تتسع للعمل الإرشادي أيضاً.. حيث اختير مرشداً عاماً للجان الطلابية التي شكلت إبان الدورات الأولى لكلية منتدى النشر، وذلك في كل ما يخص نشاطها الثقافي والاجتماعي المتمثل باصدار النشرات والمجلات الطلابية وإقامة الحفلات والندوات الخاصة.

والحق ان كلية منتدى النشر التي كانت في البداية تحمل اسم الجمعية قبل إطلاق كلية الفقه عليها: تميزت في فترة إرشادية أبي رشاد القاموسي بنشاط ملحوظ في مجال تحرير النشرات ونحوها حتى أصبح لكل صف من الصفوف الدراسية نشرة خاصة تنطق باسمه وتعتبر عن مدى نشاطه وعطائه. وقد حققت هذه النشرات — وكانت تسمى بنشرات الحائط — كثيراً من أهدافها وتطلعاتها في إيجاد نوع من التنافس والتباري بين الطلاب في التحرير والكتابة والنظم، مضافاً إلى عقد الندوات والحفلات الطلابية داخل نطاق الكلية.

وقد ساعد هذا النشاط الطلابي المتميز على إيجاد قابليات أدبية وفكرية طيبة عند فريق غير يسير منهم.. الأمر الذي حفز على توحيد تلك النشرات وإبرازها على شكل مجلة دورية تنطق باسم طلاب الكلية، وسميت عندئذ — وبعد صدور الاذن الرسمي لها — بمجلة

البذرة) وظلت هذه البذرة متنامية العطاء عبر أعوام دراسية عدة تحت إشراف الأستاذ القاموسي نفسه وبتحرير من (لجنة تآخي الطلاب) التي كانت تضم عدداً من الطلاب المنتظمين بالإضافة إلى بعض الخريجين - وكنت منهم - .

ولا يغرب إطلاقاً عن محييتي ان الأستاذ القاموسي في مهمته المذكورة، لم يكن يكتفي بمهمة الارشاد أو الاشراف على ما ينشر في المجلة من بحوث أو مقالات طلابية أو نحوها، وإنما كان - إذا ما دعت الحاجة أحياناً - يتولى بصورة فعلية عملية تحرير المجلة بما في ذلك الاخراج والتبويب، وحتى كتابة المقالات الافتتاحية أو الانطباعات الخاصة للمجلة.. بل انه كان إذا ما عزّ علينا الموضوع الذي نريد نشره أحياناً - لا يجد حرجاً في أن يتولى بنفسه كتابة هذا الموضوع، ونشره باسم أحد الطلاب أو باسم مستعار حرصاً على استمرار صدور المجلة، وحفاظاً على مستواها الفكري.

وبهذا النحو من الرعاية والاخلاص والعمل الدؤوب استطاعت (المجلة) في ظرف أعوام معدودة أن تفرض نفسها على قاعدة عريضة وواعية من القراء، وأن تحتل من وراء ذلك مركزاً قد لا يقل عن مراكز بعض الجلات الأدبية المعروفة في الوطن، الأمر الذي جعلها مرفداً من مرفاد النجف الفكرية بالرغم من كونها طلابية، إلى جانب كونها مرفداً أو منسباً من منابر جمعية منتدى النشر ومؤسستها الثقافية.

(٦)

ولما اضطرت (البذرة) إلى الاحتجاج عن الصدور بعد احتجاج الكلية التي تشرف عليها ذاتها - وهي كلية منتدى النشر - ولما قامت أواخر الخمسينات (كلية الفقه) بعد الاعتراف الرسمي بما على أعقاب الكلية المذكورة التي رؤي إعادة تنظيمها وتطويرها على أسس جديدة: فقد تحولت تلك (البذرة) إلى بذرة تنطق - هذه المرة - باسم (ثانوية منتدى النشر) باعتبارها واحدة من مؤسسات (الجمعية)، حيث غدت في طورها الجديد مجلة بمستوى طلاب هذه المرحلة الدراسية، وظلت متواصلة الصدور دون ان تخرج عن البرنامج أو الهدف العام الذي وضعته (بذرتنا) الأولى.. وان اختلف المستوى واختلف المرشد والطالب.

ولذلك عمدت (كلية الفقه) بعد انبثاقها إلى احتواء (مجلة النجف) لصاحبها الأستاذ السيد هادي فياض الذي تفضل مشكوراً بالتنازل عن كل ما له من حقوق أدبية وامتيازية فيها..

ومما لا حاجة فيه إلى التأكيد ان هذه المجلة في مسارها الجديد قد تأثرت هي الأخرى -

ولو إلى حد يسير - ببرنامج تلك البذرة الأولى وبأهدافها الفكرية والتربوية، التي كان الراحل القاموسي قد أسهم في رسمها ووضعها.

(٧)

هذا.. وظل نخبة من طلاب كلية منتدى النشر ومدارسها الأولى: بالرغم من مضي فترة على تخرجهم وابتعادهم عن الأجواء الدراسية واللجان الطلابية وما يصدر عنها من نشرات أو مجلات، على صلة وثيقة ومتنامية بمرشدهم الأستاذ القاموسي وبالكلية التي احتضنتهم، وكأنهم بذلك أرادوا - وأنا من بينهم - أن يبرهنوا على ان المهمة الارشادية للأستاذ القاموسي لا يمكن أن تفصلها أو تعزها سنوات ما بعد الدراسة، طالما ظلوا متطعين بنفس الروح إلى مواصلة المعرفة وتحقيق الهدف؛ وطالما ظل القاموسي، كما هو، وأينما هو، يوسعهم بفكره المتفتح وذهنه الوقاد.

لذلك لم يفهم - وقد تخلقوا حول القاموسي وتوثقوا به - أن يعمدوا إلى إنشاء بعض التجمعات أو اللجان الخاصة في إطار جمعية منتدى النشر، وبالشكل الذي يحقق شيئاً من أهدافها وأهدافهم الثقافية والاجتماعية.

ولعل من أبرز ما كانوا يسعون جاهدين إليه في هذا المضمار: هو العمل على إقامة الحفلات والندوات الفكرية، وما يتصل بها من إلقاء المحاضرات وإعداد البحوث، وقد كان لهم بالفعل ما أرادوا، وتشهد لهم بذلك قاعات الجمعية وكثير من أروقة المساجد والمدارس الدينية أو النوادي والحافل التي تتخذ من البيوت الخاصة مراكز لها.

كذلك عملوا، أو بالأحرى حاولوا أن يعملوا على أداء بعض الخدمات الاجتماعية التي تصب في خدمة هذه المدينة وتصبو إلى التعريف بها، ومن ذلك ما رأوه من وجود الحاجة إلى إرشاد بعض الوافدين في مهمات علمية إلى هذه المدينة بغرض تعريفهم ببعض معالمها الحضارية والأثرية - وبعض أنماط الدراسات الحوزوية ومدارسها، وما يتصل بذلك كله من نوادي النجف ومجالسها وجمعياتها الأدبية.

كما حاولوا على صعيد آخر - بمشاركة الأستاذ القاموسي ومعاذته - أن يعملوا وسعهم على رعاية كل ما يتصل بالصحن الشريف لمرقد الامام علي (ع) من النواحي التنظيمية خلال بعض المواسم الدينية التي تكتظ بها هذه المدينة المقدسة.

وتقوم هذه الفكرة أساساً على انتداب فريق من الشباب بصورة طوعية، مع استئجار لفييف من العمال خلال تلك المواسم للعمل على تنظيم ما يقع ضمن دائرة الصحن الشريف

من منافع، وإزالة أو إبعاد ما قد يحصل حولها من مخلفات أو مخالفات سلوكية.. لا تليق
وقدسية الحرم وطابعه الاسلامي..

وقد تمّ بالفعل مفاوضة عدد من تجار النجف وبغداد لدعوتهم إلى الانفاق من كيسهم
الخاص على هذا المشروع باعتباره مشروعاً خيرياً.. فوجدنا كثيراً من التجاوب في هذا
المضمار، ولكن المحاولة باءت — وهي في مهدها — بالفشل نظراً لمعارضة بعض الجهات
العنية بخدمات الصحن الشريف، ومن بينها سدنة الروضة وبلدية النجف، لتصورها بأن
ذلك قد يعطي انطباعاً — وهو كذلك — عن تقصيرها في أداء الخدمات الموطأة بها..

ولو قدر لهذه المحاولة أو الفكرة أن تمضي في سبيلها والتي كان للقاموسي دور في بلورتها
وبروزها لجنبتنا هذه المدينة المقدسة بعضاً من مظاهر الفوضى التي عاشتها كظاهرة ملموسة.

(٨)

... وعلى صعيد آخر كان وظلّ القاموسي الراحل شديد الحرص على أن ينال حظه من
بعض وجوه الثقافة والمعارف الحيوية الحديثة، فما إن أذن في نطاق جمعية منتدى النشر خلال
بعض العطل الصيفية، وإبان الخمسينات: بفتح بعض الدورات أو الدروس الخصوصية، مثل
دورة مسك الدفاتر التجارية ودورة بعض العلوم الرياضية، مضافاً إلى دورة مبسطة لدراسة
اللغة الانجليزية.. حتى تناهد نفر من الطلاب وغيرهم يتقدمهم أستاذهم القاموسي إلى
حضور واحدة أو أكثر من هذه الدورات المؤقتة، وبذلك صار القاموسي يجلس طالباً إلى
جانب بعض طلابه ومن بمستواهم ممن تاقه وشاقه الدخول إليها دون أن يداخله أي ضرب
من التعالي أو الاستكاف!

وكان لدورة العلوم الرياضية التي صرت واحداً من طلابها إلى جانب القاموسي الذي
حرص في الانتماء إليها بالذات: منهل وطعم خاص، وذلك بما أضفاه أستاذ الدورة
المتخصص السيد كاظم الحويطي طاب مثواه من حرص على تكتيف المادة وتوسيعها
وتوصيلها إلى الأذهان.. إلى حد أنه كان يوصل الساعة تلو الساعة يومياً في عملية التدريس
وما يرتبط بها من حل المسائل والتمارين.

ولا أكاد أنسى — كدليل على طول المحاضرة وكثافتها وسماحة الأستاذ وفضله — أن
الزميل القاموسي! كان كثيراً ما يستأذن أستاذه للخروج من المحاضرة لبعض شأنه، ثم العودة
إليها بعد فترة غير يسيرة، ليجد الأستاذ ماضياً ومنسجماً في إلقاء محاضراته.. وفي حدود
تجربتي فإن دراسة العلوم الرياضية تتطلب، بشكل خاص، المواصلة في دراستها لأكثر من
حصة في كل يوم دراسي.

وكانت طبيعة المادة وعمقها وشغف الأستاذ بما وهادفته لإفادة طلابه: عوامل مهمة في نجاح الدورة وتواصلها.. الأمر الذي مكن جملة من طلابها — وأنا من بينهم — على تناوش حد المائة أو ما يناهزها من الدرجات عندما وفقنا لأداء بعض الاختبارات الوزارية إبان الخمسينيات كطلاب خارجيين في مرحلة البكالوريا، والأمر الذي مكنتني بصفة خاصة من تدريس هذه المادة سنة ١٩٦٤ كمدرس معيد إثر تخرجي من كلية الفقه في بعض صفوفها التحضيرية.

(٩)

وفي أواسط الستينيات وإثر رحيل عمنا وأستاذنا الخالد الذكر الشيخ محمد رضا المظفر ومؤسس جمعية منتدى النشر أراد لنا الأخوة من أعضاء الهيئة العامة في هذه الجمعية أن نتظم في عضوية هيئتها الادارية العاملة، لتزامل بذلك بعضاً من أساتذتنا، وبضمنهم القاموسي. وآخرين من زملائنا الأفاضل.. وتظل هذه الزمالة قائمة عبر حفنة لاحقة من السنين حتى صدور النظام الجديد الذي قضى بخلق وإذابة بعض الجمعيات الأدبية.

ومعروف أن مسؤولية العضوية في هذه الجمعية، كانت — وبخاصة في بحر الستينيات — مسؤولية تتسم بالأهمية وتقل الأعباء. وذلك نظراً لاتساع أعمال الجمعية وامتدادها لأكثر من مجال، فهي في الوقت الذي تنهض بمهمتها الرئيسية في الاشراف على إنشاء وإدارة المدارس على اختلاف مراحلها بما فيها كلية الفقه التي لا تزال قائمة، وان تناوشتها يد الترسيم! تنهض أيضاً بالاشراف على نشر بعض الكتب وإعداد البحوث وإصدار بعض الدوريات كاخجلة ونحوها. كما في الوقت الذي تقوم بادارة وتوسيع نطاق مستوصفها الخيري والاتفاق عليه، تقوم بالاشراف على إقامة الحفلات والندوات العامة، والمشاركة في بعض المؤتمرات والحوافل العلمية، ونحوها من الأنشطة والمهام.

ومما لا ريب فيه أن صادقاً القاموسي كان في طبيعة من تحمل جانباً غير يسير من هذه المهام، بل صار له دوره في مضمار تطوير وتحديث بعض ما يتصل بذلك من أنشطة ومؤسسات.

على أن آراءه وتصوراته في هذا المضمار وفي كل ما يطرح للمناقشة في الجمعية من موضوعات وما يصدر عنها من قرارات، كانت — كما لمست — موضع عناية خاصة من جميع الأخوة والأعضاء، وذلك لما عرف عنه من موضوعية ولهجة صادقة، مضافاً إلى ما كان يتمتع به من خبرة ممتدة ودراية واعية في شؤون الجمعية وفي مجال القضايا العامة التي تتصل بقراراتها وأهدافها.

يضاف إلى ذلك ان القاموسي ظل حريصاً، وبخاصة قبل انصرافه وخلوصه تماماً للعمل التجاري ببغداد، على حضور معظم جلسات الجمعية واجتماعاتها، لذلك لم تمنعه مشاغله باستثناء الفترة الأخيرة من عمر الجمعية من السفر إلى النجف كلما دعي لهذا الغرض. وكثيراً ما كنت والأستاذ الزميل السيد محمد الجصاني عضو الجمعية الآخر نصحبه في رحلات متتابة إلى النجف، عندما قدر لنا أن نقيم تلك الفترة ببغداد، وذلك لغرض حضور تلك الجلسات أو المتابعة ما يمكن ان يستحدث أو يستجد من شؤون الجمعية.. لا يحده في ذلك ولا يحدونا سوى الخدمة العامة المتمثلة في خدمة الجمعية وأغراضها الخيرة، علماً بان القاموسي - وقد رأت الفرصة لبيان ذلك - لم يكن يرجو، ولا أي عضو آخر نظيره: أن يتقاضى أجراً أو مغنماً عن أي شأن من شؤون الجمعية باعتبار هذه العضوية بل إنه كان لا يحجم وبعض من أعضاء الجمعية - ممن يسر الله لهم في الرزق - عن مساعدة الجمعية للانفاق على جانب من شؤونها، وبخاصة خلال بعض الفترات العصيبة التي مرت بها الجمعية. وتشهد بذلك أضيائها وحساباتها المالية.

* * *

ومثلما استطاع الأستاذ القاموسي - كما لاحظنا - ان يولي اهتمامه في خدمة الجمعية وأغراضها من وجه عام، فقد استطاع أيضاً أو يولي اهتمامه ويوسع جهده في مجال تنظيم وتقوم حسابات الجمعية بوجه خاص، وذلك عندما أئيط به، باعتباره عضواً إدارياً، مهمة الاشراف على هذه الحسابات.. حيث يادر فور انتخابه لهذا المنصب إلى القيام بمجرد حسابات الجمعية وأوراقها الخاصة بدءاً من تاريخ تأسيس الجمعية وعبر سنواتها الطويلة اللاحقة، ثم قام بتحويلها بعمل دؤوب إلى دفاتر حسابية موثقة ومتسقة مع أحدث الطرق، والنظم الحسابية المريحة آنذاك في مسك الدفاتر، بما في ذلك لزوم خضوعها للرقابة وللتصديق والتوثيق من قبل الكاتب العدل في منطقة النجف القضائية والادارية، علماً بان ذلك كله. كما أوضحنا، إنما قام بعمل وجهه شخصي ملموس، رغم ما واجه القاموسي في النظام الحسابي الذي كان سائداً من بعثرة وشتات، والذي يعبر عن طبيعة وظيفية المرحلة التي مرت بها الجمعية، ورغم ما لوحظ أيضاً من اتساع حجم القنوات الحسابية الخاصة بمهام الجمعية وأنشطتها المختلفة.

ومن ثم فقد ظل هذا النظام الحسابي الدقيق المقرون بكثير من الجهد الذي وضع أصوله الأستاذ القاموسي، مريحاً في كل ما مر على الجمعية بعد من سنوات مالية، حتى عندما

صارت حسابات الجمعية في عهدة أحد المتخصصين في المجالات الحسابية ممن اعتاد أن يتقاضى أجراً أو مكافأة شهرية. كما ستظل من جهة أخرى هذه الحسابات رغم غياب الجمعية عن مسرح الحياة بعد انحلالها: شاهداً ناطقاً على الخدمة الطوعية الصادقة التي أبلاها وأولاها القاموسي وصحبه في هذا المجال، وغيره من المجالات التي سلكتها الجمعية، كذلك ستظل تلکم الحسابات شاهداً صادقاً آخر على انضباط ودقة أعمال الجمعية، وسلامة نية أعضائها وخلصها لوجه الله تعالى وللصالح العام.

(١٠)

وعلى صعيد آخر ظهر القاموسي كأديب وكاتب أسهم في غير ما مجال من مجالات المعرفة، حيث اختير في سنوات عقده الثالث عضواً عاملاً وعالمياً في (الجمع الثقافي) التابع لمنتدى النشر، وفي هذا الاطار واصل الأستاذ القاموسي عمله بحضور معظم اجتماعات الجمع وجلساته النظامية، ثم باعداد ما يتيسر إعداده من البحوث والمقالات، وما يجدر إلقاؤه من المنظوم والمنثور ضمن برنامج الندوات والحفلات التي كان يقيمها أو يتبناها مجمعا الثقافي.

ولعل الذاكرة لا تخونني بأن بعضاً من هذه البحوث والمقالات قد تم بالفعل نشرها ضمن ما صدر للمجمع من (مجموعات) أدبية وعلمية، ومن بينها المجموعة التي نشرت باسم كتاب (أسبوع الامام) علي عليه السلام، والتي لم تتوافر نسختها لدي الآن للتوثيق من محتواها.

كما أحسب أيضاً ان القاموسي يرحمه الله كان قد أعدّ بحثاً أدبياً مسهباً للنشر ضمن سلسلة الكتب الصغيرة التي كانت تصدر عن المجمع تلك الفترة، بيد ان هذه السلسلة توقفت في وقتها عن الصدور لظروف مالية، وان الكتاب ظل أدراجه ضمن الكتب والبحوث التي لم يتسن لها ان تشر.

* * *

أما في مجال الشعر بوجه خاص، فقد ظهر القاموسي كشاعر مرهف، في وقت مبكر كذلك، من شبابه، وساعده على ذلك محيطه وبينته البلدية، وانتماءاته إلى غير ما جمعية أو مجموعة أدبية، وكانت في النجف يوماً تتشكل كثير من هذه المجموعات لتزاول اجتماعاتها ولقاءاتها بشكل دوري أو عفوي ضمن إطار المجالس والبيوتات النجفية الخاصة، ولتقرأ أو

تلقى فيها بعض النتاجات الأدبية لبعض أعضائها، أو لبعض من شعراء العربية وأدبائها المعروفين عندما تظهر لهم نتاجات جديدة.

وكانت تمارس في الأصل ضمن هذه اللقاءات عملية النقد والتحليل لكل ما يُقرأ على المجموعة من هذه النتاجات، بل ولكل من يطرح اسمه كأديب وشاعر في هذا النطاق لغرض تقويمه وتبيين ملامح شخصيته الأدبية والفكرية.. كل ذلك كان يجري بنسزاهة وبموضوعية وصدق، مع تطوع إلى توسيع آفاق هذه المجموعة أو تلك، وتنمية قدراتها الأدبية.

وهكذا بالفعل كانت تتفتح وتنمو هذه القابليات والقدرات الأدبية في النجف وترتبتها الفكرية الحسنة؛ وهكذا نشأ شاعرنا وأديبنا القاموسي في مثل هذه الأجواء التي قلّ نظيرها في عالمنا العربي المعاصر، حتى هيأ له أخيراً أن يبرز كأديب وكشاعر مبدع ومرموق.. بحيث صار يتطلع الجميع إلى إسهاماته شأن غيره من الشعراء المرموقين كلما عقدت ندوة أو حفلة في نطاق النجف أو غيرها من المدن العراقية.

لكن قدرته انه كان غير ميال إلى المشاركة كثيراً في هذا النحو من الحفلات والندوات العامة؛ وإنما كان يختار منها ما يتلاءم ومسلكه أو طبعه الخاص، وما يتناسب مع تصوراتها الخاصة للظرف والمناسبة التي تقام من أجلها الحفلة أو الندوة.

على ان أكثر مشاركاته تلك القليلة كانت تدور في نطاق ما تقيمه جمعية منتدى النشر ومؤسساتها من حفلات، باعتبارها تتميز في الأغلب بطابع عام ولا تنطلق إلا من هدف عام. وكان القاموسي يعد، إذا ما شارك في هذه المحافل، من أوفرهم حظاً وأجودهم نجاحاً في طريقة إنشاده للشعر - وللشعر طريقة خاصة في الانشاد - ومن أكثرهم قدرة في السيطرة على جمهوره من المستمعين.. لذلك صار البعض من أقرانه يغار إذا ما شاركه الحفلة، لأن الحظ قد لا يحالفه في طريقة الانشاد أو التفاعل مع الجمهور، بالرغم من معرفيته وذووع صيته في الأوساط، وليس ببعيد عني - وان طال المدى - ذلك النجاح المتميز الذي نالته قصيدته التي أنشدها بمناسبة وضع الحجر الأساسي لمبنى منتدى النشر الذي احتوته الآن دورة الصحن الشريف، أو تلك التي أنشدها في حفلة من حفلات مولد الامام الحسين عليه السلام.

* * *

هذا والملاحظ للمنتفع ان شعر القاموسي كان يتسم في جملته بنحو من الدقة والرفقة، مع القدرة الفائقة على التصوير والأداء والتفاعل مع الحدث أو القضية التي ينظم لها، دون ان

ينحو في ذلك كله إلى المبالغة أو الاغراق.

ثم ان مما يدل على بروز القاموسي كشاعر مرموق، أننا - نحن الذواق للشعر - كنا حين تعقد مثل تلك الحفلات ويشارك فيها القاموسي ونظراؤه نحار - إذ نتحاور في بعض الأحيان - على تفضيل بعضهم على البعض الآخر، في هذا البيت أو ذاك وفي هذه القطعة أو تلك من أشعارهم.. الأمر الذي يؤكد ان القاموسي كان قد احتلّ موقعا بارزا لا يقل عن موقع غيره من الشعراء المرموقين الذين عاصروهم وناظرهم إلا في الشهرة.

* * *

ولكن مع كل هذا الذي رأيناه وخبرناه من شاعرية الأستاذ القاموسي وقدرته الأدبية والفكرية، فقد آثر في الآونة الأخيرة من حياته وبخاصة بعد خلوصه للعمل التجاري الخاص بجعل الكتب: ان يجنب نفسه عن المسرح العام ويتعد عن الساحة الأدبية المنظورة بكل ما لها من بريق ولعان وشهرة، فلا تجد له مشاركة في مؤتمر أو مساهمة في حفلة أو ندوة من الندوات المشهورة، بل ولا تطلع إلى نشر كتاب أو ديوان ونحوها من انتاجاته الفكرية. وبحسباني ان هذا الذي اختطه وارتضاه كمسلك لنفسه تابع من فلسفة خاصة ومنظور واع للحياة.. ذلك ان ظهوره على المسرح كأديب ومفكر متواصل الانتاج قد يفرض عليه بعض الالتزامات التي لا يريد لها لنفسه والتي ربما تجعله في حرج من أمره.

(١١)

وآخر المطاف نستطيع من خلال كل ما أوردناه وما أثرناه من انطباعات خاصة عن سيرة أو رحلة فقيدنا القاموسي في هذه الحياة عبر نشاطه وخدماته في جمعية منتدى النشر ومؤسساتها المختلفة: ان نسجل للتاريخ بصدق ووثوق: ان القاموسي طيب الله مثواه كان من بين القلائل الذين نذروا أنفسهم للمصلحة العامة بكل ما لها من وجوه وأبعاد، إذ لم يكن يحدوه وهو يمارس خدمة أو عملاً من الأعمال العامة أو قضية من القضايا الوطنية سوى وجه الله تعالى، وتحقيق الخير لعقيدته وأمه ووطنه.

ذلك ما نشهد به، وذلك ما سيشهد به التاريخ لو كتبت عن موضوعية وتجرد أحداثه.

من ذكرياتي مع الأستاذ القاموسي (★)

الأستاذ سالم الألوسي

ذكرياتي مع صديقي وحيبي الغالي الفقيه الأستاذ القاموسي تعود إلى أواخر الستينات، وعندما أتذكر أبا رشاد أتذكر الطيبة والعلم الوافر والكرم النفسي العالي والثقافة الموسوعية، كانت الفرصة التي وثقت الصلة بيننا أكثر فأكثر هو مهرجان النجف الشعري الأول عام ١٩٧٠ الذي أقيم في النجف الأشرف وكلفت باسم وزارة الثقافة والاعلام لأترأس وفداً باسم الوزارة بالتوجه إلى هذه المدينة المقدسة، وكان المرحوم الفقيه في مقدمة الذين استقبلونا في هذه المدينة، وقبل ذلك كانت هناك ندوة تلفزيونية لهيئة الأذهان والتحضير لهذا المؤتمر الشعري الكبير. فقد اتصل بي تلفونياً - متصرف كربلاء الأستاذ شبيب المالكي - وكنت يومها - مدير الثقافة العام في الوزارة - وقال ان هناك جماعة من الأدباء والشعراء في النجف سيصلون بغداد ويتصلون بك لأجل إقامة ندوة تلفزيونية تمهيدية لمهرجان النجف الشعري الأول، فاستقبلت الوفد وكان المرحوم الأستاذ القاموسي من بينهم وأقام لنا مأدبة عامرة في بيته، وفي هذه الدعوة وضعنا منهاجاً للندوة التلفزيونية وقد أعجبت بذكائه المفرط وألمعيته في وضع الأسئلة وماذا سيدور في هذه الندوة وإعجابي منذ تلك اللحظة كان يتضاعف يوماً بعد يوم، وفي كل يوم كانت تظهر مآثرة جديدة لأبي رشاد. وبعد ذلك كنا نتزاور بين الحين والحين وتوثقت الصلة بيننا أكثر فأكثر في مجلس الأستاذ محمد جواد الغبان ومجلس الأستاذ مكي السيد جاسم وكان في الحقيقة شعبة المجلس والضوء اللامع في تعليقاته الذكية المرحية، وكنت في يوم من الأيام أدون بعض الأبيات لأبي تمام يقول فيها:

من لي بانسان إذا أغضبتَه وجهلت كان الحلم ردَّ جوابه

وإذا طربت إلى المدام شربتُ من أخلاقه وسكرت من آدابه

فكأن يصغي للحديث بقلبه وبسمعه وكأنه أدرى به

فالتفت إليّ قائلاً: يا أبا زينب لماذا تسجل هذه الأبيات وما الذي أعجبك فيها؟ قلت:

أعجبتني فيها ألها تنطبق عليك، فضحك وضحكنا.

(★) ارتجلها في ندوة الغبان ببغداد بمناسبة مرور سبعة أيام على رحيل القاموسي. ونشرت في مجلة الموسم

لقد فقدنا في أبي رشاد رجلاً عالماً جليلاً وصديقاً وفيّاً وليس لي ما أقوله في هذه العجالة إلا الاستشهاد بقول الامام الشافعي (رضي الله عنه):
 إني مُعزّيكَ لا إني على ثقةٍ من الحياة ولكن سنة الدين
 فلا المُعزّي بباقي بعد ميتته ولا المُعزّي وإن عاشا إلى حين
 رحمة الله عليك يا أبا رشاد وأسكنك فسيح جناته وإنا لله وإنا إليه راجعون.

١٩٨٨

درس المعارف الاسلامية وتذوق بحاسة الشاعر
 - وإن يكن كرفيقه الحكيم لا ينظم - مواطن
 الجمال والروعة في الأدب العربي القديم فاحتسى
 أكواباً مترعة منه، والتفت بعد ذلك إلى الأدب
 المعاصر ناهلاً منه ما عذب وساغ فنشأ كاتباً طريف
 الفكرة، خضل الاسلوب ريان الحديث كروحه، في
 خياله سمو ورفعة.

عبد النبي الشريف

ومضان الشباب/٤٥

قراءة في شعر صادق القاموسي

الدكتور نعمة رحيم العزاوي

بين يدي ديوان المغفور له الشاعر الكبير الأستاذ صادق القاموسي، وهو ديوان يتميز بغزارة القصائد وكثرتها، وتعدد موضوعات تلك القصائد وتنوعها، فلا يكفي لاستجلاء ما فيه من روعة الفن، وشعرية الأداء، أن تنظر فيه نظراً سريعاً، بل إنه ليحتاج منك إلى طول صحبة، ودوام نظر، حتى يتكشف لك عما أودعه فيه صاحبه من سمات الابداع.

وإن أول ما يلفتك في هذا الديوان، انتماء صاحبه إلى الموروث الجيد من الشعر العربي، فلا تخطئ أن تجد فيه ريح المتنبي والشريف الرضي من الماضين، ولا تعدم ان تلوح لك منه، سمات الكبار من شعراء هذا العصر كالشوقي والشبيبي والجواهري ذلك أن القاموسي نتاج مدينة العلم والشعر في العراق، وأعني بها مدينة النجف الأشرف.

فلا غرو ان يتأثر هذا الشاعر بمن أحبه، وأدمن قراءتهم من شعراء العربية الكبار، أو حالطهم وعاش بينهم من الشعراء المحدثين، فنضجت موهبته كأحسن ما يكون النضج، وتفتحت قريحته على نحو مكنه من أن يصوغ أجمل الشعر، ويبدع أروع القصيد.

وإذا قلنا ان موضوعات قصائده متعددة، فذلك لأن لونين من العواطف قد هيمننا عليه، الأول الحب، وأعني به حب الطبيعة وحب المرأة، وحب الوطن، والثاني الوفاء لمن درس عليهم أو خالطهم من أعلام مجتمعه، فكتب في رثاء من توفي منهم، وفي الاشادة بمن دعتهم المناسبات إلى تكرمه أو التوثيق به. ومعنى ذلك انك لا تقرأ في ديوان صادق القاموسي شعراً ليس للقلب سلطان عليه، أو ليس للوجدان أثر فيه، كالذي تقرؤه في بعض دواوين شعراء هذا العصر، من مدح زائف، أو رثاء مصطنع، أو تعبير عن عواطف لا حظ لها من العمق، ولا مسحة عليها من الصدق.

وأما أثر التراث في شعر القاموسي، فيتجلى في مفرداته وتراكيبه.

فأما المفردات فيكثر في شعر القاموسي ما يسمى منها بالألغاز (القاموسية)، وهي ألفاظ يستعيرها الشاعر ممن أطال صحبتهم من الشعراء القدماء، أو يقتبسها ممن عاصروهم من الشعراء المحدثين المتأثرين بالأعلام من القدماء.

وإذا شئت نماذج من هذا الضرب من المفردات، فها أنا ذا أسوق لك منها قوله:

أدريت من شرك الغرام رشائي وملاّت من ديمّ الهموم وعائي

ففي هذا البيت مفردتان (قاموسيتان)، يندر أن تجدهما عند أحد من شعراء هذا العصر،

لأنقطاعهم عن التراث؛ وصدوفهم عن قراءته، فأما المفردتان فهما (الرشاء) وهو الخبل،
(والديم) وهي جمع ديمة بكسر الدال، أي المطر الدائم.

وتكررت لفظة الديمة في هذه القصيدة حين قال:

خاطبته والدمع من وطفانسه (ينهل مثل الديمة الوطفاء)

وواضح أن الشاعر لم يكتف بـ(الديمة) وهي المفردة التراثية؛ بل شفعها بوصف القدماء
لها، فقال (الوطفاء) أي المسكوبة. وقد بلغ من ولوع الشاعر بالتراث، أن انسابت في بعض
قصائده تعبيرات اقتبسها من القدماء، كعجز البيت السابق المقتبس من بيت للأرجاني:
واقتبس بعضها الآخر من القرآن الكريم، كقوله في القصيدة نفسها:

وتبخترت (بنت الزمان) بدلها لما أنت تمشي على استحياء

وواضح ان العجز مقتبس من قوله تعالى (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء)
[القصص: ٢٥]. ولا يخفى انه كنى عن الحمرة بكنية قديمة، تخلى عنها الشعراء المعاصرون.
لأنهم يجهلونها، وهي وصفه لها بـ(بنت الزمان)، إشارة إلى قدمها وعنقها.

وربما دفعه إيناره للفظه التراثية، إلى إيراد اللفظ الغريب، غير المحبب إلى السمع،
كتعبيره عن النفس بـ(الحوياء)، وهي لفظة لا تخلو من جفاء، وثقل ظل، قال:

وسعت رحبي وانثيت معانقاً أمل الحياة ومئية الحوياً

ومن المفردات القاموسية التي هجرها الشعراء في هذا العصر، حتى أولئك الكبار الذين
تأثر بهم في مدينته، كلمة (الإنضاء) وهي مصدر قولهم: (أنضى الراحلة) أي هزها، وأنعبها
بكثرة السفر. قال الشاعر في القصيدة نفسها:

أذنت بصوت للرحيل وأقبلت تسعى وهمّ الركب للإنضاء

ومما أورده القاموس من مفردات تراثية، كان بوسعه ان يطرحها لثقلها؛ لولا شغفه
بالقديم، وتضلعه من لغة الشعراء القدماء، قوله في هذه الهمزية:

يا لانمي كَفّ الملام فان لي أذنا قد أستكتت عن الفحشاء

ولا شك في أنك واجد في لفظة (استكتت) بمعنى (صمتت) أو (انسدتت) ثقلاً
واستيحاشاً، لا يناسبان ما اتسم به شعر القاموسي من رقة نسج، وعضوية أداء. فإذا زدنا
على ذلك أن الشاعر يتغزل، صارت اللفظة غير ملائمة لموضوعها، بل نافرة عن موقعها.

ومما اقتبس القاموسي في هذه القصيدة من شعراء العربية الكبار، قوله:

أنكرت فيك أحبي وخلعت مسن أجل الهوى أكرومي وحياني

فتعبيراً (أكرومي) و(حياني) مقتبساً من قول الشريف الرضي في رثاء والدته إذ قال:

طورا تكاثري الدموع وتسارة آوي إلى أكرومتى وحيائي

وكما اتسمت مفردات القاموسي بأنها تراثية، كذلك غلبت الجزالة ومثانة السبك على تراكيده، وان هذه المزية تتضح في جميع قصائده، ومن أمثلة ذلك قوله في رثاء المرحوم الشيخ محمد رضا الشيبلي:

لو كان قتلك أمرها الأعمارُ لفدتك بالعدد الكثير الدار
ولعاقرت ضرب القداح على الردى حتى يبين عن (الرضا) المقدار
أولست بانيتها وحارس مجدها ونصيرها إن قلت الأنصار

فالأبيات الثلاثة المتقدمة تتسم بإحكام النسيج، بل إن الشاعر يعيد فيها إلى الأذهان قضية افتداء الأجزاء من الرجال، بطريقة ضرب القداح، وهي طريقة استعملها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله، في افتداء ولده عبد الله، حين أخذ يرمي القداح، وقد وضع لافتداء ولده مئة من الابل. وقد خرجت القداح تسعاً وتسعين مرة تصرّح بعبد الله، وفي المرة المئة خرج السهم يصرّح بالابل. يعيد الشاعر القاموسي هذه القضية إلى الأذهان، ويتمنى أن تستعمل هذه الطريقة في افتداء الشيبلي، ومنع الموت عنه.

والآن يرد السؤال الآتي: هل مرّ بي في أثناء قراءة ديوان القاموسي، شيء يخالف فيه الشاعر قواعد الصرف والنحو؟

نعم؟ لقد وقفت على مواضع خالف فيها الشاعر الصرف، ومنها قوله:

وارفق بقلب المستهام فقد ذكت أفلاذه من شدة البرحاء

جمع الشاعر كلمة (فلذة) وهي القطعة وزناً ومعنى، على (أفلاذ) والصحيح (فلذ) مثل كسرة وكسر وسدرة وسدر. وإذا كان الوزن قد أجبر الشاعر على (أفلاذ)، فقد كان بوسعها ان يجمعها جمع مؤنث سالماً فيقول (فلذات) فلا يخل حينئذ بالوزن. ومن ذلك قوله:

سرّفته اعلانا وراحت تشتكى ظلمي وتصرخ صرخة الشكلاء
استعمل الشاعر (الشكلاء) والصواب (الثكلى) أي المرأة الفاقدة لولدها.
وقوله:

يا مالكا بالدمّ عرش الإساء وضامنا بالموت طول البقاء
أورد الشاعر كلمة (الدمّ) مضعفة، والصواب أنها مخففة.
وقوله:

يا طرباً أشجى وكم هيّج حزناً طرباً

لقد كان الصواب ان يقول (شجا) مجرداً من الهمزة، إذ تقول العرب: (شجاني اللحن) أي حزني وهو من (الشجو) أي الحزن، أما قولهم (أشجى زيد خالداً) فمعناه (أغصه) مأخوذ من (الشجى) وهو عظم يعترض الحلق عند الطعام. وقوله:

وكانه الملك الذي يؤذيه أن يرتاح شعب أو يسان ذمار

الصواب ان يقول الشاعر (يستريح) من الراحة، أما الارتياح فهو الاهتزاز للكرم^(١).
وأما مخالقات القاموسي النحوية فمنها قوله:

فارحم مدامعي الغزيرة وآنند - يا منية الحوباء - هدر دمائي

لقد ظن الشاعر أن الفعل (آنند) ومعناه (أبطأ) أو (وئى) فعل متعد فنبه به كلمة (هدر) على أنها مفعول له، في حين ان (آنند) فعل لازم، إذ يقال (آنند في سيره). ولكن يمكن ان نلتبس للشاعر وجهين نسوِّغ بهما نصب كلمة (هدر): الأول أنها نصبت بنزع الخافض، كأنه قال (آنند في هدر) ثم نزع حرف الجر فانتصب ما بعده. والثاني ان يكون قوله (هدر دمائي) كلام مستأنف، لأن الكلام تم عند قول الشاعر (آنند يا منية الحوباء) ثم استأنف بأسلوب التحذير، وهو يستدعي نصب المحذر منه، كأن يقال: (الكذب) أي احذره. فكان الشاعر قال (آنند يا منية الحوباء) واحذر هدر دمائي. وكلا التخريجين فيما أزعم لم يخطر ببال الشاعر، بل ساقه إلى هذا التعبير ظنه أن الفعل آنند متعد.

وعلى الرغم من اني وصفت الشاعر بمتانة النسيج في جملة شعره، إلا اني وقفت عنسد تراكيب يمكن وصفها بالضعف والتهافت، بل بالذنو من العامية، من ذلك قوله:
توقظنا من رقدة خدّرت أعصابنا فاتصفت بالعباء
وبعد فرحم الله الشاعر الكبير الأستاذ صادق القاموسي الذي أضاف إلى مكتبة الشعر العراقي الحديث أثراً يستدعي التقدير.

٢٠٠٩

(١) قال جرير يمدح الخليفة:

أغشني يا فداك أبي وأمي بسبب منك إنك ذو ارتيساح

أبو رشاد والوجه الآخر (★)

الدكتور (المرحوم) صالح الظالمى

أبو رشاد، هذه الشخصية التي تقف أمامها حائراً من كثرة تقلباتها الآنية: وتقلباتها من موقف لآخر... وبين الموقفين تنازلاً لا يزيحه التأمل، ودقة الملاحظة، لا في المنعطف الأول من تلك التقلبات، ولا في المنعطف الآخر إلا بعد الصلة الأكيدة المشبعة بالامعان، .. بعد ذلك قد تتعرف على ما وراء الحجاب، ..

ينهي أبو رشاد صلاة المغرب ثم العشاء في أول الوقت، ليأخذ طريقه عاجلاً إلى جمع من معارفه، في بيت تعمره مائدة القمار، ويتناسى التسيحات والنهليلات التي تعقب الصلاتين؛ فهو لم يكن شريكاً في اللعبة؛ ولكنه يبدد وقته فيما لا يعنيه، أو فيما يعنيه، لا أدري. وينهي أبو رشاد صلاة المغرب وبعدها العشاء في قرية (كيفون) ليأخذ مكانه في مجلس لا تسمع فيه إلا قرع الكؤوس، وما تعزفه أصابع (الكبريت) على عوده الذي لا يفارقه حتى في سرير النوم، ويأكل كثيراً مما يحيط بالمائدة من دون أن تمس يده ما هو رجسٌ ممن عمل الشيطان.

في هذا المنعطف الخطير، تقف حائراً مرة، ومتردداً مرة أخرى، وتتساءل.. هل كان أبو رشاد يريد من وراء ذلك أن يأخذ بأيدي أولئك النفر إلى طريق الهداية، كما كان يفعله أحد علماء الكاظمية، حين يكون بيته المقهى الكبير الذي لا ينقصه شيء حتى التراجيل، ليتمكن بعد ذلك من هداية رواد المقاهي العامرة بالقمار؟

كان أبو رشاد يشبع نظراته بكل صور الجمال التي تعرض له، الطبيعة الساحرة؛ الربيع الضاحك... الزهرة التي يقلبها بيديه... الشلال الذي يتدفق بعنف... وأهم من هذه كلها المرأة الحسناء التي تتفجر باللهب، كل ذلك كان يوقفه ليتأمل، ويغرق في تأملاته ازاء كل نظرة... فهل كان أبو رشاد في هذا المنعطف حاله حال ذلك العالم العارف، الذي يرى في الصورة الجميلة آية ناطقةً للمصور المبدع سبحانه وتعالى، فقد اقترب من هذا العالم صبيّاً فاتن، تتوقد وجناته من أثر الشمس،.. يقبل يده، ويطلب منه (الاستخارة) كما أمرته أمه، ويسأله السيد الجليل عن بلده، وعمّا في بلده، وما هو السبب الذي جاء به هنا؟ وعن... وعن ويطلب، ثم يردد وراء كل سؤال: (سبحان الخالق) (سبحان المبدع) (سبحان

(★) ألقبت في (ملئقى القاموسى الأدي)، ونشرت في مجموع الظالمى (من هنا وهناك) ط النجف

المصور)... بعدها يحقق مراد الصبيّ ويقوم للصلاة، ويتبعه المصلون الذين طال انتظارهم.
وأبو رشاد يستمع الغناء... ينطلق عَجلاً في ليلة من ليالي لبنان، ليصل إلى (طرابلس) في
الشمال... (فصباح) ذات الصوت الحبيب، ستحيي ليلتها هناك، وكان له ما أراد... فهل
كان أبو رشاد على علم ان من السالكين المؤمنين من يرى أن الصوت السرخيم طريقاً إلى
عظمة الخالق؟ فقد سمع أحدهم المرحومة (أم كلثوم) وهي تغني: (خذني لحنانك خذي عن
الوجود وابعدني) إلى قولها (بعيد بعيد وحيننا) فارتعد وصاح: (إي والله بعيد بعيد وحيننا)
..وزاد خذي إليك... هذه هي المعرفة الحقة وهذا هو العشق الإلهي.

وإذا كنا بعيدين عما يريده أبو رشاد من تقلباته تلك، فاننا قد نقرب من رأي جديد:
حين نجد أبا رشاد يجمع بين مسلكين مختلفين، في الأول - ونحن على علم - نجد فيه المؤمن
المتيقن، يدافع عن الدين حتى لا يترك مجالاً للشك، وانه ذلك الذي كان يسير على خطوات
من سبقه من أولئك الذين عرفوا الطريق التي توصلهم إلى مرفأ اليقين.

عند ذلك تكون خطواته في المسلك الآخر المعاكس، قائمة على نظرة فلسفية، لخصها
الكاتب الكبير (توفيق الحكيم) في مسرحيته (طريد الفردوس)... فهو إذاً لا بد له من أن
يدخل في كل زوايا المجتمع، ويخرج منها، وما يزال على ما كان عليه من عقيدة ثابتة وإيمان
راسخ.

هذا ما أعرفه عن هذه الشخصية التي تحمل الضوء في يد، والعممة في اليد الأخرى حين
تكون بعيداً عنها.

أما عن شاعريته، فقد ذكر عنها الكثير، وبقي منها الكثير، فهو من الرواد الذين تعالت
صيحاتهم لخلاص الحوزة الدينية مما تعانیه من فوضى آنذاك، أرجو أن نسمع ممن يعنون
بذلك ما يحيط بهذا الجانب، وفي هذا المكان.....

بقي عليّ أن أذكر ما حدث بيننا أثناء مسيرتنا الطويلة، فلنا معه مواقف، وله معنا
مثلها، فقد تكون مثيرة، وقد تكون بعيدة عن السلوك الذي نشأنا عليه.

كنا في سفرة قصيرة، وفي لباس تنكري لاف، نقلنا سيارتان للأجرة، وكان طربوشه
الذي يلبسه آنذاك يستقر فوق رأسي، وكوفيّتي مع العقال يكونان من نصيبه البانس،
فلباسه الجديد المعقد كان صعباً عليه، ولباسي الجديد المطاوع كان سهلاً عليّ... وممرت
السيارتان في طريق مؤدية لجامع (سهيل)، وفي الطريق هذه، كانت الأنايب الواسعة تمتد
وتمتد إلى ما لا نهاية... فما كان مني إلا أن أنتزع الطربوش من رأسي وأقذف به السيارة
التي كان فيها أبو رشاد لتأخرها عنّا بلا مبرر، وبدون تردد، فقد قام هو بمثل ما قمتُ به،

ولكنّ كوفيّتي وعقالي قد تعلقا بالأشواك، وكان طربوشه اللعين قد أخفى نفسه في واحد من تلك الأنايب، ليتخلص - على ما أعتقد - من وحشة الجمجمة التي شعر معها بالغربة، وهكذا اختفى ولم نعر عليه إلا بعد لأيّ، وتوقفت بسببه السفارة، وكان تواصل الضحك من نصيب أبي رشاد أكثر منا.

كنا نجتمع على رية في بيت متواضع بكل ما فيه، السقف الخشبي المتناكل، الأبواب التي يتعذر إغلاقها لفقدان مفاصلها... السلم المتعرج الذي يحتاج إلى دورة كاملة في (السيرك) من أجل الصعود، وحتى جهاز (الراديو) الذي كان يجمعنا في حذر، مادام محرماً، أو ما يقرب من الحرام، وكان هذا الجهاز متداعياً لكثرة ما يعانیه من موجعات الزمن، حتى أتعبنا شد أضلاعه كثيراً بالخيطة الأبيض ليعود بمياة مؤمن ناسك نألفه ويألفنا... وذات يوم سقط بين أيدينا جريحاً، من دون أنين، وحلت الكارثة: فأنا وإخواني الباقون لا قبل لنا على علاجه، وحرمتنا منه، لأننا جميعاً لا نملك الأجر الذي يطلبه منا معاجه الحاذق، فهو على علم أن الطبيب المختص عادة له أن يفرض الزيادة في الأجر، وان أضرّ ذلك بالفقراء.

قلتُ لصحبي دعوني لهذه المهمة، وجئت أبا رشاد بانكسار ومسكنة، وميّل قليل في رقبتي إلى الشمال، وأخذت منه ما يحتاجه ذلك المريض الذي يرقد في المستشفى، وهو في حالة خطرة، وبعدها فقد شفي والحمد لله... وعلم أبو رشاد بصاحبنا المريض، وبسارك شفائه، وبقيت الثقة عامرة بيننا كما كانت، وأبرأ الذمة.

في كربلاء المقدسة أتمنا زيارتنا ولم يبق في أيدينا إلا اليسير من المال، على قاعدة (اصرف ما في الجيب)... دخلنا المقهى وشربنا الشاي، وازدادت الأمور تعقيداً، وكان علينا أن نبحث بجدة عمن يبقوننا، ومن بعيد لاح لنا وجه أبي رشاد التاجر المقتدر، الذي يحصل في يديه ألف مفتاح حل مشكلتنا... قال: هاتوا ما عندكم من المال، ولكم مني وجبة طعام شهية واحدة، وبعدها الرجوع إلى مدينتنا بسيارة كبيرة، وأكد بسيارة كبيرة، وشربنا الشاي هذه المرة باطمئنان، وأدخلنا أحد المطاعم الذي لا يُعنى كثيراً بالطعام، ولا برواده، وذهب أبو رشاد ليشتري لنا قليلاً من الفاكهة، وجلسنا نتنظر لأن كل شيء يجب أن يكون على يديه. اختيار الطعام... كميته المناسبة، الإضافات المشهية، وغير هذا، ولكنّ أبا رشاد ذهب إلى غير رجعة، وتيقنا انه لن يعود، وحمدنا الله كثيراً على خلاصنا من الورطة، لو أننا طلبنا الوجبة الشهية تلك من صاحب الحل.

أخيراً أتجهنا نحن - أبناء السبيل - على غير قصد إلى رجل آخر نشكوه فقدان ما كان لدينا من المال نحن الأربعة، وفعلاً فقد تصدق علينا وعدنا بسلام، ونحن نقذف بالشتائم على

جهاز الراديو الذي تم شفاؤه على يد أبي رشاد.
نزلنا نحن الاثنين من قرية (كيفون) إلى (عين السيدة) مشياً على الأقدام، في ظلال شجر الحور، وبين الممرات التي مازالت تعانق قطرات الندى الليلي،... لم نتعب ولكننا أظهرنا التعب أمام فتاتين تتكآن على صخرة، كانت الأولى جميلة وجميلة، ولم يكن في مقدورك أن تحيد بنظرك عنها، وكانت الثانية تقترب في شكلها من برميل منتفخ، لا تستطيع من خلاله أن تتعرف على واحد من أطرافها، فهي لا تملك شيئاً يثير اهتمامك منها غير الجنة...
نحن نريد أن نجتاز ذلك المرتفع، وهما كذلك، وسيصطحب كل منا واحدة منهما، وسأشعر بالغبغبي لو كان هذا الورم الثقيل من نصيبي العاثر،... عرف أبو رشاد ما يخالجي، قال ليقرأ كل منا بيتاً من الشعر، ونريد إيضاحه منهما بصورة دقيقة وعلى الفور، ومن تخلفت فلم تجد من يصاحبها أثناء الصعود... وفجأة إنجسه بالسؤال لصاحبة العينين الجارحتين، وقرأ:

(وأحبها وثحبني ويحبنا نأقنها بعيري)

وقال ما معناه؟: وأجابت على الفور لوضوح المعنى، وصاح أبو رشاد بأعلى صوته، هذا هو الصحيح، أحسنت... أحسنت، وأشار إليها وقامت، وكمياً للصعود، وقال لي: اقرأ...
عندما تيقنت أنني وقعت في الفخ، أطرقت قليلاً وتوجهت لصاحبي وأنا حريص على أن لا أجرح إحساسها بالرفض، ولا بالنظرة التي تحمل الاعراض عنها، قلت لها اسمعي يا فتاتي الجميلة هذا البيت من الشعر، وأرجو أن يكون واضحاً، وقرأت:

خشباً في خشب من خشب الشفشخلنج

وقلت: أرجو أن تكون الاجابة سريعة، وفعلاً فقد كانت كما أردت. قالت: لا أفهم، وأردت أن أزيح عني هممة ما أحكمته من حرج لها، فقد قرأته ثانية، مع إيضاحه بإشارة يدي التي زادته تعقيداً، وكأني أرغب أن تحيب عليه، ولكنها قالت ثانية: والله لا أفهم، وقد صدقت، فأما ان عرفت الخشب، ودخول الحرفين (في) و(من) في هذا التركيب المعقد، فأما ولا شك عاجزة عن فهم (الشفشخلنج) الذي لا يعرفه أحد حتى الشاعر. وضحك أبو رشاد بعنف حتى امتزجت ضحكاته بسعال لا يرحم، وانصرفنا لتتقاسم المعضلة بانصاف فيما بيننا.

هذا قليل من كثير ولعلي أتذكر غيره للسنة القادمة إذا سمح لي الداء الذي أعاني منه.
شكراً لكم والسلام عليكم.

أروع مرثية للقاموسي في الوائلي (*)

الأستاذ (المرحوم) السيد عبد الغفار الحويبي

أيها السادة: السلام عليكم،

حين بلغني نعي الصديق الكريم الأستاذ (صادق القاموسي) يوم الأربعاء الثاني من قسوز ١٩٨٨، أحسستُ كأن تياراً من الكهرباء يسري في عروقي فيهزني بعنف على الرغم من أنني كنتُ أتوقع النعي بين يوم وآخر بعد أن تدهورت حالته بصورة مذهلة، بحيث تلاشى الرجاء في سلامته.

فبتنا والوجوم يحيم علينا، ننتظر كلمة القدر في هذا الانسان الفاضل وقد عزَّ علينا أن يُبتلى ببلوى نعجز عن دفعها عنه. ولكنَّ بلواه هذه ما كانت إلا امتحاناً لإيمانه الراسخ بالله وقدره، وصبره في الملمات. لذا تلقَّاهم مؤمناً، محتسباً، جلدأً، قوياً... وهكذا هم المؤمنون:

ثبَّاهم الثبات لسدى المنايا فلا جزع هناك ولا استياء^(١)

وقال القدر كلمته فيه، وطويت صفحة من الأعمال الناصعة، والأخلاق العالية، وانطفأت شمعته كانت تنير بصمت، وغاب (القاموسي)

* * *

وأخذت الأيام تمرُّ علينا ثقيلة موحشة إلا من الأطياف الحزينة. وبلغني، ذات يوم، أنَّ حفلاً تأبينياً ستقيمُه نخبة من أصدقاء (الفقيد) تخليداً له، واني ممن سيقولون فيه كلمة، فاستجبت.

وخلوت إلى نفسي لأكتب، فاذا أنا قبالة باب واسع يفتح على كثرة من الموضوعات القيمة، والفصول الممتعة، وكلها يضمُّها عنوان واحد كبير هو: (صادق القاموسي)، فكانه (كتاب) انطوى على فصول في الأدب والحياة، أو كأنه (قاموس محيط) بالمعاني الانسانية، تجد فيه الأروع والأفضل دوغماً عناء. فقد كان - رحمه الله - كتاباً مفتوحاً للقارئ، وحديثاً ممتعاً للمستمع، كما كان صديقاً قريباً منك كلما احتجت إلى الصديق.

(*) أُلقيت في الجلسة الخاصة التي عقدتها ندوة الشعرباف ببغداد استذكراً للفقيد بتاريخ ١٩٩٢/١٢/٣.

(١) البيت من مرثية لي في أخي المرحوم السيد محمود الحويبي المتوفى في ١٩٦٩/٥/١م.

وبين زحمة من الموضوعات المتعددة التي أثارها في (الفقيد) وجدثني قبالة (القاموسي في وفائه) أصوغ منه مرثية نثرية فيه.

* * *

وقد نظرت في (وفائه) فرأيته ضروباً، كل ضرب منها في القصة:

هو (وفي) للتربة الطيبة التي أنبتته نباتاً حسناً، وللكتاب الذي تفتحت عيناه على صفحاته المضيئة، وللشيوخ والأعلام الذين وضعوه على بداية الطريق الذي سلكه نحو النور والفضيلة والعمل الشريف، والكلمة الحيرة التي تعلّمها في مجالس (التجف) ومدارسها حيث الشعر الجيد والنثر الرصين والعلم والفقه وعلمها تلاميذه. وهو (وفي) للمبادئ القومية والوطنية التي دلّت على أنه عربيّ العرق والفكر. وهو (وفي) للمبادئ الإسلامية التي آمن بها شعاراً له في الدنيا، وسلكها طريقاً لاجباً للآخرة عملاً بـ (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمَلْ لِآخِرَتِكَ كأنك تموت غداً)، وهو - بعد - (وفي) لأصدقائه الذين اصطفوه، واصطفاهم فبكى من سبقوه منهم إلى الآخرة، وبكاه من سبقهم منهم إليها بفيض من القلب شعراً، وفيض من العين دمعاً. وحين تذوب الكلمة بالدمع تمتلئ القصيدة بالعاطفة الصادقة.

واني لأتذكر - اللحظة - أبياتاً من مرثيته الرائعة في (أربعينية) أخي المرحوم (السيد محمود الحوي) قبل ثلاثة وعشرين عاماً، واني لأستأذن روحه السمحة المعطاء لاستعارتها منها للاستشهاد بما عليه:

ويا مَعَفٌ ضميرٌ ما كبا هدفاً	ولا تمشّت به معوجة طُرُقُ
إذ الضمائر أهواءٌ تُورجحها،	وإذ يطيح بمجرور الهوى زَلْقُ
ويا مَجْنٌ وفاءٌ إن طغى غضبٌ	على المروءة أو صدَّ الحجي حنقُ
إني لأكبرُ خلقاً فيك فجره	من (النزاهة) نبع طاهر غدق ^(٢)
يكاد من رقة روت دماثسه	وسلسلت عذبه ان يشرب الخلقُ

أيها السادة:

ومهما نسيتُ فلن أنسى موقفاً فريداً تجسّد فيه (وفاء) الفقيد مثلاً (صادقاً) نادراً للوفاء الذي يتعدى الحدود والقيود.

(٢) (من النزاهة) جاءت بدلاً من (من النبوة) لتتفق مع الواقع.

كان ذلك (الموقف) في مساء يوم الاثنين، السادس من حزيران ١٩٨٨م حين أقامت كلية الآداب من (جامعة بغداد) حفلها التأبيني الكبير للأستاذ المرحوم (إبراهيم السوائللي) في قاعتها الكبرى. ولما أخذ المؤننون يتعاقبون، في تأبينهم، تذكرت (القاموسي)، وشعرت بفراغ مقعده بينهم، فوددت لو كان أحدهم اذنً لكان في مقدمتهم. فهو و(السوائللي) صديقان جمعهما مجد الماضي في النجف، وهم الحاضر في بغداد على موائد الأدب الحي، وفي ظلال ندواته الشعرية هناك وهنا، فكانا صديقين في شخص واحد، وشاعرين في شعور واحد، قد تقاسما الهموم والمسرات، والآمال والألام.

أجل! ووددت لو كان (القاموسي) من مؤبني (السوائللي) اذنً لسمعنا (الوفاء) نشيداً صادقاً حزيناً، يردده القلب المفجوع.

ولكن آتى له أن يكون منهم - وهو في تلك الساعة طريح الفراش من العلة المميتة؟! ويبدو أن (باب السماء) في تلك اللحظة، فُتح لي، فنفذ منه ما ودَّدته، فحققه الله تعالى أعجوبة لي لتكون شاهداً على وفاء فقيدنا. فما هي حتى انفتح الباب عن (القاموسي) هيكلاً خانراً، وروحاً شاحياً، وخطوات ونيدة من العلة، معتمداً على ذويه حذر الانهيار من الضعف. وشغل الحاضرون عما كان يُنشد. ولو استرقنا ما دار في خلدنا تلك اللحظة المثيرة. لسمعناهم يتحسرون بمرارة وأسى قائلين: (أهكذا استحال القاموسي إلى شبح؟!)

وبقدر ما أشفقت عليه، أكبرت فيه صلابته في بلواه، وإصراره على (الوفاء). فقد أبي أن يتخلف عن حضور تأبين صديقه، فتجاهل حالته المرضية الشديدة، واستخفَّ بها إزاء غرضه النبيل... فحضر الحفل التأبيني، بل جاء ليسهم فيه بتأبين صديق كريم بمجرد حضوره وهو على شفا حفرة من النهاية، أو قل: جاء بوجود نفسه (والجود بالنفس أقصى غاية الجود) كما قال المتنبي. وقد رأيت حضوره ذاك أفجع مرثية سمعتها في تلك الأمسية، بل أصدق ما رثى به (السوائللي) بلا نزاع. فقد كانت مرثية تنضح وفاءً وفجيعاً. وكيف لا؟ وقد صاغها كلمة كلمة من نبضات قلبه المضنى، وأضفى عليها من عظمتها عظمة.

ولو كان قد آثر الراحة في ذلك المساء، ولزم فراشه - إن كان في فراش المرض العضال من راحة! - ولم يرهق نفسه مشقة أفكان يُلام؟

أكبر الظن: نعم! كان يُلام.

فإن إنساناً واحداً - وواحداً فقط - كان سيعتف عليه باللوم، فيستغص عليه أيامه المعدودة، ويحمل قلبه الواهن آلاماً فوق آلامه، وأوصاباً فوق أوصابه. وما ذلكم الإنسان

إلا (القاموسي) نفسه.. القاموسي الذي أتت عليه العلة حمأً ودماً ونضارة، وعجزت عنه روحاً طاهراً، وجناناً واسعاً، وجوهراً كريماً. فلو لم يحضر الحفلة لبقى يرى قعوده عنها ضرباً من التقصير في حق الصديق - وحاشاه من التقصير في الواقع - بل لبقى يفت في نفسه الواهنة فتاً ربما عجل بها إلى نهايتها قبل الأوان. ومن يدري فرما كان حضوره مدعاة سرور له في أيامه الأخيرة - ومن السرور ما يطيل الأعمار كما يقال.
أيها السادة:

ان إنساناً هذا وفاؤه لجدير بكل تعظيم. وإذا أضفنا إلى (وفائه) مقومات شخصيته الانسانية والأدبية كان جديراً بأن نكون عليه كذويه الأقربين في مشاعر الحزن المشوب بالفخر.

١٩٩٢

شاعر كاتب، إلا ان صفة الشعر أظهر من غيرها، وشعره زاخر بالعاطفة الجياشة، ولعل الحب هو الذي هذب نظمه وفتق نثر عبقريته لذلك قلما نقرأ له قصيدة لا تجد فيها من الخيال الخصب ومن الابداع الموفق.

غالب الناهي

دراسات أدبية ١/١٣٣

كلمة وفاء ودمعة إحاء

في ذكرى الشيخ القاموسي (★)

الأستاذ عبد الحميد الرشودي

رحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم، فقد هاله موت أصدقائه وسقوط رفاقه بيد البلى،
الواحد تلو الآخر؛ فوقف ذات يوم وقال شاكياً باكياً:

إني سئمت وقوفي كل آونة أبكي وأندب أحزاناً بأحزانٍ
إذا تصفحت ديواني لتقرأني وجدت شعر المراثي نصف ديواني
وما أشبه موقفنا هذا بموقف شاعر النيل حافظ إبراهيم - رحمه الله وأكرم مثواه - فما
كاد حزنا على أستاذنا وصديقنا الوائلي ينتهي ودمعنا يرقأ، حتى رمتنا الأيام بداهية جديدة
وما أكثر دواهيها وأبشع خطوبها، وأسرع نوابها وأبطأ خيرها وأقله:

عرفت سجايا الدهر أما صروفه فنقد واما خيره فوعود
أقول ما كدنا نسي مصاب الوائلي حتى اختطفت من بيننا صديقاً حميماً وأخاً كريماً
ذلكم هو المرحوم المبرور الشيخ محمد صادق عبد الأمير القاموسي الذي كنا نرى فيه سلوة
عمن مضى وعزاء ممن قضى، وكان المنايا قد كمنت لنا وقعدت كل مرصد لسربنا
فراحت تتخطفهم الواحد تلو الآخر وما تختار إلا أهل الفضل والبر والمروءة، فكأنها مولعة
بهم ولع النام بالكرام:

الناس للموت كخييل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يــــدعو إلى داره إلا من استصلح من ذي العباد
والموت نقساد على كفه جواهر يختار منها الجياد
لا تصــــلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجسام هذا الفساد

سادتي ذوي الفقيد وإخوانه وأصدقائه الكرام البررة.

شد ما يشق علي أن أقف هذا الموقف الفاجع لأودع أخاً كريماً، صادق الاسم والوعد،
فليس بالأمر الهين أن يودع المرء كل يوم بضعة من قلبه ويوارى في التراب قطعة من كبده،

(★) ألفت في (ندوة الغبان) بمناسبة مرور أسبوع على رحيل القاموسي. ونشرت في مجلة الموسم العدد
١٦/١٩٩٣م.

ولولا ان الموت كما قال بديع الزمان: خطب قد عظم حتى هان، وثوب قد خشن حتى لان، وُكُرتْ قد عمَّ حتى عاد عرفاً. والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخفَ خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها. أقول لولا ذلك لما استطاع الناس الصبر على فراق أحبائهم ولكن الله الذي قدر الموت والحياة جعل النسيان والسلوان بلسماً شافياً لهذه الجراح.

عرفت المرحوم الشيخ القاموسي منذ سنوات قليلة في العدد، كثيرة في معانيها، فوجدت فيه من الفضل والعلم والأدب والطرف ما وجدتموه أنتم ولمستموه، فقد شبهته ذات يوم بكتاب متنقل لا من ورق ومداد، بل من لحم ودم، لقد عشق الكتاب حتى ربط حياته ومصيره به، عشقه وهو دارس كما أحبه وهو مدرس، ثم اتخذ في حياته أنيساً وسيراً، لقد كان المرحوم القاموسي يجمع من خلال البر والخير صفات كثيرة إذا فاتي أن أحصيها في العجالة فلن يفوتني الإشارة إلى أبرزها وأظهرها، فقد كان على جانب كبير من أدب الدرس وأدب النفس، وكان مخلصاً لآخوانه برأ بمعارفه، يشيع في المجلس الذي يؤمه روح البهجة والبشاشة، وما وجدت أسرع منهم في خدمة الصديق أو تقديم المساعدة المستطاعة مما يقدر على تحقيقها والنهوض بها حسب وسعه وطاقته، كان رحمه الله عندما ينفض مجلس من المجالس التي تجمع شتاتنا ينادي بأعلى صوته وكأنه يريد أن يبرئ ذمته: من يريد أن أوصله إلى داره؟ السيارة بخدمتكم. وكان لا يكتفي بإيصال الصديق إلى داره فحسب بل ينتظر حتى يطرُق ذلك الصديق بابه وتفتح له ثم تواريه الدار، وعند ذاك يطمئن على صاحبه فيعادر، رحم الله تلك الشمائل التي هي أعذب من الشمول، هذا ولو مضيت في تعداد مبراته وخلانقه لأطلت عليكم: فأنتم أدرى مني بها، ولكنها كلمة وفاء أردت أن يكون لي بها شرف المشاركة في تأبين هذا الصديق النبيل.

سادتي الأمائل

لا أريد أن أثقل عليكم فالمصيبة عامة والرزية واحدة تغمد الله فقيدنا برحمته ورضوانه وأهملنا وإياكم جميل الصبر وكريم العزاء وجعل من أنجاله الكرام خير خلف لخير سلف وإننا وإياكم كما قال الامام الشافعي رحمه الله

إني أعزّيك لا إني على ثقة
 ليس المعزّي بباقي بعد صاحبه
 من الخلود ولكن سنة الدين
 ولا المعزّي وان عاشا إلى حين

الغابة العذراء (★)

الأستاذ السيد حامد المؤمن

نستطيع القول: أن صادقاً القاموسي هو واحد من أفراد جيل هو آخر جيل من سلسلة أجيال مبدعة متتالية، تمثل ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح (الشعر النجفي الحديث). ولا نريد أن نقف محققين مدققين من مصطلح (الشعر النجفي) لكننا نزرع ان هذا الشعر ملامح خاصة تميزه عن غيره من نتاج الشعر العربي على مر عصوره وتعدد بيناته واختلاف أقطاره. وفي بحثنا هذا سنحاول اكتشاف أهم ملامح هذا الشعر من خلال قراءتنا في الديوان المخطوط للمرحوم صادق القاموسي.

❖ ولعل أبرز ملمح من هذه الملامح: ان الشعر النجفي محمدي الفكر، علوي القلب: عربي الوجه واللسان، ولغلبة هذا الاتجاه وعمقه في حياة الناس ورسوخه في ضمائرهم فإن النجف كانت تحتضن كل الاتجاهات الفكرية والروحية المتعارضة والمتناقضة: فتذبيها في بوتقتها القوية الأصيلة العميقة الخفية فتعيد خلقها من جديد، فتظهر وقد تشبعت بالروح النجفي القوي المتين، فكم من تيارات معادية للإسلام تعلن عن نفسها، وكم من روح متعصبة لغير العروبة، تغد إلى النجف فاذا بها - في زمن يسير - تتفجر إيماناً وتقوى، وتنضح علماً وحكمة، وتذوب حياً للإسلام والعروبة، وتتخذ لغة الضاد أسلوباً للتعبير عن هذا التحول الكريم.

والتطلع إلى شعر القاموسي يجد الاخلاص في الفكر الحمدي والنهج العلوي، يعلن عن نفسه بوجه عربي حبيب ولسان عربي مبين. فلا تكاد تمر مناسبة إلا ويكون القاموسي مشاركاً فيها معبراً بصدق وإخلاص وإيمان عن حبه هذه الأمة ورغبته في صلاحها وتشوفه إلى مستقبل يتوحد فيه النهج والسلوك في حياة الناس وكثيراً ما يجد القاموسي في نفسه المرأة الكافية لكي يقف منتقداً بعض المظاهر السلبية التي تتقمص ثوب الايمان وليس لها من الايمان إلا المظاهر البراقة والأغراض الأرضية، إذن هو ينحو هذا المنحى الانتقادي الاصلاحى في شعره فضلاً عن النصاقه الحميم بالطريق الذي سنه محمد(ص) ونهج فيه علي(ع) وتواصلت فيه خطى المؤمنين الموقنين.

(★) محاضرة ألقاها الباحث في قاعة (اتحاد الأدباء - في النجف) بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل القاموسي، ونشرت في كتاب (الغابة العذراء) للباحث الكريم 1999م.

فهذه ذكرى يوم الغدير تظلل الناس بأفيائها فيحتفل المغرمون بالولاء، أما القاموسي فيحتفل بما توحيه الذكرى من دروس وعبر وبما يستذكره الناس من مواقف بيضاء وسوداء، وبما يخلده التاريخ من نص صريح، ونهج لاجب فيقول:

تباركت يا يوم الغدير وللهدى	سناً واضح لو أحسن البحث حائز
تعليت دستوراً به العدل دولة	وقدست سلطاناً به الحق أمر
وخلدت هجاً تستضيء بنوره	عقول وتستوحى سماءه مشاعر
قرأتك نصاً تستشف سطوره	سناً وحديثاً يصطفيه التواتر
فما هالني إلا ختول مزلول	وما راعني إلا جهول مكابر
فقدتك عيداً ضيعته سياسة	والغاه سلطان من الحكم جانر

وحينما يشاد بناء ضخيم يطلق عليه (جامعة النجف) يقف القاموسي في حفل افتتاحه متمنياً أن تكون هذه الجامعة منبراً لرسالة محمد (ص) كما ينقلها عنه جعفر الصادق (ع). يقول:

فتفجري علماً يعطر وحيه ما قاله (طه) وحدث (جعفر)

وهي بناية شامخة بأذخة زاهية المظهر، يريد لها القاموسي حسن المخبر مستحضراً صورة غار حراء العابق بنفحات النبوة ودوره في حياة هذه الأمة:

وتيقظي فلقد سما بك منظر	زاهي الرؤى ألا يخونك مخبر
ولانت مزرعة الخلود إذا جرى	فيك النмир وفاض منك الكوثر
ما كان غار حراء غير جنادل	تزري وغير مهبل ترب يخفر
طافت به بسمات فكر خافق	فاذا الدنا شرفاته والأعصر
وسرت به للعقريّة خفقة	فاذا ثراه نبوة تتفجر

وهذه الجامعة هي وليدة الفكر القديم الذي يتحسس حاجة الناس ويستشعر تطلعاتهم ويستجيب لها فلا يجمد على حال ولا ينغلق. يقول:-

أوليدة الفكر القديم يحس ما	يحتاجه الفكر الحديث ويشعر
وربيبة الدين الحنيف يعد ما	تملي عليه ظروفه وتقرر

والقاموسي - وهو مؤمن بما يقول متبصر بما يكتب - يرى ان مشكلات الناس لا تحل؛ وجروحهم لا تلتئم إلا بالعدل الاسلامي الذي كان (علي) خير من يمثله ويجسده واقعياً اجتماعياً.. يقول في ذكرى وفاة الامام علي (ع):-

قسماً بعدلك وهو أفضل ما وعت نظم وما سنحت به افهام

ولأدر كوا ان الحياة جراحها
ولقد تم نحو النجاة مقررأ
وأريتهم ان الشعوب أمانة
والعدل ان تلي الأمور هداثما
والحق في ان يستوي برعية
وهو من خلال خطابه للامام علي (ع) يقرر ان الاسلام الذي ندين به اليوم مجرد
مظاهر جوفاء مفرغة من محتواها الحقيقي فلا تجد له مصداقاً في حياة الناس وسلوكهم، فهو
ينطلق من هذا الفهم الاجتماعي الواعي للاسلام فيقول:

يه أبا السطين والذكرى هنا
إنا - وان شد الأواصر بيننا
وتفتحت منا الضمائر بعدما
وتعاطمت منا الشعائر وازدهت
الهي التكاثر بعضنا عن بعضنا
ومشى بنا الحقد الدفين يحثه
وتجاهلت سنن الطريق رعائنا
وإذا بنا لا الفقير عملاً قلبنا

وفي قصيدة أخرى يعرب القاموسي عن فهم عميق سليم للدين ممثلاً بشخصية الامام
علي(ع) فقد وصل علي الدين بالدنيا، وجعل الدين أساس الحياة ومركز الفكر ومنهج
السلوك، فلا دنيا بغير دين... يقول:-

يا واصل الدين بالدنيا ليحمل من
حملتها حيث لا متن يطيق لها
أدارت الحق أنى درت واعترفت
كنت (الرسالة في شخص) فلا عجب

وهو يقارن بين عدل الامام - وهو عدل إسلامي اتخذ سبيله إلى التطبيق في حكم
الامام - وعدل الحكام في شتى العصور الذين ادعوا العدل رياء وكان مطلبهم الحكم
والتسلط على رقاب الناس يقول:

جبنا العصور فلم نشهد بأعيننا
مالم تزل تدعيه قادة الأمم

شَرَّقت بالعدل فارتدت مبادئه عنه وغرَّبت فاستعيا على النظم
 هذا مجرد من روحى براءتها وذاك يمتص من بين العروق دمي
 كل يقول نروم العدل يحكمنا ولا - وعدلك - غير الحكم لم يرم
 أحبولة تتلقاها يد ليد وكذبسة يتقياها فسم لقم
 ويشخص القاموسي علة انصراف الناس عن الدين واللاهات وراء فلسفات لا يمكن أن
 تؤدي في حياة الانسان ما يؤديه الدين من دور فاعل، فيرى أن العيب ليس في الدين وإنما في
 حامله والمبشرين به وفي وسائلهم العاجزة عن إيصال جوهر الدين إلى قلوب الآخرين
 وعقولهم. يقول من قصيدة في رثاء السيد عبد الحسين شرف الدين:

وألفيت الهدى شبحاً ضئيلاً أشيح أقارباً وأضيع ولداً
 فرحت تجد تبحث أي داء سرى بيليع قوته وأودى
 ولما لم تجد في الدين نقصاً ولا فيما بنى الأسلام هدداً
 عرفت الداء يكمن في المؤذي ولو أوعى رسالته لأذى
 وهو يمجّد عمل شرف الدين في علاج هذا الداء وإصلاح ما فسد من نفوس وتقويم ما
 أعوج من أساليب، وتوجيه الناس إلى فهم جديد للدين وممارسة حياة للتدين، لا يحرم
 الانسان فيها من طيبات الحياة ولا يقتعل الزهد منكفئاً على الذات، منعزلاً يعاني الاحباط
 والشعور بالنقص يقول:

طفقت تعد للوثبات نشناً تسلح بالمعارف واستعدا
 تغذيه المبادئ سائغات وترجيه الثقافة مستجدا
 وتشعره كرامة ما تبني لنهضته وعزة ما تردى
 وتشهده الحياة كما تراها عيون الناس بستانا ووردا
 فلا مستتكرأ فيهم رفاها ولا مستجدياً للدين زهدا
 وهو يرى أن التدين الحقيقي ليس في ظواهر السلوك وإقامة شعائر الدين فحسب، وإنما
 هو باحتوى العميق المتغلغل في أعماق الانسان، الساكن في ضميره، متمثلاً بالورع والتقوى
 والتعفف عن محارم الله، والترفع عن الدنيا ومتاعها الزائل فالدين هو الاخلاص لله والتجرد
 له وطلب رضاه في السر والعلن، كل ذلك يتساوق مع بساطة العيش وسلامة السلوك،
 يقول في رثاء الشيخ الورع محمد حسن المظفر:

قدّست روح اسالتك فلم تنحرف ميلاً ولم تشن التواء
 وسما عطف جرى منك فلم يعرف الحقد ولم يسدر العداء

إن تساميت فلم يغرك ما
وتنزهت فلم تخضع هدى
وترضيت اعتذاراً معرضاً
وتعاصيت على (عنوة)
فلقد أخلصت لله فلم
بمرج الدنيا خداعاً وطلاء
لهوى طاغ ولم تخلط رياء
عن يد أعطت يداً ترجو العطاء
آخرون ازدحموا فيها ادعاء
تتخذ إلا رضا الله ابتغاء

وهو - قياماً بواجبه الشرعي - لا يترك مناسبة سانحة دون أن ينتقد المظاهر السلبية عند بعض من يتظاهر بالتدين أو بدعيه، ويتخذ الدين ذريعة لتحقيق مصالح دنيوية وهو أيضاً يتطلع بشوق إلى اليوم الذي يأتي بمن ينقد الشريعة من هؤلاء الغواة اللابسين مسوح الهداة. أسمعته يقول:

ومبعوضين مملوئين حقداً
ومستترين خلف الليل جدوا
ومفترعين قطب الدين لكن
تقول: الصبح يفضحهم ويدي
ويأتي الصبح ثم ترى فتلفي
عليهم من ترهدهم مسوح
متى تلد الشريعة منقذها

لهم في كل جانحة أوار
بمكرهم وقد وضح النهار
رحاه على مصالحهم تدار
حقيقتهم وينكشف الستار
فطاحل تستغاث وتستشار
بلين ومن تقدسهم إطار
فيدنو الموت منهم والدمار

من هذا نرى ومن غيره أن القاموسي يعالج كل ذلك شأنه شأن شعراء النجف الآخرين الذين سكن الإيمان في قلوبهم فارتاحت إليه واطمأنت به بروح الاخلاص للنهج الحمدي والإيمان بالفهم العلوي، يعالج كل ذلك بجرأة المؤمن بالحق الغيور على أمته المتطلع إلى نقائها، الخائف على مستقبلها، في وقت لا يجرو فيه إنسان على أن ينتقد مظهراً من مظاهر الانحراف في فهم الدين، والتعسف في تطبيقه، لما هؤلاء المنتقدين من سلطان على عقول الناس وأفعالهم ولكنها شجاعة الإيمان، تجلت في شخص القاموسي وشعره ولو صدعت أصوات أخرى لها نقاء صوت القاموسي وإخلاصه بالحق الصراح لكانت حال الأمة حالاً مرضى الله وتفهم شعائره وحدوده وترجو آخرته باعمار دنياها صلاحاً وتقوى وهدى وفلاحاً.

* * *

❖ وقد تركت مأساة الطف وهذا هو الملمح الثاني أثرها العميق في ضمائر الناس

وخاصة النجفيين وألقت بظلالها القاتمة الحزينة على حياتهم فهم لا يكفون عن ذكرها وإحيائها بكاءً صادقاً وحزناً شفيفاً وتمازجاً مع الروح والسلوك وقد عبر الشعر النجفي خير تعبير عن مكونات الضمانر وأشواق النفوس، ولوعة الروح الممهورة بميسم الألم: فلا تكاد تجد شاعراً إلا وقد امتزج شعره بالحزن الشفيف والألم العميق والولاء الصادق، وهو يعترف أفكاره ومعانيه من أعماق الروح اللاتية، وينتزع عواطفه وصوره وخيالاته من نياط القلب، فالحسين هو سبط رسول الله وحبيبه وهو الامام الذي سن للناس شريعة عدم القرار على الضيم فهو إذن مثل أعلى، وموقعة كربلاء هي الذروة في حلقات الصراع بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، بين مبادئ السماء المتسامية، ونوازع الأرض المتدنية، هي عمق المأساة لنفر آمنوا برهم وقاتلوا شوقاً إلى لقائه فذهبوا طعاماً لسيوف ذليلة جبانة تحملها أيدي ذليلة جبانة، وتحرك نوازعها نفوس ذليلة جبانة: وهي موقف يسفر فيه الباطل عن وجهه القميء متوسلاً بكل أساليب الغدر والخسة والجبن والهمجية لكي يكسب المعركة في جولة لكن الله يأبى أن يطفأ نور الايمان فقد كسب الحسين رضا الله وحكم التاريخ وحب الناس وإعجابهم موالين وأعداء.

عبر الشعر النجفي عن هذه المضامين وغيرها بعمق وتفاعل وإيمان جاعلاً مرآتي السيد حيدر الحلبي في الحسين وأهل بيته نموذجاً عالياً يطمح الشعراء إلى الوصول إليه. ومرآتي السيد حيدر - وان تخللها شيء من الدعوة التحريضية - مصبوغة بالحزن، صادعة بالبكاء والعيول، نادبة مصارع الشهداء، حتى نظم الجواهري عينته عام ١٩٤٧ والتي مطلعها:

فداء لثناك من مضجع تنور بالأبلج الأروع

وفيها أعرب عن فهم جديد لثورة الحسين، فهم مجرد من البكاء والعيول والندب: مشحون بالتحدي وتمجيد الدرب الذي سلكه الحسين وأنصاره، وحملها مضامين سياسية وفكرية حديثة متجددة. عينية الجواهري هذه الناطقة عن روح الجواهري العنيف الثائر المتمرد وجهت الشعراء في موضوعة الحسين وجهة جديدة، فقد أدرك جيل جديد من الشعراء أن مأساة الطف على ما تثيره في النفوس من حزن عميق مخلص وألم ممض محرض، لها وجه آخر هو وجه الحق المتمثل بالحسين وأصحابه، وجه التضحية من أجل المبادئ ورفض المساومة عليها وان كان ثمن ذلك الدماء الزاكية ومهرة النفوس الغالية، وجه الرفض لكل أساليب التضليل والاذلال والظلم، وجه معبر عن إرادة التغيير توخياً لصالح هذه الأمة. ومن هذا الفكر الاجتماعي السياسي ينطلق القاموسي كواحد من شعراء جيله - جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية - في شعره مسجلاً عواطف زخارة صادقة تجاه الحسين وهو متألم

له متوجع لمصرعه، لكنه ليس أماً سلبياً وليس توجعاً ينسي الهدف ويضيع الدرب، بل هو ألم يوقد جمره الثورة في النفوس، وتوجع يبعث العزم في الضمائر ويوجه الطاقات لاصلاح هذه الأمة وصلاحتها، رافض لكل أنواع الضعف والخور والخضوع. سمعه يقول:

لله يأسك من ذكرى ننام على	أطيافها ويسلينا تجردها
مدى القرون تناجيننا بصرختها	ونحن بالدمعة الخرساء نسعدنا
ما استلهم القادة الأبرار ثورتها	وأرجف الطاغى الجبار مولدها
وأربع الظلم في أقسى ضراوته	وبطشه، ذاكر منا يمجدنا
إلا لأن يداً محضوبة قبضت	على قوائم أهداف تجردها
لو كان أقصى أمانيتها مدامنا	لكان أطفه ما تبغيه مقصدها

وينعى على قومه - في قصيدة أخرى - فهمهم القاصر لنهضة الحسين وأهدافها ومراميتها، وأنهم يستقبلون يومه - وهو يوم الأبناء - ببكاء ونحيب، وما وعوا انه مدرسة الأجيال من الثوار، اتخذوا الثورة الدامية وسيلة للتغيير، ووضع الحق في نصابه.. يقول في هذه القصيدة:

عز على يومك يوم الأبناء	انك لا ترثى بغير البكاء
وان ذكراك على ما بها	من عبر توحى لنا ما نشاء
مدرسة يجهل طلابها	علام تشييدك هذا البناء
أبا الضحايا وعزيز على	بنيك أن تشجى بهذا النداء
يؤلمني ان الضحايا التي	تحضنها شامخة كربلاء
وإن أوداج الضحايا التي	تعطر الدهر بها واستضاء
من عابس شاق الظبا والقنا	ومترف عاف المنى والهنا
غطت مآسيها على غايبها	فلم نعد نعرف غير الغطاء
واحتشد اليأس على ضوئها	فاحتجبت أنوارها بالدماء

ولو حاولنا أن نستقصي أثر واقعة الطف في شعر القاموسي، لتطلب ذلك منا حيزاً كبيراً لا تسمح به هذه العجالة، ولا طبيعة المناسبة.. ولكنه أثر حقيقي وعميق لا يغادر غرضاً من أغراض شعره، ذلك ان أثر الحسين وهنئته الكريمة ومأساة مصرعه وأهل بيته وصحبه تنداح في النفوس وتنساح إلى كل مواطن الحب والاعجاب والولاء من جوانب الروح الرحبة.

❖ وملح ثالث من الملامح العامة للشعر النجفي الحديث هو ان الشعر النجفي - رغم ذاتيته وغنائيه - متواصل مع الآخرين، يتفاعل مع الأحداث العامة - فضلاً عن الخاصة - ويتخذها مناسبة للتعبير عن المهّمين - العام والخاص - فمنذ ان بدأت النجف تهتم بما حولها من أحداث - وعلى وجه التحديد منذ قيام معركة المشروطة والمستبدة عام ١٩٠٦ وقد انقسمت النجف بسببها إلى طائفتين، وما أعقبها من إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ - نراها تتخطى أسوارها وتهتم بما يقع من أحداث في المحيط الانساني عامة، والمحيطين العربي والاسلامي خاصة.

والشعر - لسان النجف الذي يفصح عن حالها، ويبين عن مواقفها، ويوصل صوتها إلى العالم أجمع - خير ترجمان لاهتماماتها وتواصلها مع الأحداث، فمثلاً نجد شاعرين كبيرين هما محمد رضا الشيبلي وعلي الشرقي يبادر كل منهما إلى نظم قصيدة في موضوع واحد وقع بعيداً عن النجف لكنه يدخل في دائرة اهتماماتها الانسانية فقد حرك احساسها وهز مشاعر الناس فيها، وهو حادث غرق الباخرة (تبتك) عام ١٩١٢.

ولا عجب من أن نرى الشاعر النجفي ينظم أول قصيدة في القضية الفلسطينية وذلك عام ١٩٢٨ ينبه بها - بصورة مبكرة تذكرونا باستشراف الشعراء أفق النبوءة - إلى أخطار الحركة الصهيونية ومخططاتها المبيتة في فلسطين ويدعو العرب إلى القيام بواجباتهم اتجاه أنفسهم وأوطانهم، ثم توالى القصائد النجفية حتى انها تشكل مجلدات ضخمة، فقد نظم الشاعر النجفي في مأساة فلسطين ما لم ينظمه العرب مجتمعين حتى عام ١٩٧٣ ولا تعجب حين نقرأ ان الشعر الذي نظمته النجف في الثورة الجزائرية يؤلف ديواناً ضخماً. وقل مثل ذلك في الشعر النجفي الذي نظم في ثورة الريف وفي العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وفي حرب طرابلس ضد الطليان.

ومن مظاهر هذا التواصل بالقضايا العامة والأحداث الكبرى، تمجيد القيم الانسانية المطلقة، والمواقف الشجاعة للانسان في كل زمان ومكان، حتى لو كان أصحابها على النقيض من النجف فكراً وسلوكاً، فالشاعر النجفي يقدر باجلال وإعظام نزوع الانسان إلى الحرية، وتطلعه إلى العدالة الاجتماعية، وهو يعظم العلم ودوره في الحياة الانسانية ويحل الانشداد إلى قيم البطولة والتسامي في كل مجال حياتي كما يؤيد - بحماسة وصدق - تطلعات الشعوب إلى الاستقلال الوطني والكرامة الانسانية وحققها في حياة حرة كريمة تقوم على اختياراتها الخاصة الحرة.

وقد عد بعضهم هذا النوع من الشعر شعر مناسبات، وعابه على شعراء النجف وعلى

غيرهم من الشعراء.

وليس هذا مما يعيب الشعر والشاعر، ما دام الشاعر يعبر بصدق وإحساس عن معاناته الخاصة ويتفاعل مع المناسبة تفاعلاً عميقاً حميماً، بل يتوسل بالمناسبة للتواصل مع الآخرين معبراً عن هم عام من خلال هم ذاتي خاص وخالفاً موقفاً عاماً يبدأ من الشاعر نفسه، وما الشعر إلا مشاعر وانفعالات وأحاسيس تحركها بواعث ودواع وتوقد جهره المناسبات وتسرج مصباحه الأحداث والوقائع.

هذا التواصل مع الآخرين، والتفاعل بإحساس ومعاناة مع حركة الأحداث يتجلى في ديوان القاموسي فقد أفرد في فهرست ديوانه باباً خاصاً أطلق عليه اسم الاجتماعيات ضم ست عشرة قصيدة، فيها من العام أكثر مما فيها من هم خاص، فيها الأفق المفتوح - بلا حدود - على الأحداث والمواقف، كما نجد إحدى عشرة قصيدة في باب أطلق عليه اسم المراثي وهي قصائد قيلت في رثاء رجال كانوا يلعبون دوراً فاعلاً في حياة الناس العامة، فهو - مثلاً - يتخذ مناسبة كذكرى ميلاد الامام الحسين (ع) ليعبر عن إيمان عميق بما وبمبادئها، مجدداً الفعل البطولي للحسين وأصحابه محذراً ممن يتخذ الحسين وثورته شعاراً يخفي وراءه حقيقة مقاصده، ويحقق ماأرب هي علي النقيض من إرادة الحسين بنهضته الكريمة يقول:

تاريخ جيل ولا عصر يحدها	بنت العصور فلا ينهي روايتها
تتلى ومستمع الأجيال منشدها	جاءت بأبلغ عصماء وما برحت
منها فريد قوافيها وشردها	تفردت بالمعاني البكر هادرة
قلب يعيها وأرواح تجسدها	صاغ الحسين معانيها ولحنها
رواها وكأن الطف مربدها	دوت كان النحور الناضحات دماً
على العصور فأعيها تمجدها	رامت صيافة التقوى تلاوتها
عن نيل غايتها الكبرى يعدها	وما درت أن غشاً في دوافعها
مضينة بشهاب منك يرشدها	كم فكرة حرة الأنعام مطربة
في حين ألف يزيد راح يعصدها	هبت لحكم يزيد كي تمزقه

ثم يوجه الأنظار إلى تجربة التاريخ المر الذي عانى منه محبو الحسين والمؤمنون بمبادئه:

ويحذرهم من الغد الشقي لو تقاعسوا عن انتهاج نهجه يقول:

ان كان تاريخها بالأمس أجهدها ما عذرها اليوم لو يشقى بما غدها

ويشاء نفر من المؤمنين الاحتفال بيوم الغدير. فينبري القاموسي مشاركاً ومذكراً بعظمة

صاحب الذكرى، فقد جعل العدل مذهباً له، ممجداً سلوك الامام، فقد وجدت لديه المبادئ
طريقها للتطبيق، بادناً بنفسه وأهل بيته ليكون للرعية أسوة حسنة يقول:

أبا العدل يوم المصلحين كأسمهم	عصيب وليل المستضامين عاكر
إذا لم يسر في الناس سيرك ناصح	أمين على نشر العدالة قادر
فلا يصلح الدنيا عتاد وقوة	وان حاطت الست الجهات العساكر
وأتى وقد ساويت في الحق قنبراً	تقاسمه ما تقنتي وتشاطر
وما بت مبطاناً وفي الناس جانع	ولو شنت أهلك الغنى والتكاثر

وهو يقف في مناسبة افتتاح البناية الجديدة لجمعية منتدى النشر عام ١٩٥٧ منتقداً
بعض المظاهر السلبية في المجتمع غامراً من قناة من يدعي الاصلاح وهو عاطل منه فيقول:

اني رأيت الناس يستهويهم	القلب المنافق والفم السحار
ورأيت من يهب الوعود سخية	ببراء تكثر عنده الأنصار
ورأيت نفاعاً يعاف لأنه	لا يستفيد بفعله ضرار
ووجدت في زاكي اهابك نفعة	بعثت شذاها السادة الأظهار
ان أخبرت صدقت وان وعدت وفت	وعداً وان وهبت فلا استنكار

* * *

ما بال واغرة يلقن ضغنها	جهل وتوقد حقدتها أوغار
ضربت على الوتر القديم طماعه	ان تستجيب لوقعها أوتار

ويثور العراق عام ١٩٤٨ مستنكراً معاهدة برتسموث، ويسقط شبابه شهداء المبادئ
والوطنية، فتقيم المدرسة الثانوية حفلاً تأبينياً لهم يبادر القاموسي الى المشاركة به فينشد
ممجداً قيم الشهادة في سبيل المبادئ والأوطان معظماً دور الشهيد في بناء المستقبل الزاهر
لبني وطنه غير ناس الدم الزكي الذي سال وفاض فنقض ما أبرم الخونة من موثيق تكبل
الوطن بقيود الأجنبي. يقول:

أقسمت بالشهداء الغرب بالوطن الخبواب بالوثبات أعظم بما قسما!	ليس الخلود سوى ثوب تطرزه
يد الشهيد ويوشيه النضال دما	كفى دم سال فوق الأرض مكرمة
بانه نقض العهد الذي برما	عاش النضال وعاش الشعب منتفضاً
حراً يكافح من يطغى ومن ظلما	

وتقيم جمعية منتدى النشر مجلس الفاتحة على روح الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء
فيندفع القاموسي - وهو العضو المبدع النشط فيها - ممجداً القيمة المطلقة للعلم ومنافعه

الواقعية في حياة الناس فيقول:

تقدس العلم ما أوفى منافعه
والعلم علمان علم درّ تغذية
ما ينفع الناس يبقى في معادنه
ما قيمة العلم إن لم يُزج منفعة

وفي حفل افتتاح جامعة النجف الدينية يقف القاموسي داعياً إلى الجديد، ذاماً هؤلاء
الذين جمدوا في حياتهم وأساليب تفكيرهم على القديم بدعوى الحفاظ على الجوهر، ومادروا
ان جوهر الأشياء باق وان تبدل العرض:

ويراوحون خطاهم بمكائهم
يتهبون من الجديد وليتهم
وأرى الحضارة تستجيب للحنهم
فالذكر لا يحويه تمييق ولا

فهذا كله تمجيد لقيم إنسانية مطلقة خيرة ودعوة إليها، هذه القيم هي المثل العليا التي
يسعى إليها الانسان في كل زمان ومكان مكافحاً في سبيل إعلانها منافحاً عنها بما يملك من
أدوات ووسائل. وجد شاعرنا القاموسي مناسبات مخصوصة ليذكر بها ويدعو إليها ويحجها
إلى النفوس لكي تجدد العهد بها وتمثلها في مدارج الرقي والتحضر.

وينعقد مهرجان الشعر التاسع في بغداد عام ١٩٦٩م ويدعى القاموسي إليه وكانت
أصداء هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ما زالت تدوي في الأسماع وتعمل في النفوس،
ويتسابق الشعراء لتحفيز الهمم وشحن العزائم دون الاشارة تلميحاً أو تصريحاً إلى موضع
المرح الناظر من جسد الأمة، ويعتلي القاموسي منبر المهرجان فيصدع بالرأي الشجاع
الناطق عن مكنون الضمائر، والكاشف عن حقيقة مجرى الأحداث يصرخ القاموسي:

وما انشغلك بالأعواد تحزّمها
ملء السفوح وقود جاثم يبس
تجد تحطب مكدوداً خطأً يبدأ
تقلدوك سلاًحاً لا للحمّة
وحشدوك وقوداً لا لئار وغى
وسعروك حماساً لا لفارعة
أولاء هم قادة المسرى لرحلتنا

ماعزّ يوماً على مستوقد حطب
لكن هلم أعربي واقداً يشب
وجد قوماً لو حققته لعب
لكن ليختال في استعراضه اليلب
لكن لتحرس قلباً خائفاً يجب
لكن لتشغلك الأشعار والخطب
فانظر لأي مصير تنتهي الدرب

ثم هو يرى فجر الأمل الجديد ينبثق من فوهة بندقيّة الفدائي الفلسطيني فيحلم
القاموسي ان ليل الهزيمة راحل - لا محالة - وان بسمّة الفجر الجديد ستشرق من جديد
على وجه هذه الأمة فتعيد إليها عزتها المسلوية وكرامتها المهذرة ونصاعة تاريخها الرضاء
فيتحدى متفاعلاً قانلاً من قصيدة ألقيت في مهرجان المربد الثاني المنعقد في البصرة عام
١٩٧٢.

فاستوى واثباً وقد فز عرق عري الدماء صلد عني
لا يبالي إذا تيقظ فجر ان أيامه الحبالى رقدود
أمهر العودة الفداء ويغلي المهر ان ترتضيك بكر ولود
أبعد هذا الذي عرضناه من شعر القاموسي وهو شاعر نجفي يمكن أن يرمى الشعر
النجفي بالانغلاق والذاتية والانكفاء على اخط الضيق؟ أليس أعظم الشعر ما تغنى بالأبجاد
وما أنشد لانسانية الانسان في كل واد؟

* * *

❖ وملمح آخر هو ان الشعر النجفي يعد خير تعبير عن البيئة النجفية الصحيحة،
فهو سجل دقيق حافل بكل تفصيلات البيئة النجفية من أحزان وأفراح وآمال وخيبات
وتسام وإحباطات، ويستطيع الدارس - بدراسته الشعر النجفي - ان يرسم خريطة للحياة
النجفية - عبر عقود عديدة - يؤشر عليها الأحداث صغيرها وكبيرها، حقيرها وجليلها،
خاصها وعامها، اذن هو شعر واقعي بمعنى أنه أمين في تصوير الواقع الحياتي للبيئة النجفية
وهو شعر واقعي لأنه تنعكس فيه صورة الفرد النجفي والمجتمع النجفي بقيمه وعاداته ونمط
علاقاته وهو شعر واقعي بموضوعاته وآفاقه وصوره وأخيلته وأساليب تعبيره ومفرداته
ورموزه وإشاراته وبنائه الداخلي والشكلي.

واقعية الشعر النجفي تركز على دعامتين:

الأولى: واقعية الشخصية الانسانية للنجفي الخكومة بظروف موضوعية قاسية. عليها أن
تستجيب لها، وتتكيف معها، وتراعيها وتحتكم إليها في أسلوب الحياة، وطريقة التفكير،
ونمط السلوك الاجتماعي والتوازن في إقامة العلاقات الاجتماعية المعقدة، مع أطراف متعددة
متناقضة.

والثانية: متمثلة بالمنهج العقلي الصارم، الذي هو طابع الدراسات النجفية في مجالات
العلوم العربية والشرعية والفلسفية والأخلاقية.

فقد طبع هذا المنهج العقلي حياة الناس بطابعه ووسمهم بميسمه، دارسين ومحيطين بهم

ومتعاملين معهم، فالعقل قوة حياتية، وسلطة ضرورية، يحتكم إليها النجفي في كل موطن، والحجة الواضحة المنقعة تجري على لسانه، والمقاييس المنطقية العقلية تصوغ ذهنه وتوجهه وجهة لا محيد عنها، فلا مسوغ للعواطف ولا سبيل للتحلل من قيود العقل الصارمة التي تحكم تفكير الجميع وسلوكه، فمن خرج عليها تفكيراً وهجاً، فهو شاذ متمرّد منبوذ، وجب على الجميع مقاطعته، وإبداء الاحتقار له، والترفع عن مجالسته ومسايرته والانتساب إليه.

والقاموسي نتاج هذه البيئة العقلية الواقعية التي لامست فيه جوانب إنسانية فطبعته بطابعها وأجنته شاعراً واقعياً، فقد سجل في شعره كثيراً من مفردات الواقع النجفي ونقل إليه كثيراً من أحداثه فهو ينتزع موضوعاته منه، سواء كانت خاصة أم عامة، فنراه يرثي من يموت ممن يكن له وداً واعجاباً، وهو يهنئ بمولود لصديق، ويؤرخ له، ويحتفل بزواج أحد أصدقائه وأودائه بقصيدة راقصة مطربة، يشع الفرح من أبياتها وتضحك البهجة في معانيها وألفاظها، وهو يحتفل في المناسبات مع المختلّين، وهو يحب ويعشق فيكتب الشعر صافياً رائعاً تجري الجودة في مفاصله. وتسيل الرقة من تراكيبه، وتتدفق العواطف حارة زخارة صادقة ودودة، وهو يغترب فيتشوق ويحن ويناجي بنغم شجي ملتان، وتقوم مناسبة اجتماعية إصلاحية فينهض راقماً ريادةً في سجل التاريخ، عارفاً لأصحابها فضلهم داعياً الآخرين إلى انتهاز نهجهم في الإصلاح والصلاح، ويمر العراق - ومنه النجف - في تاريخه الحديث بأحداث جسام وتبرز من خلالها رجال عظام، لها مع النجف - تاريخاً وفكراً - تماس وتفاعل وتأثير، فينبغي مشاركاً في صنع الأحداث والمواقف محرّكاً لاتجاهاتها، ملتصقاً برجالها وأبطالها. وما ينبغي الوقوف عنده في كل ذلك ان القاموسي صادق فيما يقول، مؤمن بما ينقل، جريء فيما ينتقد. لا يرغب ولا يرهب، فما أبعد المؤمنين الصادقين عن الرغبة والرهبنة! والقاموسي واقعي في طريقة تفكيره حتى في الأمور التي تنأى بطبعها عن الواقعية كالحب مثلاً، فهو يحاجج قلبه ويدعوه إلى معاينة واقعه هو فلا يشتط به الخيال ويجمح به الطيش اسمعه يقول:

قلبي رويدك لا تطش جهلاً أتظن انك لم تزل طفلاً؟
الأربعون تكاد تبلغها ويكاد منك جديدها يلي

أرأيت واقعية أكثر من هذه؟ فالشعراء في مثل تجارب الحب يحبون أنفسهم ويزينون لها تصايبها، اما شاعرنا فهو يعنف قلبه رامياً له بالطيش، طالباً منه أن يرتد إلى حكم البيئة النجفية العقلانية التي ترى في الحب جهلاً، وفي العاطفة سراباً، وهو واقعي يحاجج قلبه بحاججة عقلية منطقية، ويذكره بأنه كاد يبلغ الأربعين وقد بلي جديده.

والقاموسي واقعي يكاد ينقل إليك الواقع بنفاصيله الحية الدقيقة فهو في غزله يقارب الحسية وينقل إليك صورة فوتوغرافية وصفية لليلاه؛ لكن هذه الفوتوغرافية لم تسلب الصورة حركتها وتوجهها، ولم تحجب عنها تيار الحياة الدافق حتى اصطبغت - لواقعيتها - بلون من النثرية. يقول:

ليلاي هل تذكرين إذ التقيتكَ في الحديقَه
إذ أنت كنت على الرصيف جلست باسمه طليقَه
ويداك عابثتان تكث زهرة الروض الأنيقَه
نشوى ترف على شفاهك بسمه الأمل الرقيقَه
يطفو الجمال على صباك وأنت بالنشوى غريقَه

وهو واقعي حين ينقل إلى شعره كثيراً من ألفاظ البيئة العلمية ومصطلحاتها ومفاهيمها، وأسلوب تفكيرها، ونمط معالجتها الفكرية، وطريقة تعاملها مع الواقع أسمعهُ يقول:

عزف الناس عن الحق فوا ضيعة الحق وفقدان الثقة
لا تقل ذا ثقة وثقه عادل فالشك فيمن وثقه

أو استمع إلى هذه الحاجة العقلية التي تطفو على تراكيبها كثير من المفردات التي هي نتاج البيئة العقلية النجفية وهي أبيات من شعر الشباب الذي قاله أيام طلب العلم وقبل أن تستوي شخصيته الفنية، وهذا يفسر الروح النثرية الغالبة عليها والصور والمعاني التقليدية.. يقول:

يقول الصديق - وماذا يقول -
فرحت أرد عليه الجواب
ثلاث بمن تزول الشجون
بروض تفتح بمن الورود
وانى أوفق في جمعها
فقال: فنالها قد كفاك
فقال: فباخذ ماء الحياة
فقال وبالقد غصن الأراك
علاك ارتياح وتشكو النحول
بدمع يفيض وعين تسيل
ويشقى بمن السقيم العليل
وماء زلال ووجه جميل
وقد صار من رابع المستحيل
فقلت وما هو عنها بديل
فقلت ولكنه لا يسيل
فقلت ولكنه لا يميل

أليس أسلوب (قال وقلت) مظهراً من مظاهر الجدل الذي عرفت به النجف، أليس في ألفاظ (الجواب.. أوفق.. المستحيل) دليل على هذا التأثير الواقعي بما يدرس وما يعاني من مسائل فكرية جدلية؟

وهو حتى في غزله يعمد إلى ألفاظ إصطلاحية تعبدية من شعائر الحج، يضمها غزله نظراً وتفكها ملونا غزله بتلك القدسية التي تنم عليها هذه الألفاظ: يقول:

(طف) بجديه (والتمس) منه خالاً فمحياه (كعبة) العشاق

(وارم) من زفرة الفؤاد (جواراً) قبل ان يرميك سهم الحسداق

(صل) اني اتجهت دمعاً وخلّ القلب (يسعى) بعمرة الاشتياق

ثم (لبّ) الهوى فهذا (مقام) المستجيرين من سعي الفراق

أما في الموضوعات اللصيقة بواقع البحث العلمي العقلي، فيبدو ذلك طبيعياً، اسمعه يقول في رثاء محمد رضا آل ياسين وهو واحد من أعلام النجف علماً وتقوى:

مضى فاتحى من سجل الهداة وان خلد المذكر عنواها

واثكل محرابها بالصلاة مجاباً دعاها وقرباها

واقفر معهدا لا النبوغ به تتنور أذهانها

ولا المسفات كرأي الصريح تجلّت واحكم تباها

ولا انحكمت بما ترتأيه تنزل كالوحي فرقانها

فانك واجد ألفاظاً ومصطلحات ومفاهيم تفصح عن ممارسات تعبدية مما يجري على السنة طلاب العلوم الدينية - وهم مادة النجف - ومما يدرس في معاهد النجف العلمية، وهي قوام النجف ومظهر تميزها، لكن ذلك لا يبدو منفصلاً عن الموضوع، ولا طبيعة المناسبة ولا نشازاً في سياقه من القصيدة، بل تراه متوحداً مع طبيعة الحدث من دون أن يحدث خللاً فنياً في بناء الأبيات أو يترك ضعفاً في تماسك القصيدة أو يؤثر سلباً في جمالياتها. بل يتجاوز القاموسي ذلك فيرصد بعض أبياته بأسماء كتب كانت لها أصداء في الأوساط العلمية، وهذا ما ورد في هذه الأبيات من قصيدة في رثاء الشيخ المصلح محمد حسين كاشف الغطاء يقول:

لو لم تجل بك (الآيات بينة) ويهد (للدين والاسلام) مرتجع

لما بكتك السما حزناً ولا ارتجفت بالمسلمين أسى أرضٍ ولا فجعوا

ثم يقول:

آمنت (بالمثل العليا) متممة مجداً تجد به تسمو وترتفع

(والآيات بينات) (والدين والاسلام) (والمثل العليا) هي من جملة مؤلفات المرثي.

ومن مظاهر الواقعية في شعر القاموسي - وهو انعكاس لواقعيته الانسانية - انه نظم كثيراً من شعر الغزل وأفرده بعنوان خاص في فهرست ديوانه، أطلق عليه (ديوان الغزل)،

أدرج فيه عشرين قصيدة موضوعها الحب والمرأة، ذلك يعني ان القاموسي لم يتنكر للجانب الواقعي في حياة الانسان، المحكوم في كثير من تصرفاته بالغريزة، التي هي من عرس الله وانياته، بل يتجاوز بواقعيته ذلك فيثبت بجرأته الخلقية المعهودة عناوين توضيحية في مفتتح بعض قصائده من نحو (نظمت لتجربة من تجارب الحب) أو (أول تجربة من تجارب الحب) أو (من أحاسيس التجربة الأولى للحب) أو (الشاعر يمارس قرص الشعر في تجربة حية) أو (دهشة لتجربة من تجارب الحب الموقفة) وهذا أمر لا تفره عليه طبيعة النشأة التي نشأ عليها، ولا تقاليد الوسط العائلي والاجتماعي التي ربي في أحضانه، لكنه الانسان - بناء الله - يستجيب لنوازه الطبيعية متحدياً ظروف القهر والكبت والانغلاق.

أو تراه - وفي ذلك مظهر من مظاهر الواقعية التسجيلية - يدل على واقعية غزله بالتوثيق بالمكان تارة، وبالزمان تارة أخرى ويذكر اسم المتغزل به تارة ثالثة. والملاحظ على غزل القاموسي انه بالرغم من واقعية التجربة يقترب من الأفق الرومانسي متمثلاً بصدق الانفعال وحرارة العاطفة، وعمق المعاناة، والشعور بالانكسار النفسي وسعة الخيال التي تجعل الشاعر وتجربته جزءاً من الطبيعة الحية من حوله، لاهناً وراء القيم المطلقة للروح ومظاهر الجمال بأي صورة تجلت، مصوغاً بلفظ رقيق وروح شفيف وموسيقى نابغة من الداخل، لا صاحبة ولا ضاجة، وانما هي موسيقى الروح العاشقة المتألمة بصمت، الخاضعة لقساوة الواقع، المرتدة إليه. اسمعه يقول من قصيدة عنوانها (صدقيني):

صدقيني ولست أقسم بالسحر سجا مقللة ورف عيونا
وخمار الحديث فاض غراماً فصحا تارة وعربد حيناً
صدقيني ليلي إذا قلت اني لست بالفارس الذي تطليننا
لست طلق العنان خلوا من الوجد فاستوقد الذي تحطيننا
لا ولا المارد اللنيم فأغريك ولست الغاوي ولست الخؤونا
لست ملكاً لنزوتي وان استعد طاعي هواك قلبي سنينا
ملكنتي - من قبل أن توقوف الحب أفاعيه - زوجة وبنونا!!
واعتداء على الهوى أن أبيع القلب قوماً وهبته آخرينا

* * *

❖ والشعر النجفي - وهذا ملمح خامس - شعر معان وأفكار فهو الوارث الحقيقي للشعر العربي في العصر العباسي الثاني بخاصة والذي هو نتاج بيئة عقلية مثقفة، فالشعراء في هذا العصر لم يكونوا يقنعون بالموهبة وان كانت موهبة كبيرة، وانما أصبح الشاعر رجلاً

متقفاً، يلم بجوانب كثيرة وعميقة من ثقافة عصره، ويشارك في خلقها ورفدها والاضافة عليها.

فشعراء كالمنتبي والرضي والمرتضى والمعري والطغراني... وغير هؤلاء كانت لهم مساهمات ملموسة محسوسة في حركة الفكر العربي لذلك العصر، وأكاد أزعم ان البيئة النجفية هي الوارث الشعري الوحيد لثقافة العصر العباسي عامة بما فيها من تنوع وغنى وأصالة وعمق، يفارق واحد وهو ان ثقافة ذلك العصر كانت ممتدة بالمكان إلى حواضر العالم الاسلامي عامة، أما ثقافة الحاضرة النجفية فهي محدودة بالمكان حدود مدينة النجف مع بعض الاشعاعات التي تمتد إلى بعض مدن العالم الاسلامي، لهذا جاءت مركزة مكثفة معمقة تصب فيها كل الروافد وتغد إليها كل المواهب الأصيلة، وتهاجر نحوها كل العقول الكبيرة، وتشارك في خلقها كل القرائح المؤمنة فجاءت خلاصة مركزة للفكر العربي الاسلامي الأصيل العميق المبدع في وقت أصيب فيه الفكر العربي الاسلامي في كل حواضره ومعاهده بالنضوب والتأسن، فكف عن العطاء والاضافة والتجدد ولا ننسى تأثير الشعر النجفي بالشعر الفارسي الذي يوصف بانه شعر معان وأفكار.. وقد أطرح الشاعر النجفي ثنائية اللفظ والمعنى، فاهتمامه منصب أساساً على الفكرة: إبداعاً وتأصيلاً، أو توليداً وتطويراً، أو تضميناً واقتباساً، وهذا يفسر كون القصيدة في الشعر النجفي تنتظم غالباً في عدة أدوار أو مقاطع وهذا أيضاً يفسر شيوع نظم الرباعيات والحماسيات والدوبيت في الشعر النجفي، فهذه جميعاً تنتظمها فكرة واحدة متكاملة، أو حجة فكرية ذكية، أو خاطرة عارضة يحرص صاحبها على تسجيلها شعراً، ليكفل لها الخلود والسيرورة، وهذه جميعاً منفصلة في السياق العام عما قبلها وعما بعدها من رباعيات، أو حماسيات، أو دوبيتات.

وليس معنى ذلك أن الشاعر النجفي يهمل الجانب الشكلي، أو اللفظي من الشعر إهمالاً تاماً، فقد كان الشاعر النجفي يهتم بجمال اللفظة، وفصاحة التركيب، وسلامة العبارة، وحسن أداء المعنى، والدقة في الاعراب عنه والدلالة عليه، ولكن ضمن قوالب موروثية لا تغرب في الاستعارة، ولا تبعد في الجواز، ولا تنقل بألوان البديع بما يشبه الحلبي على الميتم، وتأنى عن الوحشي الغريب، والسوقي المتبدل، فالتعبير عن الفكرة يتدفق بعفوية، ودون قصد من أعماق الروح، حاملاً صدق التجربة، وحرارة المعاناة، وكان هذا اللفظ فصل لهذا المعنى، أو كان هذا الشكل، قد خلق لنحمل هذا المضمون، أو كان المعاني تجري في الألفاظ كما النسغ في عروق الشجرة وفروعها.

والتأمل شعر القاموسي يجد الاهتمام بأداء المعاني والأفكار واضحاً جلياً، فهي أفكار

أصيلة، أو مولودة، وهي أفكار عميقة عمق التجف الفكري، أو خطرات لمحة تخلق ولا تحط. وربما أدى الاهتمام بالأفكار والمعاني بالقاموسي إلى أن يغفل الجانب الشكلي أو الفني في القصيدة، وهذا ما يفسر اقتراب شعر القاموسي أحياناً من النثرية، بكل ما تحمله من مباشرة أو خطابية أو ألفاظ غير شعرية - هي أثر من آثار ثقافته الحديثة التي توهم أحياناً بالتجديد - على حساب المبنى، أو تراكيب متعسفة يتوسل بها الشاعر لأداء معنى من المعاني، مضحياً ببعض القيم الجمالية التي يتطلبها الشعر، اسمه وهو يصور عجزه، وخيبة أمله في قومه، وخوفه عليهم، وحيرته في دائهم ودوائهم في أبيات يتعاقب فيها المعنى واللفظ في اتحاد حقيقي يعمق أو أصره الرمز الواضح، واللمحة الدالة، مستخدماً بذلك بعض الأساليب الخبرية والانشائية، مهتماً بالايقاع الداخلي للقصيدة ينساب في موسيقية آسرة وهي خصيصة تعدّ للقاموسي بخاصة - يقول:

وان مطرقتي مشلولة يدها	آمنت ابني مأخوذ عليّ فمي
أسماع قومي ولحني لا يهددها	وان جذوة أشعاري تضيق بما
سللته حز أو صالي يفصدها	وان سيفي ذو حدين أيهما
بأمها ليس تدري كيف تسعدها	وانني وبني قومي كحائرة
أم أستقي عفوها الطاعي فأنقدها	أنتقي عنفي الباغي فأعذرهما؟
فطير السكر من رأسي معربدها	كرعت خرة آمالي معتقة
معاقري وتعاطاها مفنددها	وطفت بالكأس أزجيتها فحطمها
وربما أخطأ الجدوى تقصدها	لو انها كأسى الأولى عذرهما
تسقي الزروع وكف الغير تحصدها	لكن أقتل ما أحشاه أن يدي

أرأيت كيف عبر عن كل هذه المعاني الخليلية العميقة بالألفاظ واضحة، وتراكيب سليمة، وأساليب متنوعة، مستخدماً رموزاً دالة على معانيها دون تعسف أو عنق. ألا يصدق على أبيات القاموسي هذه قول ابن قتيبة في تقويمه الشعر الجيد بانه (ما حسن لفظه وجاد معناه). ثم اسمعه راثياً الشيخ المصلح محمد رضا المظفر: مفلساً الحياة والموت، مانحاً حياة الانسان المصلح أبعاداً عميقة وآجالاً مديدة، باعناً في نفوس القوم نزع الخلود بعمل جليل، فعمر الانسان بعمله لا بسنيه، يقول في أبيات تنضح معاني ثرة غزيرة، تعرب عنها ألفاظ وتراكيب يسيرة:

قالوا ارثه قلت هذا اليوم مولده	والمرء ذكره لا فوه ولا يده
يأبى له الموت ما أضحي وما ورث	منه العقول وما أعطاه معهده

وما حواه من الايمان مسجده
 يلبى ولا نفس يُنهى تردده
 جيلاً ويمشي إلى جيل فيرشد
 وانما عاش كي يحيا به غده
 ينال منها التي تبقى تخلده
 واختار عمراً عطاياه تحده
 ولا خبا مجده فينا وسؤده
 ولا هاروى له رأي فنفقده
 وهل سواه الذي جننا نكرمده

وما تلقته من وحي مدارسه
 ان الحياة حياة الذكر لا جسده
 والعمر عمر الهدى يستل من عمه
 ما عاش كي ينقضي من يومه وطره
 رأى الحياة سنياً تنقضي فمضى
 وجاد بالعمر أياماً تعدده
 فيم الرثاء وما ماتت روائعه
 ولا توارى له فكرٌ فنندبه
 وهل سواه الذي جننا نكرمده

أو اسمعه باكباً الشاعر محمود الجبوي - الذي يرى فيه صورة نفسه - رامزاً لشعره بأوضح الرموز، وأدقها دلالة وأبعدها مرمى ومغزى، نادياً فيه الصفات الكريمة التي فقدناها بشخصه محبباً لها مازجاً بين الصورة والحدث، بين التاريخ الموروث، والرؤية المعاصرة، والتفاعل الحي بين القول والفعل، بين المعاناة والابداع، يقول في أبيات يكاد يجري كل واحد منها مجرى الحكمة والمثل، وما الحكمة والمثل إلا تجارب إنسانية عميقة تصاغ بأجز عبارة وأوضح دلالة:

أضناه مصطبح منها ومغتبِق
 فيا لصفو نديم ما به رنق
 وجدت بالخمير إلا انها حرق
 ويا متارف حب ما به ملق
 لفرط ما شم عطراً انه الورق

يا مائناً أكؤس الفصحى بخمرته
 وساكباً روحه فيها منادمة
 قد طفت بالكأس إلا انها كلم
 فيا مراشف قول ما به كذب
 ويا مدب يراع ودقارنه

* * *

واذ يطيح بمجرور الهوى زلق
 على المروءة أو صد الحجي حنق
 من النسوة نبع طاهر غدق
 وسلسلت عذبه ان يشرب الخلق

إذ الضمانر أهواء تؤرجحها
 ويا مجنّ وفاء إن طغى غضب
 اني لأكبر خلقاً فيك فجره
 يكاد من رقة روت دماثته

ومن مظاهر اهتمام الشاعر النجفي - والقاموسي نجفي الشعر والمنحى - بالمعاني والأفكار. ان بناء البيت والمطلع والقصيدة، هو بناء عقلي يراعى فيه صحة المعنى ودقته

وعدم الخروج إلى الاحالة في التشبيه أو الخجاز، أو الاستعارة ويطلب فيه تمام المعنى ووضوح وإيجازه - حد الالمح - وطرافته، وجدته وبعد مقاصده، كما يحرص فيه على إقامة التوازن بين أجزاء القصيدة المتعددة الأغراض أو الأفكار.

وليس معنى ذلك أن القصيدة النجفية عقلية محضة بل هي قصيدة تدخل الصنعة في كثير من أجزائها، ويتدخل الشاعر - بوعيه - في ترتيب أفكارها، فهي قصيدة تنطلق من الوعي أساساً، ولا يكون للاوعي نصيب إلا بحجم انفعال الشاعر بتجربته، وموضوعه، هذا الانفعال يتسرب بين أجزاء القصيدة فيكون العنصر الوحيد الذي يشد أجزاء القصيدة بعضها إلى بعضها الآخر في وحدة نفسية انفعالية حقيقية.

* * *

❖ ومن ملامح الشعر النجفي شيوع لون من الشعر اصطلح على تسميته بـ(الأخوانيات) وهو تعبير ودي عن العلاقات الحميمة والصلات الصميمة التي تربط أبناء النجف وخاصة هؤلاء الذين عرفوا بقرهم من الأجواء العلمية والأدبية.

وهذا اللون عرف في الشعر العربي في عصور سابقة وفي حواضر أخرى، لكن النجف تميزت عن غيرها بغناها في هذا اللون من الشعر وكثرته فيها، فما يكاد يستجد طارئ من فرح أو حزن إلا سجله الشعراء شعراً، يعبر بصدق، ويشارك باحساس في هذه المناسبة أو تلك، لهذا فأنت تراه شعراً كثيراً وفيراً غنياً بالعواطف الصادقة، مشحوناً بالخطرات الذكية. موثقاً لكثير من الأحداث الصغيرة، والكبيرة العامة والخاصة، والمتصفح لديوان القاموسي المخطوط يرى ان كثيراً من قصائده يمكن أن يندرج تحت مصطلح (الأخوانيات) نظماً القاموسي، بما له ولأسرته المعروفة في النجف من علاقات طيبة بكثير من الأوساط العلمية والأدبية، فهو ينطلق في نظمه هذا اللون من الشعر من شعور المودة، ومبدأ المشاركة الوجدانية ودافع أداء الواجب الاجتماعي ومن دون توقع جزاء أو ثواب فما أبعدته عن طلب هذا الجزاء! وما أغناه عن توقع ذلك الثواب وما أزهده!

فكثير من قصائد الرثاء التي نظمها القاموسي تعد من هذا اللون من الشعر فهو يرثي بدافع الاعجاب بشخصية المرثي، وبمنهجه الاصلاحى، وجهاده في سبيل المبدأ كما في مرثيته للسيد عبد الحسين شرف الدين ومطلعها:

فكان الموت أضعف منك جنداً

حشدت قوى الخلود إليك حشداً

ومرثيته للشهيد محمد حسن المظفر ومطلعها:

ملكوا السدر وحلوه فناء

خسى الموت فسان العلماء

ومرثيته في الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ومطلعها:

تبقى وللموت من عاشوا وما نفعوا رسالة تقتفى هجاً وتتبع

وهو يرثي بباعث الحب والمودة والتلمذة والايان بالمنهج الرسالي للشخصية الرسالية للمرثي كما في مرثيته للشيخ محمد رضا المظفر ومطلعها:

قالوا ارثه قلتُ هذا اليوم مولده والمرء ذكره لا فوه ولا يده

وهو يرثي صديقاً عزيزاً كان يشاركه مجالسه واهتماماته، ويرى فيه الصديق الوفي الجامع لخصال الخير - كما في مرثيته للشاعر السيد محمود الحبوبي ومطلعها:

يبقى وان غار نبض وانظما رفق على الدجى منك ضوء حالم عبق

وهو يرثي لعلاقة شخصية أو عائلية بالمرثي وأهل بيته كما في مرثيته للسيد موسى الجصاني ومطلعها:

يا مربع العلم ان جفت سواقيكا فذي دموع الملا فاضت لترويك

والقاموسي يستجيب لأفراح أصدقائه، وخلانه، ويهتز، كما يستجيب لأحزانهم: ويهتز، فيكتب بعض القصائد الغزلية الرقيقة، قد لا تؤرخ للمناسبة ولا تأتي على ذكرها لكنها مشاركة تثير الفرح والنشوة في المجلس الذي تنشده فيه لما فيها من خطرات مبهجة يوزنها الراقص المطرب، الذي غالباً ما يكون من الأوزان الخفيفة القصيرة المجزوءة، التي تلائم هذه المناسبات، أو من الموشحات بما فيها من صور الطبيعة وأحاسيس الغزل وتنوع في الأوزان، والقوافي، ومن ذلك القصائد التي أنشدت في حفل زفاف السيد صالح الخرسان وحفل زفاف السيد علي الحكيم.

وحين يولد لبعض أصدقائه بعض البنين، أو البنات يشاركونهم القاموسي فرحة الميلاد فينظم أبياتاً تؤرخ لهذه الحادثة الميمونة، والتجف عرفت بهذا اللون من الفن الشعري وبرعت فيه حتى أصبح فناً قائماً بذاته، وصنعة يتقنها المتمرسون من الشعراء فهذا القاموسي يؤرخ لولادة طفل لصديق سمي (حسناً) يقول - ولاحظ التورية الجميلة في أبا حسن والحسن كما لاحظ حسن التضمين وجماله:

أبا حسن وأنت لكل فضل مثال فيك قد عز المثل
لقد سعدت بماضيك اللبالي وفاز بحسن صحبتك الخليل
فان يك فاتي مرآك أرخ فحسي ذكرك الحسن الجميل

ومما يلحق بالاخوانيات لون من الشعر قريب منه هو شعر الظرف والفكاهة، والنجفي الخفيف الروح، الدقيق الملاحظة، الحاضر البديهة، اللاذع النكتة، العفيف النفس يصدق

عليه قول السعيد الجبوي:

غير اني رمت نوح الطرفا عفة القلب وفسق الألسن
استعاض بالشعر عن حرمانه من ترف العيش ورفه الفكر، فاتخذ النظر والنفك بدلا
من الفاكهة (يتمزمز) به حين يعز هذا اللون من الطيبات، أو اتخذها وسيلة من وسائل
الاحتجاج والمعارضة والتحدي، وفاكاهة الشعر النجفي وظرفه: صورة للانسان النجفي
والمجتمع النجفي عامة، تعتمد الالمح والايجاز والثورية، وتأتى عن الفحش والبذاءة
والتجريح، لا يقصد منها إلا الاضحك والترفيه، وخلق جو (مجلسي) عابق بالموودة، مشرق
باليسمة، نابض بالحياة، يعيد الراحة والاسترخاء إلى العقول التي أجهدها طلب العلم العميق
وفهم دقائق مسائله، ويبعث النشاط في النفوس التي كلت من حياة الجد والاجتهاد (روحوا
القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا ملت كلت).

ان من صحب القاموسي وأختصه بمودته، واجد النادرة تجري على لسانه والضحكة
تجلجل بين شديقه، يستعذب النكتة ويهتز لها، مصغياً إليها معلقاً عليها، ولكن ديوانه
المخطوط يخلو من هذا اللون - وهو عنده كثير - ولعله استبعده منه، لأنه مما يختلط فيه
العامي بالفصيح، والجد بالهزل، والقاموسي - حاله حال النجفيين - يجب أن يظهر بمظهر
الجد في المحافل العامة، لكنه لا يجرم نفسه متعة السرور في مجالسه الخاصة بين أهله وخلانسه
ومع من أحب واصطفى.

* * *

❖ والشعر النجفي - وهذا ملمح سابع - شعر منفتح على كل التجارب الأصلية
المفيدة حاله في ذلك حال النجف المتطلعة إلى كل جديد أصيل دون خشية منه أو خوف،
لثقتها بنفسها وبعقيدتها وبأحقية مبدئها.

فالشعراء النجفيون منفتح بعضهم على بعضهم الآخر في إطار المحيط النجفي وهم
منفتحون على شعراء بغداد والموصل والحلة، وهم منفتحون على شعراء مصر وبلاد الشام،
وهم منفتحون على التجارب الجديدة لشعراء المهجر وأدبائه، فضلاً عن ذلك الارث العظيم
مما ورثوه عن عصور الأدب العربي جميعاً والعصر العباسي الثاني خاصة.

والمتقني مصادر ثقافة الشاعر النجفي - بل المثقف النجفي - يجدها ضاربة بجذورها
في أعماق هذه الثقافات عامة، آخذة بسهم وافر منها. ولو قدر لك أن تتفحص مكتبة نجفية
خاصة أو عامة، هالك التنوع والغنى في مصادر ثقافة النجفي.

فقد كان هذا يحرص الحرص كله على قراءة كل ما يرد عليه، وكل ما تصل يده إليه.

حتى ذلك الفكر التبشيري أو الاحادي الذي يقع موقع النقيض من فكره وعقيدته وأسلوبه في الحياة. كان يتلقفه من دونما خشية أو وجل، ألم أقل ان النجف تثق بنفسها ثقة العارف المطمئن؟

وهذا حال القاموسي - شاعراً ومثقفاً - فقد عاش القاموسي في عصر هو الذروة في انفتاح النجف على العالم، وثقافته وتجاربه، وقد وجد هذا الانفتاح من القاموسي قلباً ذكياً، وصادف منه عقلاً لماحاً، ونزوعاً إلى كل جديد وهميل، فأنت تراه منفتحاً على تجارب الجيل السابق على جيله ومنجزاته الفكرية والفنية وكانت متمثلة يوم ذاك بتيارين مؤثرين:

الأول: تيار محمد رضا الشيبلي المعتدل في تجديده: في فكره ولغته وصوره وموضوعاته، فهو يمثل الصورة الخلقية للشيبلي التي تنهج فحج الاعتدال في الحياة.

والثاني: تيار على الشرقي المتمرد في مواقفه الفكرية والاجتماعية نتيجة الاحساس الحاد بالاضطهاد العائلي: انعكس هذا التمرد تجديداً لا يعرف الحدود تبعاً لمقاييس عصره في لغته وصوره ورموزه وموضوعاته التي تذكرنا بمذهب ت.س. اليوت الذي يدعو إلى ان تكون الموضوعات اليومية هي موضوعات الشعر لأنها تمثل جزينات حركة الحياة الدائبة السريعة. فضلاً عن تيار ثالث بدأ يشد إليه الأنظار، ذلك التيار الصاعد بقوة، المتدفق بعنف متمثلاً بالجواهري الذي اختط طريقاً جديدة في النظم هي خليط من تقاليد الكلاسيكية العربية الموروثة، ومن تطلعات الانسان العصري إلى أسلوب جديد في الحياة والتفكير والفن..

فبينما نرى القاموسي متابعاً للشيبلي في ديباجته العباسية ذات الصنعة المحكمة تراه يتابع الشرقي في رباعياته لغة وصوراً ورموزاً ومواقف فكرية إنتقادية. استمع إليه في إحدى رباعياته وهو يجاري رباعيات الشرقي المعنونة (البلبل المعلق) يقول القاموسي:

أيها البلبل اخلق في الجو	سلام من مغرم بك صب
قد سمعنا نشيدك المطرب الحلـ	و فيها استمع أناشيد شعبي
كان ذنب وحواله ألف شاة	آمنات وما شعرن برعب
أفصح الصبح عن قطيع ضعيف	قد تعاوى لهشاه ألف ذئب

كما نرى صدى قصيدة محمد صالح بحر العلوم المشهورة (أين حقي) في شعره لكن في موضوع آخر مختلف ظريف هو من وحي البيئة النجفية التي تعشق الجمال وتلاحقه بأي صورة كان فهو يقول (على لسان تلميذ تعشقه أستاذه):

عجباً من عاشق يهزل والمعشوق جدداً

وإذا ما ازددت قريباً منه عني ازداد بعداً
فكأنني أنا مفتشون به قبلاً وبعداً
فمضى يقسو على الصب ويدعو

أين حقي؟

كما نرى أثر بعض القصائد - التي تركت صدى في أوساط النجف الأدبية - في شعر القاموسي كما في قصيدة الشيخ عبد المهدي مطر في (الباب الذهبي) التي نظمها بمناسبة إقامة الباب الذهبي لمرقد الامام علي (ع) عام ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م ومطلعها:

المع يباب عليّ أيها الذهب واخطف بأبصار من سرورا ومن غضبوا
والتي يقول فيها - ناعياً على العرب تخاذلهم في نصرة القضية الفلسطينية:

أوه ليعرب لا سرج ولا قنب	تنقاد كيف يشاء الصارم الدرب
فان تحدثت في فضل ومكرمة	بعيدة الغور قالوا: إننا العرب
سبع من الدول العرباء تقضضها	دويلة ماله ريش ولا زغب
هذي فلسطين نصب العين إن صدقوا	وذا هو الحق منهم كيف يغتصب
شنوا فقلنا على اسم الله غارهم	تظنّها الخيل إلا أنها قصب
تغزوا العدو بأطمار مهلهلة	وعنده الخلق الماذي واليلب
يا وادعين إذا استسلمتم فلمن	هذي الجيوش وماذا هذه الأهب؟
لا تخدعنكم الأقوال فارغسة	من معشر هم إذا جدّ الوغى خشب
صُفّرُ العزائم هزّي جذع نخلتها	أو لا هزّي فلا بسر ولا رطب

فالقاموسي يهتز لهذه القصيدة معنى ومعنى، عنفاً ولوماً وتقريعاً في قصيدته التي ألقاها في مهرجان الشعر الخامس الذي انعقد في بغداد في عام ١٩٦٩ وقد مرّ أنفاً بعض أبياتها:

تجد تحطب مكدوداً خطأ ويداً	وجدت قومك لو حققته لعب
تقلدوك سلاحاً لا للمحمة	لكن ليختال في استعراضه اليلب
وحشدوك وقوداً لا لئار وغى	لكن لتحرس قلباً خانفاً يجب

أما أثر الجواهري - ذلك التيار الشعري المتدفق - فهو سايبغ على شعر القاموسي السياسي والاجتماعي، فمنذ أن أحدث الجواهري تلك النقلة الفنية في القصيدة السياسية - الاجتماعية أصبح مدرسة في هذا اللون من الشعر، لها سماتها العامة، وخصائصها الذاتية، فبينما كان الشعر السياسي والاجتماعي عند شاعر معاصر له كالرصافي لوناً مسن النشر، محكوماً بقيود الوزن والقافية بكل ما في النثرية من خطابية ومباشرة وفجاجة وضجيج، فقد

أصبح عند الجواهري لوحات فنية متعددة متألفة في قصيدة واحدة، هذه اللوحات تتشكل من مجموعة من الصور الفنية المتناسكة، واللغة القوية المنتقاة، والفكرة العميقة المتأملة، قد صبت بقوالب وأوزان موسيقية ملائمة، يرفدها ذلك الزخم من الانفعالات الجياشة المتدفقة الحية الصادقة، لهذا تجد قصيدة الجواهري طريقها إلى القلوب قبل الآذان من دون استئذان. هذا الأثر الجواهري في قصيدة القاموسي السياسية والاجتماعية واضح بين: فضلاً عن ذلك ان القاموسي تابع الجواهري في جعل مضامين قصائده ثورية انتقادية عنيفة وإن كان الجواهري يتفوق عليه في صراحته وعنفه. بينما يلجأ القاموسي - متابعاً في ذلك الشرقي في انتقاداته - إلى الرمز أو الالماح دون التصريح - والطبع في الاثنين حاكم - تأمل قوله في قصيدة في رثاء محمد حسين كاشف الغطاء:

مضى بما فيه أمس من حياتك موصولاً به الغمد حبلاً ليس ينقطع	تشده من جلال الله هيمنة
يحوطها العز لا ذل ولا ضرع	تشق للعائفين القصد من فزع
درباً يسد فضاه الأمن لا الفزع	القابعين انزواء في بيوتهم
دهراً فما فتحوا باباً ولا قرعوا	والعاكفين على حن فما رفعوا
شدوا قمرى ولا أنشودة وضعوا	والواقفين فان سارت بهم محن
فانما القدمان الوهن والخلع	تريهم كيف اسد الغاب ان ربضت
تقوى وان هي هيجت كيف تدفع	

ألا يذكرك هذا المقطع بلوحات الجواهري بكل ما فيها من فنية وثورية انتقادية؟

ألا يذكرك هذا المقطع بنهج الجواهري في الرثاء، هذا الغرض الذي أفرغه الجواهري من الندب والبكاء، ونصبه غرضاً تجدد فيها القيم المطلقة والمواقف الشجاعة في شخص المرثى مع الغمز من قناة من يخالفه الشاعر في الفهم والتوجه.

بل يتعدى أثر الجواهري في القاموسي إلى بناء القصيدة مطلعاً وصوراً وتراكيب، ألا يذكرك قول القاموسي في مطلع إحدى مرثياته:

أحين راحت تحمي فجرك الدار	غالتك والأمل المعقود أقدار
ومطلع قصيدته في رثاء محمد رضا الشيباني:	

لو كان تملك أمرها الاعمار	لفدتك بالعدد الكثير الدار
---------------------------	---------------------------

بمطالع مرثي الجواهري في (أي التمن) أو (عدنان المالكي) أو (عبد الحميد كرامي) أو (جمال الدين الأفغاني) مثلاً؟

والقارئ لقصيدة القاموسي في رثاء محمد رضا آل ياسين ومطلعها:

مضى فتكـور بـنيها
لك - الله وحدك - أركانها
يجد ان القاموسي يعمد إلى تكرار لفظ (اثرها) متابعاً في ذلك الجواهري في تكرار لفظ
أو تركيب بعينه مستنزفاً بذلك الطاقة الشعرية من أعماقه كما في قصائده: اطبق دجى،
أخي جعفر، يوم الشهيد، أو يعمد إلى صيغة فعل الأمر كما يعمد الجواهري إليها كثيراً في
شعره - متواصلاً بما مع المتلقي باعثاً فيه شرارة المشاركة الوجدانية في الموقف والتعاطف
معه.

ومنذ أن أبدع الحبوبي موشحاته فقد أصبحت المثل الأعلى لشعراء النجف فناً وأسلوباً
وأغراضاً، فهم دائبون على التوقيع على أوتار الحبوبي لكن هذه الأوتار لا تصدر تلك
الأنغام الشجية الطلية مما كان عند الحبوبي، لأن الأيدي غير الأيدي، فقد كانت يدا الحبوبي
يدي ماهر صانع، وجرب القاموسي نظم الموشح فنظم سبع موشحات لكنها تبقى دون المثل
الأعلى بكثير.

وفي الربع الأول من القرن العشرين تفتتح النجف فنياً على مصر وتتابع الخط التطوري
لشعر شوقي بخاصة، لكن أثر شوقي الفني يبقى محدوداً في النجف وخاصة أوائل شعره -
الذي يفضل شعر النجف كثيراً ويتجاوزه فنياً - وتتسع دائرة الإعجاب بشوقي بعد أن
يخطو خطوات حقيقية في طريق التجديد ثم ينظم مسرحياته الشعرية الرائدة، التي تأثر بها
وخاصة مسرحية (مجنون ليلي) - جيل ما بين الحربين من شعراء النجف والجيل الذي يليهم
- فراوها مثلاً أعلى في احتذاء النظم وتمثل غنائيتها وترديد مقاطعها الوجدانية ولكن حياة
شوقي بما فيها من ترف وبسطة عيش - تبقى موضوع حسد وطموح من قبل الشعراء
النجفي المحروم الذي قال:

ولو أني أكون مقام (شوقي) لسال الشعر من تحتي وفوقي
والقارئ في ديوان القاموسي يلمح أثراً لا يخفى لشوقي في شعره وخاصة تلك القصيدة
الهمزية الغزلية التي نظمها القاموسي - وهي من بواكير شعره - ومطلعها:
أدريت من شرك الغرام رشائي وملاأت من دبح الهمسوم وعائي
فهي تستدعي إلى وعينا قصيدة شوقي الهمزية الغزلية التي عدت بداية التحول في شعر
شوقي ومطلعها:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن التناء
وقصيدة شوقي المعارضة لكافية الشريف الرضي المشهورة. ومطلع قصيدة شوقي:
ودعت أحلامي بقلب باكي ولمت من طرق الملاح شباكي

أو أنت تقرأ قصيدة القاموسي الهمزية في رثاء محمد حسن المظفر:
 خسى الموت فان العلماء ملكوا الدهر وحلوه فناء
 فألها - لا بد - تستدعي إلى وعينا قصيدة شوقي الهمزية في رثاء عمر المختار:
 ركزوا رفاتك في الفلاة لواء يستنهض الوادي صباح مساء
 فالقاموسي يمجّد شجاعة العلم وفضيلة التقوى، وشوقي يمجّد بطولة الايمان ومكرمة
 الجهاد في قصيدتين تجريان في مضمار واحد، وتستيقان إلى غاية واحدة وهي تمجيد طمّوح
 الانسان إلى الوصول إلى المثل الأعلى، ورؤية هذا المثل الأعلى مجسداً في عالم الواقع في
 صورة إنسان عظيم.

أما حافظ إبراهيم - قرين شوقي ومعاصره - فيبدو ان شعره لم يلفت إليه انظار شعراء
 النجف ما خلا شعره الاجتماعي وخاصة الرثاء بما فيه من بعد اجتماعي سياسي فانه يبقى
 أكثر تأثيراً. وأحسن قبولاً في أوساط شعراء النجف وخاصة مرثيته في الزعيم الوطني
 المصري مصطفى كامل.

أما شعراء الرومانتيكية المصرية من أمثال مطران وناجي وعلي محمود طه وأبو شادي...
 فهم أقل تأثيراً على المسار الشعري النجفي وعلى الجيل الذي ينتمي إليه القاموسي من
 شعراء الرومانتيكية اللبنانية وخاصة بشارة الخوري، فقد تركت قصائده الوجدانية الغزلية
 التي اتحد فيها الشاعر العاشق بروح الطبيعة. وقصائده القصصية وأشهرها المسلول التي
 تخللت نسيجها نبرات الحزن الشجي. تركت أثراً كبيراً في جيل القاموسي من أمثال
 مصطفى جمال الدين وصالح الظالمي، وجميل حيدر، ومحمد الهجري...

والناظر في ديوان القاموسي يرى نصيب الحب فيه كبيراً - وهذا مظهر من مظاهر
 النزعة الرومانسية الأصيلة في تكوين القاموسي النفسي ويرى القصائد المتأثرة بجو لبنان
 وهي أثر من آثار (الاصطياف القاموسي) في لبنان - تنضح رومانسية، وصوراً شفيفة،
 وتراكيب رفيقة، وموضوعات ذاتية، وأوزاناً قصيرة، خفيفة تنداح غالباً في أبيات مدورة
 لاهتة، والفاظاً موحية. وعواطف شجية، وأمتزاجاً حياً صادقاً بين تجارب الشاعر الروحية،
 والطبيعة اللبنانية الجميلة الساحرة اسمعه يقول:

صديقني - ليلي - فما زال قلبي	نابغي الهوى كما تعهدينا
يتملك صورة من صباح	أودع الليل فيه سراً دفيناً
حاملاً من جواك ما ليس يقوى	طالباً من هواك ما لن يكونا
ظامناً والكؤوس تملأ كفيه ولو شاءها انسكين معينا	

ليت خيراً ماتت على كأسه الرشفة روى الجوى وأظمى العيون
لا البعاد استطاع ان يسكت الشوق ولا اليأس ان يكف الحينا
لست أدري وليت عينيك تدري أي نار هذي التي تكوينها
بردت جهرة وأصلت رمادا وأرتنا فروويد أفلاطونا
أو اسمعه يقول مخاطباً من قصيدة وفيها يأتي على ذكر لبنان وما فيه من متع الجمال:

أموكل بالحسن تبعه في حيث سار وأينما حلا
ما لاح للصبوات برق هوى وهلال حسن للهوى هلا
إلا خفقت ورحت تسخر من مشي الوقار وطاعتي العقلا
وتصب في عيني الحماس وفي جفني النعاس وفي دمي الذلا
حتى إذا استعرضتها فتنسا ورأيت أي فتية أحلى
ألقيت حبك فوقها ظلا ووقعت فوق خدردها طلا
وظلعت من نظراتها أملاً ورقدت بين جفونها كحلا
* * *

لبنان يا نزلاً أتيت له ضيف القرى فوجدتني أهلا
يا ندوة الشعراء ما عرفت إلا الجمال قصيدة تنلى
يا نشوة السمار أنقلهم خمير وزادهم الهوى تتلا
يا جنة الفردوس ما حفلت بمن اتقى يوماً ومن صلي
يا حلم غانية تنام ضحي ملء الجفون وتسهر الليلا
الليل عندك لا سواد به اللسهم إلا الأعين السنجلا
والنور ملء رباك أنجمه تكسو الجبال وتفرش السهلا
وأقرأ له قصيدة (حلوة) التي نظمها في لبنان. ونشرها مجلة السياحة اللبنانية والتي منها:

يا من رميت لها الشجاعة فاتقني بالمروه
وأحلت لؤم غوايتي نبلا وذل هوأي نخوه
ونشرت حبي فوقها ظلاً وقاها اليأس شجوه
وشددتني بأضالعي وتراً فذاب وعاد غنوه
ووددتُ أي شيء عندهما حتى الأبسوه
لو أرسلتني دمة حيرى لكنت غدبر أسوه

أو ذوبتني نظيرة غضبي لكنت رحيق نشوة
أو قطعتي رغبسة لو ثبت في الشفتين دعوه
أو حرقنتني مهجحة لرقدت في العينين جذوه
أو صيرتني أي شيء خسار ضعفاً.. كنت قوة
هيا اصنعي ما شئت انك - رغم موتي فيك - حلوة

لعلك تشاركني الشعور بأني أقرأ في ديوان الأخطل الصغير (بشارة الخوري) بما فيه من صبوة للجمال، وعشق لمظاهره، وذوبان في كل خالجة من خواججه، كل ذلك بلفظ رقيق، ومعنى دقيق، وانفعال شفيف، ولحن خفيف. لكن يردني إلى الواقع ان ديوان القاموسي بين يدي أنتفضه بوعي كامل وأقرأ ما خطته يده وما جرى به قلمه من آيات الابداع الصادق الأصيل.

أما الشعر المهجري الذي عرف بجدة موضوعاته، وتنوع أوزانه، وقوافيه، وغلبة الروح التأملية والفلسفية عليه، مع نزعة صوفية غالبية، وشعور بالاغتراب النفسي واللغوي، مع حنين طاغ إلى المهد الأول، فقد ترك أثراً ظاهراً على الشعر النجفي ظهرت بواكبه في الأصداء الفكرية التي أحدثتها قصيدة إيليا أبو ماضي (الطلاسم) فقد تصدى بعض الشعراء للرد عليها ونقض مضامينها، منهم محمد جواد الجزائري وعبد الحميد السماوي.. ولكن هذين - وان فندا مذهب اللادريه الذي ينظم قصيدة أبي ماضي - لم يرقيا إلى المستوى الفني لهذه القصيدة، التي تميزت بوضوح الأسلوب وجمالية الصور، وتنوع القوافي - فهي تتوالى على شكل رباعيات - وبعث نزعة الفارئ إلى التأمل داخل نفسه، وفيما حوله، ثم تركه حائراً لا يجد جواباً إزاء أسئلة أزلية، تفلسف الجهل، وتكشف عجز الانسان، وقصور أدواته عن معرفة الصق الأشياء به وأقربها إليه.

وقارئ ديوان القاموسي يرى الأثر المهجري في ميله إلى التفلسف أحياناً، ونظمه على بحور قصيرة، وتنويعه قوافيه، وسريان نفس صوفي في بعض شعره، وشعور مبكر بالاغتراب النفسي، نرى هذا واضحاً في قصيدة نظمها وهو ابن العشرين وفي ساعة من ساعات اليأس - كما يقول - هذه القصيدة تذكرنا بقصيدة (يا نفس) للشاعر المهجري نسيب عريضة والتي تناولها الناقد محمد مندور نموذجاً للأدب المهوس الذي دعا إليه في منتصف الأربعينيات من هذا القرن. يقول القاموسي في مقطع منها:

يا قلب أين مضى ذووك المترفون وأين حلوا؟
أضححت عراصك بعدهم قفراء لا ماء وظل

أوكما يقول المغرضون سلوكهم أم هم أضلوا؟
هذا الغرام.. وهل سلا احبابه قلب فتسلوا
أو قوله في مقطع آخر:

يا نفس كم تتأوهين أسى وما يجديك آها
رفقاً.. فلا تننفسى الصعداء يحرقك لظاها
سيري على غضب الورى ان لم توفق في رضاها
وإذا البسيطة فيك قد ضاقت فقد رجيت سماها

ثم ألا تستدعي الأبيات التالية صورة أبي ماضي وشعره الساخر الموجه يقول القاموسى:

هزئت بالدنيا ومن فيها	حتى لقد أغرقت بالضحك
فظلني قوم أناجيها	وكان يرجوني أن أبكي
تنحج الناقد يغريها	بانه قد فاز بالنسك
قلت له وهو يزيها	نفسك يا منتقدا زك

والقارئ لقصيدة القاموسى التي بعنوان (هلم) يتذكر - لا محالة - قصيدة جبران خليل جبران التي بعنوان (المواكب) الداعية إلى العودة إلى الطبيعة، والاتحاد بها، فان العدل والخير واخب والنقاء والجمال - كما يرى جبران وأصحاب النزعة الرومانتيكية الصوفية - لا تجدها إلا في الطبيعة مما يذكرنا بفلسفة وحدة الوجود، التي كان يدين بها المتصوفة العرب قديماً، وبعض فلاسفة الغرب في العصر الحديث.

أما التراث الشعري العربي، فان النجف هي وعاءه الذي امتزجت فيه كل عناصر الخلود الفني للشعر العربي، فن العرب العظيم، فهي منذ زمن بعيد ترعاه. وتحتضنه. وتعدي أبناءها من دره النقي الطاهر، ولا يتخرج شاعر من مدرسة النجف إلا وقد تزود منه بيزاد وفير: لا يفتى ولا ينضب.

والقاموسى حين فتح عينيه وتمالك وعيه فتحهما على بيئة ترى في الكلمة فعل السحر. وحينما أصغى بأذنيه طرق سمعه في مجالس النجف العامرة بالأدب أصوات أساتذة شعراء عشقوا العربية واستنبطوا أسرارها وعبروا عن إدراكهم لمواطن الجمال فيها شعوراً وثراً. كل ذلك لقي استعداداً واستجابة من القاموسى.

وهذا الأثر التراثي واضح في شعر القاموسى، لغة ثرة. وتراكيب فصيحة. وميلاً إلى الوضوح، وتطلباً للدقة الدلالية، واغترافاً من معين المبدعين الذين هم أساتذة الفن الشعري لحاضرة النجف الشعرية.

فمن أساتذة النجف - والقاموسي تلميذ نجيب من تلامذتها - المتنبّي ذلك الشاعر الذي ترك أثره على عموم حركة الشعر العربي اللاحقة لعصره والذي أصبح مثلاً أعلى حتى لهؤلاء الشعراء الذين رفضوه إنساناً وطريقة فنية لكنهم بقوا أسيري تجربته العظيمة في فن القول. يقول القاموسي من قصيدة مطلعها:

أعزّ علماً من الأسر الفرار وخير من تصبرك انتحار
يقول:

عجبت لعاكفين على ضلال وشدة تعجيباً فيه استناروا
أزالهم عن الحق التعامي وأقعدهم عن المجد الصغار
صغار ان جمعهم لأمر وان عرضت عليهم صور كبار
أليس مطلع قصيدة القاموسي هو من نمط مطالع المتنبّي مضموناً متمرداً وبناء لغوياً متماسكاً ثم ألا يدركك بيت القاموسي (صغار) بقول المتنبّي:

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام
ثم هذا النفس الشعري الذي تحلل الأبيات ألا يدركك بدياجة المتنبّي الصافية وتمكنه من فن القول؟

وأستاذ آخر من أساتذة النجف العظام، تأثر به القاموسي هو الشاعر العالم الشريف الرضي، ولئن كان المتنبّي عالي الكعب في فنه عند النجفيين فإن الشريف يسمو عليه نسباً وخلقاً وعزة نفس وعلماً وسيرةً ومعتقداً، فضلاً عن أنه كان يخلق في الأجواء التي حلق فيها المتنبّي. لهذا كان الشريف - عند النجفيين - الشاعر القدوة الذي وحد بين القول والفعل وبين العقيدة والسلوك وجمع المكرمات من أطرافها فلا غرو أن يعد واحداً من الأساتذة الكبار يحفظ الآباء أبناءهم شعره ويلقن الشيوخ طلابهم علمه، ويتخذ ديوانه سميراً ومرشداً في مجالس النظم والتفقيّة وما من شاعر في مدرسة النجف الشعرية إلا وعرف الشريف الرضي تذوقاً وحفظاً ما شاء الله له من التذوق والحفظ.

وأثر الشريف واضح في محاولات القاموسي الشعرية الأولى لهذا لم يرق إلى لغة الحب ونوازعه عند الشريف في نجدياته ولا خطراته الفكرية العميقة في مراثياته ولكنهما - ما يقرب بينهما - اعترفاً من إناء واحد هو إناء العفة في السلوك والقول والترفع عن الدنيا وعزة النفس والاستغناء عما في أيدي الآخرين.

اقرأ بيت القاموسي:

ولكم قضيت مع الحبيب ليالياً كان العفاف رداؤه ورداني

ألا تراه يقبس من جذوة عفة الشريف في قوله،
 بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
 أو قول القاموسي:
 أنكرت فيك أحبتي وخلعت من أجل الهوى أكرومتي وحياني
 إلا يذكرك بيت الشريف وهو يرثي أمه:
 طوراً تعالبي الدموع وتارة آوي إلى أكرومتي وحياني
 وبعد: فلا يعيب القاموسي ان يتأثر بهذا وبذاك من الشعراء العظام أو بجاه أو تلك من
 مدارس الشعر، فهذا ديدن الانسان المتمدن يأخذ من الجميع - كما النحلة تعطي عسلاً
 مصفى - بل يعيبه ألا يأخذ ولا يتأثر ويعيبه أيضاً ألا تكون له - بعدما أخذ فأحسن الأخذ
 - شخصيته الفنية المتميزة الملامح الواضحة القسماات وأكاد أزعم - ومن حقل أن ترى
 رأيي أو لا تراه - انك لو قرأت لي شيئاً من شعر القاموسي دون أن تأتي على ذكر اسمه
 لقلت لك: هذا من شعر القاموسي، ولدلني عليه إيمان عميق وروح نقي وخلق كريم وغيره
 على العروبة والاسلام وإبداع يتميز بالأصالة والصدق والجرأة وبحث دائب لاهمت عن
 الجمال، بأي صورة كان وبأي مظهر تجلي.

* * *

هذا هو القاموسي صادق، الشاعر النجفي الذي ارتسمت على ملامح شعره أهم
 ملامح مدرسة النجف الشعرية ولا عجب فالقاموسي ابن النجف (ومن يشابه أباه فما
 ظلم).

رحم الله الصادق القاموسي بما وعد، فوقى ووهب فأوفى وأكرمه الله في الآخرة أضعاف
 ما أكرمه في الأولى.

ولله الحمد من قبل ومن بعد

صادق القاموسي

سيرة في الذاكرة (★)

الأستاذ (المرحوم) محمد السيد موسى الجصاني

في النجف الأشرف ولد وترعرع ونمت مواهبه واكتملت شخصيته الأدبية والعلمية والنجف الأشرف مدينة في جامعة، فمدارسها تزدهم بطلاب العلوم، ومساجدها وجوامعها تضيق بخلقات الدرس، وفي أكثر بيوتها يجلس الأساتذة إلى تلاميذهم يلقون عليهم دروساً في شتى فروع المعرفة. وفي النجف الأشرف قبل هذا وبعده ترتفع شامخة قبة قبر أمين الله على وحيه وحجته على عباده، مناراً للتائهين وقبلة للمتقين وملاذاً للعارفين. لهذا كله ظلت النجف الأشرف منذ قرون تشع على الدنيا علماً ومعرفة، ففي كل بلد من عالمنا الاسلامي قبس من نورها وفي كل مدرسة من مدارسها عقب من عطرها، وهل من تركية لعالم في الفقه والأصول غير انه درس في النجف الأشرف وأجيز من أساتذتها؟

في تلك المدينة الجامعة ولد فقيداً لأب اتخذ من التجارة مهنة له، فتمت تجارته واشتهر محله لما عرف عنه من صلاح وأمانة وصدق في المعاملة، ولهذا - بعد أن تعلم فقيداً القراءة والكتابة - أراد أبوه أن يكون تاجراً وأراد فقيداً أن يواصل تعلمه ما وجد لذلك سبيلاً. ولم يكن اختلاف الارادتين هيناً، فأبوه - رحمه الله - من الطراز الذي يؤمن بان سلطان الأب يجب أن لا ينازع وهو بعد صارم في تربيته شديد فيما يعتقد انه حق وفي مصلحة ابنه - ولا لوم عليه ما دام يعتقد انه صواب وفي مصلحة ابنه - أما الابن فبالرغم من رغبته العارمة في التعلم فهو بار بأبيه يؤثر رضاه ولا يريد الخروج عن سلطانه، فكانت محنة: وكانت أوى الخن التي عاناها وحرار كيف يتعامل معها. ولم تطل الخنة فقد اهتدى إلى التوفيق بين العلم والتجارة حيث طلب إلى أحد رجال الدين الوثيق الصلة بأبيه أن يعين له وقتاً لا يتعارض مع وقت الخل، يدرس عليه المقدمات من نحو وصرف ومسائل في الفقه، ولم يكن ذلك عسيراً فمن مميزات النجف الأشرف أن العلم في متناول طلابه في كل وقت من ليل أو نهار، وهكذا استمر يختلف إلى أسناذه في أوقات الفراغ حيناً من الزمن دون علم

(★) كتبت للحفل الأربعيني، وألقيت في ندوة الشعرباف بتاريخ ١٢/٣/١٩٩٢، ثم نشرت في مجلة (آفاق تحفة) العدد ١١ (٢٠٠٩).

أبفه: قطع ففها شوطاً جفداً على طرفق المعرفة، ولمس ففه أسناذه آلالها ذكاء وفطنة. فساهتم به وأقل به آفراً.

فى هءه الآفة، تناآت طلفة واعفة من رجال الءفن لاصلاآ كآب السارس وطرففة الءرففس، وانآهت إلى فآآ مءرسة آناآه منهاآاً جفءفاً للءرس وأسلوباً آءفنا فى الءرففس، بعفداً عن الآقفء الءى رافق الءراسة آنذاك فأبعءها عن القصء وضفع العرض فى مآاهاء من العموض فكان منآى النشر آمرة آلك الجهور. وقء بارك المنآى فآرة وأسلوباً آمع من رجال الفكر والعلم، كان بعضهم على صلة بوالء الفقفء فطمئن إلى نصآه وبقى بصءق نوابه، وكان أن لمس فى فقفءنا ذكاء ورغبة فى الآعلم واستعءاءاً له: فأقنع أباه بان لأبفه مواهب لفسآ الآآارة مآال اسآمارها، وأشار عفله بان فلقآه بمنآى النشر: وكان قء الآآق بمنآى النشر بعض من أبناء أصفقاء أبفه من رجال الءفن والآآارة. فوافق الأب، وءآل فقفءنا منآى النشر فأآس فى نفسه الرضا. واطمأن إلى آفاآه الجفءفة آفآ وآء فى (المنآى) أفقاً أوسع ومآالاً أرحب، وآعلم فروعاً جفءفة من المعرفة، وآعرف على الكآفر من الكآاب والشعراء فى البلاد العربفة عن طرفق آبعه لما فبشرونه فى مآالاء الملال والمآآطف والرسالة وآفرها، وما فصدرونه من كآب فقراً لهم وآآر بهم.

وهكذا انءمآ فى الآفة الجفءفة، وانشد إليها، وانسآم مع زملائه فأنس بهم وأنسوا به، وأعآب بأسانآآه فأآبهم فباءلوه آباً آب واعآاباً باعآاب، وآآآ مواهب ولفآآ قابلفاآه أسانآآه لآوه فأآاطوه بعنافئهم وأملوا ففء آفراً وانآظروا له مسآقبلا، ولم فآب (المنآى) مءرسة بل آمن بما فآرة وسببلاً للاصلاآ بقفآ بصماآها واضآة فى سلوآه الآآماعف والانسافى طفلة آفاآه.

وآمر سنى الءراسة فى منآى النشر سسرة هاءنة وفزءاء فقفءنا علما وفكسب معرفة. ولكن (الرفاآ آآرفى بما لا آآآهف السفن) فآآل الآنة بمنآى النشر وآسآب وزارة المعارف آنذاك إآازآه: ففعلق أبواه وفآآآ طلابه وفآفرق آملة لوانه، ولم فكن نصفب فقفءنا من الآنة قلفلاً ولا معانآه هفنة، ولكنآه - رحمه الله - لم فآن للعاصفة بل راح فبمسف قابلفاآه ورغبآه بالمعرفة عن طرفق الءراسة الفرءفة، فءرس السطوح على أسانآة فى الفقه والأصول والفلسفة، كما ءرس الهفنة والأآلاق والرفااضفاآ فى أفاام العطل على آفرفن، وآسابع ما آصءره ءور النشر المصرفة من كآب ومآالاء، وآضر مآالس الشعر الفى آعقء فى المناسباآ، كما آضر مآالس الآقففة والمآارءة والآقفطفع، وفى هءه الآفة نظم شعراً وكآب نآراً ولكن لم فءع أفاً منهما، ولا أءرفى آكان ذلك لأنه لا فآب الظهور أم لأن نآآه لا فرضى كرفباه

الأدي أم من أجل أن لا يجلب الخيبة لأبيه لأن ابنه عاف التجارة وانصرف للأدب وهو لا يسن ولا يعني من جوع.

ولعل أول قصيدة أنشدت له في عرس صديق كانت باسم مستعار نالت إعجاب واستحسان الحاضرين وكان ذلك في العشرينيات من عمره، واستمر ينظم ويترجم أحياناً، كل ذلك في الخفاء وبين البعض من أصدقائه.

ونعود لمنتدى النشر التي هضمت من كبوتها بعد حين وتجاوزت الحنّة بفضل عميدها خالد الذكر المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر الذي ملّم فلول الباقي على العهد المؤمنين بالرسالة من زملائه وطلابه واستأنف المسيرة. وكان فقيدنا الذي عرفه المنتدى طالباً موهوباً يعود إليه ليسهم في ترميمه وبنائه، عضواً نشطاً من أعضائه، وأستاذاً لامعاً بين أساتذته، وكان - رحمه الله - ورفيقه في الجهاد والفكرة وصديق الصبا والشباب الحجة التقي الحكيم - مد الله بعمره - الركيزتين اللتين نهض عليهما المنتدى الجديد، وارتفع شامخاً يحضن الآخرين والتانين، وإذا كان السيد التقي قد ظهر على مسرح المنتدى قائداً ضمن القسادة فان فقيدنا كان الجندي المجهول الذي لا يعرف دوره إلا الخواص، ونشط المنتدى في عهده الجديد بنفذ برنامجه وبيشر برسائله ويتحدث عن أعماله وآماله، وكانت ثمرة ذلك أن تكونت له تشكيلات جديدة، فكان المجمع الثقافي، وكانت لجنة الوعظ والخطابة وكانت مجلة البذرة، وكان فقيدنا قطب الرحي في تلكم التشكيلات، وبخاصة في مجلة البذرة التي كان يشرف على تحريرها وإخراجها وتبويبها وتقويم شعرها ونثرها وطبعها وتصميمها وتلويها حتى غدت في الطليعة من المجالات العراقية آنذاك، وعندما أقيم المهرجان الألفي لابن سينا في بغداد أصدرت (البذرة) عدداً خاصاً بالمناسبة وزعته على الوفود المشاركة التي نال إعجابها وحسن تميمها.

واستمر الفقيد - رحمه الله - في عمل دائب، يدرس ويدرس، يقرأ ويكتب، يرشد ويوجه، بعيداً عن الادعاء والمكابرة وبعيداً عن الأضواء ومجالات الظهور وكان قد أنهى في هذه الحقبة دراسة السطوح، وبدأ يحضر أبحاث الخارج في الفقه والأصول كأحسن ما يكون الحضور مواظبة وفهماً ومناقشة، وبدأ يعرف في الوسط العلمي فاضلاً يستحق التقدير والاحترام وفي الوقت نفسه يعمل للمنتدى ويفكر فيها ويدرس طلابها.

وهنا تندخل الظروف لتحرّفه عن مساره فتضطره - كما اضطرت غيره - لأن يترك نجف الأشرف إلى بغداد قبل أن يأخذ مداره بين العلماء كما كان يتوقع له ذلك أساتذته وعارفو فضله.

وكما يبقى شذا الزهر يعبق ويفوح عطره وان استل من أصله: فكذلك كان الفقيد - رحمه الله -، فسرعان ما لمع اسم أبي رشاد في ندرات بغداد ومنتدياتها، فأحبه روادها وأعجبوا بأدبه وعلمه وأكبروا خلقه وسلوكه.

وهكذا كان أبو رشاد شاعراً في الطليعة من شعراء العربية، وكان كاتباً لا فضول في كتاباته التي عالج فيها مواضيع مختلفة في المقالة والقصة والمسرحية ولكن لم ينشر منها إلا القليل وباسم مستعار. وكانت معلوماته في الفقه والأصول من الطراز الجيد. وكان قبل ذلك وبعده إنساناً في صدقه وإيثاره ووفائه وحبه للخير، وأكاد أجزم بان ما من شخص تعرف أبا رشاد إلا وأحبه واتخذة صديقاً ومستشاراً يفزع إليه في الشدائد والمللمات. وما من شخص طلب العون والنجدة من أبي رشاد إلا ورجده سباقاً لنجدته سخياً في عونه، ومن هنا كان فقده كارثة، وما ودّ بلا سبب كما يقول المتنبي فبكاه الصغير والكبير.

١٩٨٨

كان له حضور أدبي وثقافي كبير.. عبّر عن آرائه
بجرأة وشجاعة برؤية عربية اسلامية حريصة على
المجتمع والدين.

عبد الله الحاقاني

موسوعة النجف الأشرف ١٦٦/٢١

القاموسي في ذكراه السنوية الأولى (★)

الأستاذ (المرحوم) محمد حسين الشيبلي

حضرات السادة:-

سلام الله عليكم: وبعد فقد قلتُ ساعة تشييع جثمان الفقيد الغالي الأستاذ الشاعر الكبير السيد صادق القاموسي الذي نُوِّبَته اليوم بمناسبة مرور عام كامل على وفاته: أَجَلٌ قُلْتُ بَصَمْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

لا تذرُفوا الدمع ولا تنحروا فكل شرق وله مغرب
بالأمس قد كان هوى كوكب واليوم يهوي بيننا كوكبٌ

وأفصد بالكوكب الأول الفقيد الأستاذ السيد إبراهيم الوائلي رحمة الله عليه وأقصد بالكوكب الثاني الفقيد الكبير الأستاذ القاموسي، وقد سبق الوائلي أخاه القاموسي إلى الدار الأخرى، والفرق بين رحيلهما شهران فقط، وكانا مدى الحياة لا يتفارقان للصادقة الصادقة بينهما، وبهزّي بهذه المناسبة ما قاله شاعر النيل حافظ إبراهيم في مآسي الحياة:

إني سئمت وقوفي كل آونة أبكي وأندب أحزاناً بأحزان
إذا تصفحت ديواني لتقرأني وجدت شعر المراثي نصف ديواني

ولد الفقيد الغالي الأديب الكبير السيد صادق القاموسي في النجف قبل ستين عاماً ودرس الفقه والأدب بعد أن شبَّ عن الطوق في منتدى النشر والخوزة العلمية، وتجلت قابليته منذ نعومة أظفاره بأجلى صورها في المناسبات المختلفة من دينية ووطنية واجتماعية في النجف أولاً وفي بغداد ثانياً بعد أن انتقل إليها قبل ثلاثين عاماً، وقد واصل في بغداد إطلاعه على ما في بطون الكتب حتى أصبح يشار إليه في النظم بقوة السبك ورقة الديباجة، وهو في هذه الإشارة صنو الأستاذ الشاعر الكبير السيد مصطفى جمال الدين حفظه الله، وهو لا يقل في شعره ورقة عن شعر الحويبي، كما انه لا يقل شعره قوة عن شعر الجعفري، رحم الله هؤلاء جميعاً وفي بغداد دفعه ذوقه الأدبي إلى نشر الثقافة عن طريق عرض الكتب فتسلّم المكتبة العصرية الشهيرة وأصبحت بجهوده بعد فترة يسيرة محجاً للاطلاع على المطبوعات الحديثة والقديمة معاً. وكان المراجعون من عشاق المطالعة يجدون في صاحب المكتبة الجديد الفتي

(★) أُلقيت في (ندوة الغبان).

المطلع الكريم الأخلاق اللطيف المعشر، وفي مدة قصيرة جداً أصبحت المكتبة العصرية ملتقى الأدباء والأفاضل والطبقات المثقفة. وقد أسدت إلى البلاد خدمة ثقافية كبيرة، ولا تزال هي ومكتبة المثني مقصد المحين للعلم والأدب بين المكتبات بصورة عامة...

لقد نُكِبَ المرحوم القاموسي في خلال العامين اللذين سبقا عام وفاته، ففجع بوفاة رهط من أقربائه وأصدقائه، وقد شقَّ عليه كثيراً أن يفجع بزوجه النبيلة (أم رشاد) وكانت الحسارة بوفاتها لا تُعوَّضُ.... وفي نهاية شهر مايس ١٩٨٨ شقَّ عليه أن يسمع نعي صديقه الحميم الأستاذ إبراهيم الوائلي، وقد أثر ذلك فيه كثيراً في الوقت الذي كان فيه أسيراً للعلاج المستمر تخلصاً من المرض الخبيث المعروف بالسرطان، حتى صمم وهو يلازم سريره أن يحضر حفلة التأبين التي أقيمت لصديقه الوائلي في كلية الآداب، وفي خلال الاستمرار على ما يقال من منظوم ومنتور في الحفلة جيء بالقاموسي محمولاً فقد فتك الداء به جسماً وقوة فلم يستطع المشي خطوات حتى انه اختل توازنه حين كان حاملوه يصعدون به سلاماً القاعة فسقط هو ومن يستند عليه من رفاقه المرافقين، وغرضه كما قال أن يشاهد آخر حفل تأبيني أدبي وأن يسمع فيه ما يقال في رثاء صديقه الراحل الذي سيلحق به بعد حين، وهذا منتهى الوفاء في زمن يكاد أن يكون الوفاء فيه خرافة من الخرافات...

حضرات السادة: سأنقل لكم ما كان بيني وبين الفقيد العزيز في آخر جلسة ضممتني وإياه في داره ويبدو لي ان اللوعة التي ولدها في نفسه فراق زوجته يشقَّ تخفيفها على الرغم من مرور الزمن، أجل لقد زرت الفقيد مستفسراً عن صحته (وبيني وبينه زيارات إذا انقطعت اضطراراً فاننا نستعين عنها بالهاتف ليعوّضنا عن اللقاء بعض التعويض) أجل زرت الفقيد ومن غرائب الصدف أن تكون زيارتي مصادفةً ليوم الذكرى السنوية الأولى للفقيدة وقد تظاهر المغفور له القاموسي بالتجلد. أجل زرته قبل رحيله بثلاثة أسابيع وكان يتلوى من الألم، إلا انه كان يكتب ذلك أو يحاول، ومن الغريب انه نسي نفسه وتذكر رحيل رفيقة حياته، ثم نادى بصوت ضعيف من في البيت، فجاءت إحدى كريماته تمشي على استحياء وأمرها أن تأتي بورقة لي (ولم أعلم ما هو المقصد من ذلك) ثم فاجاني سانلاً أن أقرأ عليه أبياتاً من الشعر لشاعر يرثي زوجته، وفكرت بالتخلص من هذا الموضوع الشانك حتى لا أثير كوامن آلامه وأشجانه، فقلت له اني أستطيع أن اتلو أبياتاً متفرقة من قصيدة الجواهري الدالية التي قيلت سنة ١٩٣٩ في رثاء زوجته ومطلعها:

في ذمة الله ما ألقى وما أجدُ أهذه صخرة أم هذه كبدُ

فردّد المطلع رحمة الله عليه ترديداً حزيناً، ثم قال لي اقرأ لي ما تحفظ منها، فقرأت البيت الثاني:

قد يقتل الحزن من أحببه بعدوا عنه فكيف بمن أحببه فقدوا؟
فبكى وناح وشهق وخفت أن يستمرّ على هذه الحال وفصلت أن أغادر البيت ثم تجلّدتُ وكانت الدموع تترقرق في عينيه وقال لي: يا أبا علي كيف لا أبكي وحببائي بعيدان عني منذ أمد طويل (ويقصد بحبيبيه ولديه رشادا وعماداً) وأردف قائلاً: ثم فقدت شريكة حياتي للأبد، ألم يصور هذا البيت حالي تصويراً صادقاً؟ فأحيت أن أجاريه فقلت له نعم فكلاكما شاعر مرهف الحسّ موجد العاطفة، ثم قال لي يا أبا علي اقرأ لي فقرأت له:

حييت أم فراتٍ إن والدةً بمثل ما أنجيت تُكسني بما تلدُ
فبكى وهو مخنوق الصوت وقال: أيمن للجواهري أن يسمح لي باستبدال أسم فرات باسم رشاد وهو اسم ابني الأكبر؟ فقلت له: بينك وبين الجواهري صلات أدبية قوية العرى، ولا أعتقد انه يمانع إذا أخذت البيت واستبدلت منه لنفسك كلمة بصورة خاصة على سبيل الاستعارة، فأخذ يبكي ثم هدأ قليلاً وقال لي هل تعبت؟ فقلت له لم أتعب. فقال لي أرجو أن تقرأ إذن فقرات:

إنّا إلى الله قول نستريح به ويستوي فيه من دانوا ومن جحدوا
فقال: إنا إلى الله، إنا إلى الله، إنا إلى الله، أرجو أن تستمر يا أبا علي فقرأت:
بالروح ردي عليها المصالة بين المحبين ماذا ينفع الجسد؟
فقال: نعم نعم بالروح ردي واستمر يبكي عالياً، وقلت له أأستمر بالقراءة فقال استمرّ استمرّ فقلت:

بكيت حتى بكى من كان يعرفني ونحتُ حتى حكاياي طائر غردُ
فقال لي: اسمح لي أن أبكي كثيراً كثيراً لهذا البيت فقلت له - وبيني وبينه مودة متينة قائمة منذ أمد - ماذا ينفع البكاء يا أبا رشاد (أنت أستاذنا في الأناة والصبر وطول البال وتحمل الصعاب) ثم قلت له ألم يكف يا أبا رشاد ما قرأت؟ فقال كلا أرجو أن تقرأ فقرات البيت التالي:

مدّي إليّ يداً تمدد إليك يدُ لا بدّ في العيش أو في الموت تتحدُ
فقال أين يدها أقبليها وأضعها على رأسي ثم أردف قائلاً اقرأ أرجوك فقرأت:
لا يوحشُ الله ربعاً تنزلين به أظن قبرك روضاً نوره يقد

فبكي واستمرّ يبكي، ثم قال اقرأ أرجوك وبما اني لا أحفظ إلا تسعة أبيات على غير ترتيبها فقد قرأت هذا البيت واعتبرته خاتمة ما أحفظ وهو الواقع.

غطّي جناحك أطفالي فكنت لهم
 ثغراً إذا استيقظوا عيناً إذا رقدوا

هذا ما أتذكره، ولا تخلو الأبيات من تقديم وتأخير كما ان التعليق في مجرى الحديث لا يخلو من شطط بسيط في بعض العبارات، فقد مرّ على القصيدة زمن طويل، وقد خفت أن يزور الفقيده رهنط من محبّيه وخلانه وأصحابه ويلاحظوا حالته هذه وما هو عليه من حزن وكآبة وألم، فحاولت أن أنصرف فمعني وأقسم لي أن لا يبكي إذا جاء أي فرد بعد الآن، وإن كانت الجلسة باكية في حدّ ذاتها، وانصرفت بعد مدة. وقد حسبت دموعي بعد أن زرتة الزيارة الأخيرة في مستشفى ابن البيطار ولكنه كان في عالم اللاوعي فتركنا المستشفى بعد أن ودعنا مرافقه في غرفته بالمستشفى ولده السيد أباد. وبقينا نتسقط أخباره وهو في المستشفى ويبدو أن حالته الصحية قد ساءت وتدهورت إلى حد بعيد منذ ١٩٨٨/٦/٢٠ حتى ١٩٨٨/٧/١ ففاضت روحه الطاهرة إلى بارئها شاكية باكية وترك في غيابه الأهل والأصحاب للدموع والحسرات وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الملاح الرئيسية في شعر القاموسي (★)

الدكتور قيس كاظم الجنابي

(١)

يعدُّ الشاعر صادق القاموسي (١٩٢٢ - ١٩٨٨) من شعراء ما قبل رواد الشعر الحر الذين تلوه فيما بعد من أمثال بدر شاكر السياب المولود عام ١٩٢٦ بعد ولادة صادق القاموسي بأربع سنوات، لذا بقي أميناً للأغراض الشعرية التي كانت سائدة قبل ظهور تيار الشعر الحر، إذ ظل التراث معيناً خصباً لشعره واستمرت ثقافته العربية ملتزمة بالتقاليد الشعرية والأغراض الشعرية المتعارف عليها كالغزل والاحوانيات والمناسبات، ولكنه تأثر - بعض الشيء - بالحركة الرومانسية بفعل ما اطلع عليه من ترجمات عن أدب الغرب فضلاً عن أدب المهجر المتأثر بيئة الغرب.

اتسمت مواقف الوطنية بالوضوح بشكل يقترب من كتابة قصائد المناسبات بيد ان أكثر ما يفصح عنه ديوان القاموسي المنشور عام ٢٠٠٤ هو وضوح ثقافته الشعرية وتعدد موارده المعرفية وتراء خزينة اللغوي وميله نحو العفوية والنادرة والاحوانيات إذ تعبر قصيدة (الحب ديني) عن أسلوبه في كتابة القصيدة الذي ينهل من التجربة الذاتية بوصف الشعر انعكاساً للواقع وجزءاً من هاجس داخلي متفجر تنتفض فيه الذات بحوار غني يكشف عن ملامح الصورة الشعرية الواضحة كاللغة والخيال والادراك الحسي والفكرة، ذلك لان الصورة هي نسيج فني متماسك يقوم على أسس خاصة يحددها النقد ويتجاوزها الشاعر كي يبني له مملكته الخاصة به، ولأن للشباب والشعر أكثر من مملكة؛ فان للقاموسي مملكته الخاصة به إنساناً محباً وشاعراً متدفقاً تميل لعته نحو الطراوة على رغم صغر عمر التجربة، ولا غرو في ذلك، لأن الشاعر نشأ في بيئة ثقافية خصبة ذات أثر واضح في شعره منذ البدايات الأولى وضعت له توطئة راسخة في التجربة الابداعية جعلته يستمر في عطائه الشعري دون توقف في دورة حركية تناوب بين الجد والهزل والحقيقة مع الخيال والواقع مع الحلم والتسرد مع الالتزام مما يعني انه يميل إلى تناقضات وصراعات ماثلة في جوهر حركة الواقع ومتغيراته الدائمة بجانب شخصية لا تطيق حدود الالتزام، فتحاول ان تختزل بعض المواقف أو تتجاوزها بدافع نزوع ذاتي يحاول ان يثبت وجوده وحضوره عبر الشعر، مما

يؤكد ان شعره صورة صادقة لشخصيته ومجتمعته ولتقلبات الحياة لأنه عاصر مرحلة سياسية مضطربة بين (١٩٢٢ - ١٩٨٨) لم يكن مهيناً نفسياً وفكرياً لأن يخوض في غمارها خشية ان تعصف بكيانه وأحلامه الوردية الكامنة وميله نحو الدعة والراحة والسكينة. والقاموسي على رغم كل ذلك يبدو متمرداً أحياناً من الخارج. ولكنه في الوقت ذاته ينطوي على إصرار غريب في الالتزام بالثوابت التي تعارف عليها المجتمع أو الواقع الثقافي بأنها ثوابت ذات قدسية خاصة. ففي الوقت الذي يبدو فيه محافظاً وملتزماً بالتقاليد بقي في أعماقه متمرداً رافضاً لأي قيود حوله باستثناء الوزن والقافية، وكان متمرداً عاشقاً يحافظ على عمود الشعر، انه شاعر يحمل في أعماقه تناقضات واقعه الذي يمور فوق صراع خفي، وهذا التناقض الحاصل بين الظاهر والباطن من هذه الأحداث يشكل جزء من حيويته وأسرار نجاحه واستمراره فكانه كان صورة لتناقضات الحياة وصراع الوجود وحركة المتغيرات.

كان العراق بين عامي ١٩٢٢ - ١٩٤٠ وقت نشوء الشاعر وتكون شخصيته وعبر (١٨) عاماً يعيش مرحلة تحولات خطيرة بين استقلال شكلي وتمرد يتململ في الأعماق مع فسحة من حرية الرأي والحوارات الجادة التي تحاول ان تجد للعراق مستقبلاً أفضل، إذ كان الشعر صدى للوضع السياسي وجزء من تلك التحولات التي يعيشها العراق، فبرزت ملامح الحركة الشعرية خلال هذه المرحلة ووصفت بان شعرها يريدون إبراز صورة فيئة من صور الاحتلال ... وانهم استحسنوا (جمال اخیال فيها، ورقة الأسلوب وعدوبة البيان ورضانة العبارة انما كانوا يحاولون إبراز مشكلات الوطن السياسية والاجتماعية بأسلوب سهل ليرسل الشاعر إشعاعاً من روحه وصرخة من قلبه ليوظ الشعب الذي لا يزال في اللدجور^(١). لذا بقي الشعر جزء من حركة الواقع يرصد ويرقب تحولاته ليؤشر مشكلات الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة كالعليم، المرأة، الاقطاع، الفقر^(٢).

(٢)

إذا كان الشعر العربي قد خضع إلى فكرة تعدد الأغراض الشعرية فان شعر القاموسي لا يمكن أن تتطابق أغراضه مع الشعر العربي برمته، لأنه ركز بشكل خاص على الأغراض

(١) الشعر العراقي الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية، يوسف عز الدين، دار المعارف (القاهرة

١٩٧٧)، ص ١٧٢.

(٢) نفسه ص ٢٠٣-٢٤١.

الساندة في عصره وهي أغراض: الغزل والمناسبات والأخوانيات فضلاً عن الجانب الوطني، كما استحوذ موضوع (التاريخ الشعري) الذي كان سائداً في الشعر العربي خلال العهد العثماني. ولأن القاموسي شاعر ينطلق من ظروفه وظروف واقعه فإن شعره يدور حول محور الذات/ الأخر، الذات بوصفها عاشقة ومعشوقة ومنتدرة في علاقات أخوانية ومناسبات وطنية ودينية، أما التاريخ الشعري فإنه وثيقة منظومة سهلة الحفظ قادرة على الوقوف بوجه حركة الزمن وكان الشعر غداً أداة لتوثيق الأحداث التاريخية. قال صادق القاموسي في أول قصيدة كتبها هي (الحب ديني) ولم تنشر في حينها:

ما الحب إلا فتنة الحسن التي في القلب دسّتها يد الحسناء
ما الحب إلا شعبة الأنس التي ملأت سماء القلب بالأضواء^(٣)

يهدف أسلوب التوكيد (ما... إلا) إلى الاقناع والتأثير في ظل نزعة رومانسية شفافاً لكنند يعاني من خطى البدايات الأولى التي تعتمد على الجملة الاسمية التي تبدو أكثر قوة وأقل تدفقاً، وهذا ما يجعل الصورة الشعرية ذات ملامح حسية تقوم على استثمار واقع ريفي واضح في ترديد أسماء (الورد، الشوك، النوى، الفرس، سماء، ضوء، شمعة) مما يشير إلى نشأة مبكرة نُهضت في ظل طبيعة ريفية أو قريبة من الريف كمدينة النجف مثلاً لقرابها من الريف وميل أهلها إلى الموروث العربي الاسلامي، فضلاً عن ثقافة دينية ظلت الجذر المعرفي لها والتي ترمد عليها الكثير من الشعراء ترمداً ملحوظاً وهو ما فعله صادق القاموسي حين جعل لغته الشعرية تتأثر بتلك البيئة بروح مشحونة بالتمرد والبحث عما هو متجدد، ولكن هذا التمرد كان جزئياً لأن في جناته روحاً محافظة تختفي في الأعماق، ولكن صورته تظل جزءاً من مؤثرات تلك الأمكنة والأجواء لأن الصورة الشعرية في أكثر الأحيان تقترب من المجاز والوصف والتشبيه^(٤)، مما يجعل الصلة بين هذه الصور والعقوية^(٥) قائمة على حساسية التأثير السريع بالحدث أو الموقف أو الصورة المعربة لما تشكل العاطفة المتوهجة من مثير يتوغل تحت رماد الوجد لينسج حضوره بنبضات حية من ردود الأفعال الخاصة لكل ما هو صادم للنظر والعاطفة والاحساس، وهذا يجد ذاته جعل شعره بعيداً عن الاشتغال العميق الذي

(٣) ديوان صادق القاموسي، تعليق محمد رضا القاموسي. المكتبة العصرية بغسداد ١٤٢٥ / ٢٠٠٤، ص ٩٣.

(٤) الصورة الشعرية، سي - دي لويس، ترجمة أحمد أنصيف الجنابي مراجعة عناد غزوان، وزارة الثقافة والاعلام بغسداد ١٩٨٢ ص ٢١.

(٥) ديوانه، القصيدتان، ذكرى الوداع، الليل المخلّق ص ٩٧. ١١١.

سلوكه العديد من الشعراء ممن يمثلون مدرسة الصنعة كما في قصيدة (الببل الخلق) التي نظمها عام ١٩٤٣ أي بعد ثلاث سنوات من بدء دخوله محفل الشعراء. والتي تنضح فيها العفوية ورد الفعل السريع والتوهج العاطفي.

أما قصيدة (ولدي) التي نظمها عام ١٩٤٧ في رثاء ابنه البكر (جعفر) الذي توفي في السنة الرابعة من عمره، فأما يمكن ان تعد من قصائد المناسبات لأنها عبرت عن العفوية، والخضوع لحركة رد فعل للواقع العراقي وما يحيط به من ظروف خلال الحرب العالمية الثانية، أما قصائده الغزلية المشبعة بالتدفق الوجداني فأما تعد جزءاً من القصائد التي تتحكم بها العفوية من حيث انعكاس الصورة الشعرية وصدورها عن حدث واقعي، ولكنها من حيث البناء الفني والصياغة البيانية تعبر عن خبرة عالية في النظم ومقدرة راسخة في بناء الجملة مع سهولة التعبير وجماله وغازاة لغته ففي قصيدة (حبيبي) التي نظمها عام ١٩٤٦ يقول:

البان صَفَقَ زهواً يرجو العناق
والغصن قد لف شوقاً ساقاً بساق
كيف التلاقي حبيبي كيف التلاق

إذ تبرز ملامح التأثير الأندلسي التي تبعد القصيدة عن الرثابة، مما يبنى ان الشاعر ليس صاحب مطولات بقدر ما هو صاحب مقطوعات يختزل عبرها التجربة الشعرية بأقل ما يمكن من الأبيات، ولعل في قصيدة (دهشة الوصل في مقام العشاق) التي نظمها عام ١٩٤٥ إشارة إلى طبيعة ملاحم التجديد في قصائده وبقايا مؤثرات الشعر العربي وذلك عبر إشاره لشخصية المعشوقة مروراً بليلى ولبنى وسلمى وغيرها كقوله:

ليلي..... يعنفي الرقيب سفاهة ويلوم ظلماً
ويقول: تختلس الطباء مجاهراً وتريد كتما
ليلي إلى لبنى - بلا حذر - ضممتها لسلمى
أفكنت يا ليلي معي
ليلي وضمك مخدعي
لا... لا أصدق... لست أنت
... ولا رأيتك في المساء

(٧) كوجب قلبي ترقصين وتنطوين كأضلعي

يلاحظ - هنا - تنوع القافية والنزعة إلى التجديد في القصيدة من حيث اللغة كعنصر مهم من عناصر الصورة مما ينعكس بالتالي على الصورة الشعرية برمتها، يصاحب ذلك ميل إلى التحرر من القيود كما يبدو ذلك في قصيدة (حطم) التي نظمها بمناسبة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في بدايتها الأولى وعلى قصيدة (على هامش الوثبة) التي نظمت عام ١٩٤٨ تحية لشهداء وثبة كانون، ولكن ما يلاحظ على هذه القصيدة وما يحاكيها إنما خضعت لرد الفعل السريع إذ جاءت دون مستوى شعر القاموسي وإخاص بتجاربه العاطفية، ولعل إحساسه بضرورة توثيق الحدث ومجازاة الكثير من الشعراء في الإشادة بالثورة دفعه نحو هذا الاسترسال، وهو ما كان سبباً في إغفال إكمالها لأن القصيدة كما تبدو من فكرتها لما ترل ناقصة. أما قصيدة (النار في مهرجان الشعر التاسع) التي نظمها عام ١٩٦٩ فقد كانت صدى لنكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ فهي تعد من قصائد المناسبات التي تخضع للتأثر وردود الأفعال السريعة التي لا تحتاج إلى جهد فني عميق.

(٣)

يتسم الكثير من شعر القاموسي بأنه شعر مناسبات وأخوانيات من أمثال أغراض التهنية والثناء مما يشير إلى اعتماده في النظم على الأغراض التقليدية المتعارف عليها في الشعر العربي القديم. وغالب هذه المناسبات دينية أو وطنية أو الاخوانيات خاصة كالثناء والتكريم وربما المطارحات كما في قصائد (الرجعي العاشق، ضمك الخلد، آتات غريب، فقدت كل حياتي: تحية، بنت العصور، قالوا ارثه، ليلة القدر، من وحي الذكرى، أبا الثمانين، ذكريات، بكم العزاء، الرسالة في شخص، ...) وغيرها من القصائد، ولعلسه أثر شعر الاخوانيات ليلته إلى ما هو يومي وبسيط وتأثيري، ولكنه يفقد خلاله الحاجة إلى العمق الفكري والابداع لأن شعرائه يتبادلوه فيما بينهم من غير قصد إرضاء لسلطان أو ممدوح أو مملاة لأحد.^(٨)

وكعادة العديد من الشعراء الذين يخشون سطوة الزمن/ سطوة الموت فإن الشاعر آثر في اخوانياته أن يكون جزءاً من الحياة الاجتماعية في أفراحها وأتراحها، فقد كان لوقوع الموت

(٧) نفسه ص ٣٦٥.

(٨) الاتجاهات الشعرية في بلاد الشام في العهد العثماني، د. محمد التوتحي (منشورات اتحاد الكتاب

العرب، دمشق ١٩٩٣، ص ٤٣.

صداه البالغ في حياة القاموسي إذ نال العديد من أصدقائه مراثيات من شعره حتى اني هسهده الغرض يتجدد في شعره كتعبير عن رد فعل وجدائي/ عاطفي/ انفعالي سريع، لتبحرسة وفنسا شخص عزيز، وهذا النمط من الشعر هو شعر وجدائي متدفق يتسم بالعفوية ويتبعه، عبر الصنعة، لكن هذا الفن أصبح يتراجع بعد العهد العثماني فضلاً عن كون معانيه تنصبه بالتقليد، لهذا حاول العديد من الشعراء الاستعانة بأغراض شعرية أخرى حين يصعدون الطبيعة أو يستعيدون ذكرى الحبيب مشيرين إلى أحاديث القراق والين والأسى والتلوغسة وانذراف الدموع وتلوع الأفئدة^(٩)، مما جعل هذا الغرض الشعري ذا ملامح وانجاسات متقاربة ولعل في قصائد الشاعر: (قالوا ارثه، فقدت كل حياتي، أبا الضحايا، ضمك الخلد ما يشير إلى ملامح التجربة الشعرية، وعلاقتها بالرتاء أو استذكار الموتى هي علاقة نصيرية ذات ملامح وجودية لأن حركة الزمن من الولادة حتى الموت هي علاقة حركة كينونسة وجود حركة اختفاء وظهور ففي قصيدة (ضمك الخلد) التي نظمها في رثاء محمد باقر المظفر عام ١٩٥٥ وهو مرجع ديني معروف في عصره في هذه القصيدة تم استذكار المذنب العلم في الحياة ودور الفقيه فيه، مما جعلها تمتلك قوة خاصة بعنتها قدرتها على التاصل لتحتزنه من شحنة داخلية مؤثرة يمكن ان يستجمع غيرها ملامح المتلقي لتشدده اليهت عسير القافية الهمزية التي ضمت إشادة بمتدى النشر الذي كان وراء إقامة الحفل الأبيي الخاص بالمظفر، والذي وصفه الشاعر بانه واحد من الذين غرسوا روح الاصلاح فجاءت لعدا القصيدة منسجمة مع روح الشعر العربي في عصرها وبالذات مع تجارب الشعراء المصافي والزهاوي ومن عاصرها كقول الشاعر:

عشقوا الخلد فعاطوه هوى	صادق التجوى وعاطاهم بقاء
حضنوا (ليلاه) فاعتزت به	وهووها فاصطفتهم خلصاء
ومضى التاريخ يستجليهم	صوراً اضفنته حسنا وبهاء
ينثر المجد على أعتابهم	ويوفيهم عن الحق الجزاء

وهذا ما يمكن ملاحظته على قصيدة (قالوا ارثه) التي نظمها في رثاء محمد باقر المظفر. أما قصيدته في رثاء زوجته التي نظمها عام ١٩٨٧ فقد كشفت عن الارتباط الصميمي بالحدث، والذي يعبر عن ملامح لأجواء ذاتية وأخوانية خاصة لم تبلغ ما بلغته قصيدته

(٩) نفسه ص ٣٥٥.

(١٠) ديوانه ص ١٠٤.

(ضمك الخلد) من حيث بيان قوة التأثير إذ أسبع على زوجه الصفات المعنوية كالتقوى ووصف نفسه بالجزع وبأنه (يتيم) روحه وذاته وانه غدا يهوى مماته.^(١١)

(٤)

شاع في العصر العثماني غرض شعري عرف بـ (التاريخ الشعري) والذي يعني بتحديد الزمن بطريق حساب الحروف حسب القيمة العددية للأحرف الأبجدية.^(١٢) ولعل الشعراء استقوه من فكرة وجود أسرار خاصة للحروف كثر استخدامها لدى المتصوفة - بحسب بعض الباحثين^(١٣) - وتسمى الفرقة الخاصة بهذا الاستخدام بـ (الحروفية)؛ ويرجع أقدم استعمال للتاريخ الشعري إلى الشاعر ابن شيب في عهد الخليفة العباسي المستنجد بالله (وتاريخ هذه القطعة هو سنة ٥٥٤ / ١١٦٠) الذي كان صاحب الرقم (٣٢) من الخلفاء العباسيين^(١٤)، وقد استخدم القاموسي التاريخ الشعري في عدد من قصائده منها (تاريخ ولادة)، تاريخ نظمت عام ١٩٥٣، تاريخ المنظومة عام ١٩٦٢، تاريخ المنظومة عام ١٩٦٦، تاريخ المنظومة عام ١٩٧٧، أبا حسن، بطل التاريخ مازن، نيران الشعرباف: نادية. رثيثك) مما يشير إلى ان لفظة (تاريخ) لديه تعني تاريخ الحدث بالتاريخ الهجري وأحياناً الميلادي ففي (تاريخ ولادة) المنظومة عام ١٩٧٠ يؤرخ ولادة (ندی) بكر محمد علي السيد هاشم نصر الله ويقول:

روت ربيع العمر أطيافها وكان عريان السنأ أجردا

حتى إذا أينع تاريخها { تعطرت أخلاقه من (ندی) }^(١٥)

هكذا وردت كلمة تاريخ مقرونة بالحدث، وهذا النوع من الشعر يحتاج إلى حسابات إذ يكون مجموع الحروف رقماً يعادل تاريخ السنة التي حدثت فيها، وهي عام ١٩٧٠. يمثل التاريخ الشعري نوعاً من التوثيق للحدث يمكن حفظه بسهولة فضلاً عن كونه نوعاً من التندر، واللقاء الاخواني حتى انه وصف بانه (لا يخلو من روعة)^(١٦) ولكنه يعتبر صنعة حرفية غير ضاربة في الأعماق، وذات بعد خاص لا يعبر عن موهبة كبيرة بقدر ما هو

(١١) ديوانه ص ١٥٥.

(١٢) الاتجاهات الشعرية ص ٤٢٣.

(١٣) الانسان الكامل في الاسلام/ عبد الرحمن بدوي، وكالة مطبوعات الكويت. د.ت. ص ١٩٦.

(١٤) الاتجاهات الشعرية ص ٤٢٤.

(١٥) ديوانه ص ٢٠٥.

(١٦) في الأدب التحفي/ محمد رضا القاموسي، المكتبة العصرية، بغداد ١٤٢٥: ص ٧٠.

لعبة لغوية أو شعرية يسهم في الدربة الشعرية، كما يسهم في الاستفادة من الشعر في تدوين الأحداث، مثله مثل الشعر التعليمي الذي يركن إلى النظم، ولكن التاريخ الشعري يتضمن نحات ذكية ومباشرة سهلة التلقي والانتشار ففي بيت شعري يؤرخ لعام ١٩٦٢ عن ولادة الصناعي حيدر ابن شقيقه الحاج صاحب القاموسي يقول:

ان ضللت الدرب أرخ {خير هام ذكر حيدر} ^(١٧٧)

١٩٦٢

وفي تاريخ لزفاف (موسى بن جعفر محبي) يحاول العودة إلى الجذور الأولى في حياة البشرية في إشارة إلى فتنة الفردوس، وتفاحة الجنة، في العلاقة الحميمة بين الزواج والخطيئة الأولى التي حصلت بين (آدم) و(حواء) وجاء تاريخه هذه المرة بالتاريخ الهجري وكرري قصة (حواء) على سمع الهوى ما شنت أن تكرري وارقصي (ساعة) تاريخ {حككت

زواج (موسى) و(سرور) (جعفر) ^(١٧٨)

١٣٨٦

وكذلك فعل في قصيدة (أبا حسن) حينما أرخ لعام ١٣٦٣ و(بطل التاريخ مازن) الذي أرخ به ولادته لعام ١٣٨١، ونيران الشعرياف بعام ١٣٨٦ وفي (رثيتك) التي أرخ بها وفاة صديقه الأستاذ حسين الصافي، فقال:

أهبت (مصعب) إذ قال أرخ

{إذا غاب (الحسين) أبي (علي)} ^(١٧٩)

١٩٨٧

كما أرخ صادق القاموسي حجج صديقه السيد علي فتح الله عام ١٣٦٩، فقال:
قلت لما سلكته هكذا الله يوفي لكل شيء حسابه
أنا أرخته (بحج علي) شكر الله سعيه وأتابد ^(١٨٠)
وهكذا هو هذا اللون من الشعر، دعابة، وتوثيق، وفن كلام يتداخل أحيانا مع الأخوانيات بطريقة أو بأخرى.

(١٧) ديوانه ٢٥٧.

(١٨) ديوانه ٢٧٢.

(١٩) نفسه ٤٧٤.

(٢٠) في الأدب النجفي/ ص ٧١.

من خلال هذه الاطلالة يمكن الكشف عن الملامح الرئيسية في شعر القاموسي من حيث تعدد الأغراض وعلاقتها بطبيعة الصورة الشعرية وعلاقة الواقع وانعكاساتها في أجواء القصيدة وطريقة صدورها انسجاماً مع الواقع اخطب بما، لان الشعر هو صورة حية للواقع حيثما هو صورة صادقة عن ذات الانسان وما يحيط بما من مؤثرات نفسية واجتماعية وسياسية. وقد كان القاموسي صورة حية لساعات تأثره وحزنه وفرحه، انه شاعر يترسم صورته من خلال حياته ولغته، وهذا ما يجعل الصورة تجسد بكل أبعادها التجربة الفنية وهي جزء من حركة الواقع، ولا يمكن ان تعدّه شاعراً ذاتياً بقدر ما هو شاعر واقعي تلبست روحه الملامح الرومانسية ولا ريب ان يقترب لديه الشعر بالأحداث فيؤرخها بطريقته الخاصة تاريخاً له فضل الامساك بما مع مرور الزمن وتطور الأحداث لأن الشاعر هو الصوت القادر على اجتياز المسافات الفاصلة بين التاريخ والحياة.

٢٠١٥

قرض الشعر من وقت مبكر، وأجاد فيه.. وكان
شاعراً مطبوعاً وكاتباً جريئاً، حسن الخلق: طيب
الحديث.

كاظم الفتلاوي

المنتخب من أعلام الفكر والأدب/٥٢٣

صادق القاموسي.. الشاعر والانسان (*)

الأستاذ محمد جواد الغبان

فجعت الأوساط الأدبية والفكرية بفقد واحد من أعلامها، وخسر الشعر شاعراً رقيقاً مبدعاً كان من حملة مشاعل النهضة الأدبية منذ الأربعينات، وفقد الاخوان أحاً وفاقاً صادقاً حين فقدوا رمزاً من رموز الوفاء والطيبة والنقاء والصفاء. ذلكم هو المرحوم الأستاذ صادق القاموسي الشاعر والعالم والانسان.

وكما عاش هذا الرجل الكريم بعيداً عن الأضواء ومسارح الظهور، فقد مات ولم يسלט على خبر وفاته حتى ولا ضوء خافت يشير إلى فقدانه وخسارة الشعر والأدب بموته. وحسبي من باب الوفاء لانسان كان رمزاً كبيراً من رموز الوفاء ان أكتب هذه السطور في رثائه وأسجل بعض ذكرياتي معه وعنده.

نشأ صادق القاموسي في أسرة تمتهن التجارة وتقوى العلم والأدب، وفتح عينيه والنهضة الفكرية والأدبية في العراق في أوج ازدهارها، وفي (النجف الأشرف) - محل مولده ونشأته وتعليمه - كانت الصراعات بين القديم والجديد على أشدها، ففي الثلاثينات من هذا القرن كان المحافظون يرون أن يبقى القديم على قدمه مادة ومنهجاً وأسلوباً، وكان المجددون يرون مسaire روح العصر في المنهج والأسلوب على أن يبقى الجوهر هو هو في الأصالة والحفاظ على التراث الفكري العربي الاسلامي العريق.

وتمثلت النهضة الأدبية الجديدة في النجف بانشاء (جمعية الرابطة الأدبية) في بداية الثلاثينات، وكان من أبرز أعضائها في بداية تأسيسها: يعقوبي والخبوي وصالح الجعفري وعبد الوهاب الصافي وعبد الرزاق محيي الدين ومحمد علي البلاغي وعبد الله الصراف... وغيرهم مما لسنا في صدد سرد أسمائهم على سبيل الحصر.

وتمثلت النهضة العلمية بتأسيس (جمعية منتدى النشر) على يد نخبة من الأعلام للنهوض بالدراسات العلمية من مرحلة الجمود إلى مرحلة التجديد بالمنهج والأسلوب مع الحفاظ على الأصالة في دراسة التراث الاسلامي، إضافة إلى إدخال المواد التي تقتضيها ضرورة الحداثة وروح العصر.

(*) نشرت في جريدة الثورة العراقية بتاريخ ١٩٨٨/٩/٧ م.

وكان الفقيه من أشد الشباب - آنذاك - تحمساً لتلك الأفكار التجديدية فانتمى إلى (منتدى النشر) طالباً موهوباً وبعد تخرجه فيها، أصبح عضواً في هيئتها الادارية، وأستاذاً لعلم المنطق في كلية منتدى النشر في الفترة الممتدة بين أوائل الأربعينات إلى أوائل الخمسينات، ولم يكن في تلك النهضة الفكرية من أنصار التجديد فحسب، بل كان في الرعيل الأول من حملة مشاعله الوهاجة. وحين أصدر طلاب (كلية منتدى النشر) عام ١٩٤٨ مجلة (البذرة) التي كان لها شأنها في أوساط الطلبة والمثقفين في العراق والبلاد العربية، وكنت أنا ضمن هيئة تحريرها من الطلبة، كان للفقيه دوره البارز في إخراجها وتبويبها حيث كانت تصدر تحت إشرافه.

وعاد إلى السكن في بغداد في أوائل الخمسينات^(١) لأنه من أسرة بغدادية الأصل، وبقيت التجارة مورد رزقه لفترة وجيزة، ونظراً لحبه الشديد للعلم، وتعلقه البالغ في الكتاب فقد كان مطمئنه أن يفتح متجرأ لبيع الكتب ليعيش في صحة حبيبه الكتاب، وكانت ظروف خاصة دعت أقدم وأشهر كتيبي في العراق هو المرحوم محمود حلمي صاحب (المكتبة العصرية) التي أسست سنة ١٩١٤م أن يبيع مكتبته التي هي أشهر وأقدم مكتبة في بغداد فكانت من نصيب الأستاذ القاموسي، ولكنه وبدوافع من نفسه النبيلة وأدبه الجرم أبقى محمود حلمي في مكانه ومكانته في المكتبة، ولم يشعر أحد من مراجعيها بأنه أجبر فيها، وكنت أريد بعيني وأسمعي بأذني انه لا يكلفه أبداً بتقديم كتاب للمشتري، ولا يدعوه إلا بكلمة (عسى محمود) ولم يترك محموداً يشعر بأنه غريب عن المكتبة أو طارئ عليها إلى أن انتقل محمود إلى رحاب الله.

وربقي مع القاموسي (الكتبي) قليلاً لأسجل للحقيقة بأنه لم يعرف الجشع الذي اتصف به غير قليل من الكتبيين حين جنون أسعار الكتاب، وكم كنت أحس انه يتظلم ويتألم للقراء الذين أدركتهم حرفة الأدب وهم يرغبون باقتناء كتاب ما، فيحول بينهم وبينه سعره المرتفع. فكان رحمه الله يعمل سماحاً متوياً لكل أصدقائه ومعارفه من قيمة الكتب، ومعنى ذلك انه يشاطرهم أرباحه لأنه إنسان لا يهيمه الربح المادي أبداً بقدر ما يهيمه إيصال الكتاب إلى أحيائه ومريديه. ولم يقتصر في ذلك على الأصدقاء والمعارف بل يتسامح جهداً الامكان حتى مع من لا يعرفه من الزبائن، وأشهد اني مرة كنت عنده في المكتبة فدخل شاب يظهر من زيه انه طالب جامعي، فطلب كتاباً فأحضره إليه، فدفع الشاب نصف ثمن

(١) كذا في الأصل. والصحيح أواخر الخمسينات. (الناشر).

الكتاب فقابله القاموسي بابتسامة وقال له لو أعطيتك الكتاب بهذا السعر خسرت فيه فارجع الشاب الكتاب وخرج، وبعد ثوان معدودة أخذ القاموسي الكتاب بيده وخرج مسرعاً، وحين عاد سألته عن ذلك فقال: أردت أن ألحق بهذا الشاب لأعطيته الكتاب بالسعر الذي دفعه لأنه كما يبدو لا يستطيع شراءه بسعره المقرر فقلت له: كيف وأنت تخسر فيه؟ فقال: لعل مستقبل الشاب يتوقف على هذا الكتاب فيكون ربحي الكبير اني ساعدته على الاستمرار في طلب العلم والمعرفة.

وهذا دليل واضح على إنسانية هذا الرجل، وإذا جرنا الحديث إلى إنسانيته فلا بد من الإشارة إلى بعض خصائصه الذاتية، والإشادة بصفاته الشخصية التي خلّب بها الباب عارفيه، فهو إنسان بالاضافة إلى ما جبل عليه من الصدق والوفاء والتواضع ونكران الذات وطيبة القلب وعفة النفس ودماثة الخلق ورحابة الصدر ونقاء الضمير، فهو يمتاز بخفة الظل ورقّة الطبع وسرعة البديهة وحرارة النكتة وحسن المحضر وطيبة المعشر. وإذا قال الناس ان رفقة السفر توقفتك على حقيقة الانسان وتكشف لك عن خبايا نفسه، فاني قد رافقت الفقيّد الغالي في السفر خارج العراق مراراً للبلاد العربية والأوربية منذ منتصف الخمسينات فاذا به هو هو في السفر والحضر طيبة ورقة وعدوبة وسحر وجاذبية، فلم يرق لي رفيق في سفر مثله، ولا صديق في حضر سواه.

وفقيّدنا الأستاذ القاموسي بالاضافة إلى كونه عالماً فاضلاً في علوم اللغة العربية فهو شاعر أصيل رقيق الديباجة بديع المعاني، في شعره عدوبة ورقة كأنها جزء من رقّة طبعه وعدوبة شمائله.

وحسبي ان أذكر للقارئ الكريم ان أول قصيدة أنشدت للفقيّد كانت في أوائل الأربعينات في حفل أقامه الشاعر في داره في النجف، وألقاها أحد أصدقائه باسم مستعار ولكن مستمعها في نفس الحفل عرفوا انها للقاموسي لأن فيها من رفته وعدوبته. وأنقل منها مقطعاً نموذجاً من أوائل شعر الفقيّد:

علقت بأطراف المعاطف	مهجة الصب العميد
ونثرن حبات القلوب	على ربي وادي الرشيد
فاجل بطرفك.. هل ترى	بين السوالف والنهود
لك مهجة ضيعتها	سفهاً بيستان الحدود

وله من فلسطينياته قصيدة رائعة ألقاها في مهرجان المربد الثاني الذي أقامته وزارة

لتناقضه في الإعلام في البصرة بتاريخ ١٩٧٢/٤/٤ وكان عنوانها (رسالة إلى حفيد) منها قوله:

لا تقل خانني أب يا حفيد وأدت صولة الكريم الوعود
لا الدجى غم مقلتيه عن القصد ولا قصرت خطاه القيود
لو رعت عهده الليالي حياك على البعد ظلته الممدود
ولأغراك بالفداء دم منه على الرمل ثائر عرييد
ولحقت إليك تستصرخ الشار خيام ومحنة وحشود

وانبرت تصطلي لظاه كماء من بني قومه بهليل صيد
غيرت في غياهب اليأس حتى وثق النصر انه الموعود
وكذاك الحديد مهما تلوى ليس يشي غواه إلا الحديد
هكذا صعدت رؤاه وهل بعد هوان النزول إلا الصعود

ومن عاطفياته الرقيقة قصيدة بعنوان (صديقي) ألقاها في مهرجان الرابطة الشعري في
بغداد وأعاد قراءتها في (ندوتنا الأدبية) التي تقام مساء الأحد من كل أسبوع في منزلي
وهي محفوظة لدينا بصوته الكريم أثراً أدبياً غالياً منه، نعتز به؛ نذكر منها..

صديقي (رؤى) إذا قلت اني لست بالفارس السذي تطليننا
لست طلق العنان خلوا من الوجد فاستوقد الذي تحطيننا
لا ولا المارد اللنيم فأغريك، ولست الغاوي، ولست الخؤونا
لست ملكاً لنزوتي، وان استعبد طاغي هواك قلبي سنيماً
ملكنتي من قبل أن توقظ الحب أفاعيه زوجة وبنونا
واعتداء على الهوى أن أبيع القلب قوماً وهبته آخرينا

* * *

صديقي (رؤى) فما زال قلبي نابغي الهوى كما تعهدنا
بأننا من جواك ما ليس يقوى طالباً من هواك ما لن يكوننا
طماننا والكوروس تملأ كفيه ولو شاء لإنسكن معينا
لا البعاد استطاع أن يسكت الشوق ولا اليأس أن يكف الحينا

: هي طويلة وكلها على هذا النسق الرائع.

أما ندويّ الأديبة الأسبوعية فقد كان الفقيد من أعلام الحاضرين فيها يزينا بطرائفه
المتعة وتعليقاته البارعة ومعارفه الواسعة وأشعاره الرقيقة، وليس بمستكثر عليها حين
اختطفت يد القدر نجماً ساطعاً من سمانها وهو في أوج لمعانه ان تبكيه أحياناً حبيباً وصديقاً
صدوقاً وإنساناً رائعاً وساهمت في تأيينه فيها بالشعر والنثر نخبه من أعضائها الأساتذة
الأفاضل أذكرهم حسب ترتيب قراءتهم وهم السادة: جميل الجبوري ود. خالد العزي وسالم
الآلوسي وعبد الغني الحبوبي وعبد الحميد الرشودي وهادي محيي الخفاجي وكاتب هذه
السطور.

١٩٨٨

ذاع صيته، تميز برهافة الحس والذكاء، وسرعة
الخاطرة والنكتة الحاضرة، شعره جيد يدل على
موهبة أصيلة.

د. أميل يعقوب

معجم الشعراء منذ بدء عصر

النهضة ١١٤٩/٣

مع ديوان القاموسي

الأستاذ (المرحوم) السيد عبد المحسن الحكيم

أثار صدور ديوان الشاعر الكبير المرحوم محمد صادق القاموسي كثيراً من الخواطر لديّ حول تقويم هذا النوع من الشعر القيم الذي حافظ على نمط القصيدة العربية الموروثة التي زاد عمرها على خمسة عشر قرناً، وكانت خلال هذا التاريخ الطويل صوت الأمة العربية، وأصالتها، والمعبر عن وجدانها، وصدى الوجود العربي ومثله العليا رغم تغير أوضاعها الفكرية والاجتماعية والسياسية ونظم احكم فيها، وأساليب حياتها بعد تحولها من الجاهلية إلى الاسلام.

ان شاعرنا الكبير القاموسي رحمه الله نأى بنفسه وفنه الشعري عن الاسفاف الذي ساد وسطنا الأدبي باسم الشعر الحر أو القصيدة الجديدة طوال منتصف القرن العشرين الذي داهم به الشعر الحر المهجين حقل الشعر العربي الأصيل على حين غرة، وسط ضوضاء عاتية وفي إطار دعاوى التجدد والتغيير والتعبير المزعوم عن آمال الأمة وطموحاتها الراهنة.. ولا أصل لكل ذلك.. إذ لم تكن القضية سوى محاولة مركزة لنقل أفكار وعشوائية الشعر الانكليزي والفرنسي والألماني إلى العربية وتقليد صياغة شعراء هذه الأمم ونشرها والدعوة لها بشخص كبيرهم يومئذ (اليوت) وتلامذته.. وقد جاءت هذه الحركة الشعراء في أبان، ومقدمات، ونذر التدخل الغربي السافر في شؤون الأمة العربية السياسية والاقتصادية وتغيير عموم أوضاعنا بعد إقامة دولة إسرائيل ومشروع مارشال الاستعماري الذي عكست أبعاده الانقلابات العسكرية في سوريا ومصر والعراق، وسياسات القمع، وحبج حريات المواطنين وانتهاك حرمتهم. وزج قادة الفكر، والمثقفين وأساتذة الجامعات في السجون، وتخييرهم بين وضع أنفسهم في خدمة الأجهزة القمعية للانقلابيين وبين البقاء في السجون مع الكلاب البوليسية ومن هم أشرس منها من جلاوزة النظم العسكرية الفاشية التي تجاوزت تدخلاتهم بشؤون الأمة وحرريات المواطنين وحقوقهم مساوي وفساد النظم السابقة التي لا تحصى.

وهكذا شهدنا طواهر الخلط، والتهريج، وتأييد الحكام الجهلة من الضباط، والقمع الذي لا نظير له، والاعتقالات الكيفية للكبار المثقفين وتعليمهم وإذلالهم بالتحقيق معهم داخل السجون عرايا، كما ولدتهم أمهاتهم.. وتدرجياً تحول التدخل الجزئي في حريات المواطنين

ومؤسسا لهم الثقافية والسياسية في النظم البائدة إلى تدخل كلي، وسافر ومكين.. كما تحولت أوضاعنا العامة إلى مهرجانات للاسفاف والابتذال في ظلال فاشية الضباط والفنوية في سوريا ومصر والعراق واليمن بعد فترة قصيرة.

وقد صاحب هذه المتغيرات السياسية القسرية ظواهر فكرية شاذة مثلها، تمثلت بتجنيد الفكر العربي لخدمة السلطة الحاكمة والحفاوة بالحكم، المدبر من قبلهم، وتنازل المفكرين الكبار عن كبريائهم والاعتزاز بثقافتهم، وتسخير أفكارهم وأقلامهم لتحليل أفكار الطغاة والديكتاتورية واعتبارها نموذج النمط الفكري التنقيفي الذي تعول عليه الأمة في حاضرها ومستقبلها... وقد بلغ هذا الاسفاف حجماً هائلاً حتى رأينا مثل عباس محمود العقسدا، الكاتب الأكبر، يكتب مقالة مطولة استغرقت صفحتين كبيرتين من مجلة (آخر ساعة) حول الكراس النافه (فلسفة الثورة) الذي نشر باسم جمال عبد الناصر على خلاف مقالاته المختزلة لكتب نظرائه في الأدب والشهرة كطه حسين وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وزكي نجيب محمود.. مع أن سجون فيلسوف الثورة كانت تغص بمئات المواطنين المصريين من مختلف الطبقات... ولما أدخل المستشار القانوني المصري (علي حريشة) سجن جمال عبد الناصر، والتف حوله السجناء من العمال والفلاحين والأدباء والشعراء والنقاد والصحفيين واخامين والمهندسين والقضاة وأساتذة الجامعات صرخ بصوت عال: يا للهول الشعب المصري كله في السجن.

وكانت بعض تداعيات حكم الانقلابيين في العالم العربي وما روجوه من قيم متخلفة باسم ضرورة التغيير في أساليب الحياة والفكر والثقافة أن تلقى شعراء القصيدة الجديدة ونقادها هذه الأوضاع المختلطة وتنبوها لمحصرة القصيدة الموروثة، وزحزحتها عن موضعها التاريخي، وابعادها عن وسائل النشر باعتبارها شيئاً بئداً مثل نظم الحكم البائد.. والتركيز على وجوب تخلي القصيدة الثورية عن الوزن والقافية والمعنى والوضوح وعن كل ما يميزها عن النثر.. ومع أن الذين حافظوا على وضع القصيدة العربية الأصيلة قليلون إلا أنهم كانوا من الكبار الذين لا يقاس بهم خط رواد القصيدة الجديدة من الشباب الذين كان قصارى أكثرتهم من الثقافة الانهيار بخيالات اليوت وأمثاله المريضة... وكان شعراء القصيدة العمودية كالجواهري والأخطل الصغير والقاموسي وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة وإيليا أبو ماضي ونحوهم قادرين على الوقوف بوجه التيار الجديد الذي لا مبرر له ولا حاجة إليه، ونقض مقوماته الجمالية والفنية وفصح انتماءات ذويه إلى الأجانب ببيان الفوارق بين

الأصيل والدخيل في هذا الفن.. إلا أن هؤلاء الأعلام للأسف الشديد استهانوا بظهور القصيدة الجديدة بشكلها الهزيل وذويها المغمورين وتركوا الأرضية الأدبية لهم يصلون فيها ويجولون.. وقد وجدوا الحقل بعد فترة قصيرة وأعوام معدودات خالياً إلا منهم.. فاعتبروا أنفسهم سادة الشعر العربي وأعلامه، وكان من نتيجة ذلك أن حظي بدر شاكر السياب قبل وفاته وبعدها بدراسات واسعة لم يحظ بها ولا قليل منها الجواهري، وبدوي الجليل، وأبو ماضي والأحطل الصغير مجتمعين، وربما لم يحظ بسعتها المتنبي نفسه.. وهو شيء مؤسف لدلالته على عمق وسعة تدهور الذوق العربي وابتداله في عصر الانقلابات العسكرية وقيمها الفاشية والتدخل الثقافي الأجنبي المبيت.. وكان ذلك يتم بتواطؤ مقصود، ربما، مع وسائل النشر الأدبية بالذات.. وربما كان أحد مظاهر هذا التواطؤ ما نقله لي الأستاذ محمد جواد العبان، وهو أحد كبار شعرائنا، انه قدم إلى رئيس تحرير مجلة الأعلام البغدادية قصيدته العظيمة (المتنبي بعد ألف عام) أيام انعقاد مؤتمر (المتنبي) ببغداد فرفض النظر بها فضلاً عن قرائتها وقال له بلا خجل ولا ذوق اننا لا نشر هذا النوع من القصائد التي عفى عليها الزمن.

لم تصادف القصيدة الجديدة مثل هذا الموقف الصارم إلا ما قيل عن المرحوم عباس محمود العقاد وكان رئيس لجنة الشعر عندما قدم له صلاح عبد الصبور ديوانه للنشر.. فرده وكتب عليه يحال إلى لجنة النشر.

ان صدور ديوان الشاعر الكبير محمد صادق القاموسي في هذه الفترة رغم تحوفي عليه من قلة الانتشار إلا انني واثق انه وأمثاله لو تتابع صدور دواوينهم سوف يتولون تصحيح الوضع الشعري العربي التراثي، وإعادته إلى مكانته العالية بوصفه المعبر عن وجدان الأمة العربية، وضميرها، ومثلها، وقيمتها، ومنهجها في التعبير الشعري والدفاع عن أصالتها، ومقاومتها للأعاصير المضادة وللأسفاف والابتدال عموماً.

ومن يتصفح قصائد هذا الديوان الجليل، الطوال والقصار وما فيها من أفكار ومشاعر ومواقف فكرية ونفسية وجمالية وسياسية ودقة التعبير عن المعاني العليا للنفس البشرية تجاه قيم الأمة ومثلها وأعلامها، وما في معظمها من رقة الخيال والمشاعر وعدوية التعبير وطراوة المفردات ونبيل العواطف وعمق الأفكار سيجد نفسه إزاء عالم من المعاني الانسانية والجمالية لا مثيل لها إلا لدى كبار شعراء العربية الذين ما زالت العربية تعجز بما أرسوه في حقل الشعر الموروث من مواضعات في الشكل والمضمون وروعة الجودة فيهما.

والثابت أن الجودة في الشعر وربما في الفنون كافة لا تخضع إلى قاعدة معينة أو معيار في محدد، وإن محاولات حصرها في إطار ضيق لا يكتب لها النجاح حتى لو صدرت من كبار النقاد والمتخصصين بدراسة الشعر والشعراء.. وذلك لأن مرجع تقييم القصيدة في الأساس إلى الذوق الفردي، وإن اختلفت الأذواق وتفاوتت في استحسان التجارب الفنية والجمالية قوة وضعفًا.. ورغم هذا الأمر المعروف، والخسوم، والبديهي إلا أن الذوق نفسه بعضه مسبب وبعضه غير ذلك... وواضح أن تعليل معطيات الذوق لا يتأتى إلا لأكثر النقاد بصراً في خصائص الشعر المنفوق، وعمقاً في رؤية مواطن الجمال والابداع فيه وقدرة على التمييز بين القصائد المتفاوتة في الجودة والفن.. وذلك نادر الحصول على نطاق أشهر النقاد العرب قديماً وحديثاً... ويمكن الإشارة بهذا الصدد إلى الأمدي وإخفاقاته في هذا الباب في كتابه (الموازنة) حيث قصر الكثير من أمثلته عن التوفيق بين النظرية والتطبيق لديه في مقام التفضيل بين أي تمام والبحتري، ويمكن كذلك بهذا الصدد التذكير بسوء ذوق (الباقلائي) وإساءاته التي لا تطاق إلى بعض شعرائنا المشهورين عندما حط من جمالية بعض قصائدهم مجرد النص على تفوق التعبير القرآني.. مع أنه لا خلاف إطلاقاً باليون الشاسع بين كلام الخائق وكلام المخلوق في كفاية التعبير وتفوقه وعظمة المضامين وسموها.

وكان الاختلاف في الأذواق والثقافة الجمالية أحد أسباب تعذر التماس الأفضل من شعراء الأمة طوال تاريخ الأدب العربي وعبر عصوره كلها.. وإن اصطلحت الأجيال أو بعضها على تقديم المتنبي لأنه الأكثر حظوة لدى المثقفين ومجالس الأدب والنقد في زمنه، وعلى تعاقب العصور... وعدا ذلك فإن لدى أي تمام من فنون المعاني والصور الشعرية الفريدة وتجسيده للمعنويات ما لا توجد نظائرها لدى المتنبي.. أما ابن الرومي فهو بلا ريب أحد أعاجيب شعرائنا في توليده للمعاني، وغنائته وعنايته الفائقة بالتفاصيل وجزئيات التجربة النفسية والشعرية ونفسه الشعري الطويل.. مما يعتبر بحق من مفاخر الشعر العربي الموروث... إن كل واحد من هؤلاء الشعراء الكبار يختص ببعض المزايا الفنية والجمالية والتعبير الشعري المتميز.. إلا أن ذلك لم يمنع من تعدد الرأي النقدي به والاختلاف في تقديمه أو تأخيره بسبب تعدد الأذواق والقيم الفنية لدى قراء الشعر ونقادها.

لذلك كله فإني سوف لا أعتبر ما اختاره وأتذوقه وأستحسنه وأفضله من مقطوعات القاموسي وقصائده مما يمكن نقل أصدائه في نفسي إلى الآخرين لأن ذلك قد يكون مستحيلاً إلا لمن يتقاربون في أذواقهم وتجاربهم النفسية والشعرية ووحدة العاطفة لديهم، وإذا لم أظفر

بمن يشاركني نفس التقدير لهذه القصائد والمقطوعات فذلك لا غرابة به لتعدد الأذواق وتباينها، إلا أنني أستبعد أن يكون جوتنا الأدبي الراهن عقيماً إلى هذه الدرجة.

في ديوان القاموسي رحمه الله قصائد لا تعتمد على الذوق وحده فحسب، بل على الذوق والعقل والعاطفة والفكر وتقدير العظمة الانسانية في مطالبها العليا وصفاتها السامية لدى أعلامها من العلماء والمتقنين وأصحاب الرأي والأساتذة في حقول المعرفة الانسانية المتنوعة... وهي القصائد التي قيم بها الشاعر شخصيات المعصومين عليهم السلام في أعيادهم ومناسباتهم والتي قيم بها عدداً من شيوخ الفكر والعلم والأدب والثقافة ممن عاصروهم وارتبط بهم بعلاقات ودية وفكرية وخير ما يتمتعون به من آفاق ثقافية وإنسانية وأخلاقية واسعة... كل في حقله... وكان تقييمه لهؤلاء الأعلام يحفل بضروب من المعاني الرفيعة التي تجعله بحق من الشعراء المعدودين والمرموقين في تاريخ الشعر العربي الطويل... وإذا ان الموقف الآن لا يتسع، وقد يتسع في الآتي، لدراسة معمقة وتفصيلية في هذا الباب لهذا سأكتفي بالإشارة إلى بعض المقطوعات العاطفية التي طالما هزتنا، نحن طلابه وأصدقائه، في لقاءاتنا الأدبية وفي ندوات (منتدى النشر) في النجف الأشرف في منتصف القرن العشرين.

وفي ذكرياتي عن مقطوعته الرشيقية (وعدتني) ص ٣١٧ التي كان لها صداها الواسع في وسطنا، نحن طلابه، إذ بادرنا بعد نشرها في مجلة (البذرة) إلى حفظها وترديدها، والاستشهاد بأدوارها، وموازنتها بعدد من أشهر قصائد شعراء المهجر المعروفين مثل فوزي المعلوف وإيليا أبو ماضي وغيرهما... قال فيها:

وعـدتني بأهـمـا	آخر الليل تلتقي
فتـهياً لوصـالها	أيها البدر وأشرق
أنـا زئـبت روضـتي	فهـي غنـاء مـرعـه
ومـلأت الـرواق بـالنور والبشـر والدعـه	فعلـى الرحب والسعـه
قـد هـيات للـقا	والمهـوى في تشـوق
نبؤوهـما بـأنـي	أيها الليل وأغـسني
فـعجـل لوعـدها	
	* * *
وعـدتني فـعـنـ يا	بـلـل الـروض وأنشـد

واركعي يا غصون للأمل الحلو واسجدي
 وارقصي يا زهور لي فلقد حان موعدني
 ذهب الليل نصفه والهنا في السذي بقي
 فترقب مجيئها يا نسدي وحدي

ورغم شدة إعجابنا بالقصيدة، وبهذا المقطع بالذات واتفقنا على انه غاية في الروعة والرقّة والجمال فقد كنت أجادله رحمه الله به وأقول ان ليل العاشقين واحد... ما فيه أول ولا آخر، ولا نصف ولا كل، وانما هو هناء كله... فصرخ بي: انك بعد لم تجرب هذا النمط من الليالي، وتقطع العاشقين لها التي بعضها هناء فعلاً، وبعضها غاية في الهناء وهو ما يبقى منها.

وكانت معظم قصائده ومقطوعاته تثير العواطف والخواطر والدوافع لتحليل مضامينها وأبرز ما تتميز به من مواطن الفن والجمال وصدق التجربة ورقتها، وما فيها من واقعية وليس قصاراما انما فن من الفن.

وكانت هذه المقطوعات، مثيرة للأحاسيس والعواطف على نطاق طلابه في (متدى النشر) وخارج نطاقهم خصوصاً المقطوعات العاطفية التي كان ينشرها أو يذيعها بأسماء مستعارة إلا انما كانت تنم عليه لوحدة النفس الشعري الذي عرف به بيننا، وكنا نكبر شاعريته وتفوقها في هذه المقطوعات ونعجب من تدفق هذه العواطف من أستاذنا الرصين الذي لم نسمع منه إلا المألوف من كبار أساتذتنا الشيوخ، وإن كانت الابتسامة لم تفارق شفثيه إطلاقاً.

ولهذه المقطوعة نظائر في الديوان، وبنفس الروعة، لا يصح المرور عليها مروراً عابراً، لولا الرغبة بأن يلتصقها القارئ في مواضعها من الديوان بشفاوية ذوقه، وانسه بهذا النوع من الشعر الذي تمس له النفوس والأحاسيس المرهفة، ومن لا يزال يحن إلى ذكريات يفاعته وصواتها.

من ذلك القصيدة (العاشق الرجعي) ص ١٢٣

على غرامك شعري وقف، وعقلي وقلبي
 فلا سقى الحب قبري ان مت من غير حب

* * *

صاحباً وأخندم آلا	كم رحمت فيك أداري
وأنت تقسو دلالات	حتى فقدت اصطباري
بيني وبينك حالاً	ومذ وجدت وقاري
سوى رضاك وحسي	خلعت له لا لعذر
ولا ظفرت بقسري	فما احتفظت بقدري

ولم يكن نشك أن وراء هذا الغزل الصارخ الذي يقطر عسلاً عاشقاً كبيراً، ومقابلاً موضوعياً مشخصاً، لحماً ودماً وألقاً وعتراً، وليس هو محض خيال وفن، ولم نحمله كما كنا نحمل خمريات المرحوم محمد سعيد الحبوي على محمل النظر وال صناعة الشعرية.. لأن غزليات أستاذنا الذي لم يكده يخرج من يفاعته في تلك الفترة إلا قريباً كانت تعبيراً مباشراً عن عمق تجربته، وصدقها، وتلقائيتها.. لأننا كنا نحس لدعتها وحرارتها، وكنا نتبارى في تحليل مفرداتها ورموزها، ومدى اللوعة المنفجرة من مقاطعها.. أو هكذا خيلت لنا شاعريته المكيئة رغم حشمتها البالغة وتحفظه في شؤون القلب.

لقد كان المرحوم القاموسي أحد شعراء النجف الموقين في تلك الأيام، وموقعه في الشعر مثل مواقع الشعراء البارزين كالشيخ حميد السماوي والشيخ عبد المهدي مطر والسيد محمد جمال الهاشمي والشيخ عبد المنعم الفرطوسي والسيد محمود الحبوي بل لم نعدم من كان يقرنه بالجواهري والشيخ علي الشرقي. وكانا قمتي شعراء النجف، وكان يمكن أن يكسب مثل شهرتهما لولا زهده بالشهرة، وتواضعه، واكتفاؤه بإسهاماته بمناسبات النجف الأشرف ومواسمها الأدبية، ودخوله فيها وخروجه منها بلا ضوضاء ولا محاولات للفت نظر الوسط الأدبي النجفي إليه باحدى الوسائل الجانبية، وما أكثرها يومئذ... وكنا نعرف أن بعض الشعراء المعروفين يهين العديد من أصدقائه ومعارفه وحاشيته لتولي إظهار الاستحسان بشعره في المناسبات العامة، يطلب إعادة قراءة أدوار القصيدة مرة ومرتين.

في تأبين المرحوم الأستاذ صادق القاموسي (★)

الدكتور (المرحوم) خالد العزي

بسم الله الرحمن الرحيم

اخواني رفقة الشعر والأدب والعلم:-

السلام على جمعنا المفجوع بأحد أعزائه:-

عزيرٌ على نفسي أُرْبِنُ صاحباً
سما خُلِقاً وهو الأديب الخفِّقُ
مضى (صادق) يا رفقة الفكر والحجسى

فأطفئ مصباح من العلم مشرق
هو الشاعر الغريد يجلو بيانه
ويرفده في القول فقهة ومنطق
وفي ندوة الغبان كان شهائها
فأمست بجزن والفراق يحرق
سلامٌ عليه ما تآلق ذكره
وما دقق الشعر الرصين مدقق
ومثواه في (عدن) سعيداً يخلق
سلامٌ عليه.. والعزاء لجمعنا

... اي والله أيها الأخوة الكرام!.. عزيرٌ على نفسي أن أقف موقف المؤن لعزير من أعزاء ندوتنا الأدبية هذه، اخترمه الموت من بيننا، وقد كان أنيسها ومحدثها وموضع اعترازها بأدبه الجمّ وتواضعه وأخلاقه العالية الكريمة وحديثه الممتع، وتعقيباته السليمة التي تدلّ على تفهّم للشعر والأدب والفقه والتراث.. ولا غرو في ذلك يا سادتي، فقد كان المرحوم الأستاذ صادق القاموسي وراقاً معروفاً له النصيب الكبير من لقيه، كما كان له النصيب الأكبر من اسمه، فهو الموسوعي في ثقافته، الصادق في أقواله.. وحسبه ذلك فخراً ومثوبة عند الله. كان رحمه الله: حديثه الممسّ، وتعليقه الدفء والذكاء.. أما إيمانه بالله، فقد كان إيمان الصابرين المؤمنين.

إخواني.. لقد كان لي شرف التعرف على فقيدنا وأخي المرحوم (أبي رشاد) في هذه الندوة الأدبية العامرة، ندوة الأخ الصديق الشاعر الأستاذ محمد جواد الغبان، أمد الله في عمره ومنعه بالصحة والسعادة،.. فوجدت في فقيدنا، تعمده الله بوسع رحمته، الانسان المثقف الهادئ المتبسم المجامل رغم ما كان ينطوي عليه قلبه الكبير رحمه الله، من جرح عميق

(★) ألفت في جلسة ندوة الغبان بمناسبة مرور أسبوع واحد على رحيل القاموسي.

والم دفين، وقد فقد شريكة حياته رحمها الله في ظرف مفاجئ أليم، فعاش الألم وفراق الأحيّة
حتى ظهرت عليه أعراض مرض احتمله احتمال المؤمنين الصابرين، إلا أنه لم يمهل طويلاً،
فبكيناه بكاء الاخوان الصادقين مرددين قول الشاعر الجبوبي الكبير، عطر الله ثراه:
أجشيتُ خلتك النواظر عبرى فاضحاً دمعها الحيا المسكوبا
إن تكن غائباً فكـم لك نورٌ رصد الله نورَه أن يغيبا
فعزاء إخوان صادق وأهلله، وعزاء أصدقاء صادق، وعزاء للخلق الكريم والأدب
الصميم.. وعزاء لجرحى القلوب، ممن فقدوا أحبابهم فعاشوا مع الذكرى على أمل اللقاء،
وعزاء لكل من.

عاش الأسي والسهد في الليل الطويل
وطوى على آهاته الجرح النبيل

ورحمة غامرة من رب كريم أدعوها لك يا أبا رشاد كما دعوتُ لك بالشفاء وأنت على
فراش المرض، فإن الله حق، وإن الموت حق، وإن المعاد حق، فإلى أين المقر؟ وقد صدق الله
سبحانه وتعالى إذ يقول: (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) صدق الله
العظيم. وإنا لله وإنا إليه راجعون.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحب والتجربة الواقعية بحث في شعر صادق القاموسي (*)

الأستاذ (المرحوم) السيد هاشم الطالقاني

لو لم تكن قد توفرت لك فرصة التعرف على الشاعر محمد صادق القاموسي بصورة شخصية، فيمكن أن يقدم لك ملاحظته بصورة واضحة... حيث يمكن أن يعتبر ديوانه سيرة ذاتية له؛ وإن لم يكن سجلاً وثائقياً لدقائق حياته، إلا أنه يرسم لنا ملامح الرجل السلوكية والاجتماعية...

ولعل من أبرز سماته الشخصية الرقة في السلوك والخلق... ولعل ذلك هو أحد جذور تكوينه الشعري، ومن عوامل خلق الروح الشعرية لديه... ومن هنا قد لا يكون غريباً أن يقع مثل هذا الإنسان أسير تجربة حب حقيقية، إن لم نقل تجارب... وهو الذي عاش في شبابه وسط زحمة الالتحام بالمجتمع... وحين يترجم له علي الخاقاني يقول: (ولد في النجف عام ١٣٤١هـ ونشأ بها على أبيه الذي تعاطى بيع الأقمشة (البزازة) فأخذ يعاونه بعد أن ترعرع في حانوته)^(١) ويستمر الخاقاني قائلاً: (وكان للحب الذي صهر قلبه زمناً وهيمته وراء ستار من الاتزان والتعقل أثر كبير في صقل حسده...)^(٢) كذلك كتب عنه غالب الناهي قائلاً: (... وشعره زاخر بالعاطفة الجياشة ولعل الحب هو الذي هذب نظمه وفتح نغم عبقريته)^(٣).

إذن فهو شاعر قد تعامل مع الحب بصيغة أو أخرى، فليست مصادفة إن نجد إن أكثر من نصف مجموعته الشعري يستأثر به الغزل ومتعلقاته...

ومن خلال هذا المدخل أردت - ولست أملك تبريراً لذلك - النفاذ إلى ساحة هذا الشاعر... وعند استعراض ديوان الغزل في شعره وجدتهني أفق على محاور ثلاثة هي:

(*) ألفت في قاعة اتحاد الأدباء في النجف بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل الشاعر. ونشرت في

جريدة الاتحاد البغدادية العدد ١٨٧ في ٢٠/٨/١٩٩٠.

(١) شعراء الغري - ج ٩ - علي الخاقاني - مط الحيدرية - النجف ١٩٥٦ ص ٢٣٢.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٣.

(٣) دراسات أدبية - غالب الناهي - مط دار النشر والتأليف في النجف - ١٩٥٤ مج ١ ص ١٣٣.

- ١- حب تقليدي.. وهو مجرد انعكاس لانفعالات ذاتية قد لا تكون - بالضرورة - نتيجة لمعاناة حقيقية أو صدى لواقع يومي. وإنما هي عمليات تطلع أو استشراف وتوق..
- ٢- مقدمات غزلية استخدمها الشاعر كمدخل لأغراض - في الأعم - اخوانية.. ولا يخفى الجانب التقليدي فيها، وإنما وسائل امتطائها الشاعر لغايات.
- ٣- (تجارب حب).. هكذا قدم لها الشاعر أحياناً.. وهي تريد أن تقول أنها ممارسات حقيقية عاشها الشاعر وتمرغ بحلوها ومرها... ومن هنا فإن هذا القسم من شعره هو شعر التجربة الحقيقية في الحب.. وفي دائرته - غالباً - سيكون مجال هذا البحث.. ولكن ماذا نعني بـ (التجربة الحقيقية في الحب)؟.. ببساطة نعني: هل عاش الشاعر تجربة الحب من خلال هذا العدد الكبير - نسيباً - من شعره معاشة واقعية؟..
- لا يخفى أن من جملة العقبات أمام الاجابة عن هذا السؤال أن شعره غير مؤرخ^(٤).. فلا ندري أي فواصل زمنية - قصيرة أو طويلة - تفصل بين تجربة وأخرى... فليس بعيداً ان تكون هذه التجارب تجربة واحدة مر بها الشاعر فأذكت شرارة وجدانه وعبر عنها بهذا العدد من القصائد، وقد تكون تجارب متعددة، أما محصورة في بواكيره وأيام فتوته.. أو موزعة على فترات متباعدة من حياته.. على ابي أرجح الاحتمال الثاني لأن التوثيق المكاني لهذه التجارب يدلل على انها حدثت في أكثر من مكان..
- على انه يجب أن لا يغيب عنا - ونحن نستعرض هذا الجانب من شعر القاموسي - ان الرجل - كما تقدم - ولد ونشأ ودرس وتثقف في النجف الأشرف ووسط أحضان أسرة على جانب كبير من مراعاة الأخلاق العامة والتقاليد والسلوك الديني الملتزم.. كما انه لم يعرف عن القاموسي انه كان في مواجهة - صريحة أو خفية - مع هذا الجو بكل خصوصياته أو عمومياته.. بل على العكس فقد كان منسجماً معه بشكل تلقائي.. فانه وهو يمارس كتابة شعر الغزل - تقليدياً أو واقعياً - نسمع صراخ جذوره من خلال شعره.. فتجده عفيفاً على طريقة العشاق العذريين:

أنا الفاسقُ لكنْ ليس يعدو مقلتي فسقي

وهو يذكرنا بقول العباس بن الأحنف:

أتأذنون لصبِّ في زيارتكم فعندكم شهوات السَّمع والبصر

(٤) كان المخموس المخطوط الذي رجع إليه الكاتب الفاضل غير مؤرخ في أكثر مضامينه. (الناشر).

لا يُضمَرُ السوء ان طال الجلوسُ به عَفَّ الضميرُ ولكن فاسق النظر^(٥)
كما انه صورة من عفة السيد محمد سعيد الحيوي
غير اني رمت هُجَ الطرفا: عَفَّةُ النفسِ وفسقُ الألسن^(٦)
وهو أكثر من ذلك عفيف بالفطرة:
خَلَّ مقالَ العاذلين فان أكثره خرافه
وتعلقي بوداد من غَدَى بفطرتة عفافه
ثم هذه الصورة:

كم قد قضيت مع الحبيب لياليا كان العفاف رداءه وردائي
التي تذكرنا بقول الشريف الرضي:
بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع إلى قدم^(٧)
أو تذكرنا بالأسطورة المنسوبة إلى الخنوع حينما اختبأ تحت رداء ليلى العامرية وسئل بعدها: ماذا رأيت؟ فقال: دخلت أعمى وخرجت أعمى... على أن القاموسي الذي طهر روحه من الدنس لم يفته ان يصم أذنه عن مجرد مماع الفحشاء:
يا لانمي كف الملام فان لي أذنا قد استكت عن الفحشاء
وهذه الناحية في سلوك القاموسي مهمة جدا ويجب أن تراعى عند معالجة هذا الجانب من شعره..

ومهما يكن من أمر هذه التجربة أو التجارب فإن الشاعر يحاول - وباصرار - ان يقول انما ممارسات حقيقية وليست مجرد هواجس شاعر وخيالاته، وذلك من خلال:
أولاً: تقديمه للبعض من قصائده بعبارة (تجربة من تجارب الحب) ولا يخفى ما تحمله كلمة (تجربة) من معنى واقعي.. وأحياناً يرد التقديم هكذا: (أول تجربة من تجارب الحب) أو (من أحاسيس التجربة الأولى للحب) أو (دهشة لتجربة من تجارب الحب الموقفة).. أليس في

(٥) ديوان العباس بن الأحنف - شرح وتحقيق عائكة الخرجي - ص ١٤٧ - القاهرة - مط دار الكتب المصرية - ١٣٧٣-١٩٥٤ ط أولى.

(٦) ديوان السيد محمد سعيد الحيوي - بغداد - وزارة الثقافة والاعلام - ١٤٠٠ - ١٩٨٠ م ص ١٩٦

(٧) ديوان الشريف الرضي - مج ٢ ص ٢٤٧ - دار صادر - دار بيروت - بيروت ١٣٨٠ م - ١٩٦١ م.

(أول) و(الأولى) و(الموفقة) تشديد على واقعية الحدث وانه ليس انطلاقاً من خيال..

ثانياً: اعتماده التوثيق للحدث.. وذلك أمّا:

أ- بالمكان: كقوله:

حيث الجمال مياهاه سالت بروض (أبي نؤاس)

أو:

لا لا أصدق. لست أنت. ولا رأيتك في المساء

تتراكضين وتلعين رياضة في المعهد

أو:

لا في مقام العاشقين ولا بمقهى (الربوة)

أو:

على الشاطي اجتمع العاشقان هناء لدجلة والزورق

أو:

هلمّي وابسطي كفك يا قلبي

أبايعك على الاخلاص والحب

ورفقاً غادة (البصرة) بالصب

فالمكان هنا ليس مطلقاً، وإنما هو محدد بشكل دقيق.. كأن يكون شارع أبي نؤاس أو المدرسة أو مقهى الربوة في لبنان أو شاطي دجلة أو البصرة.. ففي التخيل يأخذ المكان صيغة عامة، كالروضة أو الحديقة أو ساحل البحر، لأنه من متممات الصورة... أو لأنه يكتنز بدلالة معينة.. أما حين ينص الشاعر على مكان بالذات باسمه فانه يعطي الحدث بعداً واقعياً موثقاً بالمكان...

ب- أو بالزمان: كقوله:

يا ساعة عند الأصيل بظلمها طاب اختلاسي

أو:

لا لا أصدق. لست أنت. ولا رأيتك في المساء

فهو هنا لا يتحدث عن سحر الزمن الشعري وإنما يريد أن يحدد تاريخاً للحدث، وبخاصة في البيت الثاني.. فالمساء هنا غير منظور بدلالته الشعرية، وإنما بما انه زمن مجرد

استوعب الحدث..

ج- أو بذكر الوقائع: كقوله:

قطبت وجهاً في الكلام
وازددت تقطياً عليّ
فقلت: ربّ أذى دهاك
فرحت ملتصماً رضاك

أو:

ليلي وهل تتذكرين العيش في البلد الأمين
إذ قُبطين عليّ من عليا سماك لتصحبيني
ألقيت كَفْلك فوق كنفِي واتكأت علي متووني
فوهت قواي وهومت شفتاي وابتسمت عيوني

أو:

لست ملكاً لنزوتي وان استعبد طاغي هواك قلبي سنينا
ملكنتي من قبل أن توقظ الحب أفاعيه زوجة وبنونا
واعتداء على الهوى ان أبيع القلب قوماً وهبته آخرينا

فالوقائع هنا إما:

ذكر دقائق صغيرة لا تلتمس إلا على صعيد الفعل الواقعي، فهي ليست عموميات
خيالية، كما هو الحال مع (التقطيب) مثلاً..
واما سرد قصصي لوقائع مشخصة في مكان معين كـ(البلد الأمين) مزود بصور
للفعل ورد الفعل بين الطرفين..
واما هو إعلان عن مرارة الموقف الذي يجياه الشاعر بين قلبه وبين واقعه الاجتماعي
كزوج وأب..
د- وحيناً يخفء اسم الحبيبة.. كأنه يخشى القيل والقال.. كما في قصيدته
(صدقيني):

صدقيني - - إذا قلت اني لست بالفارس الذي تطليننا^(٨)

فاحلاله النقاط الصامتة محل الاسم الصريح يوحي بان اسماً مشخصاً بالذات حذف
لأنه يكشف عن شخص ما ستره الشاعر بعداً عن الاحراج.. وإلا فهل ضاقت به الأسماء

(٨) كذا في المجموع الذي اعتمده الباحث (الناشر).

وهو الذي استعار من معجم المعشوقات في الشعر العربي - أحياناً - في بعض شعره (ليلى وسعدى وسلمى ولبنى)!!

مرة أخرى استعمل هذا الأسلوب في التعظيم على الغريم:
ليلاي كم قلب أذبت وكم جوى الهبتسه
و(....) لم يدر قلبك ما الغرام فنتسه
فسما الخيال به وظنك في المساء ضممته
أرأيتيه

فمن هذا الآخر الذي لا يباح باسمه خشية المضاعفات!!
ثالثاً: يمكننا أن نستخدم بعض ملامح التمرد في شعره دليلاً على صدق هذه
التجارب وواقعيتها:

فرصٌ لمستُ بها السعادة	واقتنصتُ بها هنائي
حيث الوقار تركته	عند المخاتل والمرائي
ولبست مطرفةً المجون	وهمت في كس الطباء
أسطو على الغيد الملاح	ولست أخشى ما ورائي

أو:

تعالى - فديتك - أنشر عليك من الحب ألوانه الزاهية
وأرشفك حمراً يريك الحياة كدنياي عابثة لاهية

أو:

ضحكت للدنيا وما فيها	حتى لقد أغرقت في الضحك
فظنني قوم أناجيها	وساءهم أني لا أبكي
تحنح الناقد بغريها	بانه قد فياز بالنسك
قلت له وهو يزكيها	نفسك يامنتقداً زكاً

فهذا التمرد على الوقار، والدنيا العابثة التي يتصورها، وصرخته بوجه المنتقد، قد تكون هواجس خامرته وهو يتصور ما سيكون رد الفعل لتجاربه هذه. أو هو الصراع بين الجذور ونزوع الروح...

رابعاً: ثم نجد في (قلبي رويدك لا تطش جهلاً) مثقلاً بوطاة السنين:

الأربعون تكاد تبلغها ويكاد منك جديدها يلى
وشابك الشيخ استبد به

فهل الأربعون - ذروة الفتوة والرجولة - زمن الشيخوخة؟! أم انه الشعور بضرورة العودة إلى الدعة، والابتعاد عن دوامات الحب؟

ومهما يكن من أمر القاموسي والحب، وهل كانت تجاربه حقيقية أم مجرد خيال شاعر، فليس بدعاً أن يعرف الحب رجل كالقاموسي استحال إلى قلب كبير يتحرك بين الناس.. ولكن الشاذ أن لا يقع في معترك الحب من هو على شاكلته..

وقد يكون من ذيول هذا البحث ان نتطلع إلى الآثار التي خلقتها تجارب الحب هذه في حياة القاموسي وشعره..

يتراوح أثر هذه التجارب على حياته بين قطبي الفشل والنجاح.. فهو أحياناً يغرق في بحر اليأس والتشاؤم حتى لتحسب ان الاحباط كان مآل تجاربه جميعاً.. وفي غير ذلك نجده عاشقاً يحب فضاءات لا متناهية من النشوة حتى لنفيض هذه النشوة على الطبيعة فكأنه يأبى إلا ان يشاركها فرحه ويسهم في رسم شارة النشوة على جبينها.. فهل مر الشاعر في حالات إحباط حقيقي ونجاح حقيقي؟

بالنسبة لصور الفشل والاحباط فاننا نجدها في ثلاث قصائد فقط، وهي إذا ما قيست إلى سائر قصائد الغزل في شعره فانها من القلة بحيث لا يمكن ان تشكل ظاهرة وانما هي مجرد حالة نفسية طارئة..

إحدى هذه القصائد مطلعها:

اطو بساطك يا غرام ونح لذات الوصال

يقدم لها الشاعر بقوله: (دور من اليأس يمر به ابن العشرين) وهي لا شك نزوة نفسية مرت بالشاعر في العشرين من عمره، وليست بالضرورة انعكاساً لاحباط ما أو فشل في تجربة حب.. والقصيدة بعد ذلك مجرد صور تشاؤمية عمومية وليس فيها أية إشارة إلى أحداث محددة واقعية، وهو أسلوب التوثيق الذي اعتاده الشاعر..

في قصيدة أخرى يتحدث عن فتوحات غرامية غير انه يختتمها:

يا قلب قد شاب العذارُ عن الهوى فمتى تشيب

لا تدعوني للغرام فأنمسا غيري المحيب
يا قلب قد طوي البساط وأدبر الزمن الطروب
وأريق من كأس الهوى ماء الصبا ونأى الحبيب

نجد هنا ان العمر قد تدخل كعنصر لكبح جماح القلب الذي يأبى أن يشيب فهو ليس فشلاً وإنما هو مجرد إحساس بوطأة العمر. كذلك هو حال قصيدته:

قلبي - رويدك - لا تطش جهلاً أتظن انك لم تنزل طفلاً

فإذن هو مجرد التفاوت الزمني بين عمر الشاعر الحقيقي وعمر قلبه، وما هو بالفشل وإنما هو العامل السلوكي الاجتماعي الذي يتدخل لدى الشاعر بضرورة العودة إلى (جادة الصواب) والابتعاد عن (مبازل) الشباب وفوه!!

فهو - على هذا الأساس - لم يتعرض لحالات إخفاق في تجارب الحب... فكيف عاجل الشاعر هذه التجربة في شعره؟ وما هي المسالك التي أملت تجاربه هذه على شعره؟... عند استعراض نماذج من شعره في هذا الصدد نجد ان المسالك التي ارتادها الشاعر لرسم ملامح تجربته هي:

أولاً: الحب المثالي - نجد هنا صوراً من الذوبان بالحب حتى ليكاد يسمو على الحب:

صديقي - - إذا قلت ابني اجعل القوة التي تصطفينا
صحية؟ لا، قرابة؟ لا، هوى؟ لا، نزوات، أجلها ان تكونا
هي أسمى مما عرفنا عن الحب غروراً واثرة وجنوناً

فهو يعطي التجربة بعداً لا إرادياً وكأنه قدره الذي يجهل الدوافع الكامنة وراءه.. ولذلك - ولأنه قدره - فهو فوق الصحة والقرابة وحتى الهوى.. فهو إذن ليس الحب بصورة المادية الحسية المتدنية، بل وأسمى مما تعارف عليه المجتمع انه الحب.. ولأن حبه قدره: فهو عصي القلب لا يشرع أبوابه لكل طارفة:

فلمست الميخ حريم الفؤاد لكل مهفهفة غانية
ولست المعدّ كؤوس الغرام ومن اية كانت الساقية
ولست المقيم على ريبة يرى الحب ليس سوى آنية

فهو ينتقي ان كان ثمة انتقاء، أي ان كان الحب اختياراً، وهو ليس كذلك لديه كما شاهدنا. فان لمكمن الحب لديه حرماً مقدساً ليس من السهولة استباحته. وهذا المسلك انما

هو انعكاس لطبيعة السلوك المثالي الذي اختاره الشاعر كمنهج في حياته الخاصة والعامة..
ثانياً: المزج بين الحبيبة والطبيعة:
تتفجر هنا نرعة الشاعر الرومانسية حيث يشرك الطبيعة في تجاربه فهي اما شاهد أو
فاعل ومنفعل:

على الشاطئ اجتمعوا والريغ كسا الأرض أهي الحللى والحلل
وزف إلى الروض بشرى الوصال فهذا استعد وذاك احتفل
فالشاطئ والربيع شاركا في مهرجان الحب، وكانا من شهوده. فالحركة دابسة بين
الشاطئ والربيع والروض، التحام بين اللامادي والمادي..

وقد تكون الطبيعة هي الحبيبة أو العكس:

فهو الشمس الذي شعلته كست الأرض شعاعاً وضياءً
وهو البدر الذي غرته قابلت في الضوء نور الكهرباء
وهو الروض الذي بسمته لسقيم الحب طيباً وشفاء
وهو الزهر الذي نفحته سكرت منها نفوس الشعراء

فالشاعر يخلق من الحب مهرجاناً كونياً تتقاسمه الشمس والقمر والروض والزهر..
وهذا الالتحام بين الحبيبة والطبيعة يعكس لنا المنهج الرومانسي الذي هيمن على
أجواء الشاعر والذي فرضته أجواؤه النفسية، والتي تتجاذبها أقطاب الرقة والطيبة والمرح..

* * *

هذه إطلالة عابرة يمكن اعتبارها أساساً ونواة لدراسة أشمل وأوسع لهذا الجانب من
شعر القاموسي.. وهذا ما يمكن أن أراه - كاستنتاج مجرد - من خلال شعر هذا الشاعر
الذي عاش نقياً ومضى نقياً...

صادق القاموسي من تدريس المنطق واحتراف العمل الحر إلى المواقف الشعرية المتزنة!

الأستاذ مهدي شاكر العبيدي

كان أول اتصال لي بالحياة الأدبية في غضون عام ١٩٤٩ من خلال مجلة البذرة الصادرة يومذاك عن مؤسسة ثقافية تدعى منتدى النشر الذي هو بمثابة نواة لجامعة الكوفة التي ظهرت للوجود بعد أن مرت بطروف ومعوقات يطول شرحها، وكان منتدى النشر يعني بتعليم مبادئ اللغة العربية وتعاليم الدين الاسلامي بشكل مبسط موائم لافهام تلامذته الصغار في قسمه الابتدائي ثم يتطور إلى الأعمس والأخذ بشيء من الصعوبة في مراحل تالية تبعاً لما يجوزه الدارسون من نصج وتقدم في السن ونحو في مداركهم العقلية، فنشمل هذه المرة النحو والمنطق وعلم الكلام، وما زلت أذكر وبشكل جيد فحواي الفصل القسيم^(١) الذي عقده صادق القاموسي ونشرته المجلة في أحد أعدادها أواخر الأربعينيات من القرن الفائت، فقد أجهل فيه معنى الفلسفة ومدعاة ظهورها في الدراسات الاسلامية وصلتها بعلم الكلام وحاجة المشتغلين بدراسات كهذه إلى التسليح بالمنطق ليجيء كلامهم موزوناً وحجتهم داحضة تخلو من شائبات التخرض والافتراء والتزويد بقدر حاجتهم إلى التفكير المستقيم الذي لا يميل إلى الهوى والتعرض في معرض دفاعهم عن الايمان بوجهه العقائد المدخولة والتيارات الفكرية والمذهبية الوافدة، مما عني به جهابذة العرب والمسلمين وكلفوا به في بحثهم واستقصائهم.

وكان الكاتب القاموسي يجوز العقد الثالث ومن أبرز الأساتذة والمحاضرين في مدارس جمعية منتدى النشر، والموكل إليه اختيار الموضوعات المناسبة والمقالات القصيرة التي يساوي بها المجلة أولاء الطلاب الذين تنم كتاباتهم وجولاتهم وخواطر نفوسهم من خلال أدائهم وتجويدهم وذوقهم في تخير المفردات والتعابير عن مستقبل أدبي باهر ينتظرهم، فضلاً عن الارتكان إلى رهافة حسه ورقة وجدانه في ترشيح هذه القصيدة أو المقطوعة الشعرية للنشر فيها، وكأنه غدا الشخص الأول في إعدادها وتدوير شؤونها؛ لغاية احتياجها وتوقفها عن الصدور تبعاً، فتوارت عن الوسط الثقافي بعد أقل من عامين، ومن يومها عرف القاموسي

(١) المقال المشار إليه نشر في العدد الأول السنة الثانية، وهو بقلم الأستاذ محمد القاموسي - شقيق المرحوم (صادق) وأحد طلاب كلية منتدى النشر حينذاك: لذا اقتضى التويه. (الناشر).

- المتولد في النجف عام ١٩٢٢ بعد هجرة الأسرة بمجموعها إليها زمن الحرب العظمى من بغداد، على ما يفصل في هذه الجوانب والأثناء، جامع شعره في مقدمته الضافية الممتازة - شاعراً وواحداً من رجال الأعمال حيث يمنهن الزاوة عين الوقت، وكتبياً بعد سنين وفي عهد متأخر، لأن ذويه كانوا على وعي متقدم بضرورة انصرافه للكسب وانماكه في دنيا الكدح ليقى ذاته ويعصمها من الاحتياج إلى الآخرين ويتكفل وحده بشق طريقه بفضل مصابرة وكده، وبدا نشأ رافهاً ميسوراً إبان تلك الظروف العسيرة بالنسبة للآخرين، ومن وجهة نظرهم وتفكيرهم، حيث تشكى الأفراد والجماعات من أزمات الغلاء وشوع البطالة وإمعان المتنفذين في تبديد الثروات الوطنية وعدم إنفاقها في تنفيذ المشروعات المدفوعة التي تدني بمواطنيهم من الحياة العصرية المتحضرة، فكان تقدم بلدهم من هذا الوجه بطيئاً في وقت كان النقد النزر الهين والمتداول بين أيدي الناس للبيع والشراء، ذا شأن وأهمية وكفاية إلى حد ما في توفير شروط الحياة والوفاء بأسبابها مع تدني الأجور في الأعمال والمرافق كافة، ولو قارنا بين نمطي المعيشة المؤلفين في الثلاثينيات من القرن الماضي وهذه السنوات التي نحياها حالياً لألفينا الفرق شاسعاً والبون بينهما متباعداً في وقت معاً، ولأشفقنا على الجيل الدابر المنطوي فرط إمعانه في السخط ولجائه في التذمر واستهجانته ما يسود الحياة العامة من سوء وتحلف وهوان وفقر، هذا إلى استرخاعه كل غال ونفيس دون رغبته وآرايه، ولحمدنا للنفر الذين اتخذوا موقفاً معيناً من الأحوال المتتابعة التي كانت تجري بحيث جنبوا به أنفسهم وذرايرهم من النكال والقسر على نحو ما استهدف به لدانهم ممن خاضوا غمار السياسة واعتنقوا المبادئ وربطوا مصايرهم بالأحزاب، فاذا الحصيلة مخيبة والعائد حرمان وبوار وعصارة ذلك آثام في آثام، قلت لحمدنا لأولاء عقلانيتهم وانزاهم، بقدر ما يروقنا منهم استيلاء الغضب عليهم حين يداس الشعور الانساني ويمتنهن.

فأين يقف القاموسي من هذين الرعيلين اللذين يبدوان متباعدين في موقفهما من الحوادث والخطوب التي توالى على شعبهما وبلدهما حيث اندفعت أجيال من الناس في مختلف الأزمان والفترات للمطالبة باستكمال الوطن لحرية وسيادته وحق ذويه بمتنوع طوائفهم وعناصرهم في الانتفاع من كنوزة وعوانده، بقدر ما يتوقون للالواء بالبرث البالي من العادات والمواضع، ويتطلعون صوب الحياة الراقية المزدهرة في كل شيء، وفضل آخرون أن يستأنوا ويتدبروا في العواقب ويمحصوا في الأمور، فيمسكوا أقدامهم عن الوثب والاندفاع وحتى لا يعجلوا إلى ركوب الموجات أيضاً! فرماهم غير متعرض بالسلب والخشية، والأغرب أن كليهما شديد الارتباط بالبيئة والتأثر بملابسهما، سوى أن نفر الثاني

الذي يحق لي نعته بالنفر الأوسط بتعبير الجواهري طوّع إمكاناته للعمل على صعيد الواقع وجسد رغبته في إصلاح حال مجتمعه شيئاً ظاهراً يلمسه الجميع، بينما تقاذفت السجون والمنافي والاستجوابات المستمرة والقصائد الثورية نظراءهم أو أضدادهم في اكتناه دواعي النضال دون جدوى.

ما أردت القول إن مجتمعا كان منذ قامت دولته بمؤسساتها الدستورية في أعقاب ثورة العشرين موفياً على التمام والكمال في أحواله العامة، وأن ما كان يتحسسه رسل الوعي من عوامل التأخر هو هين الاحتمال بالنسبة لما قاسوه من رزايا وأهوال في أزمان تالية. وعلى أي حال فقد أحسن القاموسي الذي ترقى أقدم قصيدة نظمها إلى سنة ١٩٣٧ يوم جاز سن الخامسة عشرة من عمره، وفي هذه المرحلة يقبل المرء على قراءة الأديبات العربية ويستقي منها ما يعينه على أن يصوغ خواطر نفسه في سلاسة ورسالة في وقت معاً!

أعد الكرة أنا فرمان الوصل حاننا
حيث لا واش يرانا تحت جلبات الظلام

أتصدق ان هذا قول شاعر مبتدئ، لكنك تجد نفسك في حل من تصديقه، إذا أمعنت نظراً في الواقع الثقافي السائد في النجف. ولا أعيد ما أوغل فيه الدارسون والشرائح عن دالة الحيط النجفي على لغة العرب التي هي لغة الدين في الوقت نفسه، من ناحية المحافظة على بلاغتها وفصاحتها وإبقائها خالصة نقية محتفظة بجوهرها مطرحة للعجمة والركاكة، فالدارج في محيط النجف منذ أن يعي نفسه ويتحسس بما حوله، ينزع لحاكاة سابقيه في تجريب مهاراته وقدراته، فيبدأ أولاً بالغزل وسط مجتمع محافظ ينظر إلى العلاقة بين الجنسين بتزمّت وتحرج شديدين وهذا من المفارقات الغريبة ثم ينفذ إلى مراس بقية أغراض الشعر المعروفة.

قلت أحسن القاموسي بعد هذا الاستطراد المفيض في عوامل الشاعرية وبواعثها وموحياتها في صون نفسه مما لقيه أتراه من جاهروا بمعارضتهم للحكام وأعلنوا سخطهم واحتجاجهم غير مرة على ما لجأ إليه المسيطرون ممن خلص لهم الأمر من تدابير وإجراءات بحق مناوئتهم من الفئات الواعية خاصة طوال ربع القرن وهي الفترة التي شهدت نضجه ووعده وتفتح ملكاته وانخراطه في غمار الحياة وإدراكه حاجتها إلى التغيير والتبديل، شأن جمهرة من أبناء جيله آثروا المهاودة والوئاء والمهل في تدمرهم وبرمهم بالأوضاع، وكانوا أرغب في الوصول لمبتغاهم بالتدرج بدلاً من الطفرة، وبالوسائل الممهدة لا بالتحويلات الفجائية التي تسفر عن الاحتراب والتناحر والتباعد بين فئات الشعب، فلا غرو ان جوّد في

نسىق قصائڤ الرثاء وتصوىر الفجىعة برحىل القاءة المخلصىن والعلماء المنصڤرىن ناصىة الافئاء فى الشؤون الڤىنىة؁ وجاوزوا مكائهم اللى تقنضىهم الانكماش والترفع المصطنع على جارى العاءة المعهوءة مع مرجعىات كثر لىس عهدنا بها بعبء إلى الانءماج بءنبا الواقع وتبصىر الناس بما بىىت لهم من مصابىر ومكابىڤ. ولنضرب مثلاً بسىرة الامام محمد حسىن كاشف الغطاء من أوائل المهتمىن بالقضابا العربىة وأءء أقطاب المؤرء الاسلامى فى القدس فى ١٩٣٠؁ وقء ءعى هذه المرة لءضور مؤءمر مشبوء فى بمءءون عام ١٩٥٣؁ فءىب آمال الءاعىن لانعقاه؁ مبىنا لهم أن بوسع المرء الباءء عن البقىن والاستقرار والمساءلة أن بىءها فى الاسلام من ءلال ءئه على الوفاق والنناصر وءءاشى العءاواء. وإن لا مصلءة لقاطنى هذه الربوع فى أن بىزجوا بنفوسهم فى ءروب طاءنة لا بىنون من ورائها إلا المكاره والكوارء؁ وكءا تقصى فى مرئىته له هذه المواقف اللى أضفت على صاءبها صفة السباسبى المءمسك برأه مشفقة علىه أن بىظل رهىن الانعلاق الفكرى وضىق الأفق. إن الشاعىر اسءءضر تأثره وعاطفته وءزنه الءقىقى لافءقاء هذا العلم وعبابه فوجء لءبه ما بقوله وهو ابن الءابىة والءلابىن؁ فاذا فءوسء فى المعابى الرفىعة اللى اسءمءت علىها رائءته موءعة فى هذا النسىج من الصبابة المنفئنة؁ عجبء من موفور مطالعائه فى التراث الأءبى العربى واستفءاءته منه وتوفقه لأن بىشبهه ببهاءءته الكبار ءوى المكئة والءرابىة بأسرار القول الءكمى والشعر البلىع:

إلا الءىن آجابوا الءبر ءىن ءعوا
مءءاً للءب به ءسمو وترفع
لا هم عفوك إلا المكىر والءءء
وإنى بىءبرها مسءعمراً جشع
وكءء لولا قضاء الله ءنءءع
مءءوءة وءءلء من بىنبا الءءع
فائما مالكاها الءوف والطمع
وبىذهب الزبء الرابى وبىنقشع
أولى به الءهل ءىء العءر مءسع

فءش عن الءء فى الءابىء لست ترى
آمنء بالمثل العلىا مءممة
كئء السباسبى فى شءى مواقفه
كشفت عن كل ما ءءفى مؤامرة
وصغء من مكىره مكراً بىق به
وأفضل الناس من كائء نقائصه
والنفس مهما ءءلء عن عناصرها
ما بىنفع الناس بىقى فى معاءنءه
ما قىمة العلم ان لم بىسزج منفعه

الظواهر الفنية في شعر صادق القاموسي (★)

١٩٢٢ - ١٩٨٨

الأستاذ: مازن داود الربيعي

من المؤسف حقاً أن لا يأخذ الأدب النجفي الحديث نصيبه الذي يستحقه من اهتمام الباحثين والدارسين، وان تبقى حقبة مليئة بالنصوص الأدبية القيمة بعيدة عن تناول أعين نقاد الأدب وباحثيه، في وقت نحن أحوج فيه إلى صيانة تراثنا الأدبي وتحليل نصوصه الأصيلة وتبسيط الضوء على مبدعيها وظواهرها الفنية.

وأحاول في هذه الوقفة المتواضعة أن أتفياً ظلال شاعر نجفي رقيق ربما لم ينسل قسطه الوافر من الشهرة والعناية وذياح الصيت - برأيي في الأقل - لأسباب عديدة لست هنا بصدد بحثها، في حين شهدت له مسيرته الإبداعية الطويلة ووفرة نتاجه الشعري ومجالس النجف الأدبية ومنتدياتها بالثناء والاعجاب والاعتراف بالفضل. انه الشاعر المبدع المرحوم (صادق عبد الأمير القاموسي) الذي ولد في مدينة النجف الأشرف عام (١٩٢٢)^(١)، وأخذ علومه الأولية فيها على يد أفاضل العلماء من أمثال السيد (محمد حسين الحكيم) والشيخ (محمد رضا المظفر)^(٢) وتابع تحصيله فيها أيام كان المجتمع النجفي ينشط بالجلسات الأدبية والحلقات العلمية والمناظرات الثقافية والمساجلات الشعرية.

نشأ وهو يلم من كل علم بطرف وينهل من مصادر البيئة المعرفية في حاضرة النجف فتشكلت شخصيته الأدبية وتنوعت مصادر ثقافته وكان شعره مرآة عاكسة للحياة النجفية يوم كان يدب فيها النشاط بالاحتفال بالمناسبات الدينية أو بالمشاركات الوجدانية في أفراح المجتمع وأحزانه^(٣).

ودخل شاعرنا في شبابه إلى كلية الفقه واختير بعد تخرجه فيها لتدريس مادة المنطق، وكان من أكثر المدرسين حظوة بين طلابه، وأشرف على إصدار مجلة (البذرة) في الكلية وانتخب عام ١٩٤٥ عضواً إدارياً في جمعية (منتدى النشر) وكان أحد الأعضاء المؤسسين

(★) بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الأول لكلية التربية - جامعة بابل شباط ٢٠٠٧م.

(١) ينظر ديوان صادق القاموسي، مقدمة الديوان جمع وعلق عليه محمد رضا القاموسي، ط ١، المكتبة العصرية، بغداد، ٢٠٠٤: ١٠.

(٢) ينظر مقدمة الديوان: ١١.

(٣) ينظر صور من الحياة الشعبية النجفية في الجيل الماضي. حامد المؤمن، ط ١، ١٩٩٩: ١٧.

للمجمع الثقافي الديني التابع للجمعية.

وفي عام ١٩٧٢ شارك شاعرنا في مهرجان (المربد الشعري الثاني) المنعقد في الناصرة، وقد عُرف - رحمه الله - بحفة الظل ورقة الطبع وسرعة البديهة وحرارة النكتة وحسن المحضر وطيب المعشر وكان كثير الترحال فقد تنقل بين بغداد والموصل ولبنان وكان مردهم الحس وهو يهيم بكل صور الجمال التي تستهويه: جمال الطبيعة الخلابة، والريبع الطلسي، والزهور المتفتحة، والشلالات التي تندفق بعنف، وأهم من كل هذا وذلك: جمال المسراة الحسناء التي تنفجر سحراً وأنوثة^(٤).

لقد كان شاعرنا متصبداً للوحات الحب والجمال في كثير من قصائده، وكان في كسل وقفة تأمل وتفتح يكشف عن تجربة جديدة من تجارب حبه الطاهر العفيف، وتقصى الأيسام والشاعر غارق في تأملاته حتى يفجع بوفاة عقلينه الفاضلة عام ١٩٨٧^(٥) فينتطوي على نفسه ويختاره الله إلى جواره عام ١٩٨٨^(٦) بعد صراع مع المرض فتطوى آنسذ صفحة مشرقة من صفحات السفر النجفي الخالد. وتبقى قصائد الشاعر ومقطعاته الشعريه متناثرة هنا وهناك غير مجموعة في ديوان شعري مطبوع، فينبري لذلك تلميذه وقريبه الباحث المعروف الأستاذ (محمد رضا القاموسي) حيث يقوم بعملية جمع شعره من مظانده المختلفة وترتيبه والتعليق عليه^(٧) ويتم هذا الأمر ويصدر للشاعر المرحوم (صادق عبد الأمير القاموسي) ديوان شعري مطبوع في عام ٢٠٠٤ يقع في (٥٠٣) صفحة من القطع الكبير ويضم القصائد التي أبدعها الشاعر من مرحلة نبوغه الشعري حتى وفاته مع مقدمة عن حياة الشاعر للأستاذ (محمد رضا القاموسي) ودراسة نقدية تناولت الديوان للأستاذ حامد المؤمن بعنوان (صادق القاموسي الشاعر الخالم). ومنذ إطلائي الأولى على الديوان. شعرت أن روح الرومانسية تسري في عروق الشاعر، وأنه استوعب درس الحب جيداً ففاضت منه مشاعره وأحاسيسه الدفينة في قلبه، ولا أعالي حين أقول: إن أنغام ديوانه في معظمها لوحات حب وهيام وتأملات في الحياة والطبيعة والجمال فقد أحصيت في ديوانه {٣٣} نصساً للغزل^(٨) ما بين أبيات منفردة ومقطعات شعرية وقصائد مقابل {١٨} للرباءة و {١٠}.

(٤) ينظر مقدمة الديوان: ١٢-٢٥.

(٥) ينظر مقدمة الديوان: ٢٧.

(٦) ينظر م. ن: ٢٨.

(٧) ينظر م. ن: ٧.

(٨) ينظر الديوان: ٩٣/١١١/١١٧/١٢١/١٢٣/١٢٩/١٥٧/٢١٥/٢٧٧.

للشعر الاحوايي^{١١} و {٦} للمديح^{١٢} و {٣١} للشعر السياسي^{١٣} و {٢} لشعر الحسين والعربية^{١٤} و {٢٦} للوصف^{١٥} و {٤} لشعر المناسبات^{١٦} و {١} للزهدي^{١٧} و {١} لشعر الحكمة^{١٨} {١٤} للتاريخ الشعري^{١٩} فضلا عن بعض الأبيات المنفردة التي لا يضمها تصنيف ولا تدخل في عرض معين^{٢٠}.

في الواقع، دفعتني هذه المعطيات إلى محاولة البحث في قضية الحب في ديوان الشاعر ومدى ارتباطها الوثيق بالطبيعة، غير اني حيث اطلعت على الدراسة التي زين بها الأستاذ حامد المؤمن ديوان الشاعر صادق القاموسي وهي الدراسة الوحيدة على حد علمنا - وجدت أن الرجل قد استوفى هذا الجانب من شخصية الشاعر - في نظري في الأقل - فانصرفت عن هذا الدرس ودخلت من زاوية جديدة وهي بحث (الظواهر الفنية) في شعر صادق القاموسي والله ولي التوفيق.

ينطوي بحث الظواهر الفنية على دراسة ما يلي:

أولاً: اللغة والأسلوب

اللغة مادة الأدب يستعملها الشاعر كيفما يشاء، وبها ينقل للناس تجربة شعورية جديدة تفوح بالاحساس والتصوير، ومن الطبيعي أن يتأثر الشاعر بالبيئة اللغوية التي يعيش فيها، ولو نظرنا إلى طبيعة المجتمع النجفي في النصف الأول من القرن العشرين وجدناه ينشط بالحوية والثراء الفكريين، فقد نشأت طبقة فهد تحترم العلم وتكتم بأبحاثه، وأخرى تتذوق الشعر وتفتش في دواوينه، وأخرى تبحث في المنطق وتكشف أسرارها^(٢١) كل ذلك انعكس

- (٩) ينظر م.ن: ١٠٣ / ٩٩ / ١٦٧ / ١٧٧ / ١٨١ / ١٨٧ / ١٩٧ / ٢١٩ / ٢٥٩.
- (١٠) ينظر م.ن: ٢٤٧ / ٣٠٧ / ٣٣٥ / ٣٧٩ / ٣٨٣ / ٣٨٩ / ٤٣٧ / ٤٦٥ / ٤٧٥.
- (١١) ينظر م.ن: ١٣٣ / ١٧٥ / ٢٣٧ / ٢٤٥ / ٢٧٣ / ٤٤٧.
- (١٢) ينظر م.ن: ٩٧ / ١٣٩ / ٢٠٧.
- (١٣) ينظر م.ن: ١٥١ / ٣٠٥.
- (١٤) ينظر م.ن: ٢١٧ / ٢٢٣.
- (١٥) ينظر م.ن: ١٦٩ / ٢٢٩ / ٢٤٩ / ٢٨٥.
- (١٦) ينظر م.ن: ٣٤٥.
- (١٧) ينظر م.ن: ٢٩١.
- (١٨) ينظر م.ن: ١٣١ / ١٤٩ / ١٥٥ / ٢٠٥ / ٢٣٥ / ٢٥٧ / ٢٧١ / ٣٧٧ / ٤٣٩ / ٤٧٣.
- (١٩) ينظر م.ن: ٢٧٥.
- (٢٠) ينظر صور من الحياة الشعبية النجفية: ١٧.

على لغة الشاعر وشخصيته الأدبية ومصادر ثقافته، فتميزت لغته بالبساطة والسهولة والدقة وبتخلصها من الغموض والتعقيد وابتعادها قدر الامكان من الوقوع تحت تأثير المعجم اللغوي القديم، فضلاً عن أن الشاعر كان يعبر عما يجول بخاطره بلغة رقيقة واضحة بعيدة عن الغريب والمستكبر ولعل هذه السمات لا تقتصر على شاعرنا حسب بل تنطبق على معظم معاصريه، ولا عجب في ذلك؛ فهو ذوق المجتمع النحفي الرقيق ومقتضى التطور اللغوي الذي تفرضه طبيعة الحياة في بيئة النجف تلك البيئة الراحرة بالطاقات الأدبية وبالفيض الثقافي والمعربي الثر.

وقد أبدع شاعرنا في وصف الطبيعة وكان دقيقاً في لغته عندما وصفها. هذه الدقة التي طالما تمسك بها في ديوانه؛ يقول في وصف الزهرة:

((زهري في العيش لا أبغى سواها

في حقول الروض ينساب شذاها

فوق هام الغصن ترقى وتراها

كلما هب العليل هي والغصن تميل))^(٢١)

الأشطر الثلاثة الأولى من تفعيلات الرمل والرابع من مجزئه حيث يمزج الشاعر بين حبه للطبيعة وبين عناصرها مزجاً جميلاً لا نعرفه إلا عند من هام بالجمال واستعذب رقته، وشاعرنا ممن يسحره الجمال وتمزه الطبيعة الناضرة، فنراه يشرك عناصرها معه في مشاعره وأحاسيسه ويرسم صوراً جميلة، وتبدو الدقة والسلاسة والتعلق بجمال الطبيعة أكثر وضوحاً، يقول:

((معي هيا إلى الروض لنستقبل أزهاره

فدياك النسيم الحلو قد داعب أشجاره

وهذا البدر قد أرسل فوق الماء أنواره

فهيا نقض هذا الليل بين الماء والزهر

ولا تحش فان الله يعفو ليلة القدر))^(٢٢)

الآيات من بحر المزج وهي من الشعر الخمس وهي لوحة جميلة في وصف الطبيعة

(٢١) الديوان: ٢١٧.

(٢٢) م.ن: ٢٢٣.

الحلاية تنم عن رقة لفظ، ورشاقة أسلوب، ورهافة حس.
وتبدو الرقة والليونة جلية في قوله:

((كم قد وقفت على المراقص مدمياً بالعض كفي
حيث الحبيبة والحبيب تلازما كفاً بكتف
يتبادلان صباية بارق إحساس وعطف
كل بليلاه استقل وما رأى ليلاي طرفي))^(٢٣)

الآيات من مجزوء الكامل حيث يستمر الشاعر مع هذه الرقة التي تدل على مزاجه الرائق وتطلعه إلى السهل من الألفاظ، والأمثلة على ذلك كثيرة. غير إننا لا ننكر على الشاعر انه ظل ماضياً في تمثله بلغة الشعر القديم، ولعل مثل هذا التمثل يبدو أكثر وضوحاً في غرض المديح نتيجة لتأثره بالقدماء من الشعراء ليس في ألفاظهم حسب وإنما في معانيهم وصورهم، فالمديح مثلاً مليء بالشمائل التي طالما تغنى بها الشعراء الأقدمون في أشعارهم، يقول في مدح أسرة الأدب البيضاوي:

((عبيدك أن يكون - ولا مساس -
فكم من قائد للنصر جيشا
ولما عم ساح الحرب نفع
بجنيك نافخ لك في رماد
تدجج للقتال وللطراد
منار كان في صف الأعداي))^(٢٤)

الآيات من بحر الوافر ونلاحظ فيها ألفاظ (الطراد) و(النفع) وهي ألفاظ استعملها الشاعر القديم في أشعاره، وفي ذات السياق يقول في مدح ثورة تموز عام ١٩٥٨:

((وأناخ كلكله فأحسد نايع
لطويل رقدته ونام مفكر
خسون عامساً والعقول حديقة
تسقى بوابل غيّه وتمطر))^(٢٥)

الآيات من بحر الكامل وهي تذكرنا بامرئ القيس في معلقته، ومع وجود بعض الأساليب القديمة في لغة شعر الشاعر إلا أن السمة الغالبة له تبقى في ميلها إلى السهولة والرقة. يشد عن ذلك قليلاً ما ذكرته أنفاً لاسيما في المديح والرتاء، حيث يميل الشاعر لأسلوب الشعر القديم، يقول في رتاء الخجة الشيخ (محمد حسين كاشف الغطاء):

((ما ينفع الناس بيقسى في معانده
ويذهب الزبد السراي وينقشع

(٢٣) الديوان: ٢٧٩.

(٢٤) م. ن. ١٧٦.

(٢٥) الديوان: ٢٤٥.

ما قيمة العلم ان لم يرج منفعة
لو لم تجل بك الآيات بينة
لما بكتك السما حزناً ولا ارتجفت
أولى به الجهل حيث العذر متسع
ويهد للدين والاسلام مرتجع
بالمسلمين أسى ارض ولا فجعوا^(٢٦)

الآيات من بحر البسيط، وهي شاهدة على تأثير أساليب القدماء في شعر الشاعر من مثل (بكتك السما) و(ارتجفت الأرض بالمسلمين).

وتأثرت لغة الشاعر بالطبيعة الخلابة خصوصاً انه كان كثير الترحال بين بغداد والموصل ولبنان، فسحره جمالها وانعكس ذلك على معجم ألفاظه فكانت قصائده على اختلاف موضوعاتها حافلة بالألفاظ المستمدة من الطبيعة فترددت فيها ألفاظ (الزهر، الحقل، الروض، الغصن الورد) وغيرها، يقول:

((ما الحب إلا فتنة الحسن التي
في القلب دستها يد الحسنة
ما الحب إلا وردة الشوك التي
غرست نواها العين في الأحشاء
ما الحب إلا شمعة الأنس التي
ملأت سماء القلب بالأضواء))^(٢٧)

الآيات من بحر الكامل وقد وردت فيها لفظة (الورد).
كما تميزت لغة الشاعر أيضاً بالميل نحو البساطة والشعبية والاقتراب من لغة العامة. وقد لاحظنا في شعره بعض الألفاظ العامية، وهذا شيء طبيعي لأن الشاعر عادة ما يستخدم اللغة السائدة في مجتمعه، وهو لكي يوصل فكرته أو شعوره إلى الآخرين مضطر لأن يستخدم ما يتعامل به الناس من ألفاظ، يقول:

((فاذا الخمرة التي صرف العمر عليها مصورا آماله
تحتسي (فيشة) وتنداح (صكاً)
مسترداً وتنثني (كمبيالة))^(٢٨)

ويقول في نفس القصيدة:

((سارحاً في (إجازة) من فراغ
عاكفاً عند ساعة من بطله))^(٢٩)

كما تأثر أسلوب الشاعر بالثقافة اللغوية، وغيرها من الثقافات، فكثرت فيه المصطلحات اللغوية والنحوية والفقهية، يقول:

(٢٦) م.ن: ٢٩٨.

(٢٧) الديوان: ٩٣.

(٢٨) م.ن: ٣٨٣.

(٢٩) الديوان: ٣٨٤.

((منتدى النشر وما أقدمها
ويقول: (في التهجي أحرفاً تأتي الهجاء))^(٣٠)

((يعجم) قلبي كمدي
ويقول: ودمع عيني (يعرب))^(٣١)

((قرأتكم) نصاً) تستشف سطورده
ويقول: سنأ و(حديثاً) يصطفيه التواتر))^(٣٢)

((أيام دوى) للشريعة) صارخ
ويقول أخيراً: صعق المسامع كالزلازل راعد))^(٣٣)

((فيك يافتان درسي
لا بأبحاث الكفاية))^(٣٤)

والواقع أن مثل ما قدمنا من الأبيات ما هي إلا جانب من جوانب تأثر أسلوب الشاعر بالمعجم اللغوي والدرس الفقهي وغيره، لأننا رصدنا تأثر الشاعر وتضمينه لكثير من الألفاظ التي تخص القصص القرآني^(٣٥)، وألفاظ المسدن والأماكن^(٣٦)، والقبائل^(٣٧)، وألفاظ السياسة^(٣٨)، ومسميات أخرى^(٣٩) لا طائل من ذكرها سوى تسويد الصفحات. بيد أن تلك الأبيات لا ترقى في بعضها إلى مستوى يمكن أن نسميه شعراً، بل هو مجرد نظم لا يدخل في باب الشعر إلا تجوزاً، وغالباً ما يكون مثل هذا الشعر متنفساً عن فكرة أو مفصحا عن قضية في ذهن الشاعر.

ثانياً: الأوزان والموسيقى

ليس الشعر عاطفة وخيالاً وأسلوباً حسب، بل أضف إلى ذلك موسيقى مؤثرة تمثل

(٣٠) م.ن: ١٠٨.

(٣١) الديوان: ١١٣.

(٣٢) م.ن: ٢٣١.

(٣٣) م.ن: ١٧٨.

(٣٤) م.ن: ٤٥٥.

(٣٥) ينظر م.ن: ١٤١.

(٣٦) ينظر م.ن: ١٤٣، ١٥٣، ١٦٥.

(٣٧) ينظر م.ن: ٢٠٨.

(٣٨) ينظر م.ن: ١٢٥.

(٣٩) ينظر م.ن: ٢٥٣.

الجانِب الصوتي منه وهي عامل مهم في بنية الشعر العامة. والعمل الأدبي - كما يرى النقد الحديث - سلسلة من الأصوات ينبعث عنها المعنى، وفي الشعر تثير طبقة الصوت الانتباه وتؤلف بذلك جزءاً مهماً من التأثير الجمالي للقصيدة^(٤٠).

وتشكل الموسيقى حلوة الجرس في الشعر لأنها تحدث تغييراً في أسلوب الوجدان وكل نغمة من الموسيقى تؤثر في الإدراك وتثير العواطف في النفوس^(٤١). ويمثل الوزن الشعري الحجر الأساس للموسيقى الشعرية فهو الذي يطرب الأسماع^(٤٢) وهو أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية^(٤٣) لأنه يضيف على الصورة الشعرية كثيراً من الجمال بما فيه من انسجام في توالي تفعيلاته ومقاطعته وتردد نغماتها وإيقاعاتها في توافق زمني محدد.

من خلال التسبع الاستقواني لديوان القاموسي وجدت أن الشاعر يتوافر على معظم بحور الشعر العربي، لا يلزمه غرض القصيدة التزام بحر بعينه، فهو ينظم الغزل مثلاً على الكامل^(٤٤)، ومجزوء الرجز^(٤٥)، والرجز^(٤٦)، والرجز المزدوج^(٤٧)، ومجزوء الرمل^(٤٨)، والرمل^(٤٩)، والمتقارب^(٥٠)، والبسيط^(٥١)، والمديد^(٥٢)، والطويل^(٥٣)، في حين ينظم الرثاء

- (٤٠) ينظر نظرية الأدب. رينيه ويلك. أوستن وارين. ترجمة محيي الدين صبحي. د.ت: ٢٠٥.
- (٤١) ينظر الشعر كيف نفهمه وتذوقه، اليزابيث درو، ترجمة د. ابراهيم الشوس، بيروت. ١٩١٦: ٤٩.
- (٤٢) ينظر عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا، تحقيق طه الحاجري، محمد زغلول سلام. القاهرة، ١٩٥٦: ١٥.
- (٤٣) ينظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٥: ١٣٤/١.
- (٤٤) ينظر الديوان: ٩٣.
- (٤٥) م.ن: ١١١.
- (٤٦) م.ن: ١١٧.
- (٤٧) م.ن: ١٣٧.
- (٤٨) م.ن: ١٤٧.
- (٤٩) م.ن: ٣٠٩.
- (٥٠) م.ن: ١٦٥.
- (٥١) م.ن: ٢٢١.
- (٥٢) م.ن: ٣١٣.
- (٥٣) م.ن: ١٦١.

مثلاً على السريع^(٥٤)، والرمل^(٥٥)، والكامل^(٥٦)، والطويل^(٥٧)، والبسيط^(٥٨)، فيما ينظم المديح مثلاً على البسيط^(٥٩)، والوافر^(٦٠)، والكامل^(٦١)، ومجزوء الرجز^(٦٢)، والرمل^(٦٣). في ضوء هذه النتائج يتبين لنا أن الشاعر لا يؤيد فكرة أن البحور الطويلة تناسب أغراض المديح والرثاء والبحور القصيرة تناسب الغزل وهي قاعدة ليست مطردة لدى الشاعر.

غير أبي أستشعر أن الشاعر يميل إلى البحور القصيرة الخفيفة التي تتطلبها سرعة النظم، بيد أن هذا الميل لم يبعده عن استعمال البحور الطويلة كثيرة التفعيلات. ويبدو أن الاتجاه إلى الأوزان القصيرة الخفيفة في الشعر قد ارتبط - كما علل الباحثون - بالتغير الاجتماعي الذي أصاب البيئات الشعرية ومنها بيئة النجف، حين بدأ الناس يتغنون بالأشعار^(٦٤)، وحين انغمس الشعراء في الترف وكثرة المجالس الأدبية، الأمر الذي استلزم سرعة النظم على البحور القصيرة الخفيفة.

ولكن هل هناك علاقة بين الوزن الشعري الذي يختاره الشاعر لقصيدته والحالة النفسية له؟ يبدو لي أن الإجابة ستكون بالنفي، وفيما يأتي بعض الأمثلة، يقول الشاعر:

كان العفاف رداءه وردائسي	(كم قد قضيت مع الحبيب لياليا
عبرات حب صادق وولاء	ولكم تعاطينا بأكواب الهوى
عنا الوشاة وأعين الرقباء	ولنا اتخذنا الليل سترًا حاجبًا
سور الحديث تفوح بالأشذاء ^(٦٥)	رهرت نوادينا ودارت بيننا

(٥٤) م ن: ٩٩.

(٥٥) م ن: ١٠٣.

(٥٦) م ن: ١٦٧.

(٥٧) م ن: ١٨١.

(٥٨) م ن: ١٨٧.

(٥٩) م ن: ١٣٣.

(٦٠) م ن: ١٧٥.

(٦١) م ن: ٢٣٧.

(٦٢) م ن: ٢٧٣.

(٦٣) م ن: ٤٤٧.

(٦٤) ينظر موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨: ١٠٦.

(٦٥) الديوان: ٩٤.

هذه القطعة من البحر الكامل وهو من البحور الطويلة، ومن المفروض حسب القاعدة السابقة أن ينظم فيه قصائد المديح والرتاء التي تدل على حزن وتوجع، ولكننا لا نجد مثل هذا في الأبيات المتقدمة، فالأبيات خميرية فيها نشوة وانطلاق، والشاعر في أبياته الراقصة يوحى بالفرح والسرور، وهذه الهمزة المكسورة التي تسيطر على الأبيات كلها توحى للسامع بأنغام مرحة، وعلاقة الكلمات بعضها ببعض علاقة راقصة هي الأخرى توحى للأذن بالسعادة والفرح، فتجعل القارئ يشارك الشاعر أفراحه.

ونقف عند أخرى للشاعر، حيث يقول:

((منتدى النشر وما أقدمها
 هـدً في جانبك الشكل فما
 في التهجي أحرفاً تأتي الهجاء)
 أعظم الخطب وما أقسى القضاء
 فالبسي الصبر حداداً ان في
 (جاهد) أو طاك مجد عزاء))^(٦٦)

الأبيات من بحر الرمل وهو من البحور الخفيفة التي يفترض أن تستعمل في نظم حالات الفرح والسرور، لكن الملاحظ هنا أن مسحة من الحزن واضحة تجلج هذه الأبيات، وهذا الحزن قد جاء من استعمال الشاعر لكلمات تشعرنا بالحزن (الشكل، عزاء، الصبر، الحداد) وهي تناسب حالة الحزن، ثم ان علاقة الكلمات بعضها ببعض تشكل نغمة حزينة تجرنا على عدم الاسراع في قراءة الأبيات، بل التمهّل والتريث في هذه القراءة، فالكلمات بما تحمل من حزن معنوي وصوتي هي التي شكلت إيقاع القطعة كلها.

لقد كان شاعرنا القاموسي (رحمه الله) يلهم بداهة بالوزن الذي يناسب الانفعال الذي يقصده، كما كان يلفظ الألفاظ الدالة بطبعها أو بصفتها على المعنى الموضوع بازائها، وبهذا وفر الانسجام بين أوزانه الشعرية وموضوعات شعره.

بقي أن أذكر أن شاعرنا مارس أشكالاً متعددة في القصائد. والأوزان الشعرية وهذا كله بتأثير البيئة النجفية، فقد نظم القاموسي القصيدة ذات الشطرين والقافية الواحدة، ونظم الموشح، والرباعية، والخماسية، والمقطعات ذات الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة، وهو في ذلك لم يخالف الذوق العربي وعمود الشعر بشكل عام، إذ بقي مضمون الشعر كما هو عليه في الموضوعات والمعاني.

ثالثاً: الصورة الشعرية

يتميز الشعر عن سائر الفنون الأخرى بالصورة الشعرية، ويذهب بعض النقاد إلى أن

الشعر في جوهره تعبير بالصورة، يقول الجاحظ ((إنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير))^(٦٧) والصورة الشعرية قيمة فنية بكل معانيها وعنصر حيوي في التداول الشعري وصياغاته الأسلوبية، ويهتم النقد الأدبي بفلسفة التشكيل اللغوي الجازي للصورة الشعرية كونها تركيبية لغوية معقدة وان تشكيلها أمر معضل، لأنها ترتبط بكل ما يمكن استحضاره في الذهن من مرئيات.

وللخيال أثر مهم في تشكيل الصورة الشعرية خاصة، وانه يمثل القدرة على بعث الصور بالكلمات والجمل والقدرة على خلق هذه الصورة^(٦٨) ومعنى هذا أن الصورة الشعرية هي نتاج فاعلية الخيال وتأثيراته الشعورية بالنسبة للشاعر نفسه.

وديوان شاعرنا القاموسي غني بالصورة الشعرية الجميلة، وهي بصفة عامة لا تخرج عن صياغات البيان اللغوي وبديعه، وكانت قريبة من الواقع ومأخوذة من مصادر الطبيعة الخيطة بخيال الشاعر. أما كثافة الاستخدام الأسلوبي بالصور البلاغية المستقاة من الشعر العربي القديم ومعاني القرآن الكريم وقصصه وأساطير التاريخ، فهي نتيجة طبيعية لتشرب ثقافة الشاعر القاموسي بالموارث الثقافي، الأمر الذي مكّنه من استدعاء الصور والمعاني ومن ثم إعادة تركيبها اللغوي في صياغات جديدة ملانة لمدرجات بيئته وموافقة لذوق عصره.

وتتطوي الصورة الفنية في شعر القاموسي على عنصر التشبيه، وقد أكثر الشاعر منه ونراه يستخدم التشبيهات المفردة فيشبه المحسوس بالمحسوس يقول:

((أنت مثلي تفر من هم الأرزض وتأتي حرارة الرمضاء))^(٦٩)

فهو هنا يشبه الليل بنفسه، وهو تشبيه محسوس بمحسوس يقوم بينهما جامع عقلي هو (الفرار). كما استخدم الشاعر التصوير بالتشبيه استخداماً متقناً وجميلاً فكان ركناً أساسياً في بناء الصورة الشعرية وإخراج ما لا تقع عليه الحواس إلى ما تقع عليه حواس السامع في صور قريبة من بيئته أو إخراج ما لم يكن مألوفاً أو معقولاً إلى حيز المألوف العقلي، وكما استخدمه أيضاً في التعبير عن استجابة النفس لرغباتها بجمال الطبيعة ومظاهرها وجمال المرأة (المعشوقة) حيث كشفت صور الشاعر التشبيهية عن كثير من نوازع النفس الانسانية ومدى استجابتها وانفعالها بما تقع تحت تأثيره من عناصر الجمال.

(٦٧) الحيوان. الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. ط ١. ١٩٤٨: ٣/ ١٣٢.

(٦٨) ينظر المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٨:

٣٩٠.

(٦٩) الديوان: ٩٧.

يقول:

((علقت بأطراف المعاء
وتثنرن حبات القلور
فاجل بطرفك هل ترى
لك مهجة ضيعتها

طف مهجة الصب العميد
ب على ربي وادي الرشيد
بين السوالف والنهود
سفهاً بيستان الخدود))^(٧٠)

ويقول:

((وتجلى الروض مخضر القناع
بين مسك فاح في الزهر وضاع
فشدا البلبل في الدوح وذاع
كم تجلى منظر فيه وراع

فأجاب العاشق الصب وقال:
فحبيبي صيغ للحسن مثال
زاكياً يذكو بأنفاس العبير
ونسيم ميسل الغصن النضير

قال: إن الروض بالحسن جدير
وجرى في السمع لي حلو صفير
إن تكن تصدق فيما تنطق
وعليه كل معنى يصدق))^(٧١)

لقد أراد الشاعر إبراز صورة الربيع الذي حل زاهياً مخضراً ومقارنةً جماله بجمال الحبيب، ويبدو انه قد حشد بقية الصور من أجل إبراز عظمة الربيع، وما هبوب النسيم وشدو البلبل إلا أدوات لهذا الأبراز وتبقى الصورة واحدة، صورة الربيع بكل حسنه وروعته. وفي هذه الصور الجميلة رسم الشاعر لوحات بيانية متنوعة تكشف عن سعة خياله وتمكنه من استخدام حسه اللغوي بتراكيب لغوية سليمة.

ويلجأ الشاعر في ديوانه إلى التصوير الهزلي وهذا الأسلوب هو الذي يعتمده الشاعر في الحديث عن عيوب الآخرين وكشف مساوئهم.

يقول:

((عجبت لعاكفين على ضلال
أزالهم عن الحق التعامي
صغاراً إن جمعهم لأمر
تأذر ان يشاد هم بناء

وشد تعجباً فيه استناروا
وأقعدهم عن الجمد الصغار
وان عرضت لهم صور كبار
وان يعلسو لمجدهم منار

(٧٠) الديوان: ٢٧٨.

(٧١) م.ن: ٣١١

وان يحدو التقدم سائقهم وان يقتاد ركبهم الفخارُ
مخافة أن تخونهم المطايا ويكثر في طريقهم العشارُ^(٧٢)

والقطعة السابقة غنية بالتفاصيل والأوصاف المتلاحقة ولا يعوزها شرح ولا تفصيل. والحقيقة التي نرى وجوب بيانها هي ان صور الشاعر جاءت معتمدةً على الخيال أكثر من غيره حيث كان يوفر للوحته كل عناصرها الجمالية ويتجلى ذلك واضحاً في الاتجاه الذاتي الذي هو أكثر الاتجاهات احتفاءً بالصور، لأن الشاعر فيه يعبر عن تجربته الشعورية الذاتية والتي طالما كانت تزرقه فيهم من خلال فنه إلى عالم الخيال يخلق في أجوائه بعيداً عن متناقضات الواقع. وشاعرنا القاموسي واحد من الذين ارتقوا في أحضان الطبيعة يقتنص منها كل رائع جميل.

وننتقل إلى قضية أخرى تتعلق بسابقتها وهي الاستعارة. وفي الاستعارة يمّتحن خيال الشاعر وتتجلى فيها قدراته الذهنية وقوته على خلق الصور واستحضارها، وفي الاستعارة تستعمل اللغة استعمالات تعجز عنها لغة الكلام الاعتيادي، والواقع أن ديوان القاموسي جاء مليئاً بالاستعارات وسنورد بعض النماذج.
يقول:

((أدنت من شرك الغرام رشائي وملاّت من ديم المهموم وعائي))^(٧٣)
انظر لقوله (ديم المهموم).

ويقول:

((كم قد قضيت مع الحبيب ليالياً كان العفاف رداءه وردائي))^(٧٤)
انظر لقوله (العفاف رداءه).

ويقول:

سل الرماد غضوباً هل تخلله وميض نار وان ضوى له لهب))^(٧٥)
انظر لقوله (سل الرماد).

ويقول:

(٧٢) الديوان: ٢٢٨.

(٧٣) م. ن: ٩٣.

(٧٤) الديوان: ٩٤.

(٧٥) م. ن: ١٤١.

((الزهر حسن بك وقفتم عليه فاهتساج اشتياقاً))^(٧٦)
 انظر لقوله (الزهر حسن).
 لقد تعددت الاستعارات في هذه الأبيات وهي تصور لنا إمكانية الشاعر على التخيل
 وقدرته على خلق الصور. ولانعدم استخدام الشاعر لنوع بلاغي آخر هو الكناية، يقول:
 ((من قبل يهرقها الرمساً ن فكم كؤوس قد أراقنا))^(٧٧)
 انظر لقوله في الشطر الثاني (فكم كؤوس قد أراقنا) انه كناية عن الموت، ونلاحظ ان
 الشاعر قد استخدم في استعاراته أفعالاً ماضية مثل (ملاً، كان، حساً) تحمل في طياتها
 دلالات الحزن والشجن والحسرة، وهذه ربما تتناسب مع طبيعة حياة الشاعر في مرحلة من
 المراحل، وأكثر في هذه الشواهد لأنها تحمل الفكرة الأساسية التي يتشكل منها الموضوع،
 حيث نجد أن المستعار صفة من صفات المستعار منه وهو (الإنسان) ويعبر عنها بالفعل، ثم ان
 الشاعر يجعل من الطرفين شيئاً واحداً لذا تظهر الصور الاستعارية كلا واحداً، حيث يظهر
 تأثير الفعل في الجردات والجمادات فيحركها ويجعلها إنسانية دون أن تضيف هي تأثيراً فيه.
 ونقف أخيراً عند المحسنات البديعية من (طباق) و(جناس) وقد يكون (الطباق) أكثر
 أنواع البديع شيوعاً في ديوان القاموسي ومن أمثلته:
 يقول:

((من كوثر الله لا شرق يرنقها بملحديه ولا غرب يهودها))^(٧٨)
 يطابق هنا بين (شرق) و(غرب).

ويقول:

((فلا لكعب ترى فخراً على جسم

ولا (لعرب) ترى فضلاً على (عجم))^(٧٩)

يطابق بين (عرب) و(عجم).

ويقول:

((أدارت الحق أنى درت واعترفت بقولك الفصل في لاء وفي نعم))^(٨٠)

(٧٦) م. ن: ٢٨٠.

(٧٧) م. ن: ٢٨٠.

(٧٨) اللديوان: ١٩٥.

(٧٩) م. ن: ٤١١.

يطابق بين (لا) و(نعم).

ويقول:

((يعجم قلبي كمدي ودمع عيني يعرب))^(٨١)

يطابق بين (يعجم) و(يعرب).

والأمثلة على الطباق في الديوان كثيرة. نكتفي بما أوردنا منها.

أما الجناس فقد استعمله الشاعر أيضا ومن أمثلته ما يمكن أن نلمحه في قوله:

((لا تحشَّ جنَّ عبقرٍ فليس في عبقرٍ شر))^(٨٢)

الجناس وقع بين (عبقر) الأولى، وتعني وادي عبقر، وبين (عبقر) الثانية؛ وتعني (الجنس)

والجناس هنا تام.

ونحن حين نتأمل هذه المحسنات البيعية وغيرها في الديوان نجد أنها لم تأت في الشعر دون سبب. ومن غير المنطق أن يأتي بها الشاعر مجرد الزينة اللفظية، ولكن المنطق ان هذه المحسنات جاء بها الشاعر ليؤكد أمراً أراد أو شغله فأراد أن يلفت له الأنظار وينير اهتمام الناس به.

وأخيراً أقول: إن الشاعر صادق القاموسي لم يكن مبدعاً كل الإبداع في صورته الفنية، ولا مقلداً كل التقليد وإنما أخذ من كل بطرف، ومزجه بعد استيعابه وتمثله ذاتياً ثم صبه في قالب شعري خاص به.

رحم الله شاعرنا القاموسي فقد كان إبداعه عطاء تجربته في الحياة وعصارة أفكاره ورؤاه الفنية، وكان شعره ممتعا ومفيداً في آن معا... وبهذا يكون صادق القاموسي قد أدى مهمته الفنية في خدمة المجتمع النجفي إلى جانب خدمة التراث العربي الخالد، وصدق الشاعر^{٨٣} فيه حين قال:

((أبا رشاد والهوى يلد الهوى والشعر يولده الخيال المشرق

ولقد عهدتلك شاعراً متمرساً في كل أجواء البيان تحلق))^(٨٤)

(٨٠) م.ن: ٤١٠.

(٨١) م.ن: ١١٣.

(٨٢) م.ن: ٢٧٤.

(٨٣) إنه الشاعر جليل حمود شعبان. أديب وقانوني، تربطه بالقاموسي صداقة قديمة. القصيدة كاملة مثبته في هامش الديوان: ٣٣٥.

(٨٤) هامش الديوان: ٣٣٥.

المصادر والمراجع

- ١- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون. ط١. ١٩٤٨.
- ٢- ديوان صادق القاموسي: جمعه وعلق عليه محمد رضا القاموسي. ط١. المكتبة العصرية، بغداد، ٢٠٠٤.
- ٣- الشعر، كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابث درو. ترجمه د. إبراهيم الشوس. بيروت ١٩١٦.
- ٤- صور من الحياة الشعبية النجفية في الجيل الماضي، حامد المؤمن، ط١، د.م. ١٩٩٩.
- ٥- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٥.
- ٦- عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، ١٩٥٨.
- ٧- المدخل إلى النقد الأدبي الحديث. د. محمد غنيمي هلال، مطبعة الرسالة. القاهرة، ١٩٧٨.
- ٨- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة. ١٩٧٨.
- ٩- نظرية الأدب، رينيه ويلك، أوستن وارين، ترجمة محيي الدين صبحي، د.ت.

القاموسي فذ في الذاكرة (*)

الأستاذ (المرحوم) عباس علي

في بيئة مضمخة بأنفاس النقي.. وبين أحضان أسرة عربية عريقة توزعت أولاعها بين
حلبة العلم.. وميدان الكسب الحلال.

في هذه البيئة..

درج وترعرع وشب الأستاذ الحاج صادق القاموسي بن الحاج عبد الأمير بن الحاج
صادق البغدادى المعروف بالقاموسي رحمه الله

التأمت وشانجه باصالة المختد.

وتماسكت أعرافه بنصاعة المنبت.

ولد في النجف عام ١٣٤١هـ وفيها قويت ساقه، وتمكنت في تربتها جذوره، وكانت
النجف وما تزال خصم معرفة لا قرار له.. تموج بالعطاء.. وتتململ في أوردتها النابضة
نوازع اليقظة والتحرر، فضلاً عن كونها في ضمائر المؤمنين نقطة جذب، وفي عقولهم مصدر
إلهام. وفي تصورهم موشور زجاجي تنجم فيه من مميزات تلك الفترة ما هو أكثر فاعلية
للسطوع والتألق..

تستقر في جامعته الكبرى كفاءات..

وتتوهج في أروقنها مشاعل نور.

تستقبل في كل عام أفواجا لا حصر لها من المشرئين نحو المحجة والصراط، وتودع في
كل عام أعدادا لا حصر لها أيضاً.. ممن امتلأت حقائبهم.. وتناسقت في ضمائرهم حوافر
التطلع، حاملين إلى الدنيا أقباساً من الهداية والتوجيه وريادة الفكر..

صحيح أن أساليب الدراسة الحوزوية كانت وما زالت مشدودة إلى ضمانهم متوقعة.
ليست على كل حال مؤهلة - بواقعها المعاش للتواصل مع المستجدات التي غمرت
جامعات العالم في المنهج والأسلوب.

إن بقاء القديم على قدمه من غير زحزحة إلى الأحسن، أضع على أجيالنا - وأقولها
بصراحة - فرص الاستفادة من كنوز التراث وما احتجنته مظانه الموثقة من اللقى.. تركوها
متدثرة بغطاء سميك.

ولكن الصحيح أيضاً أن الحزين الذي تتكى عليه تلك الدراسات المعول عليها.. صنعته

(*) فرزة من كتابه المخطوط (أفذاذ في الذاكرة).

دربات متمكنة.. أفنت أعمارها بسخاء من أجل رفد المسيرة العلمية وثوابها تقويمات الديمومة والخلود.

لقد أنجز أولئك الأعلام - والمسيرة طويلة - بالسعي البناء، وبالصبر الممض والمرمض صرحاً شامخاً لتراثنا الفكرى.. لا ندحة لنا من الاعتراف به والحرص عليه. بحثاً وكشفاً واستنباطاً وإضاءة واستنضاء.

ولكن بالمدرج الذى ألفوه، والذى تصافقوا عليه جيلاً بعد جيل.

وفى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى حاول رهط من أئمة الفكر وأقطابه فى عاصمة العلم وفى مقدمتهم الجهيد الفذ الشيخ محمد رضا المظفر - طيب الله تراه - التحرر من ربة الطرق المهتدة، والسبل الجاهزة، والمسارات المستهلكة التى طالما سارت على خطوطها المتعبة قوافل المنتمين.

حاول هذا الرهط المؤمن اعتماد مناهج وأساليب تتناغم ومنطق العصر لأن السمة الغالبة لمعظم المسارات المتداولة فى الحوزة إنما هى الانغلاق المطبق لكأن هذا التراث الضخم نبت وقام واستمر من دون أرض.. من غير هواء وماء.. من دون ناس فى الأحياء يتعاطون معه أسباب النشوء والنماء والتطور، ويتبادلون معه الفعل وردة الفعل.. فى الوقت الذى يسود الحوزة النجفية اصطلاح متقدم تتأدى وسائله إلى منح الطالب حرية اختيار مدرسيه فى إطار الدراسة الفردية، وهو سياق ربما تتأخر عنه جامعات ذات جذر فى العالم.

ان تصحيح المسار فى هذه الجامعة العتيبة التى يبلغ عمرها العشرة قرون بادخال بعض مفردات المعاصرة فى مناهجها لم يكن عملاً هيناً لنا، بل العكس هو الصحيح.. كان عملاً شديداً الصعوبة، وكانت الطرق خلالها وعرة شديدة الوعورة. بسبب الامتداد التاريخى لما درج عليه القوم كما قلنا سلفاً من إتباع الخيار التقليدى الخض. وبسبب انجرار المناهضين لفكرة الاصلاح إلى تكتل معارض هدفه تعطيل المداومة ووضع العصى فى العجلة. إن الذين قادوا الحملة المضادة ألقوا الدخول إلى الحياة من خرم الابرة بدلاً من الأبواب المشرعة..

كانوا يرون إخضاع الأساليب والمناهج لمتطلبات التغيير بعبء مخيفاً، وفى الأخذ بالمقترحات التى تنمو فى القمم خطراً لا مناص من الوقوف بوجهه.. وفى تحريك القوالب التى أكلها الصدأ اعتداء على المضمون.

وفى غمرة هذه المواجهة الحادة بين دعاة الاصلاح، وبين المتوهمين أن هذه الصيحة سوف تحمل النار إلى البيدر، انشقت التربة النجفية عن نبتة محضلة ليس لما غير النحف من

مزدرع مثلها أن تنمو فيه.. وتعطي ثمارها في ظلاله.

إنها منتدى النشر..

العلامة الشاحصة على درب الحياة الجديدة للفكر..

الفكرة المفتوحة على الأطروحة بمؤشر هادف..

والمطلق السماح لنقل المدار العلمي في الجامعة النجفية من حالة التكاثر والركود إلى

حالة مزججة تضطرب هواجسها بلواعج الوثوب والتجدي.

فكان ما كان مما لست أذكره..

المهم...

إن هذه النهضة - ولو بصيغة أضعف الايمان - استقطبت اهتمامات الشباب النجفي

- صاحب الوثبات الغوالب - فوجد في هذا البصيص أملاً وفي النوايا المتأججة باستيعاب

المتغيرات فرجا ومخرجا.

وكان صادق القاموسي ضمن الرعيل المتقدم، إيماناً منه بجدية الخطى التي مشاها الشيخ

المظفر. وتحمساً للدور الذي فهمت به الطليعة الواعية من أجل إعطاء الجامعة النجفية دماً

جديداً يمهدها الطريق لتعزيز دور الرسالة دون أن يرهقها الترهل أو الانغلاق.

كان لا بد لهذه الطليعة المؤمنة بمركز النجف أن تنتصر.. لأن الذين تقدموا الصفوف

أصروا على أن يخفروا صخر الطريق بأناملهم.. بعد أن شقوا طريقهم من الموقع الفكري

الذي انطلقوا منه.

كان القاموسي في صميم هذا التوجه.. باعتباره ابن الحوزة أولاً، ولكونه من العناصر

التي أذكى التحرر في أعماقهم روح الطموح.

درس في الحوزة على غرار ما دأب عليه طلبتها وفق المدارج المتبعة من المقدمات إلى

السطوح ومنها إلى صعيد التخصص العالي.

وتوجيهاً للدراسة المنهجية الموثقة بالطرح المتساوق مع فناعات الجيل على ما سواها..

امتدت إرادته إلى الالتحاق بكلية منتدى النشر.

وفي هذا المنعطف.. إنطلق القاموسي يمارس تآديات نشيطة وواعية، كرسها وفي يده

آليات فاعلة من فكر وقلم وعلم لدعم حركة الاصلاح وواجهتها مؤسسة منتدى النشر

لتبقى النجف وجامعتها قاعدة إسلامية.. تمذ الأقطار الاسلامية بالكوادر المحصنة بالفكر

الاسلامي.

وكانت مجلة (البدر) النجفية. هي الساحة التي تلقفت عطاءه، فجال في أكثر من حقل،

وعالج أكثر من قضية باسمه الصريح تارة وبأسماء أخرى كمرشد اللجنة و(أبو عادل) تسارة أخرى.

قرأت نتاج قلمه بامعان.. ومشيت معه بتؤادة.. وخضت معه في الحج بجوانه المتلاطمة. وبغربال دقيق للممت تثاره.. فوجدته بحق زاداً ثرياً، تحكم أو اصره لغة أدبية سهلة وينسج بصبعيه فكر مؤدلسج يدور في فلك الأطروحة ولا يتعد عنها..

وفي وسع المتسبع أن يحصر اهتماماته القلمية بمدركين هما التوعية والالتزام. في مقال له تحت عنوان من مشاكل جيلنا الجديد التقطت فقرات دالة منها: [وما أدري أيكون من الانصاف أن نقف هنا عند حدود الكلام المعسول نعبد فيه الطريق.. أم نتجاوزه إلى التماس بعض المشاكل وأعقدها - فيما اعتقد - تأخرنا التقاضي وهذه حقيقة مرة أرجو أن نعترف بها، ونواجهها بصبر وأناة.

فالأمية في بلادنا بعد ما تزال تأخذ من كل مائة خمسة وسبعين كما حدث مسؤول خبير، والباقون وفيهم الواحد من كل خمسة لا يحسن من القراءة إلا تحير الأوراف بتوافسه القول، وربما احتاج إلى من يقرأ له ما يكتب بنفسه. والباقون حاشا القليل ليس فيهم من يحسن أن يقرأ ويستفيد، ثم يحسن الحكم على ما يقرأ، وأرجو أن لا نكون من المعالين إذ أخذنا من كل خمسة ثلاثة لا يحسنون ذلك وألحقناهم بالطوائف المتقدمة. وإذن فلا نسلم على الخمسة من المائة في محيطنا يحسنون القراءة والاستفادة والحكم. وهو عدد ضئيل لا يبعث على الارتياح]..

وفي مقال آخر نشرته البذرة تحت عنوان أيها الشباب يقول فيه مخاطباً شباب النجف: [أيها الشباب النجفي.. أنت قبل كل أحد مسؤول أمام الله والأمة باعتبارك مسلماً أولاً وباعتبار أن العالم الاسلامي جعل فيك ثقته، فهو ينتظر منك أن تكون قبل كل شيء مثلاً للرجل الصالح الذي طبق على نفسه مبادئ الاسلام، وأن تكون بطلاً من أبطال الارشاد والتبشير بالمثل الدينية، والفناء في سبيل ذلك، فلا تحيب - يا عزيزي - رجاءه وكن عند حسن ظنه تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤدي ما يجب عليك تجاه مبدنك واجعل من طريقك، غرس مبادئك في نفوس الناشئة، ببثك فكرة المدارس الدينية في المبدن والأرياف.

فأنت اليوم.. وقد لمست الخط بيدك أحوج إليها من ذي قبل.. وإذا أقدمت فسوف لا تعدم ناصرًا لك من علمائك الأعلام والله بعد ذلك من وراء الجميع]. وكلفظة عابرة أستل من مقاله - يا أصحاب السماحة - فقرات:

يسألني بعض المتحمسين للثقافة الدينية.. هل يمكن ان نجمع في صعيد واحد الأفندية مع أهل العلم مع شدة التباعد بينهم!! قلت الأمر سهل.. إذا خلقت طبقة متوسطة تجمع بين محاسن القديم والحديث.. فقال والأسى يملأ صدره.. متى تخلق هذه الطبقة يا رب.

وفي مقال تقترب من حافته لمحات نقدية برينة [طرايش] إسمعه:

|الطرايش التي أريد يا سيدي القارئ أن أحدثك عنها هي من هذا النوع الذي يزداد عرضه في أسواق الحياة يوماً بعد يوم والذي يكرهك على الاعتراف برؤيته ووجوده.. رغم إحساسك بانك لا ترى له أي أثر ولا تحس له بوجود.

ولكنك هل تستطيع أن تعلن إحساسك وتجاهر بالواقع؟ كلا لأنك ستصح [ابن حرام] في عرف الجميع.

انك كثيراً ما تسمع ان فلاناً وضعوا على رأسه طربوش الأدب.. وفلاناً منحوه طربوش العلم.. وان هذا يلبس طربوش الفلسفة، وذاك طربوش البحث والتدقيق، وثالث طربوش الاصلاح، وكثيراً ما يشاع ان هذا الشاب تطربش بالوطنية وذاك الشاب بالتضحية وهكذا كل من قد أعدّ لرأسه طربوشاً.

* * *

عرف القاموسي في الأوساط الأدبية انه شاعر كبير من أفراد جيل هو آخر جيل في سلسلة أجيال مبدعة، متتالية تمثل ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح الشعر النجفي الحديث وعندني ان القاموسي شاعر ملهم قبل أن يكون كاتباً مرموقاً.

والنجف بسبب كونها مدينة شديدة المحافظة في أكثر مظاهرها الاجتماعية إلتهمت الشعر متنفساً لها.

والشعر في الوسط المنغلق هو المتنفس الوحيد.. والمناسبات في هذا الوسط هي السوق الراجحة للشعر.

خذها من المولد النبوي، ومواليد الأئمة ووفياتهم.. وتنتهي في وفاة شاعر أو زعيم أو تأسيس جمعية أو عودة من الديار المقدسة.

وقد شارك القاموسي في معظم تلك المناسبات.

على كل...

كان القاموسي يتمتع بمواصفات الشاعر النجفي الأصيل بمقاييس الحقبة التي عاشها إلى جانب عمالقة الشعر الذين عاصروهم، تسعفد لبلوغ الذروة ثقافته الواسعة وفكره النير الذي تتلجج ومضاته بنفحات حرة.. يجمع إلى علوم الشريعة علمه باللغة والأدب. ويجمع إلى هذا كله إحساس الأديب المهف، وعبقرية العقل الموله.. وطبع الناقد الساخر وإذا أراد الباحث

المنقّر أن يضع إطاراً وصفيّاً لرحلته مع الشعر، فلا أراه يعدو الأستاذ حامد المؤمن حين رسم صورة مُمسّقة للعلائق البارزة في الشاعر النجفي انه محمدى الفكر، علوي القلب.. عربي التوجه واللسان.

والرثاء في شعر القاموسي هو المدرج الكاشف عن ألميته وتفوقه، ورجاحة مبادئه وستبقى رائحته في رثاء الشيخ المظفر عنواناً للشاعر المجود:

قالوا ارثه قلتُ هذا اليوم مولده
والمرء ذكراه لا فوه ولا يده
ومنها

وصدّ عن ذلك أضحي بجاحجه
ولاذ في نفس شاك يصعده
وراح يفتح باباً من هدايته
ظلت سنيناً همة الجهل توصله
وفي ديوانه المخطوط وفي الأشعار المطبوعة لوحات شعرية في أكثر أغراض الشعر وأبوابه تدل على انه الشاعر المطبوع.

ولولا ان القاموسي.. أعني قلبه وفكره وأدبه هو الواقع الذي نعيش كل يوم.. والوجدان الذي نحسّ كل حين.. والنور الذي يمدّ إلينا الشعاع في كل سبيل.. لولا القاموسي هو ذلك.. لما كان شيء أيسر على الزمن من أن يكفن ذكراه بالنسيان لأن الرجل حين أغمض عينيه في ١٩٨٨/٧/٢٢ لم يترك لنا تركة ضخمة من ثروة الكلام تملأ الرفارف والقماطير.. فكيف إذن بقيت هذه التركة تعيش وتتمو وتخصب ثم تزيد على الأيام دفقاً وعطاءً وخصباً.

كان ذلك.. لأن القاموسي نحت ثروته الفكرية من أساسيات التزاماته الانسانية المتوحدة مع الايمان المطلق بالوعي الرسالي، فلم تنفلت به رؤية مضية إلى اتجاه يناقض مبادئه، أو يسوغ له الانحراف في توجه مشوب.

رثاه أكثر من شاعر وأديب

بيد اني أرى في قصيدة الشاعر راضي مهدي السعيد مزجاً دقيقاً بين اللوعة والأداء الحسن والتي مطلعها..

كيف أذعنت فارتضيت الرحيل
ناركا سفحك الأعزّ الظليلا
ومنها:

ثم قوبر العينين من غير سُهد
وهموم تلقى السليم عليلا
أنت باق روحاً وصوتاً وذكر
وستبقى فينا نداء جميلا

ذكرى القاموسي الشاعر (★)

الأستاذ السيد عبد الحسين الرفيعي

في الرمن الصعب، يظل البحث عن الأفضل، منارة تغتسل بمالة الضمير، ومنى تتطلب
فني اصطبار العاجزين! وحين التفت إلى عالمي ورؤاي يتلفاني لحن يعز على الحياة، وموج لا
يدر كه النانهون في الطريق...

الانسان المتناع هدفي ومداي وقدري الذي ترهوه يد ينابيع، لن أبرح هذا الجمر، فهو
سبيلي إلى العشق الذي تفتح له العيون والقلوب وعالمها الفسيح المتألق، حيث التقى فيها
بالروداد الذين حملوا راية الفكر والنضال وكانوا معنى للحياة وألقاها. وحين أدخل إلى عالمي
المحسوس، يقف أمامي الشاعر والانسان صادق القاموسي، بجلاله وقدره، وثورته، وتألقه،
ومضمونه الذي لا يخبو وسيفه المشرع الذي لا ينيو... الانسان الذي كان يضيء له
الدرب، جذر اعتنى بالقيم، وتلفع برداء ينكشف من خلاله صدق يقترن بالهدير، وحممة هي
وع السمع. وقلب تضحك له الغدران في أحضانها.. صادق القاموسي، علم وأدب، لم
يختص بالدرن ولم يركن إلى العجز والتبرير... وحين اقترب إليه، ولم أكن بعيداً، فان آهة
حوي كانت تنفجر منه، تنساب جذوة حرساء تعبر عن مكون مليء بالأمانى والأحلام
انتى لم تر النور. وتعبت وهي تسبح في مرآة الوضوح... صادق القاموسي، مدى شعري
صادق وليب يغني عن كتاب ورسوم، هيكل عظمي اترز بالنهي، وصدر رحب وسع
الحياة. وفيد ما فيه من عوالم حرصت على البقاء، لوحه ينضح منها الألم والأمل، خافت أن
تفرط بشداها وجدواها.. وهكذا كان صادق القاموسي، الذي ستظل ذكراه متقدمة
كالكوكب الذي يزين ليلنا، ويحنا على الالتزام بالقيم والصمود.

صادق القاموسي الذي اعترف من مدينة (النجف الأشرف) فماد وعلاه وصداه، تطلع
إلى عالم التجديد، بكلماته المتوشحة بالثمرود والريادة، مبتعداً عن التجذيف والنفاق، وحين
أمدن النظر فيما كتب، أجد ان ديوانه الشعري وليس فيه كل ما قاله أو ما يريد قوله - هو
صورة لعالم وواقعه. كما ان بحوثه عن (مشاكل الشباب) و(المقداد بن عمرو الكندي)
(وإبليس) - وجميعاً من مخطوطاته - تعبر عن خفقات قلبه ودنياه التي حلم بها.
لقد كانت (جمعية منتدى النشر) ملهمته بروادها، وقاعدته الثقافية والفكرية التي انطلق

(★) نشرت في جريدة المستقبل العراقية العدد ٢٤ / ١٨ تموز ١٩٩٨م.

ذكري القاموسي الشاعر
عبد الحسين الرقيبى

منها ودافع عنها، واكتوى بنار الدين (حصروا) أنفسهم في (القمقم) وفضلوا الابتعاد عن طريق الشمس... نعم فالنجف الأشرف بأزقتها و(درايينها) حفرت فيه مجراء، ولونت مداه، وتركت للأجيال الثمر الخير.

١٩٩٨

أديب مرهف، وشاعر مبدع، عرف بالنشاط
الذهني وصفاء النفس وسعة الاطلاع.

عبد الصاحب الموسوي

حركة الشعر في النجف الأشرف

وأطواره/٥٠٨

فتى الآداب

في رثاء العالم الأديب الأستاذ صادق القاموسي (*)

الأستاذ (المرحوم) طارق الخالصي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله كتاباً مؤجلاً)

صدق الله العظيم

في عسرة الحزن والأسى أكتب مؤبنا الفقيه العالني الأستاذ الأديب الحاج صادق الحاج عبد الأمير القاموسي، أؤبنة وأستشعر عظم الخسارة بفقدته، عالماً جليلاً، وأديباً بارزاً بخصائمه بين الأديباء المعاصرين، وأستاذاً عالني المكانة بين أقرانه. وانساناً كريماً ذا مروءة وسماحة وصدق في الأقوال والأفعال. واني أستسمح - الفارني الكريم - عذراً ان لم يتسع مجال القول أو قَصَّرَ بي البيان دون أداء واجب التعريف بفضلته، فذاك ميدان يستأهل الكلمات الطوال، وهذا مقام يقتضي الإيجاز والاحمال.

تنامت - للفقيه العالني - فضائل مؤتلفة، قلَّ ان تجتمع في مثل تلك الصيغة والانتلاف: أئبنتها أصلاً في تكوينه الفطرة السليمة، والنشأة الكريمة، ورفدتها على مرَّ السنين التربية المستديمة والخبرة المنعمقة في شؤون الحياة كافة.

فقد ولد - رحمه الله - في العام ١٣٤١هـ في أروقة علمية خالصة، ونشأ في بيت ذي تاريخ طويل في العلم والأدب والدين والتجارة. فتشرب أول ما تشرب في قرارة نفسه الإيمان بالاسلام ديناً وعقيدةً ونظاماً وعلافات إنسانية. فكانت له سبيل عمل ونظام. وصقلت مواهبه حلقات الدراسة في النجف الأشرف ونوادبها، ففتحت له في مطالع الشبواب قريحة الشاعر، واستوت له ملكة الأدب، يتذوق أسرار البلاغة العربية في دواوين شعرانها. وفي رسائل أديانها المأثورين، فيقتدي بهم في إبداعه.

ثم مصى على سنته في ثقة من نفسه وتمييز لمكان القوة فيها، يتولى تربية ذاته ويواصل دراساته في فنون متقاربة، ولما تأسست مدارس (متندى النشر) في الأربعينيات، وقد أمهها مند بدء تأسيسها كانت له جسراً يصل بين ما ألفه من التعليم الأصيل في حوزة النجف

(*) أعدت لتلقى في مجلس الفاتحة، ولم يتسع المجال لذلك.

الأغر بزياده المأثورة فى النفقه فى الالدين وفى اللغة، وبين التعلیم العصورى فى هذا المنتدى الذى تخرج فىه بامتياز وأصبح أستاذاً بارزاً فىه تخرج علیه فطاحل العلماء وكبار الأباء. لقد أكسبه التدریس - وهو يزاوله - نفاذة بصیره فى كتب التراث وأعلامه، وفى مسائل النحو والبلاغة فهماً وتفهماً، طالب علم یشارك فى الحیاة العامة أقوى ما تكون المشاركة، ومن ذلك حضوره الفاعل محافل العلم والأدب فى النجف الأشرف وبغداد وبعض المحافظات شاعراً فحلاً وخطیباً مفوهاً بين خطبائها. فكان طوال تلك السنین یواصل تریبه ذاته فى مسیره متصله ینتقى فیها التعلیم بالعمل كخیر ما تكون التریبه المستدبجة فى جهودها الذاتیه واتصالها بالحیاة.

ولقد كان لذلك التنوع المتدرج فى أسس تكوینه العلمی، ولتلك الموازنة الفذة بین العمل وطلب العلم، یقبل علیهما لا وانیا ولا متعجلاً، أثرهما فى أدبه وفكره، وفى عمله وسلوكه، اتساعاً فى آفاق ثقافته وتنوعاً فى مجالها، وتعمقاً فى خیراته، وتعدداً فى مبادئها، وتعویلاً على العقلانیة فى تناول الأمور، وتمسكاً بالقیم الانسانیة فى اتخاذ المواقف وإنشاء العلاقات، فلا غرو ان یحظى بنصب راف من اتران الشخیصة وتكاملها وتمیزها - فهو نسج وحده لا مرء - ولقد تلمس هذه الخصاص ومتضمناتها فى أدبه نثراً وشعراً، كما تلمس فى المهمات التى فخص بها، وفى علاقاته بالناس ومشاركته فى الحیاة العامة، فهی ماثلة فى فكره وفى أخلاقه على السواء، وكلما تأمل المرء فى أدبه یبین له انه لیس محض ممارسة فكریه مهما تكن محكمة، وانما یمثل خیرات عقلیه عمیقة بجوانبها الفكریه والوجدانیة، تعتلج فى نفس صاحبها، فكانه - رحمه الله - ینزعها انتزاعاً من صمیم فكره ومناطق وجدانه ومن تجاربه فى الحیاة، وإذا كان ذلك یرصد على نثره، فما أحرء ان یرصد على شعره، فموضوع قصائده وخیرات الحیاة وتجاربها، وشأها الافصح فى مطارح المشاعر والوجدان، ینتقى فیها الفكر بالعاطفة وتمتج الآراء بالمواقف من دون الأهواء الجامحة والنزوات التى تفلت من الزمام.

وإذا كان الأسلوب فى نثره مراعى فیه الملائمة والمساوقة بین المعنى وبين المبنى، فما أحرء أن یتمیز فى الشعر وأن یعنى به فى الصنعة والاحكام. وكذلك كان شعر أستاذاً الفقیه القاموسى لا یتدفق تدفق النهر العباب، ولكنه یرتفع ارتفاع البناء الرکین یستند إلى أسس متبینه، بل یتصاعد أحياناً كما تتصاعد الشجرة الباسقة متماسكة تمتلئ بالحیاة. رحم الله فقیهنا العزیز فقد اتسعت علاقاته بالناس من مختلف الطبقات، فهو فسح

الجلس، حفى اللقاء، عذب الحديث، لىن الجانب، يستجيب لذوى الحاجات ولا يتخلف عن الشفاعة، وان له اغفائة الوداعة والحياء واغفائة المهابة والاباء. لقد عرفته قبل نىف وعشرين عاماً، وسعدت بصداقته، وقد شهدت فيه عن كئب تلك الفضائل التى أجهلتها سواء فى اتجاهات تفكيره أو فى أخطاط سلوكه، ولقد تعلمت من أدب فكره ومن أدب نفسه، وما أغناهما من آداب. فاذا عم المصاب به وشمل، فان رزنى به كبير متعدد الجوانب: أبكىه عالماً وأديباً، وأبكىه صديقاً عزيزاً، ولا أتأسى إلا بقوله تعالى (والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) صدق الله العظيم.

١٩٨٨

قراءة في ديوان الشاعر صادق القاموسي (★)

الأستاذ أحمد زكي الأنباري

صدر في بغداد (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م) عن المكتبة العصرية، ديوان صادق القاموسي الذي جمعه وعلق عليه، محمد رضا القاموسي.

قامت بنية الديوان - أو هكذا شاء محقق الديوان الفاضل وجامعه والمعلق عليه - على ثلاثة محاور/ فصول، كانت جواباً لكل سؤال يمكن أن يتولد في ذهن المتلقي عن الشاعر. شخصيته، مواقفه، علاقته بمجتمعه، انتماءه السياسي، ما يتصل بفنه الشعري وبناء قصائده وصوره وأخيلته وحلمه الفني، هذه المحاور الثلاثة توزعت بين ثلاثة أطراف شكلت خيمة رجل أديب شاعر مصلح مثقف مجدد شارك في صنع تاريخ مدينة، صنعت هي التاريخ، وقعدت للأدباء قواعد الأدب، وهو مع هذا وذاك إنسان عرف التقوى قيمة إنسانية وواجباً دينياً، فراح ينهل من تقي إمام المتقين متخلفاً بأخلاق النخبة التي شاء لها الله أن تكون نماذج تحتذي بها الأمة وترسم خطاها.

ونحن نلج رحاب هذا الديوان الجليل يدهشنا الجهد الرائع لحقق الديوان، وما ذلك بمستغرب منه، وهو الأديب والمثقف اللماح، وافق هذا العمل - تحقيق ديوان صادق القاموسي - في نفسه هوى الحب، فمحضه الاخلاص والود، وأعطاه من النفس والوقت ما أبرزه بهذه الحلة القشبية وسد به فراغاً في عقد ثقافتنا وتراثنا يمثل هذه الدرّة النفيسة التي يمثلها يتجمل العاشقون للشعر.

ففي المحور الأول الذي اشتمل على مقدمة المحقق التي جاءت غنية بما يمكن المتلقي من رسم صورة صادقة لشاعرية هذا الشاعر وشخصيته، وأحقق الذي نعرف فيه المقدرة على تقديم كل ما هو جديد بديع عمد إلى المقدمة وجعلها لوحات تشكيلية عددها اثني عشرة لوحة في كل لوحة يجد المتلقي جزئية من الشاعر وما ان اكتملت هذه اللوحات حتى تجرد نفسك أمام شاعر وإنسان تمكنت ريشة المحقق من رسمها وهو مدفوع بعواطفه وأفكاره وما احتوته ذهنيته عن إنسان كان يرى فيه ملاذاً ومعلماً. لذلك وجد في هذه المنطقية ساحة رحبة للتعبير عن دوافعه والأسباب التي دفعته للاهتمام بشعر (صادق القاموسي) ومن ثم توافره على جمعه والتعليق عليه، فمن تلك الدوافع ما هو ذاتي يرجع إلى علاقة المحقق بالشاعر، تلك العلاقة القائمة على وشائج النسب الصميمية التي تربطه بالشاعر، ومنها ما

هو موضوعي يرجع إلى ان الشاعر واحد من شعراء مدرسة النجف العريقة.
وفي الخور الثاني تطرق الجامع إلى نسب الشاعر وانه سليل عائلة عراقية عربية تنتمي إلى قبيلة ربعة المشهورة ومن فرع من فروعها الكبيرة (المياح) وانه ينتمي من حيث المكان إلى مدينة السلام وحاضرة الثقافة والعلم (بغداد) حتى ان جده الكبير عرف بـ(محمد شريف البغدادي). ثم أشار إلى ولادته في النجف الأشرف بعد ان هاجر إليها والسده في أواسط القرن الماضي امتثالاً لرغبة خاله المجتهد الورع الشيخ باقر القاموسي البغدادي. وقد لحقه لقب القاموسي من جهة خاله هذا فصار علماً على عائلته دون أن ينسى انتماءها إلى - مياح ربعة -، ثم تحدث الخقق عن نشأة الشاعر ومهنته في مطلع حياته وكيف دفعه طموحه وحيه للأدب أن يتعلق بتلك النخبة الصالحة من علماء وفقهاء وأدباء وشعراء من مختلف الأسر النجفية، وعلى طريقة أقرانه تابع الدرس الحوزوي حتى وصل إلى بحث الخارج وكان أساتذته في مرحلة ذلك الدرس الأجلاء من أهل العلم والعرفان الذي كانوا كواكب تلك الحقبة.

في الخور الثالث حدثنا عن انتمائه لكلية الفقه التي افتتحها منتدى النشر في النجف وتخرجه فيها ومن ثم قيامه بالتدريس فيها لاسيما درس المنطق، كما عمل مرشداً مجلة البذرة التي أصدرتها الكلية.

وفي الخور الرابع قدم الخقق لحة عن نشاطه الوفاة في منتدى النشر وكيف انه كان من أعضاء الجمع الثقافي الديني المؤسسين والإداريين وأشار هنا إلى العلاقة الصميمية بينه وبين المنتدى التي تبدت ظاهرة في شعره.

وفي الخور الخامس حدد لنا الخقق بداية قرض الشاعر الشعر، ومحاولاته الأولى التي لم يطلع عليها إلا نفر من أصدقائه حيث كان الحب هو الأوار الذي يلهب مشاعر هذا الشاب النجفي الذي يفيض رقة وعذوبة ويمتلك ناصية الكلمة المتوجهة بكل ما في الاحساس والمشاعر وكان ذلك عام ١٩٣٨م. أما أول قصيدة أنشده له في المحافل فكانت بمناسبة زفاف أحد طلاب المنتدى عام ١٩٤٣م وكانت باسم مجهول، غير ان الجمع أعرف برقة صاحبهم فعرفوا لها قصيدة القاموسي، ثم تابع الكتابة ونشر أول قصيدة في مجلة البذرة بعنوان (وعدتني) وكانت بتوقيع مستعار إلى أن حل عام ١٩٥١ وفي حفل رثاء أحد أكابر الفقهاء واجه القاموسي الجمهور، ثم أعادت مجلة البيان نشر القصيدة وباسمه الصريح.

من هنا عرف صادق القاموسي شاعراً له موقع الصدارة مع شعراء العراق فهو يدعى للمشاركة في المهرجانات الأدبية في بغداد والكويت ويشارك في مهرجان الربيع عام ١٩٧٢م والذي أثر بعد أن القى فيه قصيدته (الحفيد) الصمت والانقطاع عن قول الشعر

لأسباب لا تخفى على القارئ، وفي المحور السادس أطلعنا المحقق على صفحة أخرى من حياة الشاعر حيث انتقل إلى بغداد عام ١٩٥٩ مدفوعاً بالحنين إلى أرض الأجداد تاركاً المجتمع النجفي الباذخ علماً وثقافة وفقهاً وشعراً - عاد إلى بغداد - وزاول عمل أبيه في بيع الأقمشة لكن سحر الكلمة كان أغلب حيث تلبسه عبقر الشعر والثقافة والكتاب الذي جعله يتخلى عن مهنته ليشتري المكتبة العصرية عام ١٩٦٤. وهنا تجلّت نبالة النفس والأدب والأخلاق البهية لشاعرنا حيث أبقى صاحب المكتبة (محمود حلمي) رغم شرانه المكتبة منه، وجانب آخر تجلّى في خلق القاموسي انه كان يعمل سماحاً متوياً لكل أصدقائه ومعارفه من قيمة الكتب وسرعان ما أعاد حبال الوصل بينه وبين عالم الثقافة والأدب فكان له حضوره المتميز في مجالس بغداد الثقافية.

أما الحديث عن شعر القاموسي فشعره الذي ولد ونما وترعرع في بيئة النجف العربية لغة وصوراً وأخيلة جعلت الشاعر يستهدي بخطى من سبقه من شعراء، فلم يخرج عن عمود الشعر العربي وبنيتة الفنية إيقاعاً وصوراً وأخيلة تناولها بجوس اللفظة ذات الإيقاع المعبر عن موضوع القصيدة وهو في مواضيعه لم يخرج عن الأغراض التي كانت سائدة في أيامه فنحن عندما نسافر إلى رياض شعره وفراديسه نطلعنا اخوانياته التي كان يعبر من خلالها عن أحاسيسه الصادقة اتجاه من كتب عنه فرحاً أو تعزية أو احتفالاً بزواج أو تهنئة بمولود جديد، وهو في الغزل شاعر مرهف الحس يخلق فيه خياله في عوالم الحب الصادق والعاطفة الجياشة فهو رقيق في شكواه، رقيق في مناجاته، نذوب كلماته من حرارة صدقه وعاطفته لتصير دعاء وأماي. ففي قصيدته (تعالى) يدلنا على شاعر نبض قلبه بين ضلوعه للحب فتركه يردد تعالي استهلالاً لقطعه الجميلة ثمان مرات ليختتمها بذلك التوسل للحبيب الذي يثير في وجدان الحبوبة حرارة الحب لينال العطف فيقول:

تعالى... ان قلب الصب لا يقوى على البعد

وهو في الرثاء شاعر صادق العبرة والشجن في رثائه وذلك ما نتلمسه في رثائياته لأصدقائه الذين اختارهم المنية أو لرجال لهم مكانة في حياة المجتمع فهو رقيق إحصائية سهل ممتنع يجري مع الشعر بسلاسة اللفظ ووضوح المعنى وقرب المآخذ في كل عرض شاء ان يتناوله.

وعوداً على بدء نقول ان ديوان القاموسي سيأخذ مكانه في المكتبة الشعرية العراقية ليكون منهلاً لرواد الشعر الأصيل ومحبيه.

الغائب الحاضر (*)

الأستاذ (المرحوم) السيد شاكر جابر البغدادي

أيها البعيد القريب والغائب الحاضر، باسم مجلس الشعرباف إليك تحية وشوقاً، ما خبت جذوة جهرته، ولا انطفأت شعلة وقيده، فما تبرح اللوعة عليك تنغص هناء القلوب، وما تنفك ذكراك مقيمة على عهدهما في رحاب الفكر. فعليك منا السلام.

لقد كنت ممن يعرف للاخوان أقدارهم فقدروك، ومن أخلص للقلم والكتاب فالتاعا لفراقك فظالما أنشدت فسريت وشدوت فأنست: فما غردت إلا مستجيباً لعاطفة صادقة، لا متكلفاً ولا متكسباً، وما عرف عنك إلا دماثة الحق وسرعة البديهة وحلاوة النكتة، ولا رؤيت إلا بشوش الوجه طلق القسمات لم نسمع منك شكوى من تصاريف القدر ونوازل الدهر، ولقد كنت من رواد هذا المجلس وجلاسه شاعراً وأديباً، أحببت الكتاب والقلم فألفاك، وانحزت إلى المكتبة فارتاحت إليك، وهنأ إليك رواد الكتاب فوجدوا فيك أديباً رقيقاً وشاعراً مرهفاً وكتيباً سمحاً عفيفاً منصفاً فوا لهنفي عليك من فقيد.

في الوقت الذي أترك للفضلاء فرصة الكلام على جوانب شخصية الفقيد وشاعريته، لا يفوتني أن أنوه عن بلاغة الأستاذ محمد جواد العبان في تأيينه الفقيد بتاريخ ١٩٨٨/٩/٧ في جريدة الثورة وكذلك عن مقالة للأستاذ هاشم الطائفي في جريدة الاتحاد في ١٩٩٠/٨/٢٠ لذلك أقتصر كلامي على ذكر لحة عن العلاقات الاجتماعية لأسرة الفقيد.

نسب الأسرة وألقابها ومواطنها وعلاقاتها الاجتماعية:

فقيدنا هو أبو رشاد محمد صادق بن الحاج عبد الأمير بن الحاج صادق بن الحاج حسين ابن درويش علي ابن الحاج جواد بن عبد الخالق بن محمد شريف. تنتمي الأسرة إلى عشيرة المياح من قبيلة ربيعة وموقع رئاستها في الكوت وكانت مواقع مساكنهم في القرون الماضية في الجانب الشرقي من بغداد من محلة صبايغ الآل الملاصقة للسويدان والعيونة والدهانسة، والهيتمارين والصدرية ولا تزال بقايا بعض هذه الخلات قائمة. وقد قطن بعض أجدادها في قلعة سكر من الناصرية كما انتقل بعضهم إلى النجف فهي أسرة عربية الأصل ببغدادية ونحفية الموطن.

(*) أقيمت في ندوة الشعرباف بتاريخ ١٢/٣/١٩٩٢م.

تلقب الحاج صادق جد الفقيد بلقب (قاووغة) وأصل اللفظ قاووق وهي صفة لباس كان يتخذ للرأس في القرن الماضي ببغداد، وحين انتقل والد الفقيد الحاج عبد الأمير إلى النجف تلقب بالقاموسي، وهو لقب خاله العلامة المجتهد الشيخ باقر القاموسي المتوفى سنة ١٣٥٢هـ، وقد كتب أبو رشاد رحمه الله مقالة نشرتها جريدة العراق في ١٩٨٦/١٢/٣ ذكر فيها ان لقب (القاموسي) يرجع إلى براعة أحد أجداد خال أبيه في اللغة حتى صار مرجعاً يستند إليه دون الرجوع إلى القاموس فلقب بالقاموسي، فتلقب الحاج عبد الأمير بلقب خاله اعتزازاً منه بمكانة خاله الدينية المقدسة، وبذلك اشتهرت الأسرة بهذا اللقب واحتفى لقب قاووغة.

أما العلاقات الاجتماعية التي انضمت بها أوامر المودة والقربى نتيجة المصاهرة فقد امتدت إلى عدة أسر عربية معروفة، وهي آل نصر الله وهم من السادة الموسويين، آل القاموسي وهم من ربيعة وآل حمدي الأسديون، وآل الشماع التميميون، وآل المظفر، وآل الكعبي.

أما آل نصر الله فينتهي نسبهم إلى محمد الخانر بن إبراهيم الجباب بن محمد العابد بن الامام موسى الكاظم (ع) ومحمد الخانري هو ذفين حي واسط يلقب حالياً بمحمد العقار أو العكار وضريحه معروف بزار.

وهو جد عشرات الأسر منها آل الطعنة، وآل شير الموالى وآل البعلبي، وآل الخطيب، رهط المرحوم شمس الدين الخطيب، وآل سيد خلف في الزوية من الكراة الشرقية، وآل سيد جابر أسرة كاتب هذه السطور. فأنساب هذه الأسر تتصل بأولاد محمد الخانري. ومنها أسرة آل نصر الله.

فأولاد شاعرنا وأولاد أخيه الحاج عبد الحسين وأولاد سليم ابن عمه من الأسباط لأن السادة أولاد هاشم وناصر آل نصر الله أخوالهم. كما ان درويش عم والد شاعرنا أيضاً من الأسباط لأن والدته أخت السيد عبد الكريم الحيدري الحسيني صاحب الحسينية القريبة من الجامع الذي يدعى بجامع المصلوب.

أما الصلة بآل القاموسي فترجع إلى كون العلامة المجتهد الشيخ باقر القاموسي خال الحاج عبد الأمير والد شاعرنا وخال أخيه الشيخ نقي فهما أولاد عمه العلامة المجتهد المعاصر الشيخ صادق نجل الشيخ باقر وهو من مواليد ١٣٢٨، كما ان الشيخ باقر القاموسي خال أولاد السيد حسين آل نصر الله وهو أبو السيد ناصر جسد أولاد شاعرنا لأهمهم، وكذلك هو خال أولاد الحاج عبد المجيد حمدي الأسدي لأن السيد حسين

والحاج صادق جد شاعرنا والحاج عبد المجيد عدلاء أما العلاقة بآل الشماع فإن الحاج أمين الشماع التسمي جد شاعرنا وأخوته عبد الهادي وعبد الحسين وصاحب ومحمد لأهمهم، أما جدكم لأهمهم فهي من آل الجواد وهم من السادة الحسينية الزيدية، ومنهم مهدي الجواد وحسن الجواد، كما أن كاظم الشماع ومحمد حسن الشماع جدا أولاد أخوي شاعرنا محمد وعبد الهادي لأهمهم.

أما آل حمدي الأسديون ومنهم الحاج حسن حمدي أبو الحاج حميد والشيخ عيسى الصحاف وعبد الله فان أبا الحسن الحاج حميد ابن الحاج حسن بن الحاج عبد المجيد هو عديل فقيدنا أبي رشاد كما ان الحاج عبد المجيد حمدي هو عديل الحاج صادق جد شاعرنا. أما الصلة بآل المظفر فان العلامة المجتهد المقدس الشيخ محمد حسن المظفر جد أولاد صاحب أخي الفقيد أبي رشاد لأهمهم، أما آل الكعبي وهم من ربيعة أيضاً فان أم الحاج صادق جد الفقيد وأخيه باقر هي بنت الحاج راضي الكعبي كما أن جدكهما لأهمهما أخت الحاج راضي الكعبي.

تلك شحة موجزة عن شبكة العلاقات الاجتماعية التي ترتبط بما ههذه الأسر جميعاً
أوردناها لبيان ما لأسرة فقيدنا من مكانة اجتماعية.
والسلام عليكم

صادق القاموسي الشاعر الحالم (*)

الأستاذ السيد حامد المؤمن

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبي الهدى والرحمة محمد وآله الطاهرين

كانت ولادة الشاعر صادق القاموسي بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الأولى، في وقت احتدم فيه الصراع بين القديم والجديد في الحياة، والفكر، والأدب. وتفتح وعيه الاجتماعي ما بين الحربين الكونيتين، وبلغ مرحلة النضج العقلي والعاطفي، والحرب العالمية الثانية توشك أن تضع أوزارها.

ومعنى هذا: أن المكونات الأساسية لشخصية الشاعر صادق القاموسي، تبلورت في فترة احتدام الصراع العالمي في مجالات السياسة والاقتصاد، والفكر، والأدب، ورغبة بعض الدول الكبرى في التحكم باتجاهات الحياة، والسيطرة على مقدرات البشر، والذي اتخذ مظهراً مسلحاً متمثلاً بالحروب الطاحنة، الساخنة. والاستعداد لها، وما أفرزته من نتائج على صعيد الحضارة، والفكر والأدب، وما تبعها من دعوات اجتماعية إصلاحية، ودعوات فنية أدبية تجديدية، ومن هنا يتمحور الحديث عن شخصية الشاعر صادق القاموسي: الإنسان والفنان، في محورين:

الأول: الحس الإصلاحي الاجتماعي في شعره.

والثاني: الاتجاه التجديدي متمثلاً بالاتجاه الرومانسي (العاطفي الذاتي) في شعره. وسنقف - ثالثاً - عند بعض الظواهر الفنية في شعره.

أولاً: الحس الإصلاحي الاجتماعي في شعر القاموسي

ولد صادق القاموسي في مدينة النجف الأشرف، من أسرة انحدرت إليها من بغداد قبيل الحرب العالمية الأولى، والنجف حاضرة علم وأدب، ومركز جذب وإشعاع، ومصدر رأي وفنوى، ومعقد زعامة وقيادة، تتأثر بالأحداث حولها، وتؤثر فيها. وكانت النجف - إلى حد كبير - منغلقة على نفسها، في القرن التاسع عشر الميلادي/

(*) محاضرة أقيمت في (ملتقى القاموسي الأدبي) مساء ١٩٩٩/٧/٨ ونشرت (بين يدي ديوان القاموسي) ط بغداد ٢٠٠٤م.

القرن الثالث عشر الهجري، لا تستجيب للأحداث إلا استجابة هامشية غير فاعلة، لكن تفاعلها مع الأحداث بدأ بطيئاً، ثم متصاعداً بوتائر، منذ مسألة التنبك في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وما أعقبها من إفتاء المصلح المجدد الميرزا محمد حسن الشيرازي بتحريمه وتحريم التعامل مع الشركات الإنكليزية الاحتكارية، ثم أعقب ذلك مسألة المشروطة والمستبدة عام (١٩٠٥م) ووجود قطبي الصراع في النجف: المشروطة ممثلاً بالملا كسازم الخراساني (الآخوند) والمستبدة ممثلاً بالسيد كاظم اليزدي، مما جعل الصراع الفكري يحدث في النجف، ويحرك ساكن الحياة الفكرية والاجتماعية، وانقسام الناس إلى مؤيد لهذا الاتجاه أو ذلك. ثم أعقب ذلك الانقلاب العثماني، وإعلان الدستور عام ١٩٠٨م، ومجيء حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم، وإعلان مبادئه في الحرية والعدالة والمساواة، مما جعل الناس يتلقون مفاهيم جديدة لم يكن لهم بها عهد، ويتطلعون إلى حياة جديدة ويطمحون إلى أوضاع جديدة. من هنا بدأت النجف تعمل من أجل الإصلاح في الفكر، والاجتماع، والسياسة، ومن هنا بدأت الحركة الفكرية تستخدم تحت السطح، وتعلن عن نفسها بصور مختلفة.

ثم قامت الحرب الكونية الأولى، وأصبح العالم صغيراً، تنتقل فيه أخبار الانتصارات والانكسارات، ثم دخل الإنكليز العراق محتلين فاستعرت حرب الجهاد عام ١٩١٥م بعدها سيطر الإنكليز على معظم أجزاء العراق بالقوة العسكرية، أو بخلق أوضاع سياسية مناسبة لاحتلالهم.

ومن هنا هب العراقيون - والنجف في الطليعة منهم - يدعون إلى الاستقلال التام، وخروج المستعمر الباغي، فقامت ثورة العشرين معلنة أن العراقيين لن يرضوا بغير الاستقلال السياسي، والسيادة الحرة على أرضهم فكانت قمة في تصاعد وتائر الاحتدام بين مستعمر دخيل وشعب أصيل.

كل ذلك انعكس على الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية للعراق، والنجف في الطليعة منه.

في هذا الوسط الاجتماعي المحتدم، ولد صادق القاموسي، وشهد بنفسه مظاهر الصراع متمثلة في محاور أساسية منها:

الصراع بين الشيوخ والشباب في مجال الفكر والسياسة والعتيدة والأدب، ومنها: الصراع من أجل تثبيت، أو إبطال بعض الممارسات الاجتماعية، ومنها: الصراع حول أساليب التعبير عن الذات النجفية بهذه الطريقة أو تلك.. فكان أن ولدت صحف ومجلات تدعو إلى هذا الاتجاه أو ذلك.

وكان أن قامت جمعيات أدبية وعلمية، تُحشد خلفها مؤيدين لهذا الاتجاه، أو ذلك.

وكان أن برز خطباء، وعلماء، وأدباء، يستقبطون هذا الاتجاه أو ذاك. ثم كان انفتاح العراق - والنجف في الطليعة منه - على العالم فكرياً وعلمياً وحضارياً، وكانت النجف أكثر انفعالاً وأعمق تفاعلاً مع مختلف التيارات الفكرية، والأدبية. فكان أن دخلتها رياح الدعوة إلى الإصلاح في مختلف المجالات، وبدأ النجفي يتحسس ويجسسه في إيصال صوته ورأيه وأدبه إلى العالمين: العربي، والإسلامي. وبدأ النجفي يطمح إلى فرض شخصيته الفكرية من خلال منافذ عديدة.

وفي هذا الجو المشحون بدعوات الإصلاح، والتطلع إلى الأصلاح في الحياة، فتتح وعسي صادق القاموسي.

وكان - نتيجة من نتائج الاحتدام - أن ولدت جمعية منتدى النشر العلمية الأدبية الاجتماعية، أسلوباً جديداً مستحدثاً من أساليب العمل في مجال الإصلاح الاجتماعي، وولدت معها مؤسساتها العلمية متمثلة بكليتها، التي انخرط صادق القاموسي فيها تارساً ومدرساً، وعاش ملتصقاً ببعض أساتذتها، وعلى رأسهم المصلح المجدد الشيخ محمد عيسى المظفر: الذي كان يرى فيه القاموسي مثله الأعلى في العلم والصلاح والإصلاح. فانتسب إليه، وتلمذ بين يديه، مؤمناً بنهجه الإصلاحية.

ومن هنا بدأت فكرة الإصلاح تنامي في ذاتية شاعرنا القاموسي: فتجلت فيه أسناداً في مؤسسات (المنتدى)، ومحوراً ومشرفاً على مجلتها (البذرة). وعضواً عاملاً في عدد من اللجان العلمية، ثم بعد ذلك: تجلّت فيه صوتاً واعياً، نقياً، يعبر عن تطلعات (المنتدى) الإصلاحية في مجالات العلم، والعقيدة والاجتماع. وهذا ما نراه مسجلاً بأمانة في شعره. ولا ننس تأثير المحيط خارج النجف، فقد كانت المنطقة العربية تتعالى فيها دعوات الإصلاح من كل حدب وصوب.

دعوات إلى الحرية والتحرر، دعوات إلى اصطناع العلم ومنهجه، دعوات إلى الإصلاح الاجتماعي، ودعوات إلى التجديد الأدبي، ودعوات إلى الانفتاح الفكري والسياسي. تحمل هذه الدعوات، الكتب، والصحف والمجلات، ووسائل الاتصال الأخرى، ويُعبّر عنها شعراً، ونثراً، وكان الشعر أعلى صوتاً.

فكان الرصافي، والزهاوي، والشبيبي رضا، والجواهري مهدي، وغيرهم في العراق، وكان شوقي، وحافظ، ومطران، والعقاد، وغيرهم في مصر، وكان اليازجيان، ويسدوي الجبل، وبشارة الخوري، وإبراهيم طوقان وغيرهم في بلاد الشام، وكان جبران، ونعيسة، وإيليا أبو ماضي، والقروي وغيرهم في المهاجر.

أصوات هؤلاء كانت ترتفع بالدعوة إلى الإصلاح، والنهضة في مختلف مجالات الحياة

العربية. وكان الناس تستمع إليهم وتحفظ أشعارهم، وتتشرب أفكارهم، وتتمثلها، فلا غرو أن يأخذ شاعرنا القاموسي منهم بنصيب في مجالي الفكر والشعر.

وكانت دعوة القاموسي الإصلاحية دعوة مسموعة، لأنها تصدر عن إيمان صادق، وتنطق بلسان نقي لا تشوبه شائبة من طمع دنيوي، فهي دعوة مخلصه إلى الإصلاح، فليس وراءها مطمع شخصي، فقد أغناه الله وآتاه المال والجاه، وحسن الصيت، فكانت قصائده الإصلاحية تجد أذناً صاغية، وقلوباً واعية، ونفوساً راضية.

فهو يهتبل مناسبات ذكرى أهل البيت (ع) فيبرز العناصر الإيجابية في هذه الذكرى، ويدعو إلى إحيائها بوسائل تتواصل مع عظمتها، يقول في رثاء الإمام الحسين (ع)، منتقداً الوسائل الساذجة في إحياء المناسبة، والتي شاعت حتى غطت على الغايات العظيمة لشورة الحسين:

عز على يومك الإباء أنك لا ترثي بغير البكاء
وأن تجازي بدموع الأسي ومأتم الحزن وشجو الرثاء
يؤلني أن الضحايا التي تحضنها شائخة كـربلاء
غطت مآسيها على غايتها فلم نعد نعرف غير الغطاء

ويقول في مناسبة عيد الغدير منتقداً الذين تمسكوا بالشعائر الشكلية، وغفلوا عن جوهر القضية حتى أخرجت هذه الشعائر عما أريد بها من إبراز الجوهر:

وقد زحزت عن قصدها كل غاية وكادت تعرى منه حتى الظواهر
فلم يبع إلا للرياء خشوعها ولم تعمل إلا للظهور المنابر
لك الله يا دنيا الشعائر أخرجت مقاصدها عما تريسد الشعائر

ويخاطب في المناسبة ذاتها صاحب الذكرى - علياً - (ع) مذكراً بسيرته ونهجه في الحياة داعياً إلى الاقتداء به:

أبا العدل يوم المصلحين كأمسهم عصيب وليل المستضامين عاكر
إذا لم يسر في الناس سيرك ناصح أمين على نشر العدالة قادر
فلن يصلح الدنيا عتاد وقوة

وإن حاطت الست الجهات العساكر وإن حاطت الست الجهات العساكر
وأنى وقد ساويت في الحق قنبراً تقاسمه ما تقنتني وتشاطر
وكتيراً ما يربط بين المناسبة الحنفي بها، وبين الواقع الاجتماعي الذي نعيشه، ويسوازن بينهما، يقول في قصيدة نظمها بمناسبة ذكرى مولد أمير المؤمنين (ع):

آمنت بالعدل آمالاً نراودها
وأمنيات ترجيها فتسمعنا
جبنا العصور فلم نشهد بأعيننا
(شرقت) بالعدل فارتدت مبادئه
هذا مجرد من روعي براءتها
وذلك يمتص من بين العروق دمي
كل يقول: نروم العدل يحكمنا

ولا - وعدلك - غير الحكم لم يرم
أجولة تلتقاها يدٌ ليدٍ
وكذبة يتقياها فم لقم
ويشدد الكير على الذين لبسوا المسوح رياء. فأحلوا حرام الله وحرموا حلاله. وصولاً
إلى ما ينتغون من مال وجاه، يقول في مناسبة ذكرى استشهاد أمير المؤمنين (ع):
ألمى التكاثر بعضنا عن بعضنا
كم فاجر لبس المسوح وطالمنا
ومتاجر بنفاقه وشقاقه
وفي قصيدته (بنت العصور) التي نظمها بمناسبة الاحتفال بذكرى مولد الإمام الحسين
(ع) ينتقد القاموسي الذين يعالجون الأمور وفق أهوائهم ومصالحهم، معرضين عن مصالح
الأمة، متخذين الشعائر المقدسة ستاراً للتمويه على الناس. وحرفها عن مقاصدها، يقول:
أعيذ قدسية الذكرى بصاحبها

من أن يجد - ولا ندري - بنا ددها
وأن تلون دنيانا وصفحتها
بالبشر ريشة من عاشت تسودها
وأن تشاع مغانيها فيألفها
طير غريب على قومي يغردها
وان تحمل قضايانا بعاطفة
تثيرها وبأحقاد تعقدتها
وأن يزار لغير الذكر مرقدها
ثم يدعو الأمة الخائرة في اختيار منهجها الأصلح إلى أن تعود لنبي محمد وعلي. وإلى أن
تصد عن مناهج الشرق والغرب، يقول:
أقول للنزعات النازعات إلى
فكر يقيها وآراء تسددها
الزاهدات - ولا تدري - بما ملكت
من ثروة حرة زخارة - يدها
والباحثات - ولا رشد يوجهها -
عن جامع لأمانها يوحدتها

والسارحات بمرعى ليس يرغدها
 لا تشري غير كاس صب ريقها
 (عليها) حين صفاها (محمدنا)
 من كوثر الله لا شرق يرئقها
 بملحديه ولا غرب يهودها
 وينطع الشاعر إلى الأوضاع العامة في الوطن العربي بعد هزيمة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م، فيقول ما يرى من ضعف، وتفكك، وادعاء، فيصرخ كاشفاً عن حاضر، ومنبهاً عن مستقبل:

فيم احتطابك؟ لا نار ولا هب
 غار اللظى وخلا من وقده الغضب
 تلك المساعير من فكر ومن شم
 خبت وأعقب ذاك الدر مخشلب
 حتى أقتنا وما ضمت معاطسنا
 إلا الشخير وإلا أناعرب
 وما انشغالك بالأعواد تحزمها
 ما عز يوماً على مستوقد حطب
 ملء السفوح وقود جاثم يبس
 لكن هلم أعربي واقداً يثب
 تجد تحطب مكدوداً خطى ويدنا
 وجد قومك - لو حقتته - لعب
 وحين يشاد للعلم صرح، وحين يقام للإصلاح ركن، يفعل الشاعر ويتفاعل مع الحدث، فيقول، ويحسن القول. اسمعه يرتل أبياته في حفل وضع الحجر الأساس لبناية جمعية المنتدى النشر هواه ومناه:

سيري - وإن طال المسير - وأجهدا

فلرب سار يحمده المسرى غدا
 ما ضرراً بالغايات أن طريقها
 وخطاب الشيخ المصلح محمد رضا المظفر عميد المنتدى، وباعت فكرهما:
 يا باعث الإخلاص غضاً يافعاً
 وممثل الإيمان شيخاً يقتدى
 ومجهز الإصلاح جيشاً جاهداً
 ومحمل النهضات ثقلاً مجهداً
 يسير تتبعك إلى الجهاد ضمائر

ألفت - وقد خلصت - إليك المقودا
 لا بقعدنك عن جهادك قاعد
 متأملاً أو واقف مترددا
 سر لا يروعك إذا التقى بك حاطب
 جلب الوقود فقد أمنت الموقدا
 سر يهتدي بهدائك ركب تاند
 جهل المصير فما استقر وما اهتدى

* * *

وخطاب المنتدى - تلك المؤسسة الإصلاحية الخيرية - في قصيدة أخرى، يطالبها أن

تؤدي رسالتها على أحسن وجه، وأهدى سبيل:

يا منتدى النشر لا دوى بسمعك ما يشجي ولا سال منا مدمع همع
ولا تحمداك بالأحداث قاسية

- وأنت غشيان - هذا الأزم الجذع

إننا وإن دب يأس وانطوى أمل

إلى جهادك - بعد الله - نقطع

رسالة لك شمر عن سواعدها

واصدع بما، إن خير الناس من نفعوا

* * *

ويقام حفل لافتتاح مبنى جامعة النجف الدينية، فيرى في مشروعها فكرا جديدا، يولد
من فكر قديم، فيقول:

أ وليدة الفكر القديم يحس ما يحتاجه الفكر الحديث ويشعر
وربية الدين الخفيف يعد ما تملئ عليه ظروفه وتقدر

وهو يدعو إلى الجديد المثمر، منتقداً أنصار القديم الذين يتهيبون من كل جديد في الفكر
والعمل، يقول:

أنبيك لم تعد النفوس كأمسها تستاقها لك فطرة وتسير

جبلت على التقوى فلا نزعانها تطغى ولا شيطانها يتأمر

كانت لغرس هداك أنقى تربة تسقى وكت أعف من يستثمر

واليوم والدينا تغير طبعها فالرمل ينطق والحديد يفكر

وتوضحت ألغازها فعشيرها عن كل شيء محدث يستفسر

وهم على النغم القديم نشيدهم فاذا استجد فعازف يتغير

ويراوحون خطاهم بمكانهم فاذا رأوا متوثبين تأخروا

يتسهبون من الجديد وليتهم وقعوا عليه غنيمه وتخبروا

* * *

ويشارك القاموسي في تأيين عدد من القادة المصلحين ، فينفذ من خلال المناسبة إلى ما
يريد من معالجة سلبيات شاخصة أو تنبيه على هفوات قائمة، أو تحفيز لهمم أخذت إلى دعة
العيش، وهدوء البال، ومهادنة الواقع الفاسد، يقول في رثاء الشيخ انجاهد محمد حسين
كاشف الغطاء:

مضى بما فيه أمس من حياتك موصولاً به الغد حبلاً ليس ينقطع
 تشده من جلال الله هيمنة
 يحوطها العز لا ذل ولا ضرع
 تشق للعانفين القصد من فزع
 درياً يسد فضاه الأمن لا الفزع
 القابعين انزواءً في يوتهم
 دهرأ فما فتحو باباً ولا قرعوا
 والعاكفين على لحن فما رفعوا
 شدواً تهرى ولا أنشودة وضعوا
 والواقفين فإن سارت بهم محن
 فأما القدمان الوهن والهلع
 تربيم كيف أسد الغاب إن ربضت
 تضرى وإن هي هيجت كيف تندفع
 ثم يطالبهم بأن يراجعوا التاريخ، فإنهم لا يرون - حينذاك - إلا أسماء الذين أجابوا
 داعي الخير. والإصلاح، لأمعة ساطعة، وهذا هو المجد بعينه:

فتش عن المجد في التواريخ لست ترى

إلا الذين أجابوا الخير حين دعوا

أمنت بالمثل العليا متممة

مجداً تجمد به تسمو وترتفع

كنت السياسي في شتى مواقفه

- لا هم عفوك - إلا المكر والخدع

* * *

وفي رثائه راند الاصلاح محمد رضا الشبيبي يستذكر الوطن وأهله من خلال شخصية
 الشبيبي. المثل الأعلى للمصلحين، فهو الواهب حياته للوطن؛ والظاهر الذليل، لم تعلق به
 الأوضار، مما يستدعي إلى الدهن النموذج النقيض.. يقول القاموسي:

ألوى على الوطن الجريح وأهله

زمن بكل مطب غدار

ما زال يفتك بالحمى وحماته

ولع يقتل الواهبين حياتهم

للبناس لا طمع ولا استنثار

الطاهرين الذليل لم تعلق بما

لبسوا - برغم عرائهم - أوضار

والطين النفس ملء ضميرهم

صحو وملء كفاحهم إصغار

لكن ليحضن جريه استقرار

في حين كف سواهم اظفار

أولاء أمجاد الشعوب وحارسو

* * *

ويستذكر في رثائه البطل المجاهد السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي جهده الجليل

فى إبراز معالم منهء آل البىء (ع) فى الفكر والءىاة، وءوره العظىم فى إصلاء وسائل التبلىء، فىقول:

وألفىء الهءى شبعاً ضئىلاً	أشىء أقارباً، وأضىء ولءاء
فرءءء ءءء ءبءء أى ءاء	سرى ببلىء قوسه وأوءى
عرفءء الءاء يكمن فى المؤءى	ولو أوعى رسالءه لأءى
* * *	* * *

وآبلىء شكواه ءء الثورة على نفسه الءائرة بما ءولها، وعلى قىم مءءمه العاءز عن الفعل فى معرض رءائه لأساءه ومءله الأعلى فى الإصلاء الشىء الءاهء مءمء رضا المظفر، فىصءع بالقول:

آمءء أبى مأءوء علىّ فى	وأء مءءمعى مشلولة بءه
وأء ءءوءة اشعارى بضىق بىما	سمع الءى ولءى لا بءهءهء
وأء سىفى ءو ءءىن أبهما	سلءه ءزّ فى عرقى بفضءه
وأءى وبنى قومى كمنشءل	بوالء لىس بءرى كىف بساءه
أ أنقى عنفى الباعى فأعءره	أم أسقى عفوه الطاعى فأنقءه
كروعء ءمرة آمالى معءقة	فطىر السكر من رأسى معربءه
وظفء بالكأس أزءىه فءطمه	معافرى وءاعاطاه مفءهءه
لو أنما كاسى الأولى عءرءما	وربما أءطأ المرمى ءقصءه
لكن اءءل ما أءشاه أن بءى	ءسقى الربىء وكف الغرب ءقصءه
* * *	* * *

وبىى - فى قصىءه له - (أسرة الأءب البقء) الءى اءءصءء مءموءة من شباب الأءب الءاهض المءءء فى النءف عام ١٩٥١م وبىرى فى سعبها إلى ءءءىء الأءبى ءءءىءا لسروء الأمة، وعزمها على النهوض، فىقول:

أعءى ما اسءءطء من العءاء	لما إن صء عزمك فى الءهءاء
وشءى أزرها بسءىء رأى	وعالى همة وأءى رشاء
وءى بالصراءة كل قلب	بمء إلىك كفاء من وءاء
أربها الفكر بفضء عن نبوء	وباءى الرأى بصرء عن سءاء
ءعبها ءءرف من كل نبء	وآلاً زقبها من كل زاء
* * *	* * *

وكثيراً ما يتعرض في شعره إلى العيوب الخلقية التي تفتشت في مجتمعه، متعمداً نكأ جراحها، عسى أن تندمل، صحيحة سليمة، فمن هؤلاء من يعكف على ضلال، ويستتر بمسوح الزهاد، ويظهر خلاف حقيقته، يقول القاموسي:

عجبت لعاكفين على ضلال	وشد تعجيباً فيه استناروا
ازالمهم عن الحسق النعامي	وأقعدهم عن الخلد الصغار
صغار إن جمعتهم لأمر	وإن عرضت لهم صور كبار
ومبغوضين مملوءين حقدا	لهم في كل جانحة أوار
ومستترين خلف الليل جدوا	بمكرهم وقد وضح النهار
ومفترعين قطب السدين لكن	رحاه على مصالحهم تدار
عليهم من ترهدهم مسوح	بلين ومن تقدسهم إطار
متى تلد الشريعة منقذيتها	فيأندو الموت منهم والدمار

* * *

وهو في معرض رثائه الشيخ الورع محمد حسن المظفر، يعرض بالجهلاء الأذعياء الذين سدوا الأفق على الناس وحجبوا عنهم الحقيقة:

هذه الأمة عمى أمرها	أنما أوسعت الفضل ادعاء
فأخو العلم انتحى زاوية	وأخو الجهل تمادى خبيلاء

* * *

وهو ينعي - في موقف أخلاقي كريم - على الناس عزوفهم عن الحق، وتوثيقهم من ليس أهلاً للثقة، وهذا معناه اختلال الموازين. وضياع المقاييس الاجتماعية، يقول القاموسي:

عزف الناس عن الحق فووا	ضيعة العدل وفقدان الثقة
لا تقبل ذا ثقة وثقة	عادل: فالشك فيمن وثقه

وهو يشدد النكير على الذين ينبرون لتجريح الناس، وتركيبتهم: وهم أولى بأن يركوا أنفسهم ويظهروها، يقول:

قلت له - وهو يركيها -	نفسك يا منتقدا زكاً
-----------------------	---------------------

هذا هو صادق القاموسي، الشاعر الداعي إلى الإصلاح في ركب جيل حالم كان يأمل باصلاح ما فسد من أخلاق أمته وأوضاعها، وصولاً بما إلى التحضر والرقى.

* * *

ثانياً: الاتجاه الرومانسي في شعر القاموسي

برزت الرومانسية العربية بعد الحرب الكونية الأولى، نتيجة مجموعة مؤثرات، لعل أهمها: اتصال العرب بالحضارة الغربية، وتأثرهم بأدبها، وخاصة أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وكان لبنان ومصر السابقتين إلى التأثر بهذه الحركة، بحكم وقوعهما تحت تأثير الحضارة الغربية قبل غيرها من دنيا العرب.

أما العراق - والنجف منه - فقد بدأ تأثرهما بالرومانسية متأخراً نسبياً إلى حد ما، وإذا كان تأثر بغداد، وبعض الحواضر العراقية الأخرى بالحركة الرومانسية نتيجة الاحتكاك بالحضارة الغربية، واتجاهات الأدب الغربي وأساليبه أولاً، ونتيجة التأثر بالأدب المصري والشامي والمهجري وانبعاثاته الجديدة ثانياً، وكان ذلك بين الحريين الكونيتين، فإن تأثر النجف كان منعزلاً عن الأدب الغربي، ومتواصلاً مع التيار الرومانسي في الأدب اللبناني أولاً، والمهجري ثانياً، والمصري - إلى حد ما - ثالثاً. وظهرت آثار هذا التأثر بعد الحرب العالمية الثانية، ولا نعدم بعض خصائص الرومانسية - وهي حالة إنسانية متأصلة تبرز ضعيفة أو فاعلة تبعاً للأمزجة والحوادث - عند بعض شعرائه، ولكنها خصائص غير مستقلة باتجاه محدد وإنما هي متشابكة ومتداخلة مع خصائص تيارات أخرى، لعل أبرزها الكلاسيكية التقليدية، والكلاسيكية الجديدة.

وأوقف - هنا - لأنبه إلى حقيقة موضوعية، وهي أن النجف لم تعرف التيارات الأدبية كما عرفها الغرب في الأدب والفن، بل أن النجف لم تعرف التيارات الأدبية، كما عرفتها مصر وبلاد الشام ونظرت لها، بل عرفت أصداً تأثيرات تلك التيارات على ثقافة الشعاع النجفي، وتطلعه إلى الجديد الخارج من معطف القديم.

أقول: برزت بواكير الرومانسية في الأدب النجفي عند بعض شعرائه كالشرقي متمرداً، وواصفاً، والجعفري، ومحمد جمال الهاشمي، ومرضى فرج الله، وإبراهيم الوائلي، منتطعين إلى التجديد. وجواد السوداني شاباً غلبته شقوة الحياة. ولكنها تبلورت فكرةً وشعراً في أديسين كان لهما - على تفاوت قوة عطاتهما - دور تأسيسي في تبلور الاتجاه الرومانسي وفق ملامح محددة، وهما الشيخ محمد أمين زين الدين، والشيخ سلمان الخاقاني ثم امتد وتجدد وانساح إلى عمق تلاميذهما، وأشهر هؤلاء: مصطفى جمال الدين، وصالح الظالمي، وجميل حيدر، وضياء الدين الخاقاني، ثم انداح إلى محمد المهجري، ومحمد حسين فضل الله، وحسين بحر العلوم، ومن بعد ذلك إلى محمود البستاني الذي يمثل حالة واعية مستوعبة للرومانسية تنظيراً ونتاجاً، ومحمد حسن الأمين، وزهير زاهد. وهؤلاء الذين ذكرناهم لا يندرجون في تيار الرومانسية إلا إذا كتبوا شعرهم معبرين عن تجارب روحية، أو عاطفية ذاتية. أما حين

يتوجهون الى أدب المناسبة، فان تيار الرومانسية في شعرهم يضمحل، ويتلاشى في التيار الطاغي الذي هو التيار الكلاسيكي. كما أن رومانسيتهم لا تستند الى أسس فلسفية، أو أصول فكرية. بل هي رغبة شباب منفعل جامح مولع بالتجديد وإن قاده ولعه هذا الى التمرد على كثير من مواضع الفكر والسلوك وقواعد الفن، فهو يعبر عن تواضعه الذاتية بأساليب ابتداعية، وضابطه الوحيد هو هدي السليقة، واحساس الطبع.

أما شاعرنا القاموسي، فقد كان مهياً بطبعه لتقبل هذا التيار، وتمثله، وذلك لعدة

عوامل:

١- الطبيعة العاطفية الانفعالية التي جبل عليها الشاعر القاموسي، مما وفر له احتسداً عاطفياً، وجيشاناً فكرياً وهما من أهم مقومات هذا التيار.

٢- البحث الدائب عن الجمال الذي ركز في طبيعة الشاعر القاموسي مما يحفزه الى اشباع الحاسة الجمالية عنده بأي صورة كانت والشعر واحدة من تلك السبل.

٣- تأثره بقراءاته الحديثة، وخاصة في الشعر اللبناني، والمهجري.

٤- تفاعله مع رموز الرومانسية في الشعر النجفي عن طريق صداقته الحميمة مع بعضهم، ومعايشة تجاربهم الروحية.

٥- نشأة الترف التي نشأ عليها الشاعر - في عائلته - وشب عليها مما هيا له حساً رقيقاً، ومشاعر مرهفة، انعكسا في شعره بوضوح.

٦- روح التمرد التي جبل عليها الشاعر، وتطلعه الى مثل أعلى، وبخه عن الجديد في الأدب والحياة والدين، ومعايشته لمرحلة متوهجة، تعالت فيها صيحات الاصلاح والتجديد في الفكر والحياة.

كل هذه العوامل تضافرت على جعل شاعرنا القاموسي رومانسياً من الطراز الأول، ومنذ تجاربه الأولى، في الحب والحياة، والشعر. والمتطلع الى ديوانه يرى ذلك بوضوح فأشعار الحب ووصف الطبيعة تحتل مساحة واسعة فيه - فهي أكثر من أربعين نصاً بين قصيدة، أو مقطوعة، أو أبيات - كلها تنطق عن إحساس صادق، وخيال ريش، وعاطفة غامرة، وتجارب مع ما حوله.

إن تجارب القاموسي المبكرة في الشعر تجنح به نحو الرومانسية، يقول في قصيدة نظمها عام ١٩٤٠م ولما يبلغ العشرين من العمر، مقدساً عاطفة الحب كما هي عادة الرومانسين:

ما الحب إلا فتنة الحسن التي	في القلب دستها يد الحسناء
ما الحب إلا وردة الشوك التي	غرست نواها العين في الأحشاء
ما الحب إلا شمعة الأنس التي	ملأت سماء القلب بالأضواء

ما الحب إلا فترة الزمن التي جمعتك بين سعادة وشقاء
ما الحب إلا ضحكة حتى إذا روت ظمأك تحولت لبكاء
* * *

والرومانسيون يبحثون عن (المتال) في الحب والجمال، ويطمحون إلى تحقيقه في شعرهم وأخيلتهم، إن عجزوا عن تحقيقه في دنيا الواقع، يقول القاموسي من قصيدة (عينك):

صاغك الحب مثالا كما أبعدك
وقايلت اختيالا بما أودعك
وقناديت دلالات فمما أروعك
هيا مهد أشواقي إلى مقصورة الساقى نلف الساق بالساق

والبحث عن الحب والجمال - في الفن معادلاً للواقع الموضوعي - هاجس من هواجس الرومانسيين، و(خمرة الروح) و(نعمة الحب) هو ما يبحث عنه شباب كالرياحين، يقول القاموسي:

شباب كالرياحين زكت في روضة الفن
وأطيار على العالم غنّت أروع اللحن
سقتنا خمرة الروح بلا كأس ولا دن
فغنّ يا حبيبي نغم ممة الحب لنا غن
فمنك السجع والنظم كما شاء الهوى مني
* * *

ويستطيب الشاعر الرومانسي الألم ويلتذ بالمعاناة والحمران ويستسيغ العذاب، يقول القاموسي:

يا مهجتي فيه ذوبي لا عذر إن لم تذوي
ويا دموعي سحي ويا همومي أمشي بي
وعذبيني فإني خلقت للتعذيب
* * *

وهو في قصيدة (القلب المتورد) يعبر عن حالات القلق واليأس والحمران التي يكابدتها الشاعر الرومانسي، بل يفتعلها افتعالاً لكي يقتص من نفسه التي أوردته موارد الهلاك:
كم يا فؤاد هوى تذوب وأسى تموت ولا تنوب
أو كلما يدعو الغرام مجاهدا صبا تحيب

الله درك من فزاد للعرام به شـعوب
 كم جر من نوب على فكيف لو كانت قلوب
 بل هو يقنع من الحبيب بأقل الوصال، وأدى الرضا، وحسه أن ترف جفونه على مقلة
 ساجية: يقول:

قنعت من الوصل في بسمة تسرو في نظرة حانيه
 وفي هلمة من رحيق الحديد بما لا سواها املني جاميه
 وإلا فحسبي منك الجفون تسرف على مقلة ساجيه
 * * *

والشاعر الرومانسي يهرب من الواقع، أو يفعل هذا الهروب الرومانسي، ويتمناه،
 فيتخذ القاموسى (البلبل) رمزاً للشاعر المقيد في (قفص) العادات الاجتماعية، ويتمنى أن
 يكونه، محلقاً مثله، ولكن سرعان ما يصاب بالاحباط، ففرار الشاعر من الناس وإلى الناس،
 يقول:

أيها البلبل اخلسق في الجو سلام معطر بشنائي
 أنت مثلي تفر من حمم الأرض وتأبى حرارة الرمضاء
 غير ابي إذا فررت إلى النار فراري، وأنت نحو السماء
 * * *

وفي مقطوعة (أيها القلب) يستفيق الأمل في نفس الشاعر، ويستعيد ثقته بالمستقبل،
 محاولاً طرد سحب اليأس، وذكرياته، محلاً مكافئاً تفاؤلاً مصطنعاً، كثيراً ما يراود الشاعر
 الرومانسي. يقول القاموسى:

أيها القلب عد لحو أمانيك كريماً واستنهض الأحلاما
 واستعد للقاء واستقبل الوصل وحمل الأحزان والآلاما
 ذكريات كفضلة الخمر في الكأس ومستقبل كنشر الخزامى
 بين هذين ما وقوفك محزوناً تعد الشهور والأياما
 إني أكاد أسمع لهات الشاعر من خلال أبياته المدورة، التي تتسارع فيها الكلمات
 والحروف، تتسارع أنفاس الشاعر.
 * * *

ويطغى اليأس على روح الشاعر الرومانسي، فيسد منافذ الأمل وتبدو الحياة قاتمة، وهو
 يأس الشباب حينما يخفق في تجربة حبه الأولى، يقول القاموسى في قصيدة (يا نفس):

اريق من كأس الشراب	ماء الصباية والغرام
فصار قفرا كاليساب	وتشم الأمل اللذيذ
وطويت أحلام الشباب	ولقد دفنت مطامعي
فابتسامتك اكتسابي	لا تبسمي لي يا حياة
* * *	

وكثيراً ما يمزج الشاعر الرومانسي بين مشاعره ومظاهر الطبيعة، ويتحد معها في وحدة صوفية، يقول القاموسي:

بظلمها طاب اختلاسي	يا ساعة عند الأصيل
سالت بروض أبي نواس	حيث الجمال مياحه
يمرحن من غير احتراس	فيه الطباء سوانح
فعدا رضاب الأنسات مسدامتي والنغر كاسي	
* * *	

وفي قصيدة (تعالى) يتفاعل الشاعر مع الطبيعة، ومظاهرها، فهي تشاركه حبه وأحاسيسه، فهو مندمج معها، وهو جزء منها، وهي تمتدح الحب والدفء، والأمان. وتبيح نفسها ليعرض من خلالها ما يتمناه ويحلم به، يقول:

قطوف مشعشعة دانية	تعالى فديتك حيث الربيع
وتمنحنا الحب والعافية	تبيح الجمال لنا والوصال
ولا البدر يقبع في زاوية	فلا النجم يستر لألاءه
ولا تحبس النغم الشادية	ولا الزهر يكتم أشدائه
يجول كهيمانة صادية	تعالى فديتك حيث النسيم
ويمسح خديك والناصية	يهدهد أجفانك الفاترات
بفوديك كالظلمة الداجية	ويبعث في خصل تدلي
* * *	

والحزن العميق يلف الشاعر الرومانسي. فيصرفه إلى مناظر الطبيعة، يفكر من خلالها، وتفكر من خلاله، ثم ذلك الاحساس الناجع بالتفاوت ما بين الواقع والخيال. وبالتناقض ما بين الفرد والجماعة، والتعارض ما بين الحرية والقيود، كل ذلك يدعو الشاعر الرومانسي إلى العودة إلى الطبيعة، معبده الفسيح، وأمه الرؤوم ففي أحضانها يجد الخان والدفء والأمان، ويتخلص من صراع الأمل والخيبة في نفسه، يقول القاموسي من قصيدة:

معي هيا إلى السروض
فذيالك النسيم الحلو
وهذا البدر قد أرسل
فوق الماء أنواره

* * *

ونقف قليلاً عند أربع قصائد نظمها الشاعر في سنوات متباعدة من عمره يبرز فيها التيار الرومانسي بكل غنائه قوياً جلياً، وبكل خصائصه الفنية والموضوعية، لا يزمه تيار آخر، هذه القصائد هي: (لباء) وقد نظمها عام ١٩٤٦م، وقصيدة (قلبي في الأربعين) وقد نظمها عام ١٩٦٢م، وقصيدة (صدقيني) وقد نظمها عام ١٩٦٤م، وقصيدة (حلوة) وقد نظمها عام ١٩٧٢م.

ومعنى هذا أن الرومانسية، هي الاتجاه الغالب على حياة الشاعر القاموسي وشعره، فهي تنظم سنوات عمره من الشبيبة، إلى الكهولة، فالشيخوخة، وهو مخلص لهذا التيار الأصيل المتأصل في طبعه - فيما يفعل ويقول - فاسمحوا لي - أيها السادة - أن أسمعكم شيئاً من هذه القصائد الأربع:

لما.. وهل تتذكرين العيش في (البلد الأمين)
إذ قبطين عليّ من عليا سمالك لتصحيني
تقرين فهل تناسيت اختيالك قبل حين
إذ تلتقين، فتعرضين كأنما لم تعرفيني
أمنت أن رزائة بك أطلعتك على جنوبي
حيث ازدلفت إليّ عاقدة يسارك في يميني
وطغى هواي وأفصحت لجواي عن سر دفين
ورومت قواي، وهومت شفثاي وابتسمت عيوني
فمحتني نظرات عطف قد سترت بما شجوني

ومسحت قطرة أدمعي وطبعت فاك بوجحتي وسرت بجسمي رعشتي
وتنفست شفثاي طامعتين فيك فحيل دوي

* * *

ويقول في قصيدة (قلبي في الأربعين):

قلبي رويدك لا تطش جهلا
الأربعون تكاد تقضمها
أظن أنك لم تزل طفلا
ويكاد منك جليدها يبلى

والثقلات بلهوك انتفضت لتريح كاهلها الذي كلاً
والغريبات اللاني كن لمن تصطاد من غزلانك الحبالا
رثت فلا (قيس) يهش لها ودجت فلا تشتاقيها (ليلي)
وشبابك الشيخ استبد به الشيب الوليد وعهده وى
وكما عهدتك أنت منطلق تغشى الحياة خفيفة ظلاً
متدفق الصبوات تحتضن الشوق المذيب وتعشق القتلا
* * *

ويقول في قصيدة (صديقي):

صديقي (ليلي) فما زال قلبي ناغي الهوى كما تعهدنا
يتملاك صورة من صباح أودع الليل فيه سرا دفيناً
حاملاً من جواك ما ليس يقوى طالباً من هواك ما لن يكون
ظامئاً والكؤوس تملأ كفيه ولو شاءها انسكن معيننا
ليت حمراً ماتت على كأسه الرشفة روى الجوى وأظما العيوننا
لا البعاد استطاع أن يسكت الشوق ولا اليأس أن يكتم الحيننا
لست أدري وليت عينك تدري
أي نار هذي التي تكويننا
بردت حمرة وأصلت رماداً وأرتنا (فرويد) (إفلاطونا)
* * *

ويقول في قصيدة (حلوة):

يا من رميت لها الشجاعة فاتقتني بالمروء
وأحلت لؤم غوايتي نبلا وذل هواي نحو
ونشرت حبي فوقها ظلاً وقاها اليأس شجود
وشددتها بأضالعي وترأ، فذاب وعاد غنوه
ووددت أني شيء عندها حتى الأيسوه
* * *

هذا هو القاموسي الشاعر الرومانسي، نفور من الواقع، ومجافاة له لأنه السبب في زرع الخيب في النفس البشرية، وسعي وراء بديل عن هذا الواقع، يلتمسه في الطبيعة، والجملة. والحب، وسمو النفس، وصدق العاطفة، إنه الانسان منزها عن الغرضية، مبراً مسر

النزوات، متسامياً بالذات إلى الكمال، متخذاً الغنائية أسلوباً للتعبير عن المشاعر الشخصية، والأحاسيس الخاصة، متحرراً من القيود التي يراها حائلاً دون الإفصاح عن أسرار القلب، وتطلعات الروح، وأشواق العقل.

ثالثاً : عناصر فنية في شعر القاموسي

القاموسي شاعر مبدع، نظم الشعر، وأخلص له، وعشق هذا الفن تعبيراً عن روح توافقة إلى حياة أجمل. وأكمل، وأفضل. ولا بد من أن يتميز شعره بميزات تفرده عن غيره من شعراء عصره، فهو - إنساناً - له شخصيته المنفردة عن الآخرين في المشاعر، والتفكير، والسلوك، وغط المعيشة. فلا بد من أن يعكس هذا الفرد الانساني - بوضوح - في ابداعه الفني. لهذا سوف نمر - متعجلين - على بعض عناصر شعر القاموسي الفنية:

وأول هذه العناصر: أن القاموسي ابن بارٌّ لبينته النحفية. هذه البيئة كانت - حال حياة الشاعر القاموسي في النجف - مجتمعاً علمياً، أديباً، يمتلك من الخصوصية ما يميزه عن غيره من المجتمعات، ففيه عمق العلم، ونسامي الأدب، ورهافة الذوق، ومنطق الواقع، كل ذلك أشرنته شخصية القاموسي الانسان. فانعكس في شخصية القاموسي الفنان، فشعره صورة حية للحياة النحفية، وموضوعاته مستمدة من هذه الحياة، فهي احتفال دائم بمناسبات أهل البيت - التي تستقر في وجدان النجفيين - أو مشاركة وجدانية في أتراح المجتمع، وأفراحه، فنظم معزياً بوفاة، أو مهنياً بزواج، أو مؤرخاً لولادة، أو مروجاً لفكرة، أو داعياً إلى موقف... كما انعكست كثير من صور المجتمع النحفي الخلقية في شعره، وفاض شعره بخصائص مدرسة النجف العقلية، فظهرت على شكل مفردات وتراكيب، وصور، وبناء فني، ومضامين، وموضوعات... خذ مثلاً قوله:

(طف) بخديه (والتمس) منه خالاً فمحياه (كعبه) العشاق

(وإرم) من زفرة الفؤاد (جماراً) قبل أن يرقميك سهم الحداق

(صل) أني أجهت دمعا وخل القلب (يسعى) بعمرة الاشتياق

ثم (لب) الهوى فهذا (مقام) المستجيزين من سعير الفراق

فالألفاظ: طف، التمس، كعبه، ارم، جمار، صل، يسعى، عمرة، لب، مقام. من الألفاظ التي تجري على السنة الفقهاء وطلبة العلم، وتطفح على صفحات مؤلفاتهم، ومحاضراتهم.

* * *

وثاني هذه العناصر: هي ثقافة الشاعر. فالشعراء في النجف أمطاء: فمنهم من انصرف

إلى الشعر انصرافاً تاماً، فامتلك أءواته الفنية، واصلها، وتمثل التراث العربى: شعرا، والنوا، لغة، ونحواً، وبلاغةً، وعروضاً، وتاريخاً. فهو حرىص أن يكون شاعراً وأن يعرف بالشعر أولاً وقبل كل شىء، وهؤلاء قلة فى النءف، وهم قلة لأن الشعر بالعلماء يزرى، وى النءسف بءرص الناس أن يكونوا علماء لا أن يعرفوا بالشعر، ولس الءبوى الكسبر ببعسء ءسب الءاكرة. وهم قلة تسنمء - نءىءة لانصرافهم الى الشعر الءى لأمس الموهبة - فهم الشعر العربى فى عصرهم، ومن أبرز هؤلاء : الشىبىان محمد ءواء، وابنه محمد رضا، والشىبىقى على، ومحمد مهءى الءواهرى، ومصطفى ءمال الءىن.

وتمط آءر، وءء فى نفسه القءرة على قول الشعر، واءءفال الناس من ءولء بالشعر ورءبته ان ىءء الشعر وسبلة تعبىر عن همومه الءاءىة، أو هموم ءمءعه العامة، فقال الشعر عفو الءاظر، ءون أن ىنصرف إلبه انصرافاً تاماً، وءون أن ىءء فى امءلاك أءواته الفسبء. وءون ان بءرص ان يعرف بالشاعر فءسب، وإءما قول الشعر أمر هامشى ءقتضىء السوءءة الءىة النءفىة. وءنءصر همه هؤلاء الشعراء فى أن يأءءوا من كل علم بطرف - كما بقول القءماء - ءءقفوا أنفسهم ءقافة عامة ءون أن ىسءوا إلى الءءصص الءفىق العمىق - كما بقول الءءءون - فاسءمءوا إلى أفصل قصائء المءنبى، والرصى، ومهبىار، والسبء ءبءر الءلبى. وءءوقوا عىون الشعر العربى من ءاهلبته الى عصرهم، وءفظوا ءءبراً لما ىسءءء من شعر النءف، وءءاولوا بىنهم ءواوبن شعراء العربىة المعاصرىن فهم فى النءف وءارءها. وهسءءء ءل اءءمامهم بالشعر: أءاء وءقافة. ومن هذا النمط شاعرا صاااق القااوسى، فهو لم ىءعل الشعر وءءه، أو هم ءىائه، وقضىة وءوءه، بل هو أءس بنفسه إنساناً ىشعر بما ىءبش بسء وءءانه، فكان يعبر عنه شعراً، وءائ له علاءاء انسانية ءاصة. فكان ىءبها بالمءسءارءة الوءءانبىة شعراً، وءان ىءءسس مءساكل ءمءعه فىنءعل بما ىءفاعل معها، وءان يعالء ءلك شعراً، فلس الشعر عنءه اءءرافاً، فهو لم ىءكسب بشعره، ولس الشعر عنءه ءرفاً ءهنسبىة. فهو لم ىءءافء فى ءضرته، وإءما الشعر وسبلة من وسائل التعبىر عن شءصىته إنساناً بشعر وىءب، وىءأم، وىءأم، وىءأس، وىءوءع، وىءطلع الى مءل أعلى فى الءىة الإنسانىة. ءلى ذلك عبر عنه شعراً، وءفءر عنه وءءانه بصدق وإءلاص، فهو شاعر الفطرة والسلبقه والءلبىع فالءارس لشعر القااوسى ىبب أن ىقف عنء هذه الءالة، وىءملاها مءءوقاً وءارساً، ومءملاً. وءائ هذه العناصر: ما ىمكن أن ىطلق علبه ظاهرة، وهو الءاثر بأءسءر مءسن شءءءر وهذا أمر طبعى لشاعر - كالقااوسى - ىءءوق الءمبىل من القول، والفصىء من الءبءءة، والءرفىف من المعنى، والمشرق من الأسلوب، والعمىق من الأفكار، والءسى مءسن القسءءءر والصداق من المءاعر والأءاسس. وكل شاعر - أو مبءع عموماً - لا ىء من أن ىءأء بىن

لا بد من أن يقع في أسر مبدع آخر، وخاصة في بواكير حياته الإبداعية، وقبل أن تكتمل شخصيته الفنية، وقبل أن يمتلك خصوصية أدواته التعبيرية ثم بعد ذلك تبدأ شخصيته الإبداعية - كما شخصيته الانسانية - بالاستقلال، والتميز، فينفرد بأسلوبه الخاص.

والقاموسي بدأ منشداً إلى تجارب السابقين كالشريف الرضي، والمنتبي، وإلى تجارب بعض معاصريه، ولكنه استمر منشداً بقوة ووعي إلى تجارب بعض معاصريه لأهم في نظره مثله الأعلى في فن القول. فالقاموسي في قصيدته التي نظمها عام ١٩٤٠ ومطلعها:

أدريت من شرك الغرام رشاني وملاّت من ديم المهموم وعاني
نراه متأثراً بالشريف الرضي لغة ومضموناً، صوراً وأسلوباً، وزناً وقافية.
والقاموسي في قصيدته (يأس أو عاكفون على ضلال) يتقمص شخصية المنتبي الهجائية، والخبيمة، فهو عندما يقول:

صغار إن جمعتهم لأمر وإن عرضت لهم صور كبار
يذكرنا بقول المنتبي :

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام

* * *

وتأثره بمعاصريه من شعراء النجف: واضح بين، فتراه متأثراً برباعيات الشاعر المجدد علي الشرفي، وبأسلوبها الخاد في النقد الاجتماعي فهو يمنح رباعياته عنوان (البليل الخلق) مجازة لعنوان الشرفي لرباعياته (البليل المعلق)، ثم ينهج نمجه في الأسلوب والمضمون، يقول القاموسي ملحقاً بالابداع تحليق بلبله:

أيها البليل المخلق في الجو سلام من مغرم بك صب
قد سمعنا نشيدك المطرب الخلو فيها استمع أناشيد شعبي
كان ذنب وحواله ألف شاة آمنات وما شعرن برعب
أفصح الصبح عن قطع ضعيف قد تعاوى لنهشه ألف ذنب
وهو في قصيدته التي مطلعها:

فيم احتطابك لا نار ولا هب غار اللظى وخلا من وقده الغضب
متأثر بقصيدة الشاعر الإنساني عبد المهدي مطر الذي أندر فيها بالشر القادم ومطلعها:
المع يباب علي أيها الذهب

واخطف بأبصار من سروا ومن غضبوا
وهو في رباعياته التي عنوانها (أين حقي) يجاري رباعيات الشاعر محمد صالح بحر

العلوم التي تحمل العنوان نفسه مع اختلاف المضمون.

* * *

والقاموسي - في عموم شعره الاجتماعي - متأثر بالشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري بناءً ومضموناً، وزناً وقافيةً، يترسم خطاه، ويستعير أشطراً من أبياته. ففي قصيدته التي نظمها في حفل تكريم العلامة المجدد محمد رضا الشيبلي ومطلعها:

قَمَّ كَرَمَ الفِكرِ حِراً حاشِداً خِصبا واستوح ما شئت من آياته عجباً
يعارض قصيدة الجواهري في (ذكرى المعري) التي مطلعها:

قف بالمعرة وامسح خدها التراب واستوح من طوق الدنيا بما وهبا
وفي قصيدته التي نظمها بمناسبة الاحتفال بافتتاح البناية الجديدة لمنتدى النشر والتي

مطلعها:

لا غرو أن شخصت لك الأبصار فلقد سما هدف وعز جوار
يعارض قصيدة الجواهري في تأين عبد الحميد كرامي ومطلعها:

باق وأعمار الطغاة قصار من سفر مجدك عاطر مؤار
وفي قصيدة القاموسي (إيه أبا السبطين) ومطلعها:

ما لي وما أنا أحرس تمام لا تستجيب للحنى الأنغام
متابعة واضحة لقصيدة الجواهري (يوم الشهيد) ومطلعها:

يوم الشهيد تحية وسلام بك والنضال تؤرخ الأعوام
* * *

أما تأثره بالشعر العربي، فيكاد يكون واضحاً تأثره بالشعر الرومانسي اللبناني وبغزل بشارة الخوري خاصة.

وفي شعره الذي يجنح فيه القاموسي الى التأمل، متشائماً أو متفانلاً، أو الدعوة الى العودة إلى الطبيعة هرباً من آثام المدينة نراه يتأثر بجبران خاصة.

وهو في قصيدته (يا نفسي) التي تتخللها روح فلسفية تشاؤمية يترسم خطها (نسيب عريضة) في قصيدته (يا نفس) التي تحمل المزاج الرومانسي في تعامله مع الحياة.

ولا تنسى تأثير إيليا أبي ماضي وقصيدته الطلاس في عقل القاموسي الشاب وروحه. بحثاً عن المجهول الذي يظل مجهولاً.

* * *

أما (بدوي الجبل) الشاعر الذي ألقى بظله الكثيف على رموز الشعر الرومانسي النجفي في الستينات، فقد ترسمه القاموسي في قصيدته (رسالة إلى حفيد) وخاصة في الاكثار

من الأبيات المدورة التي هي آتة متصلة تحتبس في صدر الشاعر؛ وفي كثافة الصور الشعرية، وفي الرموز التاريخية التي يستدل بها على الواقع. يقول القاموسي من قصيدة (رسالة إلى حفيد):

لا تقبل خساني أب يا حفيد وأدت صولة الكريم الوعود
لا السدجى غمّ مقلتيه عن القصد ولا قصرت خطاه القيود
لسور رعت عهد الليلي لحياك على البعد ظلّه الممدود
والغسراك بالقداء دم منه على الرمل ثائر عرييد
والخفصت إليك تستصرخ الثأر خيام ومحنة وشهود
ولقصت عليك قصة شعب ذل واستأسدت عليه قرود
لطمت حده - على غل أيديها وسلطان حاكميها - يهود
لم تكن مازن قبائله الصيد فتحمي ذمّاره وتذود

* * *

ومن خلال ما استعرضناه - آنفاً - تعرفنا على القاموسي شاعراً ينهل من تراث الأسلاف، ويعمل من إبداع معاصريه، ويتأثر بهذا الشاعر أو ذاك، يصهر تجاربهم بيوتقته، ويأسيب روحه في أرواحهم، ويجعل من بعض نتائجهم مثلاً أعلى لا يتخطاه، كما هو شأنه مع الجواهري في قصائده الاجتماعية، بناء ومضموناً، أسلوباً، وغرضاً، وهذا لا يقدر في شعرية شاعرنا القاموسي؛ ولا يجعل شعره أسير المحاكاة ما دامت قصائده تؤدي هدفها في الإبداع والافتاع، وما دامت شخصيته الفنية لا تطمس معالمها رياح الآخرين.

فلو استعرضنا الشعر العربي، لرأينا أن منه قصائد تعد قمماً فنية سامقة، حاول كثير من الشعراء التسلق إليها، فمنهم من تجاوزها، ومنهم من داناها، ومنهم من زلت به قدمه فهوى إلى القاع، وما معارضات شوقي لعيون الشعر العربي بعيدة، وما معارضات الجواهري لهذه القصائد بعيدة، إذن هو الإعجاب بالمثل الأعلى في الفن يأخذ على النفس أقطارها، ويمتلك ناصيتها، ويقود إلى هذا التأثر، ويفرض ترسم الخطا بحثاً عن طريق جديدة في الإبداع والتأسي توصل إليها طريق سالكة قديمة.

ومظاهرة أخرى نجدها في شعر القاموسي؛ وهي ظاهرة تعدد الأشكال الشعرية التي نظم فيها ذلك تبعاً لبيئته النحفية، وريثة التراث العربي الخالد، وحاضنته. فقد نظم القاموسي القصيدة الطويلة ذات الشطرين، والقافية الواحدة، ونظم الموشح، ونظم الرباعية، والقصيدة، ونظم المقطعات ذات الأوزان المختلفة، والقوافي المتعددة. ففي شعره الاجتماعي نراه يلتزم - غالباً - بنظام القصيدة الطويلة ذات الشطرين والقافية الواحدة، ويستخدم

الأبجر الشعرية الحلييلة التي ينتظم فيها النغم والايقاع الصاحب مجارة للغرض، كالطويل- والبسيط، والكامل. أما في شعره الداتي العاطفي، فقد كان يلجأ الى بحور خفيفة، لينة، رخوة. وكثيراً ما كان ينوع في قوافيه، مجارة للحالة الانفعالية التي يعاينها حال النظم. وفي النجف علاقات حميمة، صميمية، عبر الشعراء عنها شعراً رشيقياً، رقيقاً، هو ما ندعوه (بالاخوانيات) فكثيراً ما ينعقد حفل للزواج، يبارى الشعراء فيه بالتهنئة والمشاركة الوجدانية، فكانت قصائدهم تنظم بأوزان قصيرة مجزوءة راقصة، انسجاماً مع جو الحبور، والفرح. وكانت تلقى بطريقة الانشاد النحفية التي تعتمد على التنغيم والايقاع. فهي أقرب الى الغناء، وللقاموسي نصيب ثر من هذه القصائد.

ولجالس الأنس، والأدب والمسامرة نصيب أيضاً - في الشعر النحفي - وقد أخذ القاموسي منه بنصيب، وكانت القصائد التي تلقى فيها تنسجم مع روح الأنس وجو الحبور فكانت راقصة الأوزان، متنوعة القوافي، سهلة التراكيب، طريفة المضامين. اسمع القاموسي يقول في قصيدة نظمت عام ١٩٤٣م بعنوان (ليلة القدر) وقال عنها الشاعر: (إنها صورة من وحي رمضان في النجف واجتماعاً ما بين بعد منتصف الليل، ووقت السحر لقضاء وقت من اللهو البريء ولعبة أموسى كدّة):

معي فلنتعاط الكأس من ثغر إلى ثغر
ولا تحش فبان الله يعفو ليلة القدر
* * *

ليالي خصها الرحمن للغفران والعتق
وهل يستوجب الغفران إلا فاسق الخلق
أنا الفاسق لكن ليس يعدو مقلتي فسقي
جناني عف فليجر اهوى ما شاء أن يجري
ولا أحش فبان الله يعفو ليلة القدر

واسمعه يتغنى بأوزان رشيقة صالحة للغناء، وبقواف فيها قرار موسيقي عميق:

يا أغيداً يتسهادى بين الأراك
رفقاً فحسب المعى في أن يراك
هذي القلوب ترامت تعدو وراك
قصر خطاك حبيبي قصر خطاك
* * *

والشعر - بعد ذلك - فن لغوي، يعتمد اللغة أسلوبياً للأداء والتوصيل والافصاح، والقاموسي بحكم ثقافته وبيئته، لم يتعامل مع اللغة تعاملًا معجميًا، وإنما كان تعامله من خلال خزين لغوي أدبي انصهر في وعيه أو لا وعيه، فانساح على شكل أبيات من الشعر أو مقاطع، فهو يتحسس المفردة، ودورها في التركيب، وهو يتعمد ركوب التراكيب المتينة، توخياً للفصاحة، فراه في شعره الاجتماعي - خاصة - تتخذ اللغة عنده زحماً قوياً كالشلال المثال من الألفاظ والمترادفات، وقد أخذت سمتها العالي، ونلمح بينها اللفظة ذات الاستعمال القديم، وقد سلكها الشاعر مسلكاً جديداً بحيث باتت في نسيجه، وقد أكسبت المعنى ثراء. اسمعه يقول:

أرى على الأفق غيمات مبعثرة	وخلفها انبسطت كف تلبدها
تسابق الفجر أن تلعو بشائره	وأن يدول من الظلماء سرمدها
تسلق الجانب الشرقي (أحمرها)	وطبق الجانب الغربي (أسودها)
وطاف منها شتيت هاهنا وهنا	طلانع لست تدري من يجندها
الخادعات من الأضواء تبرقها	والباخلات من الأنواء ترعدها
والساحات من الأيام معطية	لقانص فرصاً سهل تصيدها
وحارس الليل جوال بمقلته	والشهب ترصد عينيه ويرصدها
تمح الخيال تمنيه هو اجسده	أن الرياح إذا اشتدت تبدها

* * *

ويصر الشاعر على اللفظة الثرية الحية ذات الطاقة والاشعاع بحيث تزيد من غنى البيت وتلقي ظلالها على نسيجه.

وقد يخرج الشاعر على المؤلف اللغوي، في استعمال المفردة، وفي صحة التركيب، والاشتقاق، والقياس، والتنصيف. وقد ينجح الى النثرية - أحياناً - حرصاً منه على إيصال الفكرة، وإبراز المضمون على حساب الفن، لكن كل هذا لا يجعل من لغته لغة رثة بالية، فهكها الاستعمال وأفرغها التداول من حيويتها وشاعريتها.

* * *

والشاعر الحديث يتخذ من الصورة الشعرية أداة تعبير وتأثير، فيبتعد - بذلك - عن النثرية. ويجانب الخطابية والمباشرة. والصورة تأتي عند القاموسي - بحكم ثقافته وعقلانيته - من منطقة الوعي التام، بمعنى ان المنطق يتحكم بالصورة، ويحدد نطاقها قبل أن يسرقها الخيال كلية، فتقع في الغموض. يقول القاموسي من قصيدة (حلوة الثمرات):

مشت السنون ثقيلة خطواتها
وأناخ ليل يشمخراً بأنه
وأطل نجم كاد لو لم تزد
آمنت بالاشراق أول نوره
يا حلوة الثمرات أخرج زرعها
مشى المكبل جهده أن يقعدا
أرضى نؤوما أن أعاظ مسهدا
تلك النجوم البيض يطلع أسودا
خيط وينسجه الصباح إذا بدا
شطاً فأزره فشب فوردا

* * *

ولعل من أبرز خصائص الصورة الشعرية، ووظائفها الفنية أنها تتشبه الإنسان من التجريدات، وترجعه - باستمرار - إلى الاحساس بالحياة بطريقة معقولة، لكن القاموسي يقع - أحياناً - في شرك الصور التجريدية، فلا يستطيع الإفلات منه، اسمه يقول في رثاء صديقه الشاعر محمود الحويي:

يبقى وإن غار نبض وانطفئ رمق
ملون تهاداه الرؤى صوراً
وزاهر يتحدى الشهباً ثاقبهُ
تطارد الليل من أسيافه أصل
وعاطر بالسنا رفت نسائمه
على الدجى منك ضوء حالم عبق
شقى تشق دباحيه وتخرق
ويجزر الصبح من إشراقه فلق
ويسحب الفجر من أطبافه شفق
وما رأينا غيراً قط يأتلق

* * *

ويلجأ القاموسي في رسم صورته إلى التشخيص فيحول المعنويات إلى محسوسات. يشخصها، ويسبغ عليها الحياة والحركة، يقول في قصيدته (قالوا ارثته):

وكيف راح يشق الأفق محترقاً
يطارد الليل مغروراً بكلكله
وفي قصيدته (رسالة إلى حفيد) يقول:

شخصت أعين الربى تلمح الدرب ونطت لترقب الفجر بيد
واشرأبت طلائع الأفق تشتد بروق بركبها ورعود

* * *

والقاموسي - متابعاً للجواهري - يهتم بالتفاصيل، والتفاصيل إذا تجمعت، وتطورت، وتلاهمت فيما بينها برباط يشد الصور، وينسجها. فإنها تتحول إلى لوحة غنية، تشرى القصيدة، وترفع من مستواها الفني.

وقد تأخذ اللوحة أوسع مدى في قصيدة الشاعر حتى تتجاوز الأبيات القليلة إلى تشكيل

مقطع بكامله، تعمل فيه اللغة عملها، وتلتحم الصورة بالصورة، وتتولد الفكرة من الفكرة، يقول القاموسي واصفاً (الفدائي الفلسطيني):

حمل الشار حاسرا جللته لامتسا حربه: دم ووريد
بند الأرض تحست رجليه عزمها طارف من ثباته وتليد
شد عينيه للصباح وضوى في دحي الليل نجمه المرصود
أبدا ما التوت يدهاه ولا لانت قناة له ولا مال جيد
بات حلس الوفاء للدرج حتى رف عشب عليه واخضر عود

* * *

والموسيقى العنصر الأهم في الشعر، فلا شعر من دون موسيقى. وقد تكون الموسيقى الشعرية صاخبة عنيفة، أو لينة هامة. وقد يلجأ الشاعر إلى الإيقاع الداخلي لأحداث التنعيم الموسيقي، لكنه لا يمكن أن ينفلت من قيد الموسيقى في شعره بأي حال من الأحوال. والقاموسي ذو احساس مرهف بموسيقى الشعر. فهو يختار البحر المناسب - عن وعي أو لا وعي - للتعبير عن الحالة النفسية، أو الفكرية التي يريد توصيلها إلى المتلقي، فنراه في شعره الاجتماعي يختار الأبحر ذات الموسيقى العنيفة الصاخبة انسجاماً مع الهدف، وهو في شعره الذاتي، يختار الأوزان اللينة الدقيقة الرهيفة استجابة لداعي مشاعره المرهفة الرقيقة. ويستخدم القاموسي مجموعة من الأساليب لأحداث مجموعة من التشكيلات الصوتية منها: التقسيم الداخلي، والمقابلة، ومنها: الجنس الذي لم يعد في شعره حلية وزخرفة، بل مركزاً موسيقياً يقابله مركز موسيقي آخر، يضيفان على البيت تنغيماً داخلياً خاصاً.

* * *

ولعل التكرار اللفظي من أهم الأساليب التي استخدمها القاموسي - تبعاً للجواهرية مثله الأعلى في الشعر - داخل النسيج الشعري.

إن التكرار في استخدامه الجيد يمنح القصيدة تناسقاً، وتماتلاً، كما نحس من خلال هذا التكرار أن شيئاً من توكيد الفكرة، يريد الشاعر، فضلاً عن هذا الإيقاع المنتظم الذي يتشكل نتيجة لاعادة لفظة أو تركيب كما أن التكرار يساعد على إبراز التصاعد العاطفي في القصيدة مما يمنح ضغطاً وتشديداً معيناً لفكرة الشاعر. خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار، أن الانفعال والاحتدام العاطفي من أهم عناصر الشد والربط بين أجزاء القصيدة القاموسية أبياتاً ومقاطع. ويأتي التكرار - عند القاموسي - على شكل اعادة مفردة: أو صيغة، أو تركيب.

ففي قصيدته في رثاء الحجة الورع الشيخ محمد رضا آل ياسين والتي مطلعها:

مضى فتكسورُ بنياهما لك الله وحدك أركانها
يكرر مفردة (أثرها) في بداية كل مقطع، فهو يقول:
أثرها ليعمر مبدأها قرائح تلهب الحانها
وفي مقطع آخر:
أثرها قرائح لا ظالعات تبلغها القصد اعوانها
وفي مقطع ثالث:
أثرها قرائح يستاقها لعرض الحقيقة إيمانها
* * *

وفي قصيدته في تكريم رائد الإصلاح الشيخ محمد رضا الشيباني يكرر صيغة بعينها هي صيغة اسم الفاعل مجموعاً، يقول:

قم كرم الفكر حراً حاشداً خصبا واستوح ما شنت من آياته عجبا
وأد للسواهين الناس أئمن ما يعطى قليلا من الحق الذي وجبا
الحاملين من الأعباء أثقلها والراكين من الأعمال ما صعبا
والطالعين إذا استعدى دجنته ليل الحوادث في أفق العلى شهبا
والناهضين إذا اشتدت مغلغلة هوج الرياح إلى تفريقها لجبا
والقابسين من الإيمان جدوته حتى كان على أوضاعهم فببا
والواثين إلى الإصلاح ما وجدوا له المسالك لا يألونسه نصبا
* * *

وقد كرر صيغة فعل الأمر المسند إلى المفردة المخاطبة في قصيدة (نحية) التي حبا فيها أسرة الأدب اليقط:

أعدي ما استطعت من العتاد/ وشدي أزرها بسديد رأي/
وحبي بالصراحة كل قلب/ وسوي بالتضامن والتأخي/
* * *

وفي قصيدة (حلم الشريعة) يكرر تركيباً بعينه هو الفعل الناقص (كان) مع اسم وخبره على وزن اسم التفضيل، يقول:

حشدت قوى الخلود إليك حشدا فكان الموت أضعف منك جندا
وكان الموت أعجز من تصدى إليك وكنت أثبت من تحدى

وكان الموت أقصر منك باعاً لأنك عشته قبلاً وبعداً

* * *

وفي قصائد القاموسي أبيات مغلقة لا تعطيك نفسها من القراءة الأولى فلا بد من مفتاح يدخل إلى عالمها، كذلك توجد في ديوان القاموسي قصيدة مغلقة لا تمنحك نفسها إلا إذا كررت قراءتها. وعرفت مناسبتها مفتاحاً للولوج إلى عالمها السحري، يقول القاموسي في قصيدة (وذت) التي نظمها عام ١٩٦٤م:

وذت - وقد ضاق بها إهابها -	لو استعاد طيشه شياها
وظل عاكفا على ضلاله	حمارها وعاصفا شراها
ومثقلات بالمنى طيوفها	وظافحات بالسنا رغاها
قرع الليالي الحالمات شغلها	وضم أطياف الأمانى داها

إلى آخر القصيدة ...

والمطلعون على حقيقة الأمور، وخفايا الحقائق. يقولون إن هذه القصيدة قيلت في وصف أوضاع النجف، الفكرية، والاجتماعية، وسلك الشاعر فيها مسلك الرمزية، نأياً بنفسه عن مغبة الافصاح، ناهجاً في ذلك نمج الشاعر المبدع الشيخ علي الشرقي في شعره الانتقادي الذي هو أقرب الى ما يسمى بالاصطلاح العامي بـ(الحسجة) ويكفيك قوله من رباعية:

شعبك عن غفلته ما ارعوى	يا سمكاً في كل يوم يصاد
لم يبق من ترك إلا النوى	واكتست الجمرة ثوب الرماد

* * *

والانفعال عند القاموسي عامل شد، وربط بين أجزاء القصيدة، أبياتاً ومقاطع. فالقصيدة العربية خلصت في طورها الأخير الى الوحدة الموضوعية، لكن هذه الوحدة لم تتمحض دائماً. فكثير من القصائد الحديثة، تعالج مضامين عديدة في إطار القصيدة الواحدة. وان كانت مضامين متقاربة، تتمحور في اتجاه واحد، وخاصة ان كثيراً من الأغراض الشعرية العربية القديمة قد تحورت الى أغراض أخرى في القصيدة الحديثة، فاهجاء، والمدح، والثناء، تحور الى غرض اجتماعي سياسي تبعاً للقيم الفكرية والسياسية والاجتماعية الجديدة وهذا شأن شعر القاموسي.

فهو حين يمدح ينطلق من قيم فكرية واجتماعية تجرد في الممدوح دوره الاصلاحى، أو فكره الريادي. أو ترفعه عن المصالح الشخصية وحينما يرثي، يبتعد عن التذمب، والعيول. والبكاء، الى لون آخر من التمجيد في شخصية المرثي، والى دعوة الآخرين إلى أن ينهجوا

فحجه، وحينما يهجو، لا يهجو بذكر صفات نفسية أو خلقية مرذولة في المهجو، وإنما يتعرض الى قيم هابطة، وأساليب بالية، وأفكار مستهلكة.

كل ذلك يسوقه القاموسي الشاعر. مدعماً بالانفعال الحاد الذي يعبر عن موقف مخلص، يتفاعل به الشاعر ويتفاعل معه. لهذا نرى اثبات الأفكار والصور عند القاموسي، حاداً، وعنيفاً وسريعاً في البيت الواحد أو الأبيات المتعددة التي تستقيم مقطعا أو (دورا) في القصيدة، يشد بعضها إلى بعض، ذلك الانفعال الطاعني الذي هو سمة متميزة في قصيدة القاموسي الاجتماعية خاصة.

ولكن القاموسي الشاعر لا يترك للانفعال أن يأخذ مداه من دون (ضابط) فتصبح القصيدة عنده قصيدة (سائبة) بناءً ومضموناً، وإنما يلجأ دائماً الى (كساح) يكبح هذا الانفعال متمثلاً ببيت أو أبيات من الحكمة، يلخص فيها تجربة فكرية وحياتية يجعلها في ختام المقطع (الدور). وشعر الحكمة - كما هو معلوم - يصدر عن مركز العقل الواعي ينطلق منه الشاعر متأملاً، متفكراً، متعظاً، فهو موقف عقلي محض، يقف نقياً لعنصر الانفعال الذي يصدر عن زخم عاطفي متدفق.

والقصيدة بناءً فني متكامل، وتركيبية نادرة تنصهر فيها مجموعة العناصر المكونة، وعامل الصهر - في القصيدة القاموسية - هو الانفعال، أو ما يسمى بالعاطفة. ولهذا كان ما يفترض في تقسيمها الى (شكل) و(مضمون) عملية فيها كثير من التعسف والفرض على العمل الشعري. والدارس لشعر القاموسي يجده - بحكم عنصر الانفعال - قد تخلص تماماً من ثنائية (الشكل) والمضمون، وإنما هي نسيج حي متشابك، لحمته وسداه الشد الانفعالي، والعاطفة الزاخرة الهادرة. فالشاعر يبدأ منفعلاً منذ مطلع قصيدته. ويدم هذا الانفعال بأساليب فنية متعددة، أبرزها التصريح، والتنغيم الداخلي، واستيحاء المفردة، وتفجير إمكاناتها الذاتية من خلال تراكيب فنية، وعلاقات استعارية.

وربما يقود الانفعال الشاعر القاموسي - ابتعاداً عن منطقة الوعي - الى لون من الترميز والغموض، ولكنه يرتد أخيراً الى هادفية واعية عند الشاعر، فينصب في الغرض الأساس للقصيدة.

* * *

هذا هو القاموسي شاعراً حالمًا بالحب والحياة والصلاح والاصلاح وبالمثل العليا في الفكر والمشاعر والسلوك.

رحم الله صادقاً القاموسي إنساناً وخلده شاعراً وجزاه خيراً.

القاموسي .. كتيباً

الأستاذ معن حمدان علي

تبدأ ذكرياتي مع شارع المنتبي عام ١٩٦٩ حين بدأت أخصص له يوماً في الأسبوع لشراء الكتب، وكانت ميزانيتي التي أجمعها من يوميقي وأحصل عليها من أهلي - وأنا طالب مرحلة متوسطة آنذاك - تتيح لي شراء كتاب واحد أو أكثر، وبخاصة من باعة سوق السراي الذي يفترشون الأرض ببضاعتهم من الكتب المستعملة.

أما مكتبات شارع المنتبي فقد كنت أكتفي منها بالنظر إلى عناوين الكتب من خلف الزجاج بحسرة، لغلاء أسعارها بالنسبة لي، وخصوصاً المكتبات الكبيرة مثل المثني والأندلس والبيان والمعارف والعصرية والتربية، فضلاً عن المكتبات الصغيرة، وقد تطورت تلك الصلة لي بالشارع مع السنين، فقد أخذت لا أهيب دخول تلك المكتبات والشراء منها، وبدأت أعتاد أصحابها ومن يتواجد فيها وما توفره من كتب، كما أتعرف على طريقة تعامل كل واحد منهم التي تتراوح بين الاهتمام بالزبون واللامبالاة وأحياناً الغمز بعد مغادرة الزبون وسؤاله عن عنوان من العناوين.

ذات يوم دخلت المكتبة العصرية في بنايتها القديمة المجاورة لمقهى الشابندر، والتي هدمت وشيدت مكانها بناية ضخمة، فوجدت المرحوم سماحة الشيخ محمد حسن آل ياسين جالساً، فرحب بي أجمل ترحيب، ملتفتاً إلى المرحوم القاموسي قائلاً له: انه أحد كتاب مجلة البلاغ في عددها الأخير، في إشارة إلى مقالتي الأولى التي نشرت في مجلة البلاغ، وقد أكر ذلك المرحوم القاموسي بي لصغر سني بالنسبة إلى كتاب المجلة، فنشأت بعد ذلك صلة خاصة بيني وبينه، وكنت أجد في كل لقاء جديد اهتماماً ورعاية خاصة، فقد كان يحاول جهد إمكانه أن يوفر لي الكتاب الذي أسأل عنه حتى لو استدعى ذلك ان يعيرني نسخته الخاصة في سبيل توفيره لي، حيث كان يحتفظ بمجموعة كتب خاصة في الطابق الثاني من مكتبته، وأتذكر ان (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق) ليوسف رزق الله غنيمه، هو أول كتاب قدمه لي على سبيل الاعارة. ومن أوجه اهتمامه بي إصغاؤه المتميز لكل سؤال أتوجه به إليه ومحاوله الاجابة عنه حتى لو استعان بغيره عن طريق الهاتف.

ومن خلال تلك الصلة التي كنت أجد فيها من الأبوّة الحانية والرعاية الشيء الكبير، عرفت ان أنا رشاد رحمه الله هو من أعلام النجف الأشرف، وهو فضلاً عن كونه أحد الشعراء المشهورين، فهو من المتعمقين ببعض العلوم العقلية التي درسها في النجف بل

وسمعت منه بعض الآراء التي تدل على تفردّه بما نتيجه فهمه لها، ولا سبيل إلى التطرق لهذه الآراء في هذه الأجواء المأزومة.

ومع هذه الصلة كنت أعلم يقيناً انه يجهل اسمي حتى لتلك الساعة التي جنته مقترضاً ديناراً واحداً، وهو مبلغ غير كبير آنذاك، إلا ان نفاذ نقودي في شراء الكتب، ورؤية الجزء الأول من (تاج العروس)، المحقق والمطبوع في الكويت، في مكتبة الفلغلي، وهي فرصة لا بد ان تغتنم، جعلني أتجرأ وأطلب منه هذا القرض. قدم لي المبلغ مصحوباً بابتسامته المعهودة. مقرونة بجملة لازلت أتذكرها جيداً وهي (هكذا هم صرعى الكتب) حيث أسمع أول مرة هذا المصطلح (صرعى الكتب) وقد سعدت ان يلصق بي هذا الوصف ولو ادعاء. وعندما أخذت المبلغ أخبرته بأني سأعيد القرض بعد أسبوع واحد، وهو مواعيدي الثابت مع تسارع المنتهي.

وكانت المفاجأة يوم أرجعت له القرض، فقد تناول دفترى، وهو دفتر الديون بالطبع، وبعد ان قلب بعض صفحاته قرأ اسمي ومقدار القرض، فسألته: كيف عرفت اسمي؟ فرد مبتسماً: أخرجت مجلة البلاغ التي نشر فيها مقال لك، وصدف أني أعرف كل كتابها سوى اسم واحد فعرفت انه أنت، لذلك دونته في سجل الديون، ثم أطلق ضحكته الهادئة، وأخذ يحدثني عن مقالتي ويهنيئني بها واصفاً إياها بأوصاف أظن أنهما من باب التشجيع، لا الخاملة. ومحاولة مني في رد الجميل الذي لا أنساه، أخذت أقلب عناوين الكتب للشراء. فوقع بيدي، وفي زاوية منسية من زوايا المكتبة، كتاباً عن الخطاط ابن البواب للبروفيسور أنور سهيل أحد أساتذة جامعات تركيا وقد شارك في ترجمته المرحوم محمد بيجة الأثري، وهو من منشورات اجمع العلمي العراقي، أيام نشاطه لأنه نام بعدها (نومة عيود). وقد كتب على زاوية من غلافه الأخير سعره الذي كنت متيقناً من بحسه، فاجتمعت لدي فرحتان نادرة الكتاب ورخص سعره. قدمته له فنظر إلى السعر وابتساماً قال لي: لو كان غيرك من أراد هذا الكتاب لما قبلت، فهذه تسعيرة قديمة!!!

ومع مرور السنين ازدادت علاقتي بأبي رشاد رحمه الله. وقد تأكدت من أخلاقه العالية في التعامل مع الناس جميعاً، من يعرفهم ومن لا يعرفهم: فقد ذاق - كما ذكر لي - لوعة الحاجة إلى كتاب أيام طلبه العلم، كما ان صاحب الحاجة أعمى كما يقولون. ولن أنسى ذلك اليوم الذي دخلت مكتبته فوجدته مشغولاً بفتح علب كارتونية تحوي على كتب جديدة جاءت من بيروت، فدفعني فضولي إلى الوقوف إلى جانبه لرؤية الكتب الجديدة. في حين انه كان يمتنع عن ذلك حين يدخل غريب المكتبة، عندها وقعت عيني على كتاب

كانت أعداده قليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، فاستغرب من وجود هذا الكتاب لأنه لم يطلبه، وهو من الكتب المتنوعة آنذاك، فامتدت يدي إلى نسخة منه وأخذت أقلب صفحاته، فقال لي أتريده؟ قلت له نعم بحجل، فأخذ يحذرنني وطلب مني إخفاءه عن الأعين بسبب صعوبة الزمن الذي نحن فيه. خصوصاً إذا عُدَّ (مفاتيح الجنان) من الأدلة الجرمية عند سلطاته. والخطوط من سجن ستة أشهر ان وجد عنده كتاب ممنوع، وسلم من بقية التهم، فهو متهم حتى تثبت براءته وليس العكس.

هذه بعض ذكرياتي الكتبية عن أبي رشاد رحمه الله، مع ان في جعيتي الشيء الكثير، منها تعرفي على الكثير من الأعلام والأساتذة الأفاضل الذين كان يقدمني إليهم ويعرفني بهم، وبخاصة ان مكتبته كانت منتدى للعديد منهم، وملتقى لكثير من أعلام النجف الأشرف. وكانت في تلك اللقاءات من طرائف الأخبار ونوادرها الشيء الكثير. رحم الله الأستاذ القاموسي الذي كان قارناً للكتب قبل ان يكون بانعاً، وإنساناً في تعامله قبل ان يكون تاجراً، وهذا ما كان يميزه من غيره.

٢٠٠٩

كاتب لودعي، وأديب فاضل، وشاعر مكثراً،
ذكي القلب، مرهف الحس، حلو الحديث، طيب
المعشر.

محمد هادي الأميني

معجم رجال الفكر والأدب

في النجف ٣/٩٦٩

القاموسي وذكريات لا تنسى

الأستاذ جليل حمود شعبان

عرفت المرحوم الأستاذ صادق القاموسي في بداية الخمسينات، والتقيته في بيت النجف الأشرف، فقد كان أخي الأكبر المرحوم ناصر شعبان من أصدقائه ومن أقرانه. متذوق الشعر والأدب، بالإضافة إلى أنه من متتبعي الأحداث السياسية، وكان يجمع في شلة من أصحابه مرة أو أكثر في الأسبوع، كانوا متقارنين في العمر، وأذكر من هذه الشلة الشيخ عبد الزهراء عاتي وعبد النبي الشريفي، ودخيل محمد معله، ومسلم عكار وأحمد البهاس الحامي وموسى أمين.. وكان بعض من هؤلاء يمارس نظم القريض كالشيخ غسان والشريفي، وآخرون يكتبون الشعر الشعبي كعمله وموسى أمين.. وفي الطليعة من هذه الشلة يقف المرحوم (القاموسي).

كنت - وأنا بعد في مرحلة الدراسة المتوسطة - أستمع إلى ما يدور بين هذه المجموعات من مطارحات شعرية، وما يتداولونه من أفكار وملح، وكان (القاموسي) أفرجهم إلى نفسي، فقد كنت أصغي بشغف وإعجاب إلى مداخلته، وأشعاره، وتعليقاته وأتذكر أنه كان شديد الإعجاب بالجواهري - وقد بقي على ذلك حتى ثمانية عمره -.. كما كنت كثيراً ما أتلو - في نفسي - بين ما يطرحة - رحمه الله - من نصوص وآراء، وبين ما يقوله أصحابه، ما أتلقاه من أساتذتي في العربية أمثال صالح الجعفري وعبد الله الشرقي، ويحيى الجواهري وشاكر الجودي، وعبد المنعم العكام، وأزهر شريف.. فأجد ان القاموسي لا يفصل عنهم إحاطة بعلوم اللغة وآدابها.

لقد كان هؤلاء جميعاً أثر بالغ في تذوقي للأدب، وشغفي بالشعر، كما كان لسهم المبكر إلى لبنان بصحبة والدي المرحوم الحاج حمود شعبان، وانتهاري بطبيعة هذا المثل الجميل، أثر آخر في توجهي، وقد سبق لي ان تحدثت عن ذلك في مقدمة ديواني المطبوع (الأرز والنخيل).

وفي عام ١٩٥٤ انتقلت إلى بغداد ملتحقاً بكلية الحقوق، وقد قدر لي ان أتعرف هناك الأديب الشاعر عبد الغني الخليلي الذي كان يشغل وظيفة في البنك اللبناني المتحد في بغداد، وقد كنت أراجعه وكالة عن والدي، وأقضي معه ساعات وساعات وأتذكر ان رأيت الجواهري في غرفة الخليلي عام ١٩٥٦، وكان ذلك قبل سفره إلى دمشق بأبسطه حيث ألقى فيها قصيدته الشهيرة في رثاء عدنان المالكي ومطلعها:

خلفت غاشية الخنوع ورائسي وأتيت أقبس جهرة الشهداء

وقد سبق لي ان شاهدت الجواهري - وأنا في الابتدائية - وقد حمل علي الأكتاف لينشد بعضاً من قصيدته (أخي جعفراً).. وأذكر هاتين القصيدتين لأن صادقاً القاموسي يعتبرهما من المعلقات.. ومن حسن الصدق ان يكون (الخليلي) صديقاً حميماً للقاموسي الذي توثقت علاقتي به أكثر كلما كان يأتي إلى بغداد، فلنتقي (ثلاثتنا) في بيت الأستاذ الخليلي وما أروعها من لقاءات لا تمحي من الذاكرة..

وينقل (القاموسي) إلى بغداد أوائل الستينيات، ويتخذ محلاً لبيع الأقمشة في سوق المرادية، بالقرب من خان والدي (خان شعبان) فصار يتردد علينا باستمرار بصفته صديقاً للعائلة.. ومن طريف ما أتذكره انه كان لنا بذمة شخص تاجر في البصرة، مبلغاً من المال، تكلأ في دفعه. وبعد طول انتظار اقترح والدي ان نسافر أنا والمرحوم القاموسي - الذي كان هو الآخر لم يقبض شيئاً من ديونه التي بذمة الشخص نفسه -.. وسافرنا بالقطار وكان القاموسي يتأبط ديوان الشريف الرضي ويقرأ لي ما يختار منه ويفسر، وكنا نتحاور في قضايا الأدب وبخاصة عن معركة أنصار الشعر العمودي وأنصار الشعر الحر، وهل يقوى الشعر الحر على امتلاك ناصية الساحة الأدبية.. أما الحديث عن الديون والمدين والكمبيالات فقد صارت كلها في خبر كان، وكأننا ذاهبان إلى مهرجان شعري لا إلى المطالبة بديون متعثرة.. وما زالت صورة (القاموسي) شاخصة أمامي وهو يردد (لم نخلق للتجارة.. ولا نصلح لها أبداً).

وفي البصرة التقينا بصديقنا الأستاذ حمزة الأسدي - وكان يشغل وظيفة مدير فرع البنك اللبناني المتحد في البصرة - وقد دعانا إلى حضور حفلة رأس السنة في نادي الميناء.. وفي تلكم الحفلة وأجوائها الساحرة ولدت قصيدتي (انظري) ومطلعها:

انظري فأنت كأسى وحمري جنت أهديك كل لحي وشعري

وقد أعجب (القاموسي) بهذه القصيدة، وبخاصة بيتها:

أنت للروض عطره وشذاه ولليل الحبيب ضحكة فجر

ولا أجدي بحاجة للإشارة إلى اننا رجعنا إلى بغداد بحفي حين، فلم نقبض شيئاً من

الديون!!

وبعد ترك القاموسي مهنة الاشتغال بالأقمشة، وانتقاله إلى شارع المتنبي ليأخذ مكانه الطبيعي، كانت مكتبته (المكتبة العصرية) مقراً يتردد عليه كبار الأدباء والشعراء، ومن مختلف الاتجاهات الفكرية، وكنت ألتقي العديد منهم فيها.

(والقاموسي) مولع بالسفر إلى لبنان، وكلما حل فصل الصيف كان يشد الرحال إليه، وكنت مثله، وكان لا بد لي ان ألتقي به هناك مع العلم انه يفضل الاصطياف في (كيفون)،

وأنا أفضله في (بممدون).. فأذهب إليه أو يأتي إلي.. ولقد كان يود أن يرى كل شئ في لبنان وكأنه طائر يفر من (قفصه)، فتراه يقضي أوقانه في زحلة وشاغور همانا حيث تقف (وصلة غنائية) في أول كل مساء تحييها المطربة (جلنار).. وكان يقول لي إن كل شئ في لبنان عجيب ومطرب، حتى اسم (جلنار)!!

وهو إذ يسمع - من هذا وذاك - بكازينو لبنان وشهرتها العالمية وعروضها المسرحية كان يتوسل إلي أن نذهب إليها مع علمه ببعده الطريق وعدم وجود وسيلة نقل إلا مع سائق ملتزم.. وكان له ما أراد فذهبتنا ذات مرة - وكان من جميل الصدف أن نشاهد وجهها لوجه - عدداً من الفنانين الكبار أمثال يوسف وهبي، وفريد الأطرش وكاننا من مدمني (لعنة الروليت). وفي كل لحظة كان الحديث عن الشعر وبخاصة غزله ووصفه لا يفارق جلساتنا.. وأتذكر أن القاموسي كان يعشق (الموال اللبناني) وكان شغوفاً به، ويعتبره قمة في الشعر العربي - وإن كان باللهجة العامية - وكنت أقرأ له الكثير مما أحفظه.. وهناك مولان كانت تأخذ من القاموسي مأخذها، فيصل الأمر به إلى حد البكاء عند تلاوي لمسة فكيف به إذن لو سمعها مغناة بصوت وديع الصافي. العذب الشجي..

ونصهما:

أحبابي وين ما راحوا يخلون
بكلي وعكدة همومي يخلون
وكاس المر بالمبسم يخلون
ويصبح كاسي طيب للشرب
جرعت الهم في صدري وعيته
وياربي ترجع الغايب عيته
شاعر قائم يفتش عيته
حبيبه قبل آخر سطر غاب

هذا هو جانب من ذكرياتي عن (صادق القاموسي) المنطلق من محيط محافظ، العاشق للطبيعة وجمالها، والوفي المخلص لكل أصدقائه الذين أحبهم وأحبوه.. ولقد كانت لي معه مطارحات شعرية تعبر عن مدى حبنا المتبادل، نشرت في ديوانه وديواني.. وشكراً لمن سألني على استعادة هذه الذكريات..

صادق القاموسي في لوحة الشرف (★)

الأستاذ عبود الطفيلي

المرحوم صادق عبد الأمير القاموسي مواليد النجف الأشرف لعام ١٩٢٢ والمتوفى عام ١٩٨٨ ينتمي لأسرة عربية ترجع إلى عشائر المياح. سكنت بغداد منذ أكثر من قرنين من الزمن. انتقل والده إلى النجف الأشرف امتثالاً لرغبة خاله العلامة الشيخ باقر القاموسي لغرض مزاولته مهنة التجارة والتبرك بمجاورة مرقد الامام علي (ع) وقد نشأ المرحوم صادق نشأته الأولى بمعاونة والده في تجارة الأقمشة إلا أنه تأثر بسيرة أصدقائه وهم من أعلام الأدب والفقه. أمثال الشيخ عبد الحسين الحلبي والسيد سعيد الحكيم والسيد موسى الجصاني وبفضل هذه الصلة اتجه رحمه الله صوب الدراسة الدينية مع بقائه في عمله التجاري. فدرس المقدمات والسطوح على السيد محمد علي الحكيم والسيد عبد الرزاق المرقوم والشيخ محمد رضا المظفر الذي لازم ملاءمة روحية كان لها الأثر الكبير في بناء شخصيته وأفكاره. ثم حضر بحوث مراجع الحوزة كالسيد حسين الحماشي والشيخ حسين الحلبي والسيد مرزوق حسن الموسوي في الفقه والأصول.

وفي عام ١٩٣٨ تحول إلى التحصيل الدراسي الحديث فالتحق بالسدورة الأولى لكلية منتدى النشر التي كانت يومذاك في أحد دور أزقة محلة اليراق بالنجف. وواصل الدراسة فيها حتى تخرج منها ولتفوقه ونبوغه اختير مدرساً لعلم المنطق في نفس الكلية التي تخرج فيها.

وبالنظر لاتساع وتعدد هواياته واتجاهاته الأدبية والثقافية أصبح مرشداً للجنة تآخي الطلاب في الكلية التي كانت تمثل النشاط الثقافي لكافة فروع و صفوف الكلية وعند صدور مجلة البذرة ذائعة الصيت والشهرة. اختير القاموسي مشرفاً فكتب افتتاحياتها بتوقيع (مرشد اللجنة) إضافة إلى المقالات والقصائد التي نشرت له بتوقيع مستعار أو صريح.

وعلى غرار ذلك كان محمد الصحاف الطالب البارع ينشر ويكتب بأعداد مجلة البذرة أبواب ومقتطفات نادرة وشيقة وملينة بالنقد اللاذع والأدب الساخر.

وفي عام ١٩٤٥ انتخب المرحوم صادق القاموسي عضواً إدارياً في جمعية منتدى النشر وظل يواصل العمل الدؤوب بهمة عالية ومبادرات ملحوظة من أجل تحقيق الأهداف

(★) نشرت في جريدة الفرات النجفية، وهي فرزة من كتاب الطفيلي (في لوحة الشرف).

السامية للرسالة الاصلاحية والتهذيب لهذه الجمعية الخالدة وعمل لسنوات عديدة أميناً مالياً ومحاسباً لها فنظم سجلات حساباتها وفق الطريقة الحديثة. ومن الجدير بالذكر ان صادق القاموسي قد أعيد انتخابه لسنوات متتالية استمرت حتى الثمانينات وهو تاريخ انتهاء عمل الجمعية.

وكان صادق القاموسي إلى جانب هذا النشاط أحد الأعضاء المؤسسين والاداريين الأوائل للمجمع الثقافي التابع لمنتدى النشر. والذي كان يرأسه العلامة الشيخ محمد حسين المظفر وقد شارك القاموسي في كافة الأنشطة والفعاليات الثقافية والأدبية طيلة سني عمر المجمع. وما تخلله ذلك من حوارات وندوات ولقاءات مع جامعات ومؤسسات وأساندة ووفود عربية وإسلامية ومنها علماء جامعة الأزهر وكان رحمه الله يجمع بين عمله التجاري كبناع مفرد للأقمشة الرجالية مع أخويه الحاج عبد الهادي القاموسي الذي كان يشغل عضوية غرفة تجارة النجف لعدة دورات. والحاج عبد الحسين القاموسي في محل واسع بوسط السوق الكبير فأصبح هذا الملحق ملتقى لرواد الأدب والثقافة ومحطة لتواجد المعارف والأصدقاء ورغم التزامات صادق القاموسي التجارية فقد كان شديد الحرص على التواصل المنتظم لمواعيد الدرس والتحصيل والتواجد في أروقة الجمعية وصفوف الكلية حيث كان رحمه الله طالباً مع الطلبة وأستاذاً مع الأساتذة وشاعراً مع الشعراء، ومحسناً مع المحسنين وحرراً مع الأحرار. صغيراً مع الصغار وكبيراً مع الكبار تمثل في شخصيته الحبوبة جوانب وخصائص نادرة ومتنوعة لعدد من الرجال الأفاضل تراها مجتمعة في رجل واحد هو صادق القاموسي. فهو موفق كل التوفيق بتواضع وحسن أدائه وعطائه وسخائه وطريقته وأسلوب تعامله مع الآخرين كان رحمه الله يتبرم من عصره وأبناء جيله بسبب انتشار ظاهرة النفاق والأزدراء واستخدام الدبلوماسية الكاذبة كسلاح في الخديعة ويتألم كثيراً حين يشاهد شباب اليوم يتمرد على العادات والتقاليد العربية والإسلامية الأصيلة ويستورد البدائل الهزيلة والمبتذلة والمشينة من الغرب الذي بات يغزو ديارنا ومعتقداتنا باسم الحضارة والمدنية. ١

كان صادق القاموسي يحمل بين جنبيه مزجاً من الأفكار يدعو فيها لوضع قواعد جديدة لتربية الجيل تتماشى مع متطلبات العصر قبل ضياع أبنائنا وبناتنا في مناهات مجهولة امتثالاً لقول النبي المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) "علموا أبنائكم بغير علومكم لأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم"

وفي عام ١٩٥٩ انتقل صادق القاموسي إلى بغداد ليمارس نفس عمله التجاري كبناع أقمشة جملة في سوق المرادية إلا ان هواياته المفضلة التي نشأ وترعرع عليها كانت وراء تعلقه بالثقافة والأدب. فأقدم على شراء المكتبة العصرية الشهيرة من صاحبها محمود حلمي

وفاء إردهرت المكتبة في عهد القاموسي وأصبحت ملتقى لرواد الأدب والثقافة. ومجمعاً بلدي في الإعلام والمفكرون وظل القاموسي في بغداد يمارس نشاطه الثقافي من خلال الأندية والجالس يشارك في إحيائها بمساهمات شعرية ونثرية فكانت له مشاركات فعالة في مؤتمر الأدباء السابع ومهرجان المربد الثاني. ومما يذكر ان المرحوم القاموسي لديه مؤلفات منها (مشاكل الشباب) و(محاضرات إبليس) وقد كتب عنه الكثير من الأدباء والنقاد وصدرت بعض الدراسات عنه بعد رحيله.

وكان لفقده صدى عميق في الوسط التجاري والثقافي فأقيمت له مجالس تأيينية استذكارية في مدينتي النجف وبغداد وأبنة العشرات من الشعراء والأدباء.

رحم الله صادقاً القاموسي ابناً وفيياً وباراً لهذه المدينة المقدسة التي كان له شرف المساهمة بحمل رسالتها، فاستحق ان يذكر اسمه في لوحة الشرف.

صادق القاموسي وهاجس التحديث (*)

الدكتور عبد الإله الصانع

هل كان محمد صادق القاموسي يرثي نفسه !؟

قالوا ارثه قلت هذا اليوم مولده	والمرء ذكره لا فوه ولا يده
يأبى له الموت ما ضحى وما ورثت	منه العقول وما اعطاه معهده
ان الحياة حياة الذكر لا جسد	يلقى ولا نفس ينهي ترده
والعمر عمر الهدى يستل من عمه	جيلا ويمشي الى جيل فرشده
ما عاش كي ينقضي من يومه وطر	وانما عاش كي يحيا به غده
رأى الحياة سنياً تنقضي فمضى	ينال منها التي تبقى تحلده

شهادة متأخرة: يعز علي ان اضع اي صفة امام اسم العلم الكبير! فاذا قلت شاعر فما اكثر الشعراء! واذا قلت وطني غيور فما الميزة في ذلك وكل وطني غيور! واذا قلت الزعيم انقصت من الانسان المتمرد تحت جلده! واذا اخيراً قلت انه الشيخ القاموسي فما اهن هذه الكلمة في زماننا هذا! اذن هو صادق القاموسي وهذا يكفي أو هو ابو رشاد الذي هدده حبيبه الشاعر مصطفى جمال الدين في نهاية نوبته في واحدة من ملحياته اسميتها القصيدة البلاجية نسبة الى بلاج عاليه اللبناني المشهور جداً!! قال مصطفى جمال الدين مداعبا القاموسي لأنه ورطه فادخله وعدداً من المومنين بلاج عاليه وبالعمة والزبون ثم حيد لهم توجيه سؤال جريء!!) إلى حسناوات البلاج اصابهن بالذهول ووقعهن في الحرج:

قارن نونية الدكتور السيد مصطفى جمال الدين: فجر عاليه:

فجر عاليه في جبينك اشراق ولقح الصحراء في البنطلون
خبريني أفي شمالك قد خبأت سر اللهب أم في اليمين
خبريني ولا تخافي فأيارك في مأمن لدى تشريبي
لا يغرنك اشتعال حديثي والتهاب الحروف بين لحوبي
فشلوج الشتاء ترسّف في اعماق ذاتي في حيرتي في يقيني

* * *

(*) عن موقع <http://www.alnoor.se/article.asp?id=37549> (بتصرف).

لم ازل يا ابا رشاد كما تعهد من عفة و تقوى ودين
 حاملا بين حامللي الورد رأسا صدق الله انه من طين
 وفؤادا لو رقت الصخرة الصماء ما اهتز نبضه بالحين
 وعبونا لو ابدلوني عنها بالصلايخ لم أقل ظلموني
 فمتى يكره العماية طرف لا يرى غير كالح العشون

* * *

نو ترابي وشم عاليه طارت بي ورويال مركبي وسفيني
 صاعدا في الفضاء من فوق بيروت كأني من سرب كآكارين
 الهادي عشيقي منقل الخطو كأني أجر عبء سنين
 عن يميني (عبد الغني) وعن يسراي وا غربتاه (شمس الدين)
 وحواليهما المشايخ من سيراز من اردبيل من قزوين
 فأحلنا لبنان وهي جحيم من حدود جنينة من ذقون
 وأذينا سوق الشيوخ بسوق الغرب والصحن في ذرى كيفون
 فساوت والحمد لله (بكفيه) عندي وقريه (المؤمنين)
 ونراعت (بجشم ما) صورة الشيلة (بهتر أز بي حيا البطلون)
 هكذا زارت الكوليرة لبنان ولكن بجية وزبون
 وعزاء لهذه الأكم الخضراء من (إهدن) إلى (جزين)
 وانتظارا ابا رشاد لهجوي كيف قشمرتني بما يا دوي!

أولا صادق القاموسي منحاز إلى الحدائث التي تميز العقل المنثور من العقل المتحجرا
 حدائث كما يفهمه القاموسي ورفاقه ليس تغييرا ولا تفریطاً فهو تطوير للشكل وتوسيع
 نظر مع الحفاظ على مكونات الجوهر!! قد تختلف معه أو تأتلف فمثل هذا لم يكن ليدور
 بخلد كوكبة من شعراء النجف (صادق القاموسي، جميل حيدر، مصطفى جمال الدين،
 البوانلي، صالح الظالمي، ومحمد الهجري) حين بدأت ودعت إلى تحديث الحياة في النجف
 بتحديث التقاليد وتحديث الشعر وتحديث الدرس الحوزوي وتحديث التصحفاً وقبل هذا أو
 ه فابيس يسيراً - وقد يبدو ليس ممكناً - أن يحتل شاعر مثل صادق القاموسي وهو
 نجف جري، وشاعر مضيء، مكانة طيبة بين شعراء النجف عهد ذاك وفيهم محمد مهدي
 الجواهري وعلى الشرقي ومحمود الحويي ومحمد علي البعقوي وعبد المنعم الفرطوسي وأحمد

الصافي النجفي وصالح الجعفري ومحمد رضا الشيبلي ومحمد باقر الشيبلي فهذه الأسماء كانت في أبراج عالية تهيبها الناس فليس ثمة فسحة لشاب مستجد أو وافد حيي!

ظهور شعراء شباب بين أولئك الشعراء الشيوخ الساطعين يبدو نكتة غير مضحكة ومغامرة غير مضمونة! لكن للموهبة حساباتها التي لا تحطى، وللأرواح قدراتها التي لا ترد! فتشكلت طبقة من الشعراء في النجف قوامها الموهبة ومرامها التحديث ونظامها الخطوة خطوة! ظهر صالح الظالمي وجميل حيدر وصادق القاموسي وأحمد الوائلي ومصطفى جمال الدين ومحمد الهجري وكان لظهورهم وقع الصاعقة على بعض شيوخ الشعر المزمتمين! وربما شكل كون بعضهم من أصول غير نجفية مثل سوق الشيوخ وكرمة بسني سعيد وبغداد والشطرة سببا وجيها للغض من شأنهم فكيف يجرؤ شعراء الأطراف على منافسة شعراء المركز؟! وفي زعم شيوخ الأدب ان هذه مدن مهمة ولكنها ليست كمثال النجف التي تريد أن تكون عاصمة الطائفة الشيعية وعاصمة النضال وعاصمة الشعر! ولن ينظر الصمير الجمعي بارتياح لأي تحد من أبما جهة جاء وبأيما مسوغ فاء! لكن جمهور النجف وبغداد خرج عن القاعدة فقد استساغ القاموسي ورفاقه بما لا يقاس بظروف جديد الأجيال! والبعض كان يحفظ شعر القاموسي! بل ورأيت من يحاكيه في القائه المتميز! رفاقه فتية ملأوا النجف وشغلوا اهلها بالشعر الجديد الجميل وبالذعوات الاصلاحية وبالصدقات الحميمة مع الجميع! نذكر منهم الشعراء صالح الظالمي وجميل حيدر ومصطفى جمال السادين وأحمد الوائلي ومحمد الهجري...! وكان شيوخ الشعر ورموز القداسة تحسب للساهم وجاهريتهم حساباً دقيقاً فلم تشأ الارتطام بهم مباشرة، وهم يحطون بحجة وتشجيع كبيرين من كبار علماء المرجعية، وفي الصميم الشيخ محمد رضا المظفر! هذا المرجع الديني الأكبر! ورائد التحديث! هذا العربي ابن العربي والعراقي ابن العراقي! العيور على العراق كغيرته على عرضه ودينه! كانت جماعة القاموسي تخطط للمناسبة وتمتهج طرحها بحيث تكون دعوتها مؤثرة في روع الناس! وغالياً ما يتوسل هؤلاء إلى غاياتهم التنويرية بالمناسبات الدينية والوطنية والاجتماعية والخاصة مثل الزواج والختان وختمة القرآن وبقية الأفراس! أهم يعرفون النجف أي ضرب من المدن والناس!! وهم محبون للنجف وناسها!! ومدينة النجف تعرف بأنها مدرسة تخرج فيها اعلام كبار في الأدب والدين والطب والقانون والنضال بحيث تبدو للمؤرخ مطلسمه حقاً! فكيف استطاعت هذه المدينة الصحراوية معادلة قسوة طبيعتها بلطف طباعها! فيها الشيء وفيها قبيله! فيها عميد المنبر الحسيني السيد خضر القزويني وفيها ولده عميد الأغنية العاطفية ياس خضر! فيها الإمام والمرجع الديني الأكبر الشيخ محمد

حسين كاشف الغطاء وفيها ولده الشيخ المنحدر عبد الحلیم كاشف الغطاء وفيها الشيخ والروزخون الحسيني محمد الشبيبي عضو مجلس السلم العالمي وفيها ولده الشهيد حسين الشبيبي الذي أعدم مع الشهيد فهد وفيها رجل الدين المعمم الكادح السيد أحمد الرضي (عامل في مطحنة البو عجينة) وفيها ولده الشهيد حسين الرضي رئيس الحزب الشيوعي العراقي! فيها الندابون والندابات التاريخيون مثل كاظم القابجي وفاضل الرادود وعبد الرضا (أبو حس الذهب) وعبد المحمد وفاضل الرادود والدكتور عباس الترجمان وفيها الملاي الشبهات بالاسطورة مثل الملة وحيدة والملة أمينة بنت الحد والملة تقيّة تويج والملة شكرية الصغيرة والملة شكرية الكبيرة والملة نظيمة تويج والملة فهيمة بنت حجي طينة والملة الرجالية! وفيها أساطين المنبر الحسيني السيد صالح الخلي والشيخ أحمد الوائلي والسيد حسن الشخصص! وفيها الضحاكون مثل حسين قسام النجفي والشيخ صادق القندرجي والحاج زباله الكوفي، وفيها أئمة الشعر الشعبي العراقي مثل الحاج زاير دويج وعبد الحسين أبو شبع وعبود غفلة وحسن الحد وياسين الكوفي وحسين قسام وكاظم القابجي ورسول محيي الدين! وفيها أئمة الشعر الفصيح مثل محمد سعيد الجبوي وعلي الشرقي وباقر الشبيبي ومحمد رضا الشبيبي ومحمد مهدي الجواهري ومحمد علي اليعقوبي وعبد العزيز الجواهري وصالح الجعفري وعبد المنعم القرطوسي ومرضى فرج الله! فيها أكبر تجار العراق مثل الحاج محسن شلاش المعمم الذي صار وزيراً للمالية وكان يقرض الدولة من جيبه الخاص! وفيها أفقر فقراء العراق ومتسوليه! فيها المتأله الذي لا يتصرف إلا بالاستخارة وفيها المنهتك المتعهر الذي لا يردعه رادع! وفيها أسواق متخصصة لم أر نظيراً لها إلا في الموصل العريقة مثل السوق الكبير وسوق المسابك وسوق الصفاير وسوق العطارين وسوق النجارين وسوق البقالين وسوق (علوة) المخضر وسوق (سكله) السمك وسوق القصابين وسوق الروافين أو العبايجية وسوق القصارين أو الصبايغ وسوق الريحة وسوق (الققججية) وسوق الكوازي (بيع أكياس الجوت والحبال وخيوط السوتلي) وسوق الكماليات (المغازة) وسوق بيع التمر والرز (علوة أو خان أو سيف) وفيها سوق الكفتوز (وهو سوق لتجهيز الموتى) وفيها سوق التنجية وسوق المهربين (الققججية) وهو سوق لا يعرفه الكثير من الأهالي وفيها أسواق للحمير، وفيها سوق للهو الموظفين اسمه (نادي الموظفين في النجف) وسوق للإبل (المناحة)! وشارع باسم عكده الحمير وشارع لليهود وشارع للأكراد ومحلات كبيرة للمهاجرين من المدن البعيدة مثل محلة العمارة ومحلة حنون وفيها أزقة بأسماء قاطنيها مثل زقاق خانية وزقاق البو الزكري وزقاق البو جريو وزقاق بيت شمسة وزقاق بيت مرزة!

وفىها خاناء أسطورىة باذخة العمارة والهياة خاصة جداً جداً ىمتلكها هنود البهرة الاسماعىلىة وخاناء للكوراء وخاناء للآىرائىن وخاناء للبربر! مقاهىها غربىة أىضاً فهى متعددة الوظائف مثل مقهى عبد ننه ومقهى عبد مذبوب ومقهى أبو البسامىر ومقهى القومىة ومقهى حفارى القبور والذفانة وأهل الصىحة والنوبة ومقهى القىقجىة! فىها حماماء اعناء إغلاقىها خسارة لا تعوض فىفها صالاء وخزانن ماء وساواناء لا نظىر لها مع (مءلكىة) أى خبراء مساج وحلاقون ىخلقون كل شىء ووجىاء شائ (ءارسىن قرفة) وخشخاش (1) وشائ حلىب وشائ نومى حامض فضلاً عن اللوحاء الئى أنجزها فنانون ذور شهرة عالمىة... وفىها شخصىاء غربىة الأطوار تقترب من الفكاهة والظرف مثل مانىة (أبو العرگ) والمعلم حسن ءشئى والمعلم كزگز والمعلم الرىاضى علوان السفىر والمعلم حسن بانىة وعبابة و... وفىها حرف انقرضت مثل السقاء وخىاط الفرفورى وچراخ سكاكىن وفتاح فال والساحر وبائع الملابس والبضائع المهربة والمضء المءنى والحمامة والخطابة... مءىنة عجابىة حقا فهى على رأى أرشىبالء مكلش ىجعل من اللامائل تماثلاً! فلىس غربىاً مثلاً أن ىنئج هذه المءىنة أسماء كبرىة تركت مباسمها على الحىاة العراقىة بخاصة والعربىة بعامة!

صاحب الترجمة استطاع أن ىجد له مكاناً ىح شمس النجف بعء ءاب ومانبارة كبرىن فالأستاذ محمد صاااق وهو نجل الحاج عبد الأمىر بن الحاج صاااق البغءاءى المعروف بالقاموسى! برز فى الوسط الثقافى بوصفه كائباً وشاعراً وزعىماً وهو ئاجر مرموق وكئى مشهور ومحسن مذكور! هو رجل ءىن من طراز رصىن مننور وهو وجه اجئماعى جءاب بلسانه المهبء وىءىهته الحاضرة وسخائه العئىء ءمائه التلقانىة، بل وهو عاشق البسمة وىجنون الطرفة والناءرة، ءون ان ىسف فى ءىا أو ىنطرف فى ءىن! لءلك كان رحىله فئىعة موجهة للأوساط ءىنبىة والعلمىة والأءبىة والخرىة!

بؤلئى انئى ىءءئت عن رفاق القاموسى مثل مصطفى جمال ءىن وصالح الظالمى وجمىسل حىءر وأحمء الوائلى ومحمد حسىن المئصر لكئنى لم أئءء عن القاموسى مع مئابئى لئىربئته إء لم ىكن بمكئنى الكئابة عن الشىخ القاموسى لصىاع أعلب شعوره وءءم ءعاون أولاءه فى بغءاء معى وكئت أزورهم فى المكئبة العصرىة الئى كانت إءءى مائار العلم فى العراق فأجءهم غرب مكئرئىن بمشروعى⁽¹⁾! ىئى شاء الله أن أكتب عنه وأنا فى مغربى بمشىغن

(1) كءا فى الأصل!! (الناشر).

الخروسة واجدا من نجله الأديب الأستاذ عماد محمد صادق القاموسي وهو شاعر أيضاً العون البحثي الذي يلزمي من ديوانه المطبوع النادر إلى مخطوطات شعرية، إلى صور وجلاء بعض الاشكالات فالشكر له والشكر لحاسن الصدف! إذن القاموسي شاعر معروف نجفياً وبغدادياً! بل ومعروف عربياً وبخاصة شعراء الشام والمهجر! له في جمهور النجف الشعري الصعب سطوة على القلوب فما ان ينادي عريف الحفل باسمه حتى تمش الوجوه وتدب الهمهمة، فهو متميز الشكل إلى الملاحظة أقرب، متميز الصوت إلى ترنيمه ادخل، فضلاً عن هذا وذاك فهو مقتدر جداً في إضحاك الجمهور إن بيت شعر شارد أو بتعليق منه عليه أو بأي ابتكار للبسمة في مجتمع متحهم يستغفر الله كثيراً إذا ضحك! أتذكر اني كنت ضمن جمهور الشعر الخالس في حديقة جمعية الرابطة الأدبية! صيف سنة ١٩٦٥ وكان العريف صديقنا المشرق الجميل الشيخ محمد نجل العلامة الشيخ سلمان الخاقاني مفتي الخمسة وعربستان! ومحمد الخاقاني وهو أصغر الشيوخ سناً ليس بالعريف التقليدي ولا بالمتحدث السهل! لذلك نجى تعليقاته الحبية شديدة باللمحة الذكية لتزيد الجمهور فضولاً وحماسة! أتذكر كوكبة الشعراء الذين ألقوا الشعر أولهم كان الشاعر الرائد الكبير الأستاذ صالح الجعفري وقد جاوز الثمانين (كذا) قرأ قصيدة عناب همزية في ولده أبكتنا وأبكت ولده الذي كان حاضراً! استنزلت دموعنا جميعاً وأطلقت تأوهاتنا دون أن تدمع عينا الجعفري رحمه الله! ويؤلمني أن ذاكري لم تتشبت منها بسوى أبيات!! أولها:

هكذا كان جزائي بعد جهد وشقاء

كم قضيت الليل سهران لتنهى بالغفاء

يقظ أحلم اني في عداد السعداء... إلى آخر الأبيات.

ثم نوالى الشعراء مصطفى جمال الدين قرأ قصيدة غزلية كأنها نجيب على سؤال حبيبته التي كانت تطرز له مندبلاً وباغتته بسؤالها بأي حيط يا ترى تطرز النجوم:

طرز بها بسحر عينيك يا ليلي

بما تطويان من أسرار

بابنساماتك التي علمتني...

كيف تحضل بالربيع الصحاري

بدموع اطلقتها وأنا أسمع وقع النجوم في أفكاري... إلى آخر الأبيات.

وقرأ الشاعر الجميل الشيخ جميل حيدر نور الله ثراه قصيدة طريفة جداً أتذكر منها قبضة أبيات مستذكراً مع القاموسي صياحات نزل الراية وهو بانسيون على سفح جبل

مطل على البحر في لبنان:

سلام على نزل الراية
سلام على مؤمن لا يريد
ويغسل ثوب التقى والوقار
سلام على شاعر قادهما
سلام على الآه من نظرة
على سرب غزلانه اللاهية
لأيمانه رجعة ثانية
بتأيد نزوته العارية
عمائم مائلة دانية
تعذبها اللقطة الطاغية

وقرأ صالح الظالمي قصيدة لم يعلق شيء منها في ذاكري مع الاسف.
فاذا جاء دور الشاعر الكبير محمود الحبوبي وكان قارب الخامسة والسبعين (كذا) قرأ
قصيدة فلسفية اذكر منها بيتا واحدا يعادل ديوانا:

فالأرض مائدة والساكنون بما
طعامها والمنايا آكل نم

وجاء دورك ياشيخ القاموسي محمد صادق فدبت الحركة بيننا كأن الحفل قد ابتدأ
وتواثبت الهمسات من كرسي إلى آخر! فكان أن وقف بيننا القاموسي بوجهه المثلث الجميل
المشرب بالكمة ونظارته الطيبين السميكتين اللتين باتتا كحلاً لعينيه وحاجبيه الكثيفين
وشعره المقتل أو النكرو وهو بين الشيب والسواد (رز وماش كما نقول في النجف)
وملابسه الأنيقة وبسمته العريضة وكان تعليق الشيخ محمد الخاقاني يفيد هذا المعنى (لك الله
ياشيخنا القاموسي وأنت الطائر الرقيق كيف ستشدد وقد سبقك الصقور؟ وكيف سيصغي
لك الجمهور وقد تعب من طول الاستماع!) فوقف القاموسي وقال للخاقاني بروح دعابة
عالية قائلاً: ياشيخ محمد أيها العريف الخايد كما ينبغي هل مقدمتك مديح لي أم هجاء!
وقال لنحكم الجمهور فصرخ بعض الظرفاء من الجمهور قائلاً: شيخنا القاموسي (انته إقره)
أي إقرأ، وما عليك كلام الشيخ الخاقاني (مو يمك) لامديح لك ولا هجاء! هو لا يعينك بل
يعني الصقور التي (نتفت ريشنا غيلك) ! فضحك الجميع وصفقوا ثم بدأ القاموسي يقرأ
حكاية جميلة هيئة قصيدة ذات إيقاعات متناوبة متجاوبة من مجزوء البحر الكامل مكللة
بقواف تتغير كل مقطع وفق تغير المشاهد والسياقات! والقصيدة قائمة على فكرة ان
الشاعر كان يذهب إلى البارك ليقرأ هناك فجدبت روحه فتاة مهسومة بالقراءة لا يستشيرها
شيء سوى كتابها ونفسها كأنها تخشى الرسوب في الامتحان! وهذا يعني ان ليس لديها
وقت تبده مع أي كان. وميمات كتابة هذه التجربة الشعرية والعاطفية معا هو ربيع
١٩٤٩! ولناحظ معاً انسيابية القصيدة واسمها لمياء:

لمياء ... هل تتذكرين إذ التقيتك بالحديقة
 إذ أنت كنت على الرصيف جلست باسمه طليقه
 وبداك عابثان تنكت زهرة الروض الأنيقه
 يطفو الجمال على صباك وأنت بالذكري غريقه
 سحر يفيض وفئنه قطعت على الساري طريقه
 قد عشت وحدك ما استرحت إلى صديق أو صديقه
 وطغيت حتى عزّ - من كبر - لفاك على الخليقه
 فنصتُ فيك حبانلي واخلبُ علمني الطريقه
 وأتيتُ لحوك طالبا حلاً لمسألة دقيقه
 ابغي الحقيقه لا الهوى والله أعلم بالحقيقه
 فبسمت لي، ولطفت بي، وعطفت راحمه رقيقه
 وأجبت إلا أنني استعدبتُ تغرك بل عقيقه
 ولحكمة ضيقتُ فهمي كي أوسّع فيك ضمه
 فرحمت في جاهلي
 وأعدت شرح مسانلي
 وروقت طوع حبانلي
 وبفضل ذاك اليوم قد بانّت علانقنا وثيقه!

أبصر محمد صادق القاموسي النور في مدينة النجف سنة ١٩٢٢ فاحتفى بميلاده والده
 البزاز المعروف والتاجر الموسر الحاج عبد الأمير القاموسي ففتح الطفل عينيه وسط بينسة
 تجارية دينية علمية أدبية وقد كان الصغير كثير الملاحظات دقيقها سريع الحفظ كثيره، فلفت
 عناية أبيه الحاج عبد الأمير تاجر القماش. ذي الخل الكبير في السوق الكبير! فأخذ يشجعه
 ويرجو أصدقاءه كي يشجعوه! وقد كان دكان أبيه ملتقى لرجالات المعرفة والأدب! ومن
 ذا الذي لا يعرف الحاج القاموسي البزاز ذي الخلق واللفظ، والحاج عبد الأمير وهو والد
 المترجم له الشيخ صادق القاموسي رجل من أهل بغداد هاجر إلى النجف قبيل الحرب
 العالمية الأولى حياً بالنجف والتماساً للتبرك بمجاورة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)
 فضلاً عن نصيحة حميمة تلقاها من خاله الشيخ باقر القاموسي الذي لقف لقبه! وكان

صديق مولعاً بمجالس الأدب والثقافة، وفي النجف تكون المجالس مدارس للعلم ونوادي لازجاء الوقت مع صفوة الناس وظرفائهم! صادق الطفل الصبي الفتي الشاب ربيب تلك المجالس وهي حاضنته ومعلمته ومنطلقه للشهرة! فتراه ينتقل بين المساجد والحسينيات والبيوتات الراقية حيث يستمتع بلقاء الأدباء والعلماء والأعلام! ثمة جوامع لها شهرة مدوية تحدث عنها الرحالة المغربي ابن بطوطة والمستشرق تكسيرا والرحالة نيورا! مثل جامع الطوسي والخضرة والهندي! ولوحظ على صادق القاموسي حرصه الشديد على حضور بعض الدروس الحوزوية بصفة مستمع، واكتشف عدد من أساتذة الحوزة في صادق القاموسي مخايل النباهة والجدية والتلقي السريع مع أدب جم وتصرف حسن! كما ولع به زملاؤه وأترابه من الشباب حين اكتشفوا فيه ميلاً شديداً للتحديث والحداثة! وتشكلت عصابة حوزوية تنتظر المصلح الذي يجري التحديث على الدرس الحوزوي بحيث يكون موافقاً لموقف الدين من المتغيرات الحياتية والكونية! وما إن تأسست كلية منتدى النشرا! حتى همل المصلحون وكبروا، فقد جاءت المنتدى على يدي واحد من أكبر علماء الشيعة في العالم فانتسب إليها الطامعون في درس حوزوي أكاديمي! وهكذا انتسب صادق القاموسي إليها ليواصل دراسته ويحقق طموحه وكان خلال سني الدراسة كما يقول زملاؤه شعلة من نار متقدة صباح مساء! والظريف ان عدداً من الأساتذة كانوا يطلبون إليه مساعدة زملائه الطلاب في شرح ما استعصى عليهم فهمه وهو الطالب الممتاز! وكان يسعد بهذا العمل الذي ساعده على تطوير خطابه. وبمكنتنا القول ان القاموسي كان الاسم الأبرز بين الطلبة في منتدى النشرا! ثم تخرج فيها حاصلاً على شهادتها العلمية بامتياز أولاً وثانياً لقد ربح القاموسي شيئاً أهم من الشهادة حقاً! ربح محبة عميد المنتدى الشيخ محمد رضا المظفر وصداقته وثقته! وأضحى القاموسي غيب تخرجه عضواً في بورد الكلية رغم حداثة سنه بل صار مشرفاً على تحرير مجلة البذرة! لم يكن القاموسي فنوعاً بالكفاف، فطموحه بلا حدود يساعده في ذلك ذكاء وهبه الله إياه! وقد وجد في نفسه عشقاً للشعر فطلق ينظم القصيدة تلو القصيدة، محتازاً التشجيع والاستحسان! وعرف عنه شغفه المفرط بالقراءة لأمانات كتب التراث والصرف والعروض والبلاغة والقصة والرواية والفقه والمنطق والنحو! وبقي ثقة كبيرة تقول ان صادق القاموسي لو لم تشغله ضرورات الحياة وتجيره على العمل المكتابي التجاري لكان واحداً من أبرز أعلامنا الكبار وكان أيضاً جواد الشعر الذي لا يجاريه جواد! ولكنها لقمة العيش التي حرمت الأمة من مواهب جسيمة وطاقت عظيمة! وبمقدار ما كان يسمح له العمل الحر فالشيخ القاموسي كان عوناً لكل من دعا إلى تحديث الخطاب الشيعي وتطوير

الدرس الحوزوي من منطلقات الابن الحريص على مكانة أبيه وأعني الاسلام والمذهب الجعفري والحوزة ومدينة النجف! وحتى لا يأخذنا الجد الصارم ونحن في أول طريقنا مع القاموسي فان علينا ان نضع بين يدي القارئ شيئاً من ظرف أبي رشاد محمد صادق القاموسي فلقد اشترك مع مصطفى جمال الدين وصالح الظالمي وهما في صناعة منظومة شعرية رأيتها بعيني واسمها ديوان الملتحيات والغريب ان السيد مصطفى جمال الدين كان ضيقنا بما حتى على أصدقائه القاموسي والظالمي وحيدر، لذلك ضاعت نفائس الشعر الاخواني بموت السيد جمال الدين! وكان القاموسي دأبمو الملتحيات فهو لا يقترح على رفاقه ولكنه يوحى لهم بما يريد! ويبدو ان القاموسي رحمه الله حجب لمصطفى جمال الدين ورهطه من المعممين زيارة بلاج عاليه وان يوجه السيد مصطفى سؤالاً للفتيات هناك محرراً جداً والحمد لله ان الفتيات في البلاج لم يعرفن مغزى السؤال وكتب نونيته الملتحية وانتبه الى ان القاموسي هو الذي قشمره فداعبه مداعبه لا يقبلها القاموسي الكبير إلا من مصطفى جمال الدين! لأنه أي جمال الدين كان ضحية إهجات القاموسي وقد ذكره جمال الدين مرتين بكنيته (أبو رشاد).

وكان القاموسي معتاداً على مناداته بالشيوخ صادق لما عرف عنه من ورع وتقى ودين! فهو معروف بمجالسه الدينية وتبرعاته السخية في سبيل الله وقصائده الايمانية التربوية! ولكن القاموسي من جيل متأثر بالمرجع الديني الأعلى محمد سعيد الحويبي الذي كان يقول كلاماً لو لم يوضع في ديوانه لأنكر الناس نسبته إليه! وكانت مسوغاته قوله: (عفة النفس وفسق اللسان!) والقاموسي ومنذ أول قصيدة غزلية كتبها جعل عنوانها الحب ديني! وقد يتعرض (سلفي) على هذا العنوان، ربما لا يعرف ان الاسلام محبة بل ان الله محبة! فقصيدته الحب ديني كما يقول القاموسي هي من محاولاته الشعرية البكر كتبها في عام ١٩٤٠ م - ١٣٥٩ هـ فما لبث في ذاكرة الشاعر منها ستة وثلاثون بيتاً فلقد ابتدأها بداية حكاية وذلك ضرب من الابتداء يغري المتلقي بالاصغاء ويوري الشاعر بالاشتفاء! ومنذ البيت الأول استعمل الشاعر مجازات مرموقة فهو حسس المعنوي مجرد الغرام من خلال جعله مضافاً إليه أي مضاف للشرك وهو سلوك جهالي أضاف للسياق بعداً تحييلياً وكذا الحال من الهموم وهي الأخرى صورة معنوية مجردة خارجة عن سلطة الحواس فجعل الهموم مضافاً إليه أي للديم والديم صورة حسية! وفي الشعر صدقية فنية عالية ففي سنة ١٩٤٠ كان عمر الشاعر ثماني عشرة سنة بحساب انه مولود سنة ١٩٢٢ وفي الأربعينات كان العشق هممة، والحب معامرة، فكيف بالقاموسي الصغير ربيب العائلة الدينية المحافظة! ففي البيت الثنائي

تقرير واقع وليس الخذلقة الشائعة الآن التي يطلقها البنين والبنات حتى لو كسواها في سواد
الثلاثين (أنت أول حب في حياتي وحياتك) القاموسي كان مفطوراً على بث الشك في فهم
يعيش بلا مشاعر وملاحمه الرصينة لا توحى انه مستعد للحب! وكان البيتان الأولان قهقهة
جمالياً ودلالياً للبيت الثالث فقد عرف الحب ولم يفرح به كما معرفة ألم يقل فلا هو بيت وهو
تقابل ليتني ما تورطت وهويت! فلم يكن يدري هذا الفتى المراهق المتدين ان الحب حسي
وان للوجع سعيراً في الدم! هذه المرة يضللنا الشاعر بمكر ففي فينزع ثوب الفطرة والتعريف
ليبدو حكيماً في الحب خبيراً به! وهذا يعني شيئاً واحداً فقط هو ان هناك ما هو مستكبر
عنه! أو في الأقل ثمة أبيات منسية بين البيت الثالث حتى هويت والبيت الرابع ما الحب واية
ذلك القفزة من اللاخيرة والتوجس إلى الخبرة والحضرة! ولعل هذه القصيدة بقاسم
انقطع من النظرة الطاهرة للحب بحيث يجرو الشاعر على القول في بينة متشابهة بالحب
ديني!

وملأت من ديم الهمس والهمسائي
أثر له يبدو على مسيحياتي
خمي لسواد حسره ودمسائي
في القلب دستها يد الحسناء
غرس نواها العين في الأحشاء
ملأت سماء القلب بالأضواء
جمعتك بين سعادة وشقاء
روت ظمناك تحولت لكسائي

أدريت من شرك الغرام رشائي
ما كنت أعرف ما الغرام ولم يكن
حتى هويت! فلا هويت! وخامرت
ما الحب إلا فتنة الحسن التي
ما الحب إلا وردة الشوك التي
ما الحب إلا شمعة الأنس التي
ما الحب إلا فترة الزمن التي
ما الحب إلا ضحكة حتى إذا

* * *

والوجد نسكي والغناء دعائي

فالحب ديني والصبابة شرعي

الانسان الذي دخل قلبي (*)

الأستاذ جميل الجبوري

لم أكن أعرف (أبا رشاد) ذلك الانسان الذي دخل قلبي من أوسع باب، كنت يوماً مسؤولاً بمهرجان المربد وكان المرحوم أحد المدعوين وهكذا عرفته ثم افترقنا ثم التقينا ثم افترقنا ثم التقينا إلى ان ضممتنا مجالس الأدب في هذا البيت الكريم وفي بيت الأستاذ مكّي السيد جاسم وتكررت المناسبات واللقاءات. كان رجلاً له في النفوس مكانة وفي المجالس أثرٌ وكنت أفتقدهُ عندما لم يأت إلى مجلس ما وأذكر فيما أذكره اني كنت وإياه في مجلس ذلك الطود الشامخ الراحل الوائلي وكنا نتحدث عن الموت. كان يقول لي: لماذا يموت الانسان؟ إنسان كابراهيم الوائلي مثلاً؟ كتب ودرس وألّف ونظّم ونشر وما زال يعطي ويوجه الناس فاذا به يموت! انها فلسفة تتعني. فاذا به هو الآخر يرحل ومن يدري الواحد منا ما هو مصيره.

اني إذ أستمطر شآبيب الرحمة على روح ذلك الفقيه الكبير والصديق العزيز والانسان الوفي، والخل بمعناها المتكامل لأسجل أسفي البالغ وأساي لأنني وضعت في هذا الموضوع، وضعت لأرثي الراحلين أولئك الأعزّة، وهذا ثقيل على نفسي ولكن إننا لله وإننا إليه راجعون.

١٩٨٨

(*) ارتحلها في ندوة الغبان ببغداد في الأسبوع الأول من رحيل القاموسي. ونشرت في مجلة الموسم.

رسالة (*)

الأستاذ (المرحوم) عبد القادر البراك

أيها الملائم الكريم.. سلام عليكم

لعل المتفضلين بدعوتي إلى الاسهام بتأيين فقيده الأدب الغض والشعر المتألق والخلد الوضيء المرحوم الأستاذ الحاج محمد صادق القاموسي من أقوى الأدلة على شعورهم بما اعتلج في نفسي من أسى، وما تأجج في قلبي من لوعة، بفقد هذا الرجل الذي سبقه فضله في الأدب والشعر قبل شخصه في انتزاع إعجابي وتقديري لمواهبه المتعددة الثرة، ولست أريد أن أؤكد ما يعرفه المتفضلون بدعوتي لمشاركتهم في التأيين، فان ذلك من الأمور الخاصة، التي لا يعنى بها إلا القليل القليل من الرجال الذين يقدرون أن صلة الأدب قد تكون أوثق من صلة النسب ولعلي لا آتي بمجديد في ذكر مواهب رجل لم تقع من نفس حاملها موقع الاعتزاز الكبير بحيث يدل بها ويفخر، وينتظر من الآخرين التعريف بها والاشادة بمنابها، ورجل تتعالى ذاته عن ان يفخر بفضل في مجال الأدب عامة والشعر خاصة وفي مجالات اختصاصه العلمي وعمله التجاري لا يرفع من قدره كلام، يصدر في مدحه في معرض تأيين، ولا يكشف من عوارفه ما لا تزيد عن شخصه، وهو بين يدي بارتته الخلاق العليم.

وما يبقى لي إلا ان أقول ان ما تركه الفقيه الغالي من الفضائل جدير بأن ينال الثناء والافتداء، وفي هذا القدر كفاية.

١٩٨٨

(*) أرسلها كاتبها إلى لجنة الاحتفال بالذكرى الأربعينية.

تعزية في رسالة

الأستاذ (المرحوم) حسن عبد الأمير المهدي

بالأمس وقع علي الخبر الجلل، فهتة من أعصابي، وأخذ من روعي التراق، أمن الممكن أن تحي الفضيلة الناطقة فتمسي هباءً إلا من ذكريات رائعة واضحة مستقيمة، أهكذا يختر الكوكب الدرّي من عليائه؟

صادق وابتسامته؛ ضياء في الديجور، صادق وفلسفته طريق للاستقامة، صادق وبشاشته وأدبه صفحة ناصعة لامعة للخير.

أياد يا أيها النجيب: عليك ان تكتب - والدي - ليكون نبأنا لنا نحن المولعون بالماديات، حتى لا تنسى لحظات اللطف الانساني.
أتمنى أن لا أنسى الصادق ووضوحه وسطوعه وحبه للخير والجمال.

كربلاء/ ١٩٨٨

(القصاص)

وقفه على قبر أبي رشاد (★)

الدكتور (المرحوم) الشيخ أحمد الوائلي

ولدى الديار نوائح وعويل
 حيناً ولا يُستغرب التحويل
 أما الديار فما بمن نزيل
 إن الإقامة بالطلول رحيل
 أهلي وممن أصطفيه رعي
 نضو يُعبُ الذكريات تحيل
 ولقد يُبرر لوعة تعليل

* * *

حتى افترقا والفراق طويل
 وأعيش فيه وأحتسي وأطيل
 عشناه وهو من الشباب خصيل
 إلف وظل النعميات ظليل
 أدب وفكر ما علمت أصيل
 نشأتارها ففراغنا تحصيل
 أعراقهم جلى أب وقبيل
 بنوغ من ينمو عليه كفيل
 يس وحقل الأمنيات محيل
 كدر ومحض وضوحها تضليل
 وذوى أيام الحصاد حصيل

* * *

صُوراً أقل حقوقها التجليل

عند القبور صوادح وهديل
 قد نعكس الأحوال في مالوفها
 تلك القبور منازل لأحيي
 فاذا عزفت عن الديار فعادز
 وإذا توطنت القبور فهانها
 أمسي ويومي عندها وأنا هنا
 هذا سبيلي في الأسى علته

أبا رشاد حيل بين لقائنا
 أسلمتني للأمس أسر ما مضى
 عهدان عهد للغضارة والصبا
 وأظلنا الثاني ونحن على الإخا
 تبادل الأسمار من أزوادها
 وفرائد مختارها وقرائح نشأتارها ففراغنا تحصيل
 في نخبة جلى بهم خلق ومن
 درجوا بترب أبي تراب وإنه
 سعداء عشنا رغم أن العيش في
 لكنها الدنيا فكل صفاتها
 يس الحميل غداة ينتظر الشذى

أبا رشاد أمسنا في وعينا

ويرينا شيخاً أبرُّ جليلُ
والنور ففة عندهم وأصولُ
حتى استطال على هداهم جيلُ
ونهاية السنن القويم وصولُ
ريان من نبع الخلود بليلى

*

*

*

ساحم بلهنا المعارف معهده
تبايع في الفكر يرتجل التهوى
يرون وجه الله فيما زاولوا
عندها على السنن القويم لربهم
ولاه يحترق الزمان ودوهم

فأخو الوداد متيم متبولُ
لو أن شمل أحبة موصولُ
إذ راح يحضنك الثرى ويجولُ
صدغين حيث الفكر والتحليلُ
يحلو حديثهما ويصدق قيلُ
عدم الرباء بها أو التمثيلُ
في حيث خدك وسدته رمولُ
مثنوى ودار إقامة وحلولُ

*

*

*

أشاد ما افترقا عن قلى
أخسه خلق الزمان يسوءه
ما كان ضر لو اتبعك نظرة
فلكنت أوصيت التراب الرفق في
ويغف عن شفتين عهدي فيهما
ولقمت فوق القبر أذرف دمة
رئوسدتك خواطري ومشاعري
فأنا السدي لأحبي بجواحي

ولقد تناقض في الوحيد ميولُ
أحببها فربت عليه ذحولُ
فهو الهوى وهو الغد المأمولُ
قبر الحبيب فذاك عنه بدليلُ
فالحب يسسم والدموع تسيلُ
وما يعيا به التفصيلُ
والسحر في الثغر الأنيق دليلُ

*

*

*

في في التراب من الميول تناقضُ
أفضله أن يستبد بأوجه
وهو يشبه أن صار داراً أحبي
ويتوباً عن وجه الحبيب إذا اختفى
ريح التراب حباباً ومصائبُ
وهي تبه الآلام والآمال والتجوى
كل جزء بالتراب على الخلى

حلواً وأنت بقلبه قنديلُ
فهم وأنت صوادح وخمائلُ
ألق وصحبهم الشذى المطلق
أكرم بأفق أسرجته عقولُ

أشاد كان ليلك سامراً
كلمة بصحك لا تطيق فراقهم
يردون من نبع القريض فليهم
ويؤججون الفكر شعلة نايغ

القانعون إذا تواضع ثوبهم
والباسمون وإن طحا بمتونهم
أوحشت ناديبهم وآنست الثرى
ولو اجتليت التراب غرد مزهر
ورغيفهم فيه رضى وقبول
حمل بالوان الهموم ثقيل
فالترب للسمر الأنيق مقليل
وتبرجت فتن ولاح كجيل

* * *

أبا رشاد تلفتت عيني فلم
ممن أفاض علي من آدابه
ومن الحياة بدوهم فيما أرى
ترب الصبا وعشير ألعاب
مازلت أحياء في نعيم طيوفهم
حلوا شغاف القلب دون سواهم
رحلوا فروحي غربة ومشاعري
سأعيش وحدي دون هذا الحشد في الدنيا وروحي عنهم معزول

* * *

أبا رشاد كان آخر عهدنا
ما زال من جزين عندي صورة
وأنا وأنت وقاتل من سينجنا
فكأننا رغم التباعد والتوى
نجلوا الغري روى يغار لحسنها
ونعب صرفاً من هموم بلادنا
أثرى حملت إلى القبور همومنا الكبرى فانك للهموم حمل
واطب فانك للوداد رسول
فالكل للوادي الكريم يؤول
خوف ولا وعد له ممطول
ومن استضاف النبع يؤنس روحه
بجى الوصي بحيث لا بجواره
ومن استضاف النبع يؤنس روحه
بجى الوصي بحيث لا بجواره

أبا رشاد (★)

الدكتور (المرحوم) صالح الظالمى

وتلك بسمتك العذراء تنقذ
وإن سكتت فأنت الطائر الغرد
من الخصام فتجلوها وتنقذ
كالنجم تنفر من لآلئه العقد
للآن يغشى صداها الهمة والكمذ
يهفو إليها يناغيها ويترد
وفيه عيناك لم يجرحهما السهد
فيستجيب له من حرقه كبد
طليقة حولها الأضواء والرغد
وأكثر الناس فينا قبرة الجسد

* * *

سام ويحمل هم الوالد الولد
يشدها من دمانا بالضحى وتد
فكل درب له من حولنا رصد
ولا مشى بيننا في غفلة نكد
مسحورة زانها رأيي ومعتقد
ثر فيصحو على أفواهنا الرشد

* * *

بدأ تلاحم فيها الكف والعضد
بيض الأمانى على جنبيه تسد
مجداً على مفرق الأيام يعقد
وغدي في صراع الدهر والغد

أبا رشاد وهذا الحفل يحتشد
وأنت ما بيننا حساً وعاطفة
فقو إليك القوافي وسط معترك
وفكرة أنت تلقينا على وضح
لم تنطفئ ضحكة نشوى تبعها
وكل قلب أذاب الليل فرحته
أدنو.. وأنفر من طيف يساغتي
ها أنت.. كفك فيه الدفء المسد
تموت أنت.. وروح منك هائمة
يموت من كان مأسوراً بداخله

أبا رشاد أبونا في الذرى أدب
عشنا وخيمتنا الزرقاء قافية
تغازل الليل حتى بات يعشقنا
لم يعرف الحقد سقفاً كان يجمعنا
الكأس بالأحجم الزهراء نُشعلها
ونحتسي نعمة القرآن... منبعضها

أبا رشاد... وكنا في تعاطفنا
لم يجرح الليل فجانا... وسامرنا
أولاء صحي تباهى انجد يرفعهم
هم الطليعة في الجلى إذا ازدحمت

أو أن يفرطَ منهم في الهوى أحدُ
ولاستطال على أجفاننا الرمذ
على رفيف حنايانا وإن بُعدوا
وكلّ رعشة هدب بيننا بُردُ
لا يُلهبُ الشوطُ إلا الفارسُ التجدُ

حاشاهم أن يمسّ الزيفُ خطوتهمُ
لولاهم لأماتَ الجسَدُ أنفُسنا
عاشوا وما زالَ نَفْحُ من محبتهمُ
الراحلون وخلفَ الركبَ لهفتُننا
وعادت السائحُ بعد الصيدِ موحشةُ

١٩٨٨م

يفيض من جانبيها الجسد والهزل
من وخز عينيك تلك الأعين النحل
أني تكون كما غنى بك المثل
إلى جحيم اللظى يخطو بنا الأجل

يا صادق الحب يا روحاً منعمّة
إنا لشوق إلى ذكراك ما رعشت
فلا تسزال تغني في عواطفنا
فأنت في جنة الدنيا ونحن هنا

السيد حسين بحر العلوم (ره)

زورق الخيال/١٥٦

خيال الشجن (★)

الأستاذ (المرحوم) الشيخ جميل حيدر

فكيف الصمتُ يا نجوى الحنانِ
إلى ذاك الشهيِّ من البيانِ
مدارَ القلبِ واليدِ واللسانِ
طروباً دونما تُذري الأغانِي
ويسمُّ عن شائله الحسانِ
وجهدُ الطيبِ أبلغُ ما نعاني

*

يجاذبنا الرحيلَ بكلِّ آنٍ
تطالُعنا فنفرغُ لاحتضانِ
تَعَثَّرُ في مطالعها اللدانِ
رفيفُ الطلِّ في أغصانِ بانٍ
بآخر شوطهم غضَّ العنانِ
بصارهم كأنك غيرُ فانٍ

*

مواهبُهُ ففاضَ بلا امتنانِ
كما خلَّصتْ مُعْتَقَةَ الدنانِ
وخفَّ إليك مُبْتَهَجَ الكيانِ
وتمثل منه في كرم الجنانِ
تساعمُ والشفاهُ به اليدانِ
فأنتِ وسحرهُ في مهرجانِ
باعجابٍ بشدوكِ وافتتانِ

شجاني من رحيلك ما شجاني
أكاذُ أغصُ بالرؤيا وأصغي
كأنك مثلما قد كنت فينا
طموحاً فوق ما تغري الأمانِي
نقياً مثلما يفتُرُ حقلُ
وقياً كاحتراقِ العودِ طيباً

*

رحيلك يا نجوى الروحِ يبقى
نخالك رَغَمَ غاشيةِ المنايا
وتفجعنا القوافي منك حيرى
كأن الدمعَ ما بين المآقي
تخيِّلُك الذينَ رأوكِ تبقى
وما زالت موابيا الحلمِ تُغري

*

مزاجُ أريجِي الطبعِ رقتُ
لقد خلَّصتْ نواياهُ فشقَّتْ
إذا ما جنت رَحَبَ من بعيدِ
فتنزلُ بينِ باصرةٍ وسمعِ
يساقيك الحديثِ كأن سحراً
وإن أدلى الحديثِ إليك شعراً
إذا أنشدتهُ بيتاً تمادى

(★) نظمت للحفل الأربعيني ١٩٨٨، وألقيت في حفل الذكرى السنوية الأولى الذي أقامه اتحاد أدباء
وكتاب النجف عام ١٩٨٩م ونشرت في (ديوان جميل حيدر) ط النجف ٢٠٠٩.

وتغريك الاثارة منه حتى

تألّفنا عليه بكلّ حال
ولكنّ الفجاءة داهمتنا
ألاّث صفاءنا جهّم افتقاد
يهوّن خطبنا بالموت أنّا
ولو صدقت بنا الرؤيا لكنا
ولولا أنّ ما أسرى عليه
لكنا في خسارته لعانسي

معاذ الله يغدو الحقّ وهمّا
ألسنا قد تبينناه لحساً
بأرض لوحتها الشمس حتى
فكانت للسنن العريّ مسرى
كتاب الضادّ مختلج المعانسي
ومفرقها المعلنى قوس نور
وتلك مناخة الهمس المسجى
أراد الله أن تغدو مزارا
كلا هديهما يبدو جديدا
مدينتنا التي شبننا عليها
درجنا في الترائب من ذراها
على زمن بيّوح الروح يذكو
غزير الخطو متبّد المساعي
موائد المعارف، والقوافي
تألى ركبه فزكا جداء

أيا جيلاً من الجهد المزكى

كأثك في سجال من رهان

وكان دليلنا صحو العيان
فظل العقد منفرط الجمان
فصرنا نستطير من الدخان
نراه في التباعد لا التدانى
على أحيابنا صرعى احتضان
تعاذل فيه منه الرحلتان
انطفاء العقل في ليل الهوان

ويحتاج الضياء لترجمان
وصدقت الفؤاد المقلتان
تنامت في هجر العنقوان
ورؤيا المهدي في قاص ودان
لديها في التلاوة والأذان
تذكت من سناه ذوائبان
تكاد: تضيء خاطرة العيان
ومقبرة فكان المشهدان
كأهمما لديها توأمان
وما شابت مراياها لرانسي
وفي أحضانها نجوى حنان
كان حديثه السبع المثاني
تريب الجهد مخصّل المجاني
فكاهته، وحرثه الأمانسي
وحدو الطيب يذكو في التواني

تناسل واستطاب بكلّ حان

منايئهُ تُشَبُّ على مرانٍ
 وشاخَ الزهُوُ في تلك المعاني
 وأدلى في العناء لسدى الرهانِ
 بتلك الأرض من ذلك الزمانِ
 أيزكو في التفرد منه ثان
 دواليه ستشرق بالمعاني

تناصينا عليه حين كانت
 ولكن عز طالعه فسألوى
 هو الجيل الذي عانى اختياراً
 نمتته أصالة السقي المزكى
 تفرّد في جناه ولست أدري
 (أياذ) والبقية من أقاحي

رفيق الصبا (★)

الأستاذ محمد حسين الخنصر

أتذكرُ ما مرَّ من أمتنا
 إذ الودُّ يجمع ما بيننا
 من العسر كان لذيذاً لنا
 على ضيقه هو كلُّ الدنى
 حريصين كانوا على نشتنا
 وما زال فضلهم بيننا
 مذلٌّ... ولا عزَّهم في العنى
 وليس لهم صلةٌ بالحنى
 محبَّبٌ إلى الخير إلا الحنى
 إذا ما ذكرهم بالثنا

* * *

هي الآن آخر ما عندنا
 ويحلُّو الحديث بما موهنا
 مسرّاً إلى السئس أم محزنا
 تلحُّ كأن لها ألسنا
 الشاء عليه، وآخر أن يلعنا
 لا بالصريح، ولا بالكنى
 ولا مرشداً ينشدُّ الأحسنا
 ومن خبثوا ليس من شأننا

* * *

رفيق الصبا في ليالي المناسا
 أتذكر أيامنا السالفات
 إذ العيش، وهو على ما علمت
 وإذا كان يجمعنا معهداً
 نشأنا على صفوة من رجال
 نروح ونغدوا على فضلهم
 هم النفر الغرُّ لا فقرهم
 ولا طروق الخزي أبواهم
 وما مرَّ ذكرهم في فؤاد
 يكاد يقصرُ مني اللسان

رفيق الصبا إنما الذكريات
 يطيبُ لنا بثها ساعةً
 ولا فسرق أن كان تذكارها
 فهاهي مهمما تجتنبها...
 تريك من القوم من يُستقلُّ
 واني لأربأ عن ذكرهم
 فما كنت يوماً وكلياً عليهم
 وحسبي أن أذكر الطيبين

* * *

(★) كتبت للحفل الأربعيني، والقيت في ندوة الغبان ببغداد وفي حفل اتحاد أدباء وكتاب النجف بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل القاموسي، ونشرت في ديوان الخنصر (وابتسم الامام) - النجف

.٢٠٠٠م

وجلسُ بين يدي شيخنا
وقارَ يحومُ من حولنا
تورطتُ بالقول فيها أنا
بأن لم أكن مثلهم (مؤمناً)
عنوداً بغلوائه معنا
وإياهم هيناً لنا
اندفاع الشباب وفعل (الأنبا)

* * *

وطاب لك المنتقى هاهنا
(تبعدد) حتى نسي ودنا
لأنهم ليس من بعضنا
كما كان من قبل حيث ادكى
فلا بد رؤياه من قصدنا
ونشده بعض ما عندنا
من اللطف لم تُععن إلا بنا
وأياً من الكتب ما يُقتنى
حقائبنا بلذيذ الجنى
وإن لكسل امرئ ديدنا

* * *

غدا غدره خلُقاً مزمننا
ليختار من بيننا الأحسننا
وفي الرأي أبعدنا مطعنا
أكساد أقول له أرعنا

* * *

يرى العلم تأويلها ممكنا

وموعدنا نحن إذ نلتقي
وللعلم والفضل في بردتیه
ولابد تذكركم ورطبة
بحيث يظن بي الآخرون
وما كنت إلا فتى يافعاً
وكم كنت تنصحني أن أعيش
وما كنت أرفض لكنسه

ويوم ترحلت عن حيننا
وقال لنا بعضهم إنه
كما نسي البعض من قبله
ولكنه كان في بُعد
وكننا إذا ما أتينا لقصد
لينشادنا بعض ما عنده
ونأنس حتى كأن الحياة
ونطلب أي جديد لديه
إلى أن نعود وقد أثقلت
وذلك ديدنا دائماً

* * *

رفيق الصبا ما لهذا الزمان
كأن له غرضاً عندنا
ليختار أقربنا للنفسوس
فيا لك من زمن تافه

* * *

رفيق الصبا، بعض أحلامنا

على باب داري ان تدفنا^(١)
 أبادلك الشوق ما أمكنا
 ليغمري منك ذاك السننا
 وعند قيام الضحى موهنا
 من الذكر.. أشكره مدعنا

فهل كان حلماً؟! بأي أراك
 لتبقي قريباً إلى جانبي
 وأفتح شباك بيتي عليك
 أناجيك عند الدجى موهناً
 وأختم لجوأي في آية..

١٩٨٨م

(١) لأسرة الفقيد مقبرة خاصة تقع مقابل دار الشاعر مباشرة، وقد دفن الفقيد فيها، حيث ظل يصاحبه

ويعاسيه، ويقراً على روحه الفاتحة كلما وقع نظره عليها، كما يشير إليه هذا الدور من القصيدة.

- الشاعر -

على هامش الذكرى (★)

الأستاذ (المرحوم) عبد الرسول الجشي

أربعون؟ أم أربعون شباي
هكذا تخلط الأمور إذا ما
ورثاء أم ذكريات تصاي
اشتبهت في المصير والأسباب
اقترن الحس بالأسى والعذاب
ربما كنت في رثائي أنايماً فكنت المرثي قبل المصاب
فاغفروا زلة الصراحة مني
فالأديب الصريح رهس العتاب
* * *

يا أحباي كم غرقت رحيقي
واحة ثرة ينابيع كانت
من أريض كنتم به أتراي
وطن الروح والهوى والشباب
عبقري الألوان، سمح السحاب
من سناها، ورشفة من رضاب
مخلمي الصُداح والاطراب
إني في غصونها عندليب
* * *

كم هفت للنعم فيه وللنعمان) روجي وطوقت كالعقاب
وتراءت لها ذكالك (الغريين) بذكرى فواحة الأطياب
ورابن هند) يزجي الكؤوس العذارى
مترعات من الشعاع المذاب
تنتشي عنده قلوب الندامي
ويهز الأبطال زهو العراب
عرس دنيا أضاءها (بأي قايس) مجد مؤثّل الأطناب
عزة العزب نجمة في لواءه
وشموخ الملوك وشي القباب
* * *

يا دموعي وربما استجد الشاعر بالدمع في ليالي العذاب
أمس كانت كؤوسنا مترعات
ناصرات على جبين الثريا
نضيرات كسلّة الأعناب
زينتها أهلة من حباب

(★) كتبت للحفل الأربعيني، وألقيت في (ندوة العبان) بمناسبة مرور عام واحد على وفاة الفقيه.

فانطفت أجم، وغارت بدور
وثرأت أحلامنا مثل أعياد
وتجلى الندي أسيان كابي
اليتامى تهل بالاكتاب

* * *

لا ترشني يا أدمعي وجنابي
نحن لا نعزف النحيب لمأساة ولا ننشني بدمع مصاب
غاب عنا (أبو أياد) كما غابت
عن الروض نضرة الأعشاب
فافتقدنا دنياً بعيداً مداها
جمعت كل رائع طياب
ليت شعري هل للكتاب رفيق
صادق بعد (صادق) في الصحاب
كبرت والكتاب أفكاره الزهراء في الفة ورفق احتساب
كان (قاموسنا) لكل جديد
من أديب وكاتب وكتاب
يزهر الحرف في أنامله كالشمع يزهو بضوئه الجلاب
عاش للفكر مثلما عاش (ياقوت) ثري العطاء خصب الجباب
كان فرداً حوى مواهباً جيل
نير الفكر رائع الاخصاب
كان علامة وكان فقيهاً
وأديباً في (متدى) الآداب
يقراء الصحب بسمة، وحديثاً
أريحيماً، ومنعة في الخطاب
قلبه مثل وجهه ناصع الصفحة مرآة ناقد لا يحابي..
يمنح الحب للجميع كفجر
يشتر النور في جميع الرواي
يزرع الورد كل من يعشق الورد وتندى أعطافه بالجلاب

* * *

المحضي يا عواطفي (الصادق) الود وكوني رضية بالعتاب
حقه فوق ما تطيقين لكن
ليس بين الأحباب أي حساب

يا أخوا الود (★)

الأستاذ راضي مهدي السعيد

تاركاً سفحك الأعزّ الظليلاً
 في طريق يُذرى تراباً مهيبلاً
 ولساناً مما يعيب الأصبلاً
 لم تُعد تُتشدّ الوفاء مقيلاً
 من بما لا يشته عرقاً وببلاً
 وفماً يحمل النداء الذليلاً
 علمتنا الاشراف والتهللاً
 يملك الطير إن رأى السفح غيلاً
 تشرب الطين بالعمى مغسولاً
 كل من جف منبعاً ومسيلاً
 قطعت ألف راحة تنكيلاً
 أن أرى بعدك الصفي الخليلاً
 لم نعد نشهد الضحى مأهولاً
 في زباها يحلو الزمان فصولاً

* * *

فلقد أمحلت وأمست طولاً
 قد أطلت نوراً وغيشاً هطولاً
 عمرها ما ذوت وجفت ذبولاً
 من فؤاد يحس فقداً جليلاً
 كل صبح بيسمي تقبلاً
 وأجر الخطى عليه ثقلاً؟
 لا ولم تعرف التشكي سيلاً

كيف أذعنت فارتضيت الرحيلاً
 تاركاً سفحك الندي لتمضي
 كيف يا أيها المرأ قلباً
 يا أخوا الود والوفاء بدنيا
 لم تُعد تتقي النفوس لتبقي
 من بما لا يكون تقع ظلام
 كيف أسلمتها إلى الصمت روحاً
 يا صفيي أبا رشاد - وماذا
 ورأى الواردين أسراب ليل
 عقم الدهر إذ يقيم عليه
 ويجازي بالطيب من يديه
 يا صفيي أبا رشاد - وهل لي
 غابت الأوجه النقية حتى
 لا ولا الأربع الأنيسة داراً

ليس حزناً أشكو الظما والمحولاً
 أربع ودعت شمساً عليها
 وضفاف بها تغنت شفاة
 ليس حزناً لكنّها نقات
 أتري أنا الذي أتوصاً
 أليس الحزن خافقاً وضلوفاً
 أنت يا من لم تعشق الحزن يوماً

(★) كتبت للحفل الأربعيني.

لن يُوفِّي مهمما نوى أن يقولوا
 من بيان يحوي الكلام الطويلا
 في ذرى لا يكون فيها المجيلا
 أن يغني وإن غدا مكبولا
 أضلع فيك ضوأت ترتيلا
 وهي لا تستطيع منك الوصولا
 من مداها وقد ملكت الدليلا
 لك أكوأبها لثروى قليلا
 وتشربت حمها مدهولا
 من بني الأرض حومة وصهيلا
 وهموم تلقى السليم عليلا
 وستبقى فينا نداء جيلا
 بصداه الأيام تنهض جيلا
 في دروب لا تعرف المستحيلا

يا أبا الشعر . ما يقول قصيد
 رب صمت يكون أبلغ معنى
 يرفض الطائر المجل وقوفاً
 حسب صوتي توهجاً واحترافاً
 يا أبا الجذوة التي حملتها
 ما عساها تقول فيك القوافي
 فلقد كنت أنت أنأى دليلاً
 ربما استوحشتك يوماً فألقت
 فاستحمت بها شفاهك شوقاً
 يا صديقي. ويا صديق العطاشي
 ثم قرير العينين من غير شهيد
 أنت باق روحاً وصوتاً وذكرأ
 أبداً. لن يموت من عاش سفراً
 وبه تلتقي الخطى وإثبات

١٩٨٨م

دموع الشعر على صديق العمر (★)

الأستاذ محمد جواد الغبان

أرتيك لكن من دموعي مطلق

- حزناً عليك - ومن فؤادي مقطع

وجذ، وناز في الضلوع، وأدمع
يعيا بلوعته الخطيب المصقع
ورياضه من بعد فقدك بلقع
فلعل أشعاري بما تتضوع
بك قد عصاني الشعر وهو الطيع

* * *

منا أما لك في سمانا مطلق
لو أني أققو خطاك وأتبع
أني أراك من الضنى تتوجع
شيئاً أصدُّ به ضنك وأدفع
وغمامة عما قليل تُفقع
لم أدر أنت على فراق مُزيع
ويهدني النبأ الأليم المُفزع
وتأسفاً لم أدر ماذا أصنع
يُجدي، فقل لي: أين بعدك أفزع
وأشدها من في حيب يُفجع
منها، ولكن جرحُ فقدك أوجع
يا من رأى رمز الوفاء يُشيع
فأمضُ جرح غائب لا يرجع

حسي، وحسب الشعر أن قصائدي
إذا عساني أن أقول بفادح
هذا بياني صوّحت أزهاره
فأعز بياني نفحة شعرية
أنا من عرفت مواهبي، لكنني

با بدرنا الزاهي.. تحطّفتك الردي
أبكي عليك بلوعة متمنياً
كم حز في نفسي، وأوجع مهجتي
ولكم يعز عليّ أني لم أجد
وحسب ما تشكوه أمراً عارضاً
وعقدت آمالي بأنك عائد
وإذا بزلال النعيّ يهزني
فوقفت يغمري الدهول تألماً
وفزعت للدمع السخين، ولم يكن
والمفجعات من الخطوب كثيرة
كم داهمني النائبات بموجع
شبت فيك أخوا المرودة والوفاء
ر غائباً عنا.. أما لك رجعة

(★) ألفت في (ندوة الغبان) بمناسبة مرور سبعة أيام على رحيل الفقيه. ونشرت في ديوان الغبان (على مرافق الجراح، ط بغداد ٢٠٠١م).

يوم يموتك فيه قلبي يفجع
ما عاد في قلبي لخطب موضع

* * *

أغلاه من ود به نستمتع
زاهي الجوانب، بالأمانى مُرغ
فاذا بنا برحاهما نترعرغ
ترهوا، وفي روض المحبة نرتع
متسابقين إلى ذراه فَنَسْرغ
أركانها فوق المواهب تُرْفَعُ
وكذاك يبلغ مبتغاه المولع
بلغ الأمانى مَطْمَعٌ، لا مَطْمَعُ
فلنا عن الذل المشين ترفع
بنياننا، فاذا به يتزعزع
لما تفرق شملنا المتجمّع
يبقى لمن آماله تتضّع
والآن بعدك بالمرارة تُتْرَعُ
متدافعا كالسيل إذ يتدفع
عطر، به آفاقنا تتضوع
كانت بنور من جبينك تسطع
فد، وأنسك عالم متضلع

ما كنت أحسب أنني أحيأ إلى
فهمت بالأقدار حسبك، إنني

أ(أبا رشاد) يا أخوا ودّي، وما
خمين عاماً نستفيء بظله
فيه درجنا نحو آفاق العُلا
لُمسي ونصبحُ والى من حولنا
ونحث في درب التجدد خطونا
لنقيم للأدب الأصيل مقاصراً
يحدو بنا ولسع إلى آمالنا
نمشي ويدفعا الطموح، وطالما
والعز غابتنا التي نسعى لها
حتى ألم بنا القضاء، يهد من
وإذا بي هجيتنا تعود مآتما
وإذا بأمانى تضيع، وما الذي
كم كانت الدنيا بقربك حلوة
فاهتاج موج الذكريات بخاطري
ليعود بي أيام كنا، والهوى
فذكرت أياماً لنا وضآة
شهدت بها الحلبات أنك فارس

وب(منتدى النشر)^(١) الأغر تفتحت

منك المواهب، فازدهى بك (مجمع)^(٢)

(١) إشارة إلى (جمعية منتدى النشر) التي أسست قبل أكثر من نصف قرن في النجف الأشرف وكان الفقيد من أعضاء هيئتها الادارية قبل الخمسينات، وأستاذاً لعلم المنطق في كليتها (كلية منتدى النشر) في نفس تلك الفترة. (من الشاعر).

(٢) (المجمع) إشارة إلى (المجمع الثقافي) التابع لجمعية منتدى النشر، وكان المرحوم الفقيد من أعضائه العاملين. (من الشاعر).

فاذا بها روض أنيق... مونغ
أعلى من النجم الرفيع وأرفع
والمرء تحصد كفه ما تزرع

* * *

غنى الخلود، فراح فيها يسجع
غراء بالفن الأصل ثرصع
فيها، فتلمع كالجمان وتسطع
وسما بها منك الخيال الأوسع
فيها شهدنا أن فكرك مبدع
ما كان من عين الحشاشة ينبع

* * *

أدعوك من قلبي فهلاً تسمع
كالقلب إذ تحنى عليه الأضلع
قد أوحشت منها بفقدك أربع
عصفت بها ريح عبوس زعزع
في الحاضرين لنور وجهك مطلع
لك في حنايا كل قلب موضع
فيها، لذكرك بالثناء تجمعوا
فعيونهم من شوقها تتطلع
الصدق فيه والوفاء يودع
أهبي من الفجر الأغر وأنصع
لكن به قلب الأحية مودع
كالبدر إذ يزهو سناه ويلمع

* * *

أبأ رشاد) خذ إليك عواطفى الحرى من القلب المعدب تبع

وسقيت (بذرتة)^(٣) إلى أن أينعت
فبلغت مجداً ليس يدرك شأوه
هذا حصاذك في الحياة مآثراً

أبأ القوافي العرّ في أخانها
ترهو على جيد الرمان قلائداً
من ذهنك الوقاد ياتلق السننا
فهرت بفكر ثاقب متفتح
أبدعتهن لأتناً وجواهرأ
والشعر كالعذب الزلال، أرقه

* * *

أبأ رشاد) يا حبيب قلوبنا
فقدتلك (ندوتنا) وإنك بينها
إن أظلمت أرجاؤها، فلائها
وتزلزلت من لوعة، فكأتما
ولكم يعز علي في أن لا يرى
فاذا خلا لك موضع فيها، فكم
أولاء أحوان الصفاء، تراهم
قل لي: أترجع للأحبة عانداً؟
قد ودعوك أها صدوقاً صادقاً
عف الضمير نقيته، متألّق
لم يودعوا في القبر جسمك وحده
سيظل ذكرك بيننا مثلاًكاً

* * *

(٣) إشارة إلى مجلة (البذرة) التي أصدرها طلاب كلية منتدى النشر في النجف تحت إشراف الفقيه عام ١٩٤٨م. (من الشاعر).

دموغ الشعر على صديق العمر
محمد جواد العبان

ما هذه بمقاطع شعرية بل مهجة مكلومة تقطع
إيه صديق العمر: كيف تركتني وحدي بأبراد الأسي أنلقع
لم تبق في سوى فؤاد ذائب وجداً، وعين لافتقارك تدمع
فهتفت: و(التاريخ) - يندب عالماً -

أرثيك لكن من دموعي مطلع

١٤٠٨هـ

أيها الأستاذ يا مرشدنا
لك أبدي كل ما أضمرته
لست بالشاعر كي أمدحك
ودليل النشئ يا خير مرتي
في حنايا القلب من ود وحب
أنا نظمت لكم حبات قلبي

عبد الصاحب الخليلي

روضۃ الشعر (★)

الدكتور محمد حسين آل ياسين

وعند سفحك هذا السرب يحشد
فقام يطله من شوقه رصداً
فمن شبابك في أعراقه مدد
عينٍ ويسبقه من لهفة كبد
سهل، ولكنّه في غيرها طرد
وأني في مغاني القول مفقداً
حتى كآتي لا أظما ولا أردد
بكلمة ناب عنها الحقد والحسد
عليه كل النجوم الزهر تنعقد
وكل شبر بها من طيبة بلد
فكان منها لهم في الحول متعدي
وأنت منها بعين السامرين غد
غدوت أعلى ثمار الخير إذ حصدوا

* * *

ولم يغب منك فيما صغته رشداً
حتى تلالاً في جيدي فمّ ويد
دين، يوفي به عن والدٍ ولد^(١)

ماذا سيشدوك هذا الطائر العرذ
ماذا؟ وفي ثغره من رهبة رصداً
إذا شكا الشح من شيخوخة بكرت
أناك تعجله في الدرب من وكه
لأنه في شرك من هوى قنص
حسي أرى في مغاني الصمت ممتحناً
فبين جمري ومائي في الهوى غزل
إن تعجبي عجي من صنع باخلة
يا روضة ليلها صدر الزمان سنى
فكل ملح به من فتنة عمر
حسنا جادت على عشاقها صلة
فأنت من ألف دهر مرّ أمسية
بشراك أنك في أهليك إذ بسدروا

أبا رشادٍ ومجد أن تغيب أباً
طوقتي بحروف ملؤها كرم
رثيت جدّي وفاء، والوفاء بنا
فن - تقاصرت عنه - كنت تحسنه

أن الروى بوجيب القلب تتحد

(★) كتبت تحية لذكرى القاموسي الحادية عشر، وألقيت في ملتقى القاموسي الأدبي مساء ١٩٩٩/٧/٨، ونشرت في ديوان آل ياسين (العهد الثالث) (٢٠٠٧م).
(١) إشارة إلى قصيدة القاموسي في رثاء الفقيه الكبير الشيخ محمد رضا آل ياسين (جد الشاعر). (الناشر).

فللمعاني حياة لا يطاولها
والشعر ما كنت تجلوه فتصعده
فكان بعدك ان عيت بلابله
فبعد ان رفأ روحاً وازدهى جسداً
وللصداح تباريح وأوجعها
قسا عليه الألى خسانوه حين غدا

باللحن والضعف والتغريب يضطهد
حتى كأن الثغور الناعبات به
تلوكه حصيات ثم تزدرد
أو أن أيدي إشارات مطوحة
مدت إلى النبتة الزهراء تختضد
هيئات أن تدعي مرقاه ضالعة
تطفي سناها وآلت أتها تقد
ذباله طوقتها ألف نافحة
قلب الحب، رعاها الواحد الأحذ
لأنها نفحة علوية سكنت
لم تلوها ظلمة أو ينهها زمد
تؤوي الرياح ولا يلوى لها عمد
يكفيك أنك في مسراه مقاته
يفنى الزمان ويبقى الشعر خيمته

للذكرى فقط (★)

الأستاذ (المرحوم) ضياء الدين الخاقاني

يوماً، لآمنت أي كنت صانعه
 كمن يعض بلا وعي أصابعه
 هذي السنين وآلت ان تصارعه
 في معبد الحزن يستقصي منابعه
 يدعوا، ويرجو القوافي أن تطالعه
 روحاً، ونحياء صبحاً كنت طالعه
 عمر تقاسمت أطراف الأسي معه
 من الأذى بعد أن وفي مواضعه
 ما يستعيد به الماضي روائعه
 للجرح غير نزيف الحب نافع
 نمتار من كل ما يعطي روائعه
 فما لصوتك إلا ان تواقعه
 فما يخاطب من ماض صنائعه
 حباً ويهزم في الحالين خادعه
 صدى لأحلام يوم كنت جامع
 للصبح وجد تمنى أن تدافعه
 لما هجعت، وضان الليل هاجعه

إن لم أقل فيك ما لو كنت سامعه
 لذا أتيتك هذا اليوم معتذراً
 أقولها كلمات عاصرت ألسي
 تراجع الألم المحزون معتكفاً
 وعدت حيث فؤادي لا يزال فما
 سمعت صوتك تاريخاً تمجده
 وها أنا اليوم ظمآن يقارعني
 فهل لصوتك ان يرتد منتفضاً
 وهل للذكرك أن تمتص من دمنا
 مريضة كل نجوانا ولست أرى
 فصل بين دوالينا وكن نفساً
 أبا رشاد نظيفات عواطفنا
 وما للذكرك إلا أن تكون لنا
 فما يقول لنا صدقاً ويوسمنا
 ولن يكون لنا يوم الفراق سوى
 صدى ليال غنيات تقمصها
 تلك الليالي التي أغمضت يقظتها
 فهل نسيت - أبا الذكرى - استجارها

عند الصبح بأن يجتاز واقعه

قد كان طول ليالينا لنا (رهقاً) هوى النفوس العذارى ان تضاجعه

(★) ألقاها الشاعر في جلسة (منتدى القاموسي الأدبي ببغداد) بمناسبة الذكرى التاسعة لرحيل القاموسي في ١٩٩٧/٧/٢.

أنبيك يا رئة الماضين واجزة
ان الزمان الذي أوحشت ما برحت
ان الصقور التي رافقت هبتها
سألت يومك هل أبقت روافده
ناشدته أن نرى الدنيا بطلعته

*

يا منبع الصدق يا صحواً ويا دعة
هذي صفاتك ما ماتت وأي دجى
فعد لنا سكناً هوى منافذه
كم من بديعة شكل صنت زبرجها
تركتها لأغانينا بلا وتر
وكم رقيقة روح كنت تعشقها
ومتترف من نريف الروح كنت به

*

يا صادقاً قد جلونا صدقه خلقاً
جعنا لحفنة أيام تعود بنا
ضاعت سفينتنا والبحر هانجة
أبا رشاد سؤال لن يكون له
هل التقيت بأعلى قمة سلكت
انا فقدنا كما بدرين غالهما

عن التأوه (.....) دوافعه^(١)
عطشى سواقيه تأبى أن تراجعته
هوت ولازم مأسور صوامعه
من الشواهد ما يسقي مرابعه
ضحى، وأن لا يضم الليل ساطعه

*

ويا ربيعاً تعطينا روائعه
لا يستعيد - وإن غابت - طولعه
وعندليباً يغتينا بدائععه
عن العيون جملاً صغت ناصعه
سوى ابتسامتك اختارت مقاطعه
وقد أبى العشق فينا أن تقاطعه
تلهور أطل فوفانا مدامعه

*

وعفة وانبعثاً كان واسععه
لحيث يكتسب التاريخ جائعه
أمواجه وعلينا أن نظارعه
سوى الدموع جواباً لن نقارعه
طريق مسراك واجتازت شوارعه^(٢)
خسف تعقب متبوعاً وتابعه

(١) كذا في الأصل.

(٢) يشير إلى رحيل الشاعر الكبير السيد مصطفى جمال الدين.

نداء الوفاء (★)

الأستاذ (المرحوم) السيد عبد الغفار الحبوبي

ما كان أكبره - وربك - موقفا!
 من حيث داء قد سرى متعسفا
 إلا فؤادك ما أصيب وأتلفا
 ويضخ نبلاً (صادقاً) لا زانفا
 فيه الاخاء مجسد: فيه الوفا
 للنبل مطبوعاً وليس تكلفا
 إن ابن (وائل) قد خبا ثم انطفأ
 ورفضت انك مشرف وعلى شفا
 وعصيت جمهوراً فماك ليصرفا
 إذ أنت من لطف جبلت ومن صفا
 بل كنت إحساساً رقيقاً مرهفا
 إن ناهم من نائب متعاطفا
 وبقيت لا معنى تعيه سوى الوفا
 بالطيبات: مبادئاً ومواقفا
 في المفرحات: وفي المصائب قد غفا

أكبرت منك (أبا رشاد) موقفا
 إذ أنت - يومك في الفراش مطيب
 داء تمكن من حُشاك فرائساً
 بل ظل ذاك القلب يخفق طيبة
 أكبرته - والله - أصدق موقف
 أكبرته مثلاً فريداً خالداً
 إذ قد أتاك وأنت في عنف الضنى
 فرأيت نفسك في المصيبة (وائل)
 ورأيت أن تسعى لتشهد (حفله)
 حرصاً عليك من التأزم حالة
 حتى كأنك لم تكن من أعظم
 ولكم رآك الصحب تشكو مثلهم
 متحدياً ما أنت فيه من السبلا
 وهو (الشعار) إذا تفاخر صاحب
 وذممت إنساناً يوافي صاحباً

أكبرت منك - أبا المودة - حادثاً

والخفيل) مصغ للمراثي أرهفا

ما كان - لولا رهطه - أن يعرفا
 وصدورهم وقلوبهم كي تزحفا
 (مياه) غادرت الثرى أو متحفا

إذ فوجئ الحشد الكبير بقادم
 رهط شباب ساندتك زنودهم
 وإذا بطلعتك الشحوب كأنها

(★) كتبت في الأيام الأولى من الرحيل، وهي مستوحاة من موقف رائع تجسد فيه وفاء (القاموسي) لصديقه الأستاذ الكبير إبراهيم الوائلي - في حفل أربعيته بتاريخ ١٩٨٨/٦/٦.

فعلت وجوه الحاشدين سحابة
 وشغلت كل الحفل عن شعرائه
 إذ كنت أنت الشاعر الفذ الذي
 واستحوذ الحدث المثير على الرثا
 في كل قلب، بل بكل مقولة
 * * *

وانفضّ هذا الحفل بعد ختامه
 وسمعت جلّ الحفل يجهر ناقداً
 إلاك.. إذ عدوا حضورك تحفة
 إذ عبرت بالفعل لا بالقول عن
 فرأى بك الراؤون شهماً حافظاً

حفي الصديق كفرض (مروة) و(الصفاء)
 (علماً) يرف ترفعاً وتعقفا
 بالأهل: أرباب المعالي الشرفا
 لذويك أفضل من سلوك يقتفى
 ما كان إلا بلقياً أو صفصفا
 حسن الثناء لما أجاد وخلفا
 ولكم رأوك كما الأعالي شامخاً
 أتراك تنشد في الأعالي ملتقى
 فاصعد إلى (الفردوس) غير مخلف
 لو جرد الانسان من حسناته
 والمرء بعد رحيله يجيا على

ففخرنا بمذهب الصادق

الأستاذ السيد محمد حسين الصافي

وجهره بين الحشا حارقي
وحافل بالأدب الشائق
وطيبه من زهره العابق

* * *

تهفو إلى كوكبه الشاهق
ذاقت رحيق المنهل الفائق
ما غيرها للروح من لائق
هيا إلى ينبوعه الدافق

* * *

رائعة كالأمل الشارق
ورضتها بالأدب الرائق
هازنة بالشجر السامق
بذرتها فيها فماذا بقي؟
على المعالي لفحة العاشق
واستيقنت من فجرها الصادق
(خذا لرضوانك يا خالقي)

* * *

بالناظر المستبصر الخاذق
يخطف عين القابس الوثائق
بورك بالدرج وبالطارق
وسوقه لم يك بالنافق
في ليلها شع سنى بارق
ففخرنا بمذهب الصادق

أبا رشاد والهوى صادق
ذكراك زهر عابق بالشذا
هل يستطيع الروض نسياته

* * *

همت بنور العلم مسترشدا
حتى إذا ما بردت غلة
واستعذبت من فيضه نللة
شرعت تسقي الجيل من عذبه

* * *

روح كأنفاس الربا حرة
صقلتها كالماس شفافة
خلقت من اخلاقها روضة
علم وآداب وتقوى إذا
هامت بنور العلم ملهوفة
حتى إذا ما بلغت شأوها
أسلمتها مثل شعاع الضحى:

* * *

دينا متاهات تفحصتها
وحين شع النور في تيهها
طرقت دربا عامرا بالعلا
ما استوحشت نفسك إذ جبت
مذاهب شتى ويا قلما
ان يفخر الناس بما قدموا

يا صادق الود (★)

الأستاذ السيد عبد الغني الحبوبي

يا صادق الود ما غيبت بالكفن
ما زالت الروح تسري في مجالسنا
هذا حديثك عرف في مسامعنا
رمز الصفا والوفا ذكراك حافلة
طوبى فخير الذي نرجوه عاقبة
يا صادق الود والاخلاص في زمن
الخلد بالروح ليس الخلد بالبدن
كأنها الطيب يرعى قلب مفستق
كأنما الموت لم يدهم، ولم يحن
بما يجل عن الأقدار والدرن
أن يقرن الذكر في ذكر لنا حسن
الصدق فيه بكيناه مع الزمن

* * *

أبا الرشاد وهل بعد الرشاد هدى
مرت عليك خطوب لا احتمال لها
أكبرت خلقك، لم تجزع مع الخن
لم تنحن حين تلقاها ولم تلتن

* * *

الشعر كان صديقاً طبعاً أبداً
ففي يراعك والقرطاس مقوذة
إني هنا جئت أرثي شاعراً وأخاً
أفصح لساني - وإن جل الأسي - ابن
أقوى من الخن النكراء، يا خلقاً

ما غيرته يد الأحداث والاحن
مسيرة العمر تشريف ومفخرة
في السر مثل الذي قد كان في العلن
ما كنت تفعل ما يجزي الضمير، ولا
ما قاد غيرك للمستنقع السنن

* * *

إن عز صبري - صديق العمر - لا عجب

قد كان ما لم يهن وقعاً ولم يكن
يوماً، وما هو كالموتور يخذلني
ما كنت أحسب أن الصبر يخذلني

ما بان في ألسق زاه، ولم يبن
من شدة الحزن، ما أدهاه من حزن!
كنت الصديقَ بما في الضيق والحن
فراند الشعر في ثوب له حسن
والفضل أحسنه فضل بلا منن

* * *

مما نُجل، ومما عزَّ في السنن!
أبيك للشعر لم يُبدل ولم يُهن
وكم تحبَّط مغرور فلم يزن!
كم أطفأ النار في الجلى وفي الفتق!

* * *

في رزينا بك - يا قاموسنا - شحي
حُسنُ الوفاء، فآتي بالوفاء (غسني)
ما كنت تكسل عما كان يطلبه

صوت الضمير، ولو في المركب الخشن
ما أحوج الناس للمحمود واللسن!
ممن مشى واعياً في أحلك السنن
عاشوا بعقل مع الأحداث مُتزن
وما استجابوا لصوت غير مؤتمن
بيض المآثر تبقى جلية الزمن
الشاعرُ الناثرُ الموهوبُ والوطني
أطناهما: مائناً والأمرَ فليكن
ما استسلمت أبدأ للضعف والوهن
ليس البكاء على الأطلال والدمن
للخيرين، وما خلد بلا ثمن

* * *

لم تعرف الحقد، لم تكسل ولم تهن

قاموسنا البحر خير الدرّ يكنزه
مجموعة الخلق العالي كبا قلمي
إنّا صحنك أعواماً معطرة
كم كنت تسحرنا مذ كنت تُشدنا
وكنت بالفضل سباقاً بلا منن

رمز الوفاء، وهل يعد الوفاء لنا
أبيك للنشر: كنت الدرّ تنشره
وزنت بالعقل ما قد كنت تفعله
العقل للناس درغ في حياتهم

مجموعة الخلق العالي أغث قلمي
فالرء أحرصني حيناً، وأنطقني
ما كنت تكسل عما كان يطلبه

يا أيها اللسن الخمود منطقه
بقية السلف المعروف منهجه
ثم جنهم فهم مجد ومفخرة
لم ينجحوا لهوى الأطماع مغرية
عاشوا وجوههم بيض، وقد تركوا
فأتمت الراحلون الخالدون بنا
ما قال فانلكم، إن أزمة ضربت
كنتم إلى الحق أقلاماً وألسنة
لقد بكيتم على ما كان يُحزنا
طوبى لكم! إن فعل الخير نذخرة

نبح الصفا والوفا في السر والعلن

يا صادق الود

عبد الغني الحوي

تلجأ إلى رقدة بلهاء. أو رسن
كما تصوب شأيب من المزن
نشاق منك سماع القلب والأذن!!

في همّة هزنت بالمستحيل فلم
الطافك المطر أهامي لعارفيه
يا صادق الود كم تبقى مسامعنا

١٩٨٨م

به وبأهليه الثناء ولا نكر
وللشعر يوحيه التأمل والفكر

وأما الأديب الألمي (صادق)
يقول فنصغي للبيان وسحره

السيد محمود الحوي

مرثية الموت (★)

الأستاذ محمد حسين محمد كاظم الطريحي

لله، أي هموم يحمل الجسد
 ما شقَّ قبراً ليأوي قلباً محتضراً
 وما بكى ذو شكاةٍ فرط موجدة
 ضمنت أوجاعي التكلسى أدللها
 حتى استبدت بي الأوجاع منزلة
 واستوقفتني الرزايا كل مطرح
 وتستغفر الأذى في كل خافقة
 فما أكتم ما عيني تبوح به
 أي النفوس أنا! لم يدر همتها
 حسّ تجاوز ما الدنيا تضيق به
 صفتك الود جسماً ناحلاً كُبرت
 وكلُّ صاحب خطب يدر ما خبات
 فما يرى بدلاً مما تجرعه
 وبالتأوه عملاقاً تعشقه
 وبالدموع تولت هدي ثاكلسة
 وبالقبور تناهى في سامعها
 ما حيلة العطر إن تم العبير به
 (الصادق الوعد) فيما أمل الجلد
 وبالليالي قوافٍ زان بهجتها
 هُنَّ الأحبة إن أحببه ففسدوا
 وهنَّ إن ضاقت الدنيا بمحتننها

وأعوز الصبر - أهل الصبر - فاتسدوا

(★) ألقيت في (ندوة الغبان) ببغداد بمناسبة الذكرى الأولى لرحيل الفقيد. ونشرتها مجلة الموسم العدد

وأساقطت كسفاً فرط العذاب رؤى

توجس الشرف فيها وهي تضطهد

تناخت الأنجمُ الزهراء في وُلدهِ تتمنم الحب فيه كيف يتعبد!!

وتفتديك بما حملتها رفقاً من الفضائل مزهواً بها البلد

وتستعيد رؤاك الزهر وارفة ظلالها يتهادى خلفها الرغد

وضحكة وسعت ما في القلوب مدى

وعنفوان شباب زقه الغيـدُ

بشاشة أورقت في قاحل دعة فأى نعمى هوى ترجو لمن فقدوا

فما استراح ذوو جرح لأمنية إلا تحظفها في مهدها اللحدُ

في الموت بدء حياة لا يحن لها غير العظيم يجليها وينفردُ

حب الحياة وبغض الموت سرهما باق يقوض أركاناً لمن جحدوا

ونحن بينهما في برزخ خضل بالأمنيات بما لم يحلم الجسدُ

جل الردى مطمحا لا تظمنن له إلا القلوب التي بالله تعتقدُ

من وحي الديوان (★)

الأستاذ أحمد حميد الكربلائي

فجرى ديوانه نبعاً زلالاً
فتساهى في معانيه كمالاً
- بين أقرانٍ له راقوا - مثالا
ينثر الشعر يميناً وشمالاً
شتمته سحراً من الطيب جلالاً
قلبه حتى سما فيه مقالاً
أو يحايي أحداً أو يتعالى
لغةً فاشتدّ بحشاً وسؤالاً!
خير ما يبدع ديواناً جمالاً
غادةً تستهدف الكل وصالاً
ويراهها (المربديون) هلالاً
(شارع) ألفتيته فيه تلالاً
موتلاً للمستزيدين وصالاً
ونسداماه الأعزاء خلالاً
(مصطفى) كلّ (جمال الدين) نالاً^(١)
واكب العصر ولم يخش النزالاً^(٢)
شاعراً أو عالماً صال وجالاً
تجد الآلاف لم تشغلك بالاً
يقرأ الحب دعاءً وابتهالاً
ألقاً يقدح في الدرب اشتعالاً

شاعرًا تاهت قوافيه خيالاً
وتمرى حرفه ضرع النهى
راق في الخانسه حتى غدا
لم يزل يضرب في أوتاره
كلمما طوّفت في بستانه
لم يقل إلا الذي أفضى به
جاهداً أن لا يماري في الهوى
شاء أن يرقى على (قاموسه)
وتجلت لغةً (عصرية)
موحياً أن المعاني عنده
يتملأها (الغريون) هوى
وإذا ما (المتنبي) شبّ في
حلّ في (مكتبة عصرية)
زاده الحرف ورّياه الهوى
من (جميل) وادع الخطو ومن
أو (تقي) زاهدٍ علامة
من ومن أمثالهم من لا أرى
موقفٌ يستوقف الدهر وقد
عاشقٌ بات بمحراب الهوى
يحمل الشوق ويستهدي به

★ كتبها بعد قراءته لديوان صاحب الذكرى.

١. جميل: الشاعر المرحوم جميل حيدر، ومصطفى: الشاعر المرحوم مصطفى جمال الدين.

٢. تقي: سماحة المغفور له السيد محمد تقي الحكيم.

زاحت كل الفصاءات مجالا
 ذاب فيها فأمضتته دلالات
 يالعين العقل في الصبوة غالى!!
 ان يكن لم يجترح ذنباً مقالا
 طبعه يخرج على الحق تعالى
 وسع الدنيا نساء ورجالا
 بل إلى كل السماوات استطلا
 وطن أو شاءه يوماً مقالا
 سابقاً كل المحيين امثالاً!
 (حبسه الايمان) نصاً ومثالاً
 وصفاً في (منتدى النشر) انصقالاً
 علماً فذاً وقد فاق الرجالا
 ضاق فكراً أو رجا جاهاً ومالا
 أينعت شعراً وحباً وغلالاً
 أسرة مدت على الدنيا ظلالاً
 يوم كنا نخطى الدرب ضلالاً
 حسبهم انا أتيناهم عيالاً
 وقوافيننا قوافيهم توالى
 من ترى وقي؟ ومن رد النوالا؟!
 أي شيء يعدل الخلد مآلاً؟!

مستفيضاً بالأمانى جملة
 أسرته الأعين التجل وقد
 فصبا حتى غدا (مجنونها)
 لا يرى لائمة في عشقه
 حبه طبع ومن يخرج على
 ولذا فالحب في شرعته
 لم يضق يوماً لديه ساحة
 فهو إن حَفَزَهُ قافية
 ذاب في محرابه مستشهداً
 غير هيب ولا مستوحش
 عز في اخوانه (رابطة)
 وتسامى في رجال صفوة
 ذاب في (الصدوة) لله فما
 واحة الايمان في أعماقه
 وارف في ظله حتى غدا
 ليتنا كنا إلى منبره
 للأدلاء علينا منة
 زادنا الأوقى رؤاهم تزدهي
 كم نلنا - فارتونا - وردهم
 حسبهم ابداعهم خلدهم

سيرة ذاتية في حديث شعري (★)

الأستاذ (المرحوم) الشيخ جميل حيدر

فامنحوه مشاعر الاستماع
وَحَبَّتْني رُؤْيَاهُ طرفَ انصِياع
ثمَّ غاباً فروضةً في التداعي

* *

وحكاياه ذات سحر مُطاع
رغم أبعاد فُسحة الاتّسع
شاعريّ الأفكار والايّسع
قد تنامي عليهما في انطباع
وارتدى هديّهُ بشقّي المساعي
وبهذين كان زاكي المتاع
واستطالت لديه رؤيا الصراع
في مسداه المدرج الارتفاع
مستجداً بما جسّ الابداع
في قطوفٍ مُدلّة الايّسع

* *

وأضاءوا طلابُهُم بالشعاع
غيرُ زادٍ من كتبهم واليراع
دون أجر سوى ثواب انتفاع
فأشاعوا عدالة الاجتماع
ذاب بعضٌ فكان وسع اطلاق
السمت ما زاعَ خلجة استمتاع
في مرايا النفوس شتّى الطباع

بعضُ أصحابه يرومُ حديثاً
في مذبّ الخمسين أوزقَ سمعي
نجفِي اللقضاء يبدو يفاعاً

*

كان (حانوته) محطةً نجوى
ليس سهلاً تراه ثمّ تعيه
كان خلاً مهذباً وأديباً
ناظر العلم بالثقافة حتّى
نسل بيتٍ تنسّم العلم خلقاً
تاجر الله فيه درساً وكسباً
ثمّ تاقّت به الميول انفتاحاً
فامتطى مهرة الطموح وجلي
مستقيماً بما استثير عليه
مُستضئناً بمن تساموا لديه

*

من رجال بحوزة العلم ذابوا
بيئتهم غرفة ولا شيء فيها
نذروا عمرهم لدرس وبحثٍ
أو تصدّوا المرجعية حُكم
أو بجهد التاليف في كل فنّ
بعضهم ناصع المسيرة عالي
والكثيرون مثلما تبارى

(★) ألقى في (ملئقي القاموسي الأدبي) ببغداد في ٢/٧/١٩٩٤ بمناسبة الذكرى السادسة لرحيل الشاعر صادق القاموسي، ونشرت في (ديوان جميل حيدر) ط النجف ٢٠٠٩.

حسبهم لحظة التأمل ذنباً
 يرقد المتخمون فيه بجوع
 هكذا (صادق) بخلفية العمق
 فاستقلت لديه رؤية نقد
 فاهتدى (المتدى) الذي كان حلماً
 (بالرضا) و(التقي) من صفوة
 فاستطاع التالوث فيما استجدت
 أن يقيم التغيير في حوزة العلم
 فاستجاب الشباب للمنهج الغض
 غير أن الشيوخ والبعض منهم
 خادعته بعكسها خيبة الآمال
 فنلقوا (عصاة) فاتكة السحر
 فالتوى مفرق الارادة للخير
 ثم جلى بعض وأطرق بعض
 أم بغداد مذ تناوح فيه
 استقرت لديه رغبة كسب
 واستطال المجال فيه فأذكى
 كان لبنان منزل القلب منه
 ثم طالت رحلته واستطابت
 أرهفته مشاهد الرؤية الحسناء
 وبعض الأحلام تدنو المسافات
 وبسرغم الرحيل كان لديه
 شباً زميئته وظل عليه

يصغر الكون عندها بائساع
 وهم الساهرون غير جياع
 فهادى ينوء بالاصطرع
 صفقتها دراسة الأوضاع
 قد تبناه من لبان الرضاع
 الأمثال كان التقليد هج اقتراع
 بمساعيه همّة الاسراع
 بنهج (مظفر) الاقناع
 وصانوه من ديب الأفاعي
 كان (لولا الأيهام) أسرع داع
 عند الممثلين بقاع...
 أثيرت على الجنى بائلاع^(١)
 وفازت لكن ذقون الرعاع
 وتناءى بعض لغير بقاع
 وتشكاه طائر الاسجاع
 العيش بين الايناس والامتع
 جانحه رحيل زهو اندفاع
 حين أرسى عليه خفق الشرع
 فيسه منه نوازغ الاقناع
 ما بين بحره... والبقاع
 ما بين عنقها والذراع
 في مقام الغري طيف انتجاع
 (خفي) العيون والأسماع

(١) خاطب أحد المراجع الدينية جمعاً من معارضي حركة إصلاح المنبر الحسيني التي اضطلع بها (متدى النشر): هذه عصاي خذوها وحاربوا القوم فيها!! (الناشر)

ما استطالته أي ريح اقتلاع^(٢)

* *

وَيْمَتِيكَ بُلْغَةَ الْمُسْتَطَاعِ
وَفَتِيًّا إِذَا خَلَا مِنْ قَاعِ
فُتْبَارِيهِ بِانْفِتْحَاحِ التَّمَاعِ
أَوْ تُسَجِّي عَلَى شِجَارِ اصْطِنَاعِ
بِوَضُوحِ الْإِبْرَاقِ النَّزَاعِ
أَوْ يُزَكِّيهِ بِارْتِجَالِ الدَّوَاعِ
رَغْمَ مَا يَعْتَرِيهِ مِنْ أَوْجَاعِ
فِي الْخَنِيَا نَوَازِعِ الْإِبْتِدَاعِ

* *

تستبيه هواجس الارتجاع
ضاحك الدمع خافق الأضلاع
ما بين صادح أو ناعي
فهي أنفاس عاشق ملتاع
تتعري بلاعج المزداع

* *

وجديداً لكن بصهوة واع
لا بتقليد مهنة الصنّاع
وبقاياه صنع فنّ مشاع
ويعدّ الألفاظ جسم متاع
دون المثرثر الخداع
فهو تعبير ذوقه المنصاع

* *

نتصادى به حديثاً اجتماع

(مدرحي) البناء غالى رسوخاً

*

كان سمحاً يُريك زهو الأمان
يغدو شيخاً إذا تلبس رأياً
وتراه يضيءُ نفسك فتحا
ويثير الجدال فيك فتضرى
ليرى رأيك الذي ليس يبدو
ولكم يستجيب للظرف طبعاً
ما تحلى عن ابتسامه فيه
وبرغم الوضوح أغفت لديه

*

هو في الحب بين همس وصمت
يغتلى وجدّه بصبر فيبدو
مُفرعاً أصغريه في شجر الألفاظ
القوافي تُذيع شكوى الخنايا
كلما صالها بحلّة وصف

*

وهو في الشعر يمتطيه قديماً
خاض (همسينه) برحلة وعي
لللهوى بعضه وبعض لنقد
كان فيه يرى المعاني روحاً
ويرى في الأديب شاعره المطبوع
كيف ما كان وارتضاه بذوق

*

حسننا من (أي أيا) بألّا

(٢) مدرحي: منحوتة من لفظي (المدرسة، الحوزة).

يُغري الأبناء بالابداع
 في مرايا ذاك الثرى اللماع
 تحتال في مدار القلاع
 ثم غدنا لهات زند مضاع
 في حنايا الرفاة رسم اضطجاع
 ولدى الله يقظة الاشعاع
 لا تساوي نسيج طرف الوداع
 يوم تشتد حشرجات النزاع

وبما يستجد في رؤية الأبناء
 وسلام على (الغري) المزكى
 يوم كانت مدينة العلم والآداب
 أوقدتنا بليل أمس شموعاً
 وسيغدو ساجو العظام المعفى
 وسنجاز رحلة الصمت طيفاً
 جنة المنتهى الحياتي فينا
 لا أنيس إلاك يارب فارحم

١٩٩٤م

سلاماً أيها النبع (★)

الأستاذ راضي مهدي السعيد

فقد بعد المدى والقصد حادا
 لأصدق من يُؤمُّ ومن ينادى
 أنسوءُ به وأحملُهُ رمادا
 شهدتُ العمر أياماً شادادا
 وألقيتني بكلِّ سُرى مِدادا
 فمسي يوماً وبالغستُ اعتدادا
 تعلمتُ التواضعَ والسدادا
 فتوني وهي تَنقِذُ إتقادا
 منحتُ صحابكُ الشهدَ الشهادا
 بما احتشَدتُ ما أثره احتشادا
 فتى الشعر الذي سبق الجيادا
 قد التَمَعْتُ وما صُبَعْتُ سوادا
 هي الكَلِمُ الذي بلغ المرادا
 بما يوحي إلى الدنيا إرتدادا
 عن النهج الذي هدمَ الفسادا
 فإنك لم تغب عتفا فؤادا
 فقد كُنْتَ النشيدَ المُستعادا
 بكلِّ محجَّسة تسأى إتيعادا
 مِن التمثيلين بك اعتقادا
 حياةً من عواطف لن تُبادا
 ودُنِياهم نداءً مُستجادا
 وأنتَ بها الذي وافي وعادا

فرزعت إليك ألتمس الرشادا
 فرزعت إليك يا من كنت حقاً
 فرزعت إليك أنفض كلَّ ثوب
 فرزعت وأنت تعرفني فاني
 وقد عركت خطاي يد الليالي
 وما فاخرت أو عرف التباهي
 لأنني منك أنت وأنت فد
 وما أسلمت للأيام حتى
 وهذا بعض ما أسقيتُ مما
 سلاماً أيها الأسمى مكاناً
 سلاماً من أخيك أبا رشاد
 فأنت أضأت عالمه سماء
 وأنت زرعت في فمه حروفاً
 سلاماً بعد عشر فوجيات
 وإغماضاً عن الجلى وبعداً
 سلاماً يا أخي أبا رشاد
 ولم تنسل روحاً أو ضميراً
 وقد كنت الصدى الحي المسواقي
 سلاماً أيها النبع المصطفى
 وممن كنت أنت تضيء فيهم
 لقد أسرجت روحك في سماهم
 وها هي - ها هي الذكرى تُوافي

(★) كتبت بمناسبة حلول الذكرى العاشرة للرحيل وألقيت في ملتقى القاموسي /

بعالم روحه فكراً مُشاداً
 تَمِيلُ مع الهوى أنى أراداً
 يخط حُرُوفُها وكما استفاداً
 لأصْدَقنا وأنقانا مداداً
 تُطَوِّفُها هنا وهناك انقياداً
 معانيها تلوّثها اجتهاداً

*

*

*

فاني فيك طبيت هوى وزادا
 أطلعك يقيناً مُستزادا
 مُنَوَّرَةً بما رُحبتُ مهادا
 بمن آخى لقلتُ مضى جهادا
 بما نشدوه فتحاً وارتداداً

لينهض شاعراً أرسى خُطاهُ
 ودينياً لا تُقَوِّضُها رياحُ
 وتولدُ كلَّ يومٍ من يراعِ
 أخى أبا رشادٍ كنتَ حقاً
 لذا لم تُعطِ نفسك أو تدعها
 لتتسجَ من قوافي الشعر دنيماً

سلاماً أيها النبع المُصَفَى
 لأنك كنتَ لي سقراً مُزَكَّى
 وروحاً لم تُعِشْ إلا حياةً
 ولو لا أن يُقالَ: أخُ يُغالي
 وكان من الرجال وهم قليلُ

غَيْضٌ مِنَ اللَّطْفِ (★)

الأستاذ علي الحيدري

أمسى بقلبِ براهِ الشوقِ كالحلمِ؟
وعى كآثي أسيرٌ لابنةِ الكرمِ؟
عادتُ لتحيطَ مِن عزمي ومن همي؟
حتى هجرتُ الكرى من شدةِ الألمِ
على فتىٍ باتِ يرعى حرمةَ الذمِ؟
لا كأمري عن طريقِ الصالحاتِ عمي
هذي حشاي فدى للخلِّ فأستلم
إذ كم خليلٍ بماضيه استحلّ دمي

* * *

سرى بأرواحنا كالبراءِ في السقمِ
سعي الصديّ لوردِ رائقِ شيمِ
معلقاً مثلِ طفلٍ غيرِ منقطمِ
له أحنّ حنينِ الطعنِ للرسمِ
عشقتُ فيه الوفا والحبَّ عن أممِ
به الرياحينُ تبرى السقمِ بالنسمِ
في عالمِ الفكرِ لا في عالمِ الوهمِ
وصوبها بحمى "الزوراء" كالديمِ
"والجعفري" يدوفُ الشعرَ بالحكمِ
مع السرى سُرُجُ "محمودة" الشيمِ
ودجلةٌ من رسيسِ الشوقِ في حلمِ
وكرّمته بما يسمو على الكرمِ
فياضه بسمو الذاتِ والشممِ

غَيْضٌ مِنَ اللَّطْفِ أم فيضٌ مِنَ الْقِيمِ
أم (الرشادُ) نأى عني فسرتُ بلا
أم الشجونُ التي مرّتْ علي كبدي
مالي تُوَرِّقني الألامُ من صغري
ويح الليلي أما يكفي تكألبها
يرى الوفا سرعةً مثلي يُقدّسها
إذا الحمامُ أتى خلّي صرختُ به
ذا ديدني رعم ما يأتي الزمانُ به

ومنتدى عامرٍ بسحِّ القصيدِ به
سعتُ له مهجٌ قبلي تطوف به
رويتُ منه فؤاداً لا يزالُ به
زادَ لروحي ولذاتي وأغنيتي
عرفتُ فيه الهوى حلواً المذاقِ كما
بمربعِ عبقرٍ طالما عبقتُ
فواحةً بأريجِ الفضلِ سائحةً
من "منتدى النشر" مياها ومبعثها
روحِ "المظفر" من أردانها عبقُ
وهاجةٌ ما سرتُ إلا وتتبعها
حتى إذا خلدتُ والشمسُ قبلتها
حيى "الشعرباف" مسعاها وكرّمها
بعاصفٍ من خيالاتِ سلافتها

(★) ألقى في ندوة الشعرباف بتاريخ ١٢/٣/١٩٩٢.

أرومةً المشل العلياً مع المهمم
ولا أرتضت غير فعل الخير للأمم
مثل البدور بدت في حالك الظلم
يرقى إلى الروح قبل اللحن والنغم
نعم المعيد بقلب واله وفم
وشياً تقاطبغهُ تجري بنيسض دمي
بطل مرعاك لم تهجع ولم تنم
برشفة من لمى مشبوبة الضرم
رحماك في قلب مأسور بكف كمي

* * *

حتى نذرت لهم روحي بلا ندم
دين الوفي خل طيب رحم
أخذانه من كؤوس الود وهو ظمي
وتوجت بنضال الحرف والكلم
لذروة العز سيفاً غير منثلم

* * *

رثاء من جاهدوا بالفكر والقلم؟
تعاك للجبل شهماً غير متهم
فقد الأديب كفقده السير للعلم
عظم المصاب بفقد الشاعر العلم
فأنت منه كمثل الرمح للعلم
من شدة الحزن أخفت زفرة الندم
نديه من سمير "صادق" فهم
بما ورثت وما أضفيت من همم
وحفة علقنت في مهجة وفم

هفو القلوب لها شوقاً تحفزها
ما طأطأت رأسها إلا لخالقها
يشد من أزرها أشبال ساحتها
مغنى من الشعر مطوي الغرام به
رددت فيه أناشيدي و"صادقها"
حتى حسبت القوافي حين يرمقها
يحدو خيالك فيها وهي سائحة
تقيمها نشوة الحاسي وتقعدها
وأنت تهتف فيها والهأ شفقا

و"فتية" في حنايا أضلعي سكنوا
(فطالب) حقه لا زال في عنقي
و"صالح" من سقى في كفه كرمأ
و"الوائلي" الذي طابت أرومته
جهاذه ساريات الجدة تشهره

* * *

"أبا رشاد" وهل يرقى القريض إلى
بيت "الشعرباف" محزون وندوته
عليك شقت جيوب الحزن نادبة
وندوة العلم "المكي" أنقلها
نعتك للأدب الراقي فلا عجب
وروضة الفكر و"القصاب" رائدها
كذلك بيت "الأمين" الحرح حين خلا
جمعت كل الصفات العرلاً كلفاً
شعراً تفوق على الأنسام رفته

ورأفةً مُرَجَّتْ عطفاً بلا برم
بيتاً إلى المجد والحُلُقِ القسويمِ نُمِي
نحو الفضيلةِ باقٍ غيرِ منهدمِ
فقد مضى طاهر الأردان والرحمِ
قبراً به "لامام الصادقين" سمي

وصدق وعدٍ وتكريماً لذي حسب
ومنهل الأدب المعطاء رافدهُ
وكل بيتٍ له راع يسير به
ومن بكنته عيون الشعر حين قضى
وكل غادية في الأفق ما برحت

١٩٩٢

كلا وما التاث في خطو له قدم
والظاهر الذيل لم تعلق به التهم
فلا تلاقيه إلا وهو مبتسم
يوماً توهج فيه اللطف والكرم
هوى تطامن زيفاً سيله العرم
سيان مبتدء منها ومختتم

حر الضمير فلم تخدعه بارقة
الصادق الود في قول وفي عمل
والمشرق الوجه لا زلقى ولا ملقا
والعاطر الخلق لو جذب تنفسه
والمصحح الفكر في دنيا تقاذفها
تألقت بالعطاء البكر رحلته

م

أبا الرشاد (★)

الأستاذ السيد عبد الغني الحويي

لفرط بهيما، بل فرط حكيم
حب كحجكم ما كان ينقصم
يجل عن كل ما يزري وما يصم
* * *

بلغت ما عز عن تيبانه الكلم
الشعر والنشر والأخلاق والقيم
لكم تسامت مقاما هذه الرحم
* * *

وميتاً وهو حي غيره الرمم
والجانعان: فم الارزاء والعدم
بكل ما يتعالى عنده الضرم
في كل آن إلى أحبنا قدم
وانه من بني الانسان ينتقم
يشاء يختار من يهوى ويلتئم
طعامها والمنايا آكل لهم
* * *

تبقى الشذا برياض نفتحها نعم
أعمال من أنشأوا منا ومن هدموا
يظل رضوى من الحساد والهرم
* * *

ها أنت تغبر إلى الاخوان يتسم
ان رويعت خلدت، قد تخلد الهمم

يبقى بشوق لك القرطاس والقلم
حباً نما وتسامى في روابطه
وفيت حتى غدا هذا الوفاء هوى
* * *

أبا الرشاد وبالمسعى الحميد لقد
أسمى الروابط والأرحام تجمعا
أمثلها رحم في الناس محترم
* * *

يا راحلاً وعلسى الأفواه مجلسه
الجانحان: سعير الخطب والالم
تجدد الخطب ما ينسى، تذكرونا
الموت يربض وحشاً في الورى وله
وحش يكشر عن أنياب فاتكة
كائناترة ما بيننا فكما
فالأرض مائدة والسائرون بها
* * *

ذكراك فيض حياً يا أيها العلم
الجد ما كنت تنشي غير خافية
شيدت بالحرف صرحاً في حمى خلق
* * *

الذكريات برغم الموت تزدهم
لدولة الحرف أخلاق تتيه بها

(★) ألقى في الجلسة التي خصتها ندوة الشعرياء بعداد لاستذكار مآثر الفقيه بتاريخ
١٩٩٢/١٢/٣ م.

في القول والفعل حتى تنتشي الدمم
والعلم واللفظ والآداب والشيم
درب الوجود إذا ما جنحت ظلم
وكلكم قلم يسمو علماً وفم
مدينة العلم في أفيائها الامم
في جولة الحق حين الحق يهتضم
صوت يدوي بمن في بذلم كرموا
على فم الفضل، والأجماد كلهم
وكابن يعقوب. إن الكل محترم

*

*

*

من الأيدي وفيكم تردهي الشمم
بيدي بك القول حلوا ثم يختتم
وفاؤها بعضه من فخرها بكم

منها الوفا والابا عن كل شائبة
قد كنت في نخبة (الفضل) يجمعها
كنتم مصايح للساري تضيء له
في ظل قبة من تزهو القباب به
لمنتدى النشر تاريخ به افتخرت
وأنت ممن زهت فيهم تصول بهم
وتم رابطة الآداب كان لها
فيها عمالقة أعمالهم خلدت
كالجعفري وكالحمود محترماً

بغداد تعرف من أنتم ومالككم
يا صادق الأدب العالي أراك هنا
وهذه (ندوة للشعر بآف) سمت

دمعة وفاء (★)

الأستاذ محمد جواد الغبان

غداة سُدَّتْ عليه بعدك الطَّرْقُ
وكيف ينطق مَنْ في دمعه شرقاً
ناراً تُوجِّجُها الآهاتُ والحرقُ
وإن تَعَيَّبَ عنا وجهك الألسُّ
فقد تصوَّعَ فيها ذكرك العبقُّ

* * *

فقد عهدتُك أنت الشاعرُ اللبقُ
ألَى اتَّجَهْتُ فباب الشعرِ مغلقُ
وها هو اليومُ غيٌّ ليس ينطلقُ
حتى إذا أنا في أعماقها غرقُ
بالوجد والدمع والأحزان يَحْتَسِقُ
تكاد فيها حنايا القلب تحترقُ
وقد تلغتم حتى الحبرُ والورقُ

* * *

وروضةُ الحبِّ لا زهرٌ ولا عبقُ
وكم تركت عيوناً ملؤها أرقُ
إذا بنا بيد الأقدار نفترقُ
أنيابه من أحباء لنا علقُ
يدُ المنايا بكأسِ ملؤها رنقُ
يا من رأى الصبحِ يحو نوره الغسقُ
يُحيلها الموتُ، لا نفخٌ ولا نسقُ

أبا رشاد: وماذا يفصحُ اللبِقُ...؟
وكيف يُفصحُ من أعيته حيرتهُ
عامٌ مضى، ولظى ذكراك تلفحني
عامٌ، ومازلت تحيما في جوائحننا
ها أنت نفحةُ عطرٍ في محافلنا

أبا رشاد: أعروني منك قافيةً
فالشعر بعدك أعييتني مداخله
قد كان لي مقول كالسيل مُنطلقُ
تجمَّع الحزنُ أمواجاً، أدفعها
تنهَّدَ الشعرُ مفجوعاً على شفتي
وللأسى في الحشا نارٌ موجدةُ
وقد بكى قلمي من فرطِ لوعته

الأفق بعدك لا صبحٌ ولا غسقُ
فكم تركت قلوباً، ملؤها حرقُ
قد كان يجمعنا حبُّ، يؤلِّقنا
ما أقطع الموت من وحش، تلوح على
كم نائمين على صفو، تكسده
وكم شمسِ رياحِ الموت تُطفئها
وكم رياضٍ وأزهارٍ منسقةُ

(★) القيت في الذكرى السنوية الأولى لرحيل الشاعر، المقامة في ندوة الغبان ببغداد.

نراه منا - برغم الحب - يُسترق
لايلاً يدركنا يوماً به العرق
نفنى وكل جديد عندها خلق

* * *

مودّة في حنايا القلب تلتصق
على شعاب الهوى والود نطلق
فتانةً بالوفا والصدق تسألق
وما خشينا بأن يكون بنا زلق
حتى نرى الفجر بالأنوار ينشق
من حولنا بالأمانى الحلوة الأفق
من أجلها قد قضينا العمر نستبق
درب الحقيقة تمشي به، فنسوق
مكائنا القلب والأضلاع والحدق
كالبدر يُشرق في لألانه الغسق
فيها المعارف والآداب تتسق
فيهن مصطبّح حلو ومعتبق
وروضها بالهوى محضوضرّ ألق
للآن منها على أرداننا عبق
كأنما هو ذاك الطائش الترق
والذكريات كمثل السيل تندفق
فأنتم الطيف من شوق وأعتق
والطيب أستافه منها وأنشق
فأشرب الدمع من قلبي وأخنتق
والليل طوّقه التسهيد والأرق

* * *

وكم لنا من حبيب بين أظهرنا
وما الحياة سوى بحر نعوم به
رواية العمر ما أقسى فماتتها

فيا أبا الود قد شدت أواصرنا
خمين عاماً مشيناها يداً بيد
أيام كنا، وكانت للهوى صور
سرنا على الدرب ما في خطونا أود
نصارغ الليل لو غامت جوانبه
ونزرع النجم في قلب الدجى، فزها
كانت لنا مثل نسعى لتبعها
إن اختلفنا فمن أجل الوصول إلى
في كفنا (البذرة) الغراء نزرعها
حتى نمت فزهت فيها ثقافتنا
لله تلك الليالي البيض رائعة
آه عليها مضت عجلي، وكان لنا
جيينها بلالي الود مزدهر
كانت تصوع طيباً، فهي عاطرة
إذا تذكرها قلبي يحن لها
وإن تصوّرتها: فالوجد يخنتني
لم يبق منها سوى الأطياف عابقة
كم كنت أماً كاسي من مواردها
والآن جفت كؤوسي في يدي أماً
والآن أظلم وجه الصبح من حزن

يوماً ولا في المسار الرخو ينزلقُ
 فرأيك الفدُّ مثلُ السيفِ يمتشقُ
 وميض أفكارك الأصباحُ والفلقُ
 بَرّاً ترتبته الآدابُ والخلقُ
 ولا أقول: سقاه الهاطلُ الغدقُ

*

*

*

ما شابها كذبٌ في القول أو ملقُ
 يوم تلعغ في أحزانه الأفقُ
 تجهّم الأفق... لا صبح ولا غسقُ

١٩٨٨م

فيا أبا الرأي: ما زلتُ به قَدَمُ
 إذا تراجمت الآراء واشتبكت
 وإن دجا الليل واشتدَّ الظلامُ، ففي
 آه.. فقدناكَ خلاً (صادقاً) وأخاً
 سقى ثراكُ زكيٍّ من مدامعنا

أبا رشادٍ وهذي محضُ عاطفةٍ
 قد عبّرت عن مدى نار اللواعج في
 ناديت من لوعتي فيه (أورخه)

ذَكَرَاكَ تُنْشِدُ (★)

الأستاذ السيد محمد رضا جعفر الحكيم

ذَكَرَاكَ تُنْشِدُ وَالْحَافِلُ تَسْمَعُ
وَحَفِظْتَ مِنْهَا كُلَّ مَا هُوَ يُبْدِعُ
وَأَخَذْتَ مِنْهَا مَا يَعَزُّ وَيَرْفَعُ
وَرَكِضْتَ تَعْدُو لِلْجَنَانِ وَتُسْرِعُ
يَزْهَوُ وَمَا بَيْنَ الْكَوَاكِبِ يَسْطَعُ
يَوْمًا وَبَدْرًا كُلَّ يَوْمٍ يَطْلَعُ

* * *

كُلَّ الشَّوَارِدِ أَنْتَ فِيهَا الْمَطْلَعُ
كُلَّ الْأَكْفِ وَمَا تَخْلَفُ إِصْبَعُ
وَرَأَتْ وَصَالَ إِخَانَهَا لَا يَقْطَعُ
مَا كَانَ يَحْلُمُ فِيهِ أَوْ يَتَوَقَّعُ
بَابًا يَدُقُّ إِلَى الْفِرَاقِ وَيَقْرَعُ
أَدْجَى مِنَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ وَأَفْزَعُ
وَمِنَ الْأَدْلَةِ بَعْضُهَا لَا يَقْتَعُ
مُتَفَرِّقِينَ فَإِنَّ رَأْيَكَ يَجْمَعُ

* * *

فَالْأَمَّ مَغْتَرِبًا طَوْتَهُ الْأَضْلَعُ
أَنَا سَاهِرٌ وَهُمْ نِيَامٌ هُجَّعُ
وَإِلَى السَّوَاءِ ذُوو تَرْجَعُ
ذَنْبًا عَلَى عَرْشِ الْوَرَى يَتْرَعُ
وَإِذَا سَكَتَ جَرَعَتْ مَا لَا يَجْرَعُ
قَدْ ضَاعَ فِي دَرْبِ الْحَيَاةِ مَضِيْعُ

لَا زَلْتَ تَصْدَحُ فِي الْحَيَاةِ وَتَسْجَعُ
حَفِظْتَ لَكَ الْأَيَّامَ كُلَّ شُرُودَةٍ
أَعْطَيْتَ لِلدُّنْيَا حَيَاتِكَ وَاهِبًا
يَا مَنْ قَطَفْتَ مِنَ الْحَيَاةِ جَمَاهَا
مَهْلًا فَبَدْرُكَ لَا يَزَالُ بِأَفْقِهِ
بَدْرَانِ فِي الدُّنْيَا فَبَدْرٌ آفَلٌ

كُنَّا قِصَائِدَ مُبْدِعٍ خَضَعْتُ لَهُ
عَشْنَا جَمِيعًا قَبْضَةً دَانَتْ لَهَا
عَجَمْتُ يَدَ الْأَحْدَاثِ قُوَّةً وَدَهَا
وَلَسْرَبَ غَرَّ سُرْرَةَ فِي مَوْطِنِ
حَسَبِ اخْتِلَافِ الرَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا
دَعَهُمْ بِمَا حَلَمُوا فَإِنَّ صِبَاحَهُمْ
فَالْعِلْمُ بِحَجْرٍ وَالشَّرَائِعُ جَهَّةٌ
فَإِذَا اخْتَلَفْنَا فِي الْمَسَائِلِ صَدْفَةٌ

لَوْ كَانَ يُبْصَرُ عَاذِلٌ أَوْ يَسْمَعُ
بِمَنِيٍّ وَبَيْنَ الْحَامِلِينَ عَوَالِمُ
النَّاسِ تَمْشِي لِلْأَمَامِ تَقْدَمًا
وَأَشَدُّ مَا يُدْمِي الْفُؤَادَ بَأَنَّ تَرَى
فَإِذَا نَطَقْتَ فَأَنْتَ أَشْهَى لُقْمَةٍ
مَا حِيلَةَ الْمُضْطَرِّ ضَاقَ بِهِ الْفَضَا

أنا والحياة فأينا هو يصرعُ
وإن اكتويت وإن طوي البلقعُ
قد مات حياً من يخاف ويخنعُ
ولكل عبدٍ ذل أنفُ أجدعُ

*

وعلمتُ أنسك بالقوافي تسجعُ
ويفيض شهيداً كالزلال وينبعُ
منى لمن قد كنت منها ترضعُ
ونموت أفضل صادق ترعرعُ
أزهرت والأغصان روضاً ترعُ
وأزدهتهم إن الجزاء فربعُ

*

لم يبق في قوس الرماية منزعُ
فشربته حتى الشماله أكرعُ
فكانَ فجري في القيامة يطلعُ
وبه رجائي من ذنوبي أوسعُ
فإلى من المأوى ومن هو يشفعُ
راض بما يختار لي أو يصنعُ

سأواصل المسرى بعزم مُصارع
لا بد يوماً أن أنال مقاصدي
لا ينغي البطل المثابر يائساً
إن الحياة لمن يخوض غمارها

*

ولقد عرفتك فاضلاً متميزاً
ورأيتُ فيك الثبل ينبعُ صافياً
فقرأتُ فاتحة الكتاب هديّةً
فلقد رضعت الصدق من ألبانها
حتى إذا ما شب فرعك شامخاً
أعطيت أهلك كلما جادوا به

*

قف لي على الدرب الذي جاوزتهُ
آن الأوان وفاض كأسِي مُترعاً
كُلُّ له فجرٌ وليلي أيلُّ
أوكلتُ أمري للذي خلق السورى
إن كان يأخذ عبده بفعاله
إني تركت له الأمور كما يرى

أبو رشاد في حفل ذكراه (★)

الأستاذ (المرحوم) السيد جواد الصافي

ورغم موتك، إنا نلتقيك هنا
وأنت حي بمفور المني معنا
وبين أحباب آداب تفيض سنا
ولم يغيك عن ذكر إليك رنا
ورحت فيه تشق اللحد والكفنا
تحظي به، قد أعاد (الصادق) الفطنا
حفلاً بصحبك أضحي جنة وهنا
نكاد نلمحها خفاقةً علنا
في ميسم يتحدى للحياة عنا
وظالما يستعيد المرء طيب ثنا
آثار خير، فما أعمارهم لفنا
وأرخصوا عندها أرواحهم ثنا
والحفل لم يحل إلا في لذبيذ جنى

* * *

فلست تسمع إلا الحزن والشجنا
جهم الملامح يشكو الضعف والوهنا
ولا صداح بها من شادن وغنا
أصيلة الوقع، فيها الوقع قد هجنا
نشرأً بحجة تحوير لها ولنا
حتى أصيبت رؤى ألفاظها بونا
رأيتها لا ترى روحاً ولا بدنا

* * *

أبا رشاد وان غادرتنا زمنا
نراك ما بيننا في كل آونة
ما بين أصحاب علم شعّ موكبه
كأنما الموت لم يبعثك في حجب
فهل أزحت تراب القبر منتفضاً
أم أن معجزةً من (منطق) طلق
وعفت جنة عدن إذ رأيت هنا
فروحك الطهر قد رقت بحفلهم
ونصر البسمة السمحاء مشرقة
ويستعيدك طيب الذكر تكرمه
شأن العباقرة الأفذاذ إن تركوا
هاموا بدنياهم في كل مكرمة
لا يحمد المرء إن لم يبق ماثرة

*

أبا رشاد إذا ما رمت تسألنا
إني أنبيك ان الشعر منخزل
وأجدبت روضة الآداب من ثمر
وان قافية قد كنت تعهدنا
وقطعوها لأشلاء مبعثرة
وأرهبوها بأوهام مطلسمه
وجردوها من الابداع وهي إذا

*

أسمى ونفس تعالت في الحياة منى
لم يذكر اسم لها إلا بما اقتربنا
سكينة لا ترى إلا به سكننا
مراقم هي كانت في البيان قنا
يرى الوريقة في أسفاره غصنا
كرومها وتدنى رطبها ودنا
قطفاً ويستطعم الاضياف ما حسنا
ولم يمت من أحب الشعر والوطنا

يا صادق الأدب السامي بقافية
كانه والقسوا في توأمنا ولدا
تعلقت روحه في حب موطنه
وبالكتاب وبالقرطاس تسنده
ما دار كتب سوى حقل يعيش به
عرائش الفكر في جنبه قد عقدت
يختار من ثمرات فيه ما نضجت
فلم يغب (صادق) الآداب في جدث

١٩٩٥

دمعة (★)

الأستاذ (المرحوم) محمد حسين الشيبني

كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ رَجُلَ التَّزَامِ
بِأَنَّ الأَمْرَ يَدْعُو لاهْتِمَامِ
عَلَى مَا يَشْتَهُى عَيْثُ اللُّنَامِ
فَتَمَسَّسِي لِلسُّورَا لَا لِلأَمَامِ
يُذَافُ لَنَا بِمَعْسُولِ الكَلَامِ

*

*

رَحَلْتَ بِلَا وَدَاعٍ أَوْ سَلَامِ
وَلَا زَمْتَ الفَرَّاشَ وَلَسْتَ تَدْرِي
لِحَاهَا اللهُ دَنِيَا قَدْ تَمَشَّتْ
تُصَبِّحُنَا بِظُلْمِ إِثْرِ ظُلْمِ
وَتُسْمَعُنَا مَدَى الأَيَّامِ لَعَسَا

*

إِلَى المَشْتَفَى بِقَلْبِ مُسْتَضَامِ
أَنْتَ إِلَى الحَيَاةِ أَمْ الحِمَامِ؟
إِلَى أَهْلِي وَخُلَايَا سَلَامِي

*

*

قَبِيلَ المَوْتِ كُنْتُ إِلَيْكَ أَسْمَى
وَمَا هَالِكِي أَنْ لَسْتُ أَدْرِي
وَجَلَّتْكَ قَانِلًا لِي بَعْدَ صَمْتِ:

*

وَكَنْتُ بِهَمَا مَنَاطَ الاحْتِرَامِ
كَأَخْلَاقِ المِيَامِينِ الكَرَامِ
تُرْوِي الأَنْفُسَ الحَرَى الظَّوَامِي
قَصَائِدَ عَامِرَاتِ بِالمَرَامِ

*

*

وَأَيَّامِ ذَكَرْتُ بِهَا شَبَابِي
بِأَخْلَاقِ يَقلُّ لَهَا مَثِيلِ
تُسَالِينَا نَسْوَادِركَ اللُّوَابِي
وَنَسْمَعُ مِنْكَ فِي النَّدَوَاتِ دَوْمَا

*

سِوَاءِ فِي الحَلَالِ وَفِي الحَرَامِ
إِلَى أَخْرَاقِ مَحْمُودِ المَقَامِ

لَقَدْ وُلِّتْ مَاثَرْنَا وَأَضَحَّتْ
فَرُوحُ (يَا صَادِقُ) وَالمَوْتِ حَقُّ

دموع على ورق قديم (★)

الأستاذ السيد محمد رضا جعفر الحكيم

مَنْ كَانَ لُو يَنْطَقُ نُصْفِي سَكُوتٌ
وَمَنْ يَعْشُرُ بَيْنَ الْحِشَاءِ لَنْ يَمُوتَ
فِي الْيَمِّ حَيًّا بَيْنَ أَحْشَاءِ حَوْتٍ
مَنْ كَانَ لِلْإِبْدَاعِ زَادًا وَقُوتُ

*

تَرَاهُ فِي كُلِّ مَقَامٍ رَفِيعٍ
تَسْمَعُهُ مِنْ بَيْنِ صَوْتِ الْجَمِيعِ
مِيتَسَمِ الثَّغْرِ كَزَهْرِ الرَّيْبِ
وَإِنْ مَشَى لِلْمَجْدِ يَعْدُو سَرِيعِ

*

بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنَ الصَّالِحَاتِ
وَجِذْرُنَا أَعْمَقُ مِنْهُ ثِبَاتِ
وَمَا تَفَارَقْنَا سِوَى لِلصَّلَاةِ
كَيْفَ خَبِتَ نَارِكُ فِي الْخَالِكَاتِ

*

تَوَغَّلْ تَصْعِيدًا بِهَذَا الْفَضَاءِ
بِقَلْبِكَ الْأَوْسَعِ مِنْهَا فَنَاءِ
فَأَيْنَ تَعْلُو بَعْدَ أَسْمَى عِلاءِ
لِكُلِّ مَنْ قَدَّمَ خَيْرًا فَنَاءِ

*

وَكُنْتَ بَدْرًا تَمُّ فِيهِ الْكَمَالُ
وَلَيْسَ فِي عَزْمِكَ شَيْءٌ مَحَالُ
فَقُولْكَ الْفَصْلُ وَخَيْرُ الْمَقَالُ

لَا. لَمْ يَمُتْ. لَمَّا يَزُولُ. لَنْ يَمُوتَ
يَعِيشُ حَيًّا بَيْنَ أَحْشَاءِنَا
إِنَّ الَّذِي أَبْقَى نَبِيًّا لَهُ
قَدْ أَبْدَعَ الْخَالِقُ فِي صَادِقِ

*

لَا. لَا تَقْلُ مَاتَ. فَهَلْ مَيَّتَ
لَا. لَا تَقْلُ مَاتَ. فَهَلْ مَيَّتَ
لَا. لَا تَقْلُ مَاتَ. فَهَلْ مَيَّتَ
يَحْتِمَالُ كَالْفِصْنِ رَتِيبِ الْخُطَا

*

كَانَ لَنَا رَمْزًا لِهَذَا الْحَيَاةِ
أَيَامُنَا خَضِرٌ كَوَجْهِ النَّبَاتِ
يَجْمَعُنَا الشَّعْرُ عَلَى الْقَافِيَاتِ
يَا جِذْوَةَ الرُّشْدِ وَنُورَ الْهُدَاةِ

*

يَا رَاحِلًا لِلخَلْدِ تَطْوِي السَّمَاءِ
هَلْ ضَاقَتْ الدُّنْيَا عَلَى رَحْبِهَا
جَاوَزَتْ فِي نَبْلِكَ أَسْمَى عُلاءِ
حَسْبُكَ أَنْ الدَّهْرُ يَفْنَى وَمَا

*

كُنْتَ لَنَا شَمْسًا وَكُنْتَ الْهَلَالُ
كَانَ لَدَيْكَ الصَّعْبُ سَهْلُ الْمَنَالِ
إِنْ قُلْتَ. لَا يُؤْخَذُ فِيمَا يُقَالُ

(★) نظمت بمناسبة الذكرى السابعة لرحيل الشاعر.

وأنت رمزٌ للمعالي مثالٌ

*

يا صادق القول الأريب الأديبُ

وأسكتَ الليل والعندليبُ

صداؤه ما بين بعيد قريبُ

إلا لكسي يزرغ فجرٌ مهيبُ

*

أؤمن أن الروح لا تنفني

وتأبى في نسلك المؤمن

رقيقة الاحساس كالحسن

وعدت والفضل ثري غني

أنت على فضلك دلٌّ ودال

*

ناديتُ من قبل ناداني يُجيبُ

مَنْ ذا الذي أبعد عني الحبيب

أجابني صوت أليفٍ غريب

الشمس ما غابت وراء المغيب

*

لستُ حلولياً ولكنني

إني أرى روحك في أعيني

شفافة مثل شذى السوسن

من أحسن جنتٍ إلى أحسن

صادق الذكرى (*)

الأستاذ (المرحوم) الشيخ جميل حيدر

هو اجسنا من جهدكم تتناسل
واياكم فيها حديثنا نساجل
عليه زمان منكم ومنازل
مراسفها علّ لديكم وناهل
وجهر الشجي المبحوح غول مخاتل
كما تمّ بالأعماق للبحر ساحل
مرايع خصب بالجنى تنفائل
تقاتل غاباً عوسجته المدخائل
لذابت سجاياها وعزّ المقاتل

* *

لتسجيل عهد شيعته الفضائل
ويدرك ماذا أوهنته الفواصل
وهي الطرف منها فاشربأ التخابل
ولكنها بالضحل كانت تباهل
فأخفت مراياها لديها الأصائل
أهاج بي الطبع الذي يتغافل
تجدد طبع الماء فيما نحاول
وكف (الرضا) منها عليها دلائل

١٩٩٦

تمرون بالذكرى ونعلم انها
وتسمو بنا الرؤيا حضوراً كأننا
كأن افتراقاً للأعاجيب قد صحا
فيا صاحبي بالأمس ها نحن أكسوس
تدانت إليكم والظما يقدح الظما
لقد تم طيف الحب عنكم بروية
ورغم هجير الاحتطاب فانها
تقاتل لا تدري وتشعر انها
ولولا سجاياكم تقاتل بينها

*

فيا (صادق) الذكرى صدك إعادة
ألا ليت هذا الخيل يسمع صوتكم
وما أوهن الرؤيا سراب.. وانما
فما باهلت كنز الحقول بجنة
تداول منظار (الحدائثة) هجئة
فيا صاحبي عذراً وضعتك بالذي
فحاول فيما نستضيفك صحوة
بوجه (أياد) نستجدك صورة

(*) كتبت عام ١٩٩٦ وألقيت نيابة عن الشاعر في جلسة (ملتقى القاموسي الأدبي) بمناسبة الذكرى الثامنة لرحيله.

الناس بالأعمال تحيا (★)

الأستاذ السيد عبد الغني الحبوبي

ما مات. لا. مازال حيا ولذا أرى دمعي عصياً
 القلب يأبى ان صادقنا طواه القبر طياً
 فالجسم عطّره الترابُ وذكره يلقى ندياً
 عمر الرجال بذكرهم والناس بالأعمال تحيا
 الخالدون هم الألى يسعون للأخرى ملياً
 ما مات صادقنا سيبقى في مجالسنا رضياً
 مازلتُ اسمعُ شعرةً يلقيه فينا عاطفياً
 أو تارة شعراً يؤثر في عواطفنا شجياً
 قد كان يفعل سحره فينا ولا فعل الحمياً
 نصغي إليه محدثاً فيشدنا شداً قوياً
 كانت له الفصحى على طول المدى شعباً ورياً
 قاموسنا البحر المحيط يمدنا درأً نقياً
 كانت له الأخلاق لازمةً فلازمها مضياً
 خلق كأنسام الربيع يضوع من عبق شدياً
 أدبٌ كنبوع يسيل عذوبةً شينا فشيياً
 حباً يوزعه عطاءً في مجامعنا سخيياً
 الفكسر يعرفه ألم يك عنده أبداً صفيياً
 والعين مازالت تراه دائماً وجهاً بهياً
 * * *

ما مات لا مازال حياً مازال مجلسه ندياً
 يا صادق الودّ الذي قد عمنا حياً فحياً

(★) القيت في ندوة الغبان ببغداد بمناسبة مرور سبعة أيام على رحيل (القاموسي) ونشرت في مجلة الموسم

العدد ١٦/١٩٩٣.

لي روحك السمحاء طافت بيننا فلقاً وضيّاً
 فأنت لجلسنا هنا مشافقةً أدباً زكياً
 ليك كنت به بما يُرضسي حريّاً^(١)
 لك ما يرقُّ وما يروقُ ودمت باعته الحقيّاً
 يا صادق العهدِ استمع منا وشاركنا نحياً
 كل النفوس إليك ظمأى لا تكن عنا قصياً
 فهنا (أياد) هنا متى ما اشتقت مجلسهم فهياً
 هذي العواطف كلها ستظلُّ كنزاً سرمدياً
 هذي تحيتنا لمن في ظلّمة الأرماس حياً

١٩٨٨

(١) كذا في المطبوع. (الناشر).

القاموسي في مهرجان البرزخ (*)

الأديب (المرحوم) السيد محمد الأشبال

إضاءة:

تشتمل القصيدة على مقطعين:

المقطع الأول: (بيان وإعلان) عن لسان المرحوم الأستاذ صادق القاموسي، يذكر فيه أسماء أعلام الوفود الذين حضروا مهرجان البرزخ في وادي النجف.

المقطع الثاني: (مقارنة ساخنة) يشير فيها القاموسي - وبصراحته المعروفة - إلى طبيعة أهل عالم البرزخ، وطبيعة أهل عالم الدنيا.

والصادق القاموسي، مرهف الحس، شفاف النبض، خبير بهندسة حياتنا الأولى والثانية وهو أدري بشعائهما.

ومن مدرسته الأمينة على القيم الروحية استوحيت قصيدي المتشحة بنمط من عالم الخيال، والمتسمة بمزيج من العافية والهزال وقد خرجت بما عن المؤلف الذي اعتاده الشعراء في مثل هذه المناسبات (من ثناء ورتاء).

كما حرصت على ان يكون محتوى القصيدة من الفصحى والشعبية.

المقطع الأول

مهرجان البرزخ وحفلاته وعالم الأرواح أمسياته
(صادق اللهجه) استلم موجاته وگام يعلن نشرته الروحية

* * *

هنا باب هدى الناس وعلم المصطفى حيدر
هنا الأفضى هنا الأعلم بالدين وما بشر
هنا مرقد سر الله والعارف بالجواهر

(★) ألفت في ندوة آل الشعرباف ببغداد.

هنا الجنة والحوض هنا البرزخ والحشر
 موال (فج البلاغة) هنا تفاصيله
 وهنا (لسان العرب) يدوي أباقاويله
 وهنائة تورات موسى وعيسى إنجيله
 وهنا (أرسطو) و(ابن خلدون) تمثيله
 وفكر (الفارابي) يبت هنا مدليله
 وعقل (ابن سينه) او فلسفته وتحليله
 والعقري (مله صدره) هنا وغاليله
 وشعر (الرضي) و(الكميت) و(دعبل) وجيله
 ديوان (شاغل الدينه) هنا تاويله
 والفيلسوف (المعري) هنا غراييله
 ديوان (حيدر الحلبي) هنا تعاليله
 وهنا (محمد سعيد) اضوت قناديله
 و(جعفر الحلبي) أخذ دور بتراتيله
 و(الشاعر الكواز) لالأزري يفتيله
 و(عبد الحسين الأميني) هنا مباهيله
 (الحاج زاير) ل(ابن نصار) يحديله
 و(عبود غفله) يهدر شعره ومواويله
 آلاف من هالصنوف تحضر كل ليله
 كل فرد منهم لبس تاجه اوأكاليله
 ووسام (حيدر) عليها يلوگ تفصيله

مهرجان البرزخ وحفلاته وعالم الأرواح أمسياته
 (صادق اللهجه) استلم موجاته وگام يعلن نشرته الروحية

* * *

عالم الروح أثيرٌ وبدنيانا تكور

ومثالي وجوهر
لا ولا ذرة منكسر
وبدنياكم تمحور

*

*

كل ما فيه ملاك
لا أرى فيه شقاءً
انما الشر تجلى

*

لا نفاق ولا رياء يسوده
رحله من ماي الفرات وروده
مثل عيشة غابكم وقروده
وبالتفاهة افكاركم مشدوده
والحياة بداركم مؤوده
والقيم بنفوسكم مفكوده
وحنه عدنه المستححه أنشوده
وحنه أرباب الصدق وجنوده
وحنه جارائه بشرف مرصوده
والنساء بدنينكم معبوده
والأبي حايير يرگع جروده
ريجنه يجري بهوانه وجوده
وهذا طابعه وهاي شهوده

*

*

*

يجمع رواح البشر ليليه
بعد ما شافه وحضر ناديه

مهرجان البرزخ بدنيانه
نغم روعي يسحر بالأحانه
احنه متعيش الوحوش ويانه
بالتعيم افكارنه مليانه
بالحياة كلوبنه رتيانه
بالفضيله نفوسنه نشوانه
انتو عشاك الرگص والحانه
انتو رواد الجذب ولسانه
انتم الجاراتكم خوانه
عدكم الدينار بس اديانه
انتو كل اخباركم عربيانه
وحنه كل ما تشتهي السفانه
هذا عالم روحنه عنوانه

مهرجان البرزخ بوادي النجف
بي گلب (صادق القاموسي) نشغف

تحيّة (★)

الأستاذ: عبد الصاحب ناجي

وتغالب النسيان بالاصدا	ذكرى تنم عن الخلود بوحياها
حيث الذرى مزهوة الأرجاء	أسرت وكان الكبرياء دليلها
من رقّة التعبير والانشاء	سكرى بألوان العبير وما حوى
وكأنها ينبوع كل عطاء	فكأنها نجوى الحبيب حياها
بحنين ود عاطر الانداء	أثرت عواطف لم يحس شغافها
ما للأمايي الغرم من خيلاء	وسمت بهذا العنقوان يزينها
(١) من ثمار (الغابة العذراء)	كان الخلود ولم يزل يلقي عليها
فيما تعاطى من سنى وسناء	القأ سخى البوح قلّ نظيره
حفت بسر السيرة السلاّء	وقد ازدهت بخواطر ومشاعر
وهو الحري بمثل ذا الاطراء	لمن اعتلى قمم الزمان بشعره
لو كان عن أحبابه المتناهي	يتبوأ الأيام ليس يضيره
جلال يوم عدّ للأحياء	ميلاده السنوي أضفى هالة

١٩٩٥

(★) كتبت تحية للذكرى السابعة لرحيل القاموسي، وقد قدم لها كاتبها بقوله: (هذه الكلمات: حروف متواضعة في رحاب الذكرى العطرة التي تسمو بالحضور المدهش للأستاذ الشاعر محمد صادق القاموسي...).

(١) إشارة إلى محاضرة الأستاذ المؤمن (الغابة العذراء) المنشورة في موضع آخر. (الناشر)

التواريخ الشعرية:

١- تاريخ (*) للأستاذ (المرحوم) هادي محيي الخفاجي

ويح الردى في كل يوم لنا
ومدمع إن أحرست السن
يا حسرتا يمضي على رغبتنا
خلق كما مر نسيم الصبا
وإذ تراه بين إخوانه
يظن من فرط الصفا أنه
ينعاه للأدب تاريخه:

قلسب على أحيابنا خافق
قال الذي لم يقل الناطق
أبورشاد الشاعر الحاذق
وظلعة كأنها البارق
تقول هذا العاشق الوامق
قد صاغه من لطفه الخالق
(أصادق القول مضى صادق)

١٤٠٨هـ

٢- تاريخ للأستاذ السيد محمد حسين الصافي

أيا صادقاً في كريم الخصال
نذرت الحياة لدنيا النهي
جهالات دنيا تنكبتها
فقاموسك الفذ نج الرشاد
عشقت الكتاب فنادمته
فحين ارتويت دعوت العطاش
أقمت مناراً على ضفتيه
هنا منبع النور للسالكين
إذا الفخر بالحق أرخته

تسامى لتليية الخالق
فلذلت من متنها الشاهق
وفزت بمذهبك الرائق
ومشرفة الرائد الوثاق
وزدت على لوعة العاشق
إلى سلسل عذب دافق
يشع بكوكبه الشارق
هنا الري للظما الحارق
فحق لنا الفخر بالصادق

١٤٠٨هـ

(*) قرئت في جلسة (ندوة العبان) بمناسبة مرور سبعة أيام على رحيل الفقيد، ونشرتها مجلة الموسم العدد

١٦/١٩٩٣م.

٣- تاريخ للأستاذ (المرحوم) السيد جواد الصافي

غاب عن العيون في الرموس
تفوق ألف مصحف نفيس
أبهى من الأقمار والشموس
أنعم به من صادق أنيس
ما اجتمعت في أطيب النفوس
يفخر - زهواً - صادق القاموسي
١٤٠٨هـ

كم يذكر الميت فيحيى وان
ويقتدى بسيرة ربما
ويهتدى بفكرة فذة
أبو رشاد شاعر ناثر
علم وآداب وتقوى إذا
تفخر في الدارين أرخ (هنا

٤- تاريخ للأستاذ عبد الغني الحبوبي

خُلِقَ ما أرقه للنفوس!
طاب غرساً في طبيبات العُروس
كُلَّ آنٍ في رفعة وشموس
غاب كالشمس صادق القاموسي^(١)
١٩٨٩م

صادقاً كان رفعةً للرؤوس
شاعراً شعرةً معين زلال
ولذا ذكره جديداً حميداً
زاده الله أرخوه: كمالاً

٥- تاريخ لأحدهم

بالحب تنبض والحنان الدافق
ذعراً، فكان الدمع أبلغ ناطق
طبع على سحر البيان الرائق
مد حل عقد جهنم المتناسق
أجل وأتكله افتقاد الصادق
١٤٠٨

لله در أبي الرشاد فروحه
لا غرو ان عقد اللسان لفقده
فقد انطوت للفكر أروع صفحة
وقلائد الأدب الرفيع تناثرت
وعدا على الخلق المندى أرخوا

(١) زاده الله: إشارة إلى زيادة رقم (١) في التاريخ.

(الملحق)

يا شاعر النجف (★)

الأستاذ راضى مهدي السعيد

في مقلتي روى بمن سهوم
 ينوعه صوراً لمن رسوم
 متسر الخطوات ليس بريم
 في رملة المتوهجين نجوم
 خضراء لا تغتالهن هموم
 جف الضياء سنا ضحي ونسيم
 وضاف رايبة شذى وكسروم
 تروى ظما من حرقته كلوم
 محوي التراب وان جرى الخنوم
 للنور أو عقد به منظوم ..
 أتري شمس فجرهن عقيم
 وبرود من فوق النجوم يفيم
 فكأنني قلب حواه جحيم
 روحي وتعصف في دماي سموم
 ممن بهم نزلت - تلف - رجوم
 من كان ينطقه الصدى المكتوم
 فاذا به هو ملهم موسوم
 قال النشيد فؤاده منهموم
 بالشعر في دمهم صدى منعموم
 ان الذي قد أهمته نشيده السديا فم دامى اللظى محموم

* * *

أقصر عتابك فالعتاب اليم

حامت - وأجنحة الخيال تحوم -
 وبمن ما يهب النشيد إذا جرى
 وملاحم يقف الزمان حيالها
 يا شاطئي الاصداء إن قوافلي
 وسفائني في أبحر الدنيا منى
 ومطالعي في عالم المسرى إذا
 وعرائشي في كل مغرس واحة
 ومناهلي في المهاجرات هواتف
 يا شاطئي الاصداء لن يقوى على
 فيكل عرق من عروقي دفقة
 من أين تمسكني الرياح لتقتفي
 ابني للمتحف مطارف (عقبر)
 شفتاي تحترقان من ظمأ الرؤى
 أبداً أزم قمي لكي لا تلتظي
 حال أعيش بها كأني واحد
 ولعلها الحال التي يجيا بها
 ويصب في شفتيه أنضُر أحرف
 يا شاطئي الأصداء، ما كل امرئ
 كلا ولا كل السذين ترغسوا
 ان الذي قد أهمته نشيده

يا شاعر النجف الذي بك يزدهى

ما كان (ورد عكاظ) ينكر نفحة

للطيب وهو - كما علمت - شميم^(١)

أو انه ينسى فماً أصداؤه
وهو الذي صاغ القوافي ذاتياً
لكنما الأيام تحجب كل من
أو يستيح ذماره وهو الذي
هو منك أقرب ما يكون وإن نأى
ولربما ذو الشوق يشعر انه
* * *

أكرمتي فضلاً - وأنت كريم -
يا مبحراً بالشمس لا تصمت بما
وتحن للفجر الضحوك وربما
يا شاعر النجف الذي ارتفعت به
وتنور الفكر المعز حضارة
اني نثرت على دروبك أنجمي
هيهات حقلني أن يلونه السننا
وظلال روحك عن صداي بعيدة
اني رأيتك بين ألف مرثم
ما كان صوت الشعر وهماً في الدنا
والفضل عند ذوي الوفاء يدوم
فالشمس بالبحر الطروب قميم
قد عبست ان تحتضنه غيوم
رايات مجد الشعر وهو قديم
وزهت على مر العصور علوم
ونشرت أشرعتي فرف نعيم
وقل في أفقي الجديب نجوم
وصدى نشيدك عن فمي محتوم
شفة بها يتضوع الترثيم
بل ان صوت نعاته موهوم

١٩٦٨

(١) ورد عكاظ: يقصد به الدكتور المرحوم السيد عبد الأمير الورد عضو ندوة عكاظ...

محفلة عطر (★)

الأستاذ راضى مهدي السعيد

فلم نعد نتملى طلعة السحر
لنا البشائر في أت ومنتظر
همودنا ثوب صمت غير منحسر
وما أذلك من زرع ومن ثمر
مجامر من هوى بالشوق مستعر
أعراس عالمنا الموعود بالظفر

* * *

دم جديد وعرق لاهب الشرر
بالأدعياء وبالناعين في الخطر
لغابر من زمان مشرق الصور
فزودنا بما يكفي من العبر
وعاكتنا رياح الليل والقدر
ونجمنا نام في الأغوار واخفر
كانه لم يعد ينمى إلى الشجر

* * *

فكن على الأرض خطواً ثابت الأثر
من الأماني ومزق ظلمة الكدر
بالصبر. والصبر زاد الوائب الخدر
لكن لي في حياتي ألف معتبر
قد لا يسر أحياناً لي ربع من خبري
مطيتي في دجى هي ومعتكري

مشت بنا ألف هوجاء من الكدر
ولم نعد نرقب الأيام حاملة
حتى البقايا من الأشواق ألبها
يا طينة الأرض ما أقساك من حجر
خبث عيون لها عشنا وفي دمنا
وغاض نبع على واحاته نزلت

هنا. تمزق حس كان يحمله
هنا على هذه الأرض التي امتحنت
هنا. وليس هنا إلا صدى عبث
يا أمنا والليالي كلها عبر
فقد أضعنا مراسينا وأجرنا
شراعنا بيد الملاح منكس
وظلنا في هجير الرمل معتصر

لعل ما في الليالي غير منتظر
وسابق الريح واحمل ألف يانعة
وقل لليل الهموم السود معتصماً
اني من الناس في عيشي ومنتسبي
وان لي في مصريي ألف مقتحم
بلوت دنياي حتى كدت أجعلها

(★) ألفت في الجلسة التي عقدها (القاموسي) في داره ببغداد تكريماً لصديقه شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري بمناسبة عودته إلى الوطن ١٩٦٩م.

أعيشها ظامئ الأعماق في عمري
برغم كل انطفاء فرحة البشر

* * *

مني وان لم يزل يشدو بها وتري
في شاطئ الزمن الموقود بالفكر؟
في كل رايحة مزهوة الثمر؟
منصر الروح لا يسرى على صعر
سيل من القول محشود بكل زري
أصداؤه تتخطى موكب العصر
من روحه وهجا ما جف في السفر
ورب قول أتى والروح في خدر
وليس حولك إلا كل معتمر
هي الزمان بما ضمت من الصور
(أبو الفرات) نبي الشعر والغرر
فيا لفرحة هذي المدار بالقمر
أن يمنح الدهر ذكراً غير مندثر
وبليس الناس جيباً غير مفتقر
من طيب ما فيه يندى جد معتصر
شعابها في ثنايا محفل عطر
تنمى إليه القوافي حرة الدرر
أعنة الشعر مذ كان المقام (غري)
في كل حرف جرى من نبعه النضر
كانه دققات الخصب في المطر
جناحه الخضل المانوس بالسهر
ما فوقنا وأرانا الشمس في السحر

ما كان لي غير أشواقى وغير رؤى
زاد إلى عالم ضمت شواطئه

ماذا تقول القوافي وهي شاردة
أتوقد النجم أشواقاً لتزرعها
أم تحمل الشمس في كف لتبتها
(أبا رشاد) وفي دنياك ألف صدى
ولا يظاف على سمع يرن به
أريتنا اليوم ان الحرف ما برحت
وان (عملافه) ما زال يطعمه
أقولها غير مهوور ومنفعل
أحلى من العمر يوم أنت تشهده
وساعة أنت نحياها فتحسبها
(أبا رشاد) وما قد عباد ثانية
وعمر المدار أعراساً بمقدمه
(أبا رشاد) وحسب المدار مفخرة
ويطعم الأرض حيا غير منطفئ
(أبا رشاد) لعلني قائل وفمي
اليوم تبصر عيني أعصراً جمعت
أقمته أنت تكرمياً لنايغة
أبي الفرات الذي انقادت لأبحره
يوم رأيت به الدنيا مصورة
وكل هاجسة تختص في دمه
لو كان يعلم ليل ضم محفلنا
لمد ألف رواق من كواكبه

وراح يسقي كزوس الشوق من فرح

شفاهنا الملهمات الطير في السمر

من المموم ولا حبلأ من الضجر
تعيأ أجنة دنيا ذات مزدهر
من الخيال الذي قد شفه وتري
بروحه فوق أرض مرة العير
مزروعة بظلال الخوف والحذر
لكنها تحتفي في ألف مستتر
وأفسأ تنهاوي فوق منحدر
ان لا تكون سوى درب إلى الضرر

* * *

من طيه حلت الأيام من قدر
ما لا يهون على حسر ومصطر
ولو مشينا على بحر من الخطر
من الظلام ونجماً مطلقاً البصر
وأعيناً سلبت حتى من النظر
هنا. وقد عاد فينا عود منتصر
ظلال دنيا بما الظلماء لم تدر

١٩٦٩

(أبا رشاد) وليس العمر مركبة
لكنه ومضات في عوامها
أقول والنفس في عرس وملتمع
انا الذي يحمل الأشواق معترباً
ويشرب الصبر أماراً شواطئها
(أبا رشاد) وعندي ألف لاهبة
أرى عيوناً عليها الطين ملتصق
وللطباع حالات وأعجبها

يا نبعة (النجم الزاكي) ويا نفساً
في كل يوم تريننا من غوائلها
لكن بما تدفع البلوى ندافعها
(أبا رشاد) وكان الأمس أشرعة
عشنا لياليه أكباداً ممزقة
واليوم والمبحر العملاق يجمعنا
فلنزرع الأرض أشواقاً لنشربها

عواطف (*)

الأستاذ (المرحوم) عبد الغني الخليلي

يا أبا القلب صافياً وندياً بالمودات مثقلاً بالعذاب
وأخا الشعر ما هديل حمام منه أشجى ولا حنين رباب
وأخا الكأس خمراً من مجاني الفكر، لا همر كرمة وخواري
وأخا اللحن مبدعاً في تغنيته لأهل الهوى ليليل التصايي
وأخا الليل يستحث خطاه الفجرُ شوقاً لفضلة الأكواب
بليالي الصبا، وبالحب طفلاً ويشوق إلى عهد الشباب
جدد الذكريات تندى بكأس من رحيق الهوى ونجوى العتاب
يا أبا الشعر لا أحاييك أي مغرمٌ والحب من لا يحايي
أنا عود الهوى وناي الصبايات وشدو الطيور فوق الروابي
أنا ذاك الغني كل ثرائي وادخاري عواطف الأحباب
إن بيّتي وأهل بيّتي ليرجون لقاءً وما بهم مثل ما بي
غلب الشوق والحنين عليهم فعلى الدرب عينهم والباب

١٩٦٤

(*) أرسلها إلى (القاموسي) ونشرتها جريدة (كل شيء) في حينه.

مع أحنينا (أبي رشاد) في رزئه (★)

الأستاذ السيد عبد الغني الحبوبي

هل سوى الصبر قاتلاً من بديل!	تنأسى عند المصاب الجليل
من بقاء مُعَطَّر معسول	المنى تستحشنا لمزيد
ما لنا غير طبعها من سبيل	ولطبع الحياة فينا اعتساف
وجه شمْطاءً في تحكّم غول	والذي يعبر الحياة يراها
قد رضينا من الهنا بالقليل	فلفرط الأهوال والتهويل
فدوام الهنا من المستحيل	وهنانا فيها يدومُ لماماً
نحسب الكون أيّ ظلّ ظليل	نحن بينا يضمننا البشر حتى
أو طليق من قيد همّ ثقيل	أو كهفات شمال وقبول
وإذا بالطلق كالغالول	وإذا بالعواصف الهوج تترى
من فراق لصاحب وخليل!!	أيّ قيد أقسى على النفس وقعا
عاد جرحاً لما انتهى لرحيل	وحبيب للقلب كان ضماداً
وبدور قد آذنتُ بأقول	من شمس كانت تنيرُ دجانا
من فراق لزوجة هي نبع الحبّ يسمو،	من فراق لزوجة هي نبع الحبّ يسمو،
طوال عهد طويل	طوال عهد طويل
من حنان، ومن عطاء جزيل	من حنان، ومن عطاء جزيل
صار بالموت كالخيال الهزيل	صار بالموت كالخيال الهزيل
بعزير بين الضلوع نزيل	بعزير بين الضلوع نزيل
وقليل يُنسى بصبر جميل	وقليل يُنسى بصبر جميل

* * *

إنّ خير الثواب تعرفه أنت، فلسنا في معرض للأصول
نحن في حاجة لذلك فأنّا من أحنيد للرزء أو مدهول
أنت تسدي الرشاد والتّصح للناس، وتأتي بالمنطق المعقول
جمعنا وشائج ساميات باقيات جيلاً لجيل لجيل

مع أحنيا (أبي رشاد) في رزنه
عبد الغني الحبوبي

أنت أدري بما يحيش ويطغى
ضمّد الله للقلوب كلوماً
في قلوب كليمّة وعقول
ناغرات بلطفه المأمول

١٩٨٧

المحتويات

الموضوع	صفحة
دراسات ومقالات ورسائل	٧
بين يدي الذكرى: صادق القاموسي من المولد حتى الرحيل:	
محمد رضا القاموسي	٩
كلمة في أخ راحل:	٣١
الدكتور (المرحوم) حسين علي محفوظ	٣١
صادق القاموسي الصديق الودود:	٣٣
الدكتور (المرحوم) حسين علي محفوظ	٣٣
ذكرياتي مع المرحوم صادق القاموسي:	٣٥
الدكتور السيد محمد بحر العلوم	٣٥
القاموسي من خلال نشاطه في جمعية منتدى النشر:	
الدكتور محمود الشيخ محمد حسن المنظفر	٤٩
من ذكرياتي مع الأستاذ القاموسي:	٦٠
الأستاذ سالم الألوسي	٦٠
قراءة في شعر صادق القاموسي:	٦٢
الدكتور نعمة رحيم العزاوي	٦٢
أبو رشاد والوجه الآخر:	٦٦
الدكتور (المرحوم) صالح الظالمي	٦٦
أروع مراثية للقاموسي في الوائلي:	
الأستاذ (المرحوم) السيد عبد الغفار الحبوبي	٧٠
كلمة وفاء ودمعة اخاء في ذكرى الشيخ القاموسي:	
الأستاذ عبد الحميد الرشودي	٧٤
الغابة العذراء:	٧٦
الأستاذ السيد حامد المؤمن	٧٦
صادق القاموسي سيرة في الذاكرة:	
الأستاذ (المرحوم) محمد السيد موسى الجصاني	١٠٨
القاموسي في ذكراه السنوية الأولى:	١١٢
الأستاذ (المرحوم) محمد حسين الشيبلي	١١٢
الملامح الرئيسية في شعر القاموسي:	١١٦
الدكتور قيس كاظم الجنابي	١١٦

- صادق القاموسي الشاعر والانسان: الأستاذ محمد جواد الغبان ١٢٥
- مع ديوان القاموسي: الأستاذ (المرحوم) السيد عبد المحسن الحكيم ١٣٠
- في تأييد المرحوم الأستاذ صادق القاموسي: الدكتور (المرحوم) خالد العزّي ١٣٧
- الحب والتجربة الواقعية بحث في شعر صادق القاموسي:
- الأستاذ (المرحوم) السيد هاشم الطالقاني ١٣٩
- صادق القاموسي من تدريس المنطق واحتراف العمل الحر إلى الموقف
- الشعرية المترنة: الأستاذ مهدي شاكر العبيدي ١٤٨
- الظواهر الفنية في شعر صادق القاموسي: الأستاذ مازن داود الربيعي ١٥٢
- القاموسي فذ في الذاكرة: الأستاذ (المرحوم) عباس علي ١٦٨
- ذكرى القاموسي الشاعر: الأستاذ السيد عبد الحسين الرفيعي ١٧٤
- فتى الآداب في رثاء العالم الأديب الأستاذ صادق القاموسي:
- الأستاذ (المرحوم) طارق الخالصي ١٧٦
- قراءة في ديوان الشاعر صادق القاموسي: الأستاذ أحمد زكي الأنباري ١٧٩
- الغائب الحاضر: الأستاذ (المرحوم) السيد شاكر جابر البغدادي ١٨٢
- صادق القاموسي الشاعر الحالم: الأستاذ السيد حامد المؤمن ١٨٥
- القاموسي كتباً: الأستاذ معن حمدان علي ٢١٤
- القاموسي وذكريات لاتنسى: الأستاذ جليل حمود شعبان ٢١٧
- صادق القاموسي في لوحة الشرف: الأستاذ عبود الطفيلي ٢٢٠
- صادق القاموسي وهاجس التحديث: الدكتور عبد الاله الصانع ٢٢٣
- الانسان الذي دخل قلبي: الأستاذ جميل الجبوري ٢٣٤
- رسالة: الأستاذ (المرحوم) عبد القادر البراك ٢٣٥
- تعزية في رسالة: الأستاذ (المرحوم) حسن عبد الأمير مهدي ٢٣٦

القصاصاند

- ٢٣٧ وقففة على قبر أبي رشاد:
- ٢٣٩ الدكتور (المرحوم) الشيخ أحمد الوائلي: أبا رشاد:
- ٢٤٢ الدكتور (المرحوم) صالح الظالمي: خيال الشجن:
- ٢٤٤ الأستاذ (المرحوم) الشيخ جميل حيدر: رفيق الصبا:
- ٢٤٧ الأستاذ محمد حسين المختصر: على هامش الذكرى:
- ٢٥٠ الأستاذ (المرحوم) عبد الرسول الجشي: يا أبا الود:
- ٢٥٢ الأستاذ راضي مهدي السعيد: دموع الشعر على صديق العمر:
- ٢٥٤ الأستاذ محمد جواد الغبان: روضة الشعر:
- ٢٥٨ الدكتور محمد حسين آل ياسين: للذكرى فقط:
- ٢٦٠ الأستاذ (المرحوم) ضياء الدين الخاقاني: نداء الوفاء:
- ٢٦٢ الأستاذ (المرحوم) السيد عبد الغفار الحبوبي: ففخرنا بمذهب الصادق:
- ٢٦٤ الأستاذ السيد محمد حسين الصافي: يا صادق الود:
- ٢٦٥ الأستاذ السيد عبد الغني الحبوبي: مرثية الموت:
- ٢٦٨ الأستاذ محمد حسين محمد كاظم الطريحي: من وحي الديوان:
- ٢٧٠ الأستاذ أحمد حميد الكربلائي: سيرة ذاتية في حديث شعري:
- ٢٧٢ الأستاذ (المرحوم) الشيخ جميل حيدر: سلاماً أيها النبع:
- ٢٧٦ الأستاذ راضي مهدي السعيد: غيض من اللطف:
- ٢٧٨ الأستاذ السيد علي الحيدري: أبا الرشاد:
- ٢٨١ الأستاذ السيد عبد الغني الحبوبي: دمعة وفاء:
- ٢٨٣ الأستاذ محمد جواد الغبان: ذكراك تُنشد:
- ٢٨٦ الأستاذ السيد محمد رضا جعفر الحكيم: أبو رشاد في حفل ذكراه:
- ٢٨٨ الأستاذ (المرحوم) السيد جواد الصافي: دمعة:
- ٢٩٠ الأستاذ (المرحوم) محمد حسين الشبيبي:

- دموغ على ورق قديم: الأستاذ السيد محمد رضا جعفر الحكيم ٢٩١
 صادق الذكرى: الأستاذ (المرحوم) الشيخ جميل حيدر ٢٩٣
 الناس بالأعمال تحيا: الأستاذ السيد عبد الغني الحبوبي ٢٩٤
 القاموسي في مهرجان البرزخ: الأديب (المرحوم) السيد محمد الأشبال ٢٩٦
 تحية: الأستاذ عبد الصاحب ناجي ٢٩٩

التواريخ الشعرية

- ٣٠٠
 ٣٠٠ ١- الأستاذ (المرحوم) هادي محيي الحفاجي
 ٣٠٠ ٢- الأستاذ السيد محمد حسين الصافي
 ٣٠١ ٣- الأستاذ (المرحوم) السيد جواد الصافي
 ٣٠١ ٤- الأستاذ السيد عبد الغني الحبوبي
 ٣٠١ ٥- أحدهم

الملحق

- ٣٠٣ يا شاعر النجف:
 ٣٠٥ الأستاذ راضي مهدي السعيد
 ٣٠٧ حفل عطر:
 ٣١٠ عواطف:
 ٣١١ مع أختنا أبي رشاد في رزقه:
 ٣١٣ محتويات الكتاب